الإمام جعفر الصادق

عبد الحليم الجندي

دار المعارف

المستشار عبد الحليم الجندى

الرئيس السابق لإدارة قضايا الحكومة

الجمهورية العربية المتحدة

رئيس لجنة الفكر الإسلامى — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة

عضو مجلس البحوث الإسلامية — بالأزهـــر

عضو مركز الدراسات الإسلامية — جامعة القاهرة

عضو مجمع الفقه الإسلامى — المؤتمر الإسلامى (جدة)

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كان من المنطق أن يظهر هذا الكتاب قبل - أو مع - كتابنا « أبى حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » (سنة ١٩٤٥ م) أو كتاب « مالك ابن أنس » . فلقد تتلمذ أبو حنيفة ومالك للإمام الصادق ، وتأثرا كثيرًا به ، سواء فى الفقه أو فى الطريقة . ومالك شيخ الشافعى . والشافعى يدلى إلى أبناء النبى ﷺ بأسباب من العلم والدم . وقد تتلمذ له أحمد بن حنبل سنوات عشرة . فهؤلاء أئمة أهل السنة الأربعة ، تلاميذ مباشرون أو غير مباشرين للإمام الصادق .

غير أن تعاقب الأئمة الأربعة لأهل السنة . وتقارب مذاهبهم فى تعبيرها عن فقه « أهل السنة » ، دفعا إلى وجه آخر . فظهرت كتبنا عنهم بين سنتى ١٩٤٥ ، ١٩٧٠ للميلاد .

وإلى ذلك فقد تأكد فى كتابنا « توحيد الأمة العربية » (سنة ١٩٦٥ م) أن « وحدة القاعدة القانونية » هى الطريقة المثلى لربط المسلمين ، فى شتى أقطارهم ، بتشريع إسلامى شامل . تضؤل دونه التشريعات المعاصرة فى الغرب أو فى الشرق . والفقه « الشيعى » واحد من النهرين اللذين تسقى منهما حضارة أهل الإسلام . وإليه لجأ الشارع المصرى فى هذا القرن لإجراء إصلاحات ذات بال فى نظم الأسرة المصرية .

والإمام جعفر الصادق يقف شامخًا فى قمة فقه أهل بيت النبى عليه الصلاة والسلام . هو فى الفقة إمام . وحياته للمسلمين إمام . والمسلمون اليوم يلتمسون فى كنوزهم الذاتية مصادر أصيلة للنهضة ، مسلّمة غير مخلطة ولا مستوردة .

هو الإمام الوحيد من « أهل البيت » الذى أتيحت له إمامة دامت أكثر من ثلث قرن ، تمحّض فيها مجلسه للعلم ، دون أن يمدّ عينيه إلى السلطة فى أيدى الملوك . وبهذا التخصص سلّم الأمة مفاتح العلم النبوى .

ومنه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علمى عام للفكر الإسلامى . نقلته أمم الغرب فبلغت به مبالغها الحالية . وعمل به بين يديه ، ثم أعلنه ، تلميذه جابر ابن حيان أول كيمائى كما تبايع له « أوروبة الحديثة » ، وهو « منهج التجربة والاستخلاص » ، أى الاعتبار بالواقع وتحكيم العقل ، مع النزاهة العلمية .

فالإمام الصادق هو فاتح العلم الفكرى الجديد ، بالمنهج العقلانى والتجريبى ، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين .

والإمام الصادق هو الإمام الوحيد فى التاريخ الإسلامى ، والعالم الوحيد فى التاريخ العالمى ، الذى قامت على أسس مبادئه « الدينية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية » دول عظمى .

ومصر تذكر منها أكبر دولة عرفها التاريخ فيها من عهد الفراعنة – الدولة الفاطمية – التى امتد سلطانها من المحيط الأطلسى إلى برزخ السويس . ولولا هزيمة جيوشها أمام الأتراك لخفقت أعلامها على جبال الهملايا فى وسط آسيا .

والعالم كله مدين لها بمدينة « القاهرة » .

والمسلمون يدينون لها بالجامع الأزهر ، الذى حفظ القرآن والسنة واللغة العربية ، وعلومها كافة ، ويدينون لتعاليم الإمام بقيام دولة كبيرة فى إيران . ومجتمع عظيم بالعراق . ومعاهد علمية يتصدرها النجف الأشرف ، وشعوب قوية فى الهند وباكستان واليمن وأفغانستان ووسط آسيا ولبنان وسورية وكثير سواها .

وهو الإمام الذى علّم بالمواقف التى وقفها ، قدر ما علّم بالمبادئ التى أرساها . فالمواقف أعمال . وهى أعلى صوتاً من الأقوال . ولقد يعدل الموقف الواحد جهاد عمر كامل ، أو مهمة حياة رجل .

وهو ، بمكانه من « أهل البيت » . وحقه فى الخلافة ، وإمامته للفقهاء بلا استثناء ، كان غرضًا يطلبه أعظم خلفاء بنى العباس ليضيفه إلى قوائم القتلى من صناديد القواد ، أو الشهداء من « أهل البيت » .

وكان درسًا من السماء أن يسيطر الإمام على الميزان إذ يلتقيان ، فيضعف الطالب عن المطلوب ، ويرتفع الإمام الصادق بالخليفة القاتل إلى مستوى الحاكم العادل .

* * *

والمستقبليون الذين يتكلمون اليوم عن الأخذ بأسباب النهضة العلمية ، كمثل السياسيين الذين لا يرون النهضة بالغة شأوها إلّا أن تكون شاملة لأمور الدين والدنيا – هؤلاء وأولاء ، بحاجة إلى أن يظهروا على حياة الإمام الصادق ، ليروا مقدار ما تفلح الدعوة الصادقة بالمبادئ الصحيحة ، والخطط المنجحة ، فى إقامة دول ، ومجتمعات ، قوامها الدين والعلم والعدل والاقتصاد العصرى .

وكمثلهم دعاة الإصلاح الذين يمثلهم الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر فى النصف الأوّل من هذا القرن عندما قال : « إن الأمم ليست بكثرة أفرادها وعديدها ولكن بروحها وإيمانها وخلقها . ولعمرى إن سبيل ذلك لهو العلم » – وقال « إن كل إصلاح لا يقوم على أساس تقوية الروح الدينى فى الأمة لا بقاء له . ولا خير فيه . وإذا قلت الروح الدينى فإنما أريد الأخذ العملى بالشريعة عن إيمان وثقة . لا أن نكتفى بما ينص عليه الدستور من أن دين الدولة هو الإسلام . ثم نكون فى أكثر أحوالنا وتشريعاتنا وأخلاقنا على خلاف ما يأمر به الإسلام وينهى عنه الإسلام » .

والله نحمد : لقد غيرت مصر فى سنة ١٩٧١ دستورها الذى أشار الشيخ إليه . ونصت على أن « الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسى للتشريع » وهى دعوة صادقة لتقوم القوانين المطبقة جميعًا على أساس الشريعة .

* * *

وبعد : فالكتاب الحالى يبلغ غرضه إذا كان صوتًا يدعو إلى الوحدة . والمسلمون تجمعهم أصول فكرية واحدة ، وإن اختلفت الفروع أو تعددت الآراء . وفى تعدد الآراء ثراء . ولما عرض تلميذ لأحمد بن حنبل تسمية كتاب له « كتاب الاختلاف » قال له « سمه كتاب السعة » .

ألا : وإنه لا صلاح للمسلمين والعرب اليوم فى مواجهة التحدى العالمى إلا بالوحدة .

والعالم الغربى الذى تهز الأفكار المادية والإلحادية عقائده ، ويزعزع الرعب النووى اطمئنانه ، بحاجة إلى مبادئ الإسلام ، وعرض شريعته علميا ، كهيئة ما عرضها الإمام الصادق على الملاحدة فى عصره فكانوا يسلمون . وكمثل ما علّم تلاميذه ومعاصريه قواعد العلم والفقه والاقتصاد التى تكفل للمسلمين النماء الفكرى والاجتماعى و الاقتصادى .

والعالم الغربى ، الذى يحسب للعالم الإسلامى حساب الطاقة التى خزنتها السماء فى الأرض الإسلامية ، التى جعلها الله مقرًّا لبيته العتيق ، وحساب المعادن التى تعكس الأقمار الصناعية لمعانها وإشراقها كلما صورت أرض العرب ، هذا العالم الغربى الذى جمعته الحروب الصليبية فى مقابلة العالم الإسلامى ، والذى خططت حدوده الحالية حروب ومعاهدات دينية ، وازدهرت قاراته الجديدة بعد هجرات تجرى فى جذورها النوازع الدينية ، هذا العالم الغربى جدير بأن يواجهه المسلمون كالبنيان المرصوص ، لا كهيئة الحجارة المتناثرة ، قد بعثرتها فى مهاب الرياح الأربعة أمم غلبت عليها بالقوة ، من الخارج ، وبالتخلف الاجتماعى والعسكرى والاختلاف الدينى فى الداخل .

والمسلمون اليوم لا يتنازعون سلطة كما كان الأقدمون منهم يتنازعون من أجل السلطة . وإنما يتنازع غيرهم السلطة عليهم .

وهم اليوم لا يتقاسمون القوّة وإنما يتقاسمون الضعف المادى ، فى حين يختزنون القيم العليا للتقدم ، والقوى التى تحصى وتعد . فحيثما ابتغوا الوسيلة وجدوا نصر الله .

ويوم توجد فينا إرادة الانتصار سننتصر .

والله متم نوره .

* * *

حياة الإمام تنقسم فى ترجمتها قسمين : الأول عن الرجل ، والثانى عن علمه . وعلى ذلك وردت الصورة التى صورنا فيها هذه الحياة فى قسمين . كل منهما فى ثلاثة أبواب .

القسم الأول : يدور حول ظهور الإسلام وتألق « علىّ » وأولاده من « فاطمة الزهراء » فى الصدارة من الأشخاص والأحداث ، والبيئة التى نتج فيها الإمام الصادق . فتعاونت على إعداده ظروف الوفاء ، أو العداء ، لأهل البيت ، لتهيئ منه إمامًا خصيصته تعليم العلم الذى تلقاه عن جديه ، وطريقته الأسوة الحسنة فى أعمال حياته ، وتحمل التبعات حيث تزوغ الأبصار .

والقسم الثانى : من الكتاب يعرض تصوّر المؤلف للعلم الذى علمه الإمام ، والمدرسة التى أنتجته ، والمنهج العلمى ، العالمى ، الذى أخذ به العلماء الدينيون والفقهيون ، والرياضيون والفلكيون والكيمائيون وعلماء الطبيعة الإسلاميون ، ونقله عنهم رياضيو العصور الوسيطة فى أوربة ، ليصير « منهج التجربة والاستخلاص » الذى يعمل به الفكر المعاصر ، بعد إذ ترجم من العربية فى جنوب فرنسا وأسبانيا وصقلية وسواها من جامعات أوروبة ، وسبق إلى التنويه به « روجير بيكون » ثم نسب إلى « فرنسيس بيكون » بعد ثلاثة قرون - وكذلك المنهج السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى أقام الدول العظمى والمجتمعات الإسلامية التى يباهى بها المسلمون فى العصر الوسيط وفى العصور الحديثة .

وفى هذا القسم باب أخير تبدو فيه عدالة التاريخ مصححّة لانحراف الأعداء وافتياتهم على أبناء علىّ . كما يظهر فيه نصر الله للمسلمين إذ يتحدون .

والله نسأل أن يقينا الزلل .

القســم الأول

الباب الأوّل : ظهور الإسلام .
الباب الثاني : بين السلطان والإمام .
الباب الثالث : إمام المسلمين .

البَـابُ الأولـ

ظهور الإسلام

« لأعطين الراية غدًا رجلاً
يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله
ورسوله . ليس بفرّار . يفتح الله
عز وجل على يديه » .

« حديث شريف »

ظهور الإسلام

الإمام جعفر الصادق نتاج قرن كامل من العظائم . يحنى لها الوجود البشرى هاماته . ويدين بحضاراته . على رأسها نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام . وفيها بطولات الإمام علىّ إلى جوار النبى ، وأثرها فى ظهور الإسلام ، ومشاركته فى إبان خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه . وآيات نبوغه وتبريزه فى السياسة والإدارة والقضاء والفقه والتشريع والبيان العربى والعلم بوجه عام . وإجلال جميع المسلمين لمكانته والتفاف شيعته حوله وتفضيلهم له على سائر الخلفاء الراشدين .

ثم قيام الفتنة فى أخريات خلافة عثمان واغتياله وبيعة المسلمين لعلىّ ، وخروج معاوية عليهم بأهل الشام ، وقيام الحرب بين أمير المؤمنين وبين جيش معاوية ، وخروج الخوارج واغتيال علىّ ، والبيعة لابنه الحسن . ثم تصالح الحسن ومعاوية حقنا للدماء . واستقرار الأمور للأخير نحو عشرين عاما .

ولما آلت الأمور إلى ابنه يزيد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء ، حيث استشهد الحسين بن علىّ أبو الشهداء . وأعقبتها وقعة الحرة ، حيث سفك دم الصحابة والتابعين ، ثم ضربت جيوشه الكعبة بالمنجنيق ومات وجيوشه تضرب الكعبة . فتولى بعده ابنه معاوية ، فتنازل عن الخلافة . وولى بنو أمية مروان بن الحكم وتتابع بعده بنوه .

أما أبناء الحسين فتتابعوا على حمل هموم المسلمين وإعلاء كلمة الدين والقيام فى الأمة مقام جدّهم الإمام « علىّ بن أبى طالب » والنهوض بتبعات الإمامة بتوفيق الله سبحانه : من علىّ بن الحسين « زين العابدين » إلى ابنه الإمام « الباقر » إلى حفيده الإمام « الصادق » .

والإشارات السريعة ، إلى كل أولئك ، مع الوجازة المفروضة ، موضوع الفصلين الأوّل والثانى فى هذا الباب . وفيهما مدخل الكتاب .

الفصل الأول

أخو النّبى ﷺ

« أنت أخى وصاحبى »

« حديث شريف »

أوّل من آمن بالله ورسوله أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وأبو بكر الصديق وعلىّ بن أبى طالب . واختلف فى الأوّل منهما . والأكثرون يقولون عليًّا . واختلفوا فى سنّ علىّ يومئذ . قال ابن إسحق : إن عليًّا أول من آمن بالله وصدق رسول الله ، وهو ابن عشر سنين يومئذ .

لكن حسان بن ثابت ، وطائفة ، قالوا : إن أبا بكر هو الأوّل .

وروى ابن إسحق كيف أسلم علىّ بن أبى طالب بعد إسلام خديجة وصلاتها مع النبى بيوم واحد . إذ جاء فوجدهما يصليان . فقال على : يامحمد ما هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله . فأدعوك إلى عبادة الله وكفر باللات والعزى » .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم . فلست بقاض أمرًا حتى أُحَدِّثَ أبا طالب . فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سرّه قبل أن يستعلن أمره .

فقال له : « ياعلىّ إن لم تسلم فاكتم » . فمكث علىّ تلك الليلة . ثم إن الله أوقع فى قلبه الإسلام . فأصبح غاديًا إلى رسول الله حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علىّ يامحمد ؟

فقال : « تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له . وتكفر باللات

والعزى . وتبرأ من الأنداد » . ففعل علىّ وأسلم . ومكث على يأتيه سرًّا خوفًا من أبى طالب . وكان مما أنعم الله به علَى علىٍّ أنه رُبِّى فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام .

ومِن رسول الله ﷺ وخديجة - أوّل مسلمين - ولدت فاطمة الزهراء . ومن أبنائها ومن أبناء علىّ وأبى بكر الصديق ، أى من أبناء نبىّ الإسلام ، والمسلمين الثلاثة الأولين ، ولد جعفر بن محمد : الامام الصادق .

وبدعوة أبى بكر أسلم خمسة من العشرة الذين بشرهم رسول الله بالجنة ومات وهو عنهم راض : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة ابن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص . وهؤلاء الخمسة هم أهلَ الشورى . الذين جعل عمر الخلافة فيهم وفى « على بن أبى طالب » ، ليختاروا واحدًا منهم فيبايعه المسلمون .

فعلىّ بن أبى طالب يجىء دائما فى صدارة أهل الإسلام .

وأبوه وأمه فى الصدارة كذلك :

لقد كفل أبوه محمدًا ابن أخيه عبد الله وهو ابن ثمانى سنين . وخرج به إلى الشام وهو ابن اثنتى عشرة . وهو الذى مثله فى الزواج من أم المؤمنين خديجة . ولما ماتت فاطمة بنت أسد ، أم علىّ ، نزل النبى فى لحدها وألبسها قميصه - ﷺ - وقال : لم يكن أحد أبر بى بعد أبى طالب منها » .

وجزى النبى صنيعهما فى علىّ . إذ كفله وهو ابن ست سنين ، ثم جعله سابقًا فى الإسلام . فلما كان النبى يعبد الله فى غار حراء كان علىّ يعبد الله وهو صبى مميز . ثم بسق الفرع وسمق فى جوار أخيه[1] ومربيه وعلى عين أبيه .

وفى سنة سبع من المبعث تآمرت قريش على قتل الرسول . وأبى قومه بنو هاشم . وظاهرهم بنو عمهم « المطلب بن عبد مناف » . فأجمع المشركون من قريش على إخراجهم من مكة إلى الشعب . فخرجوا مؤمنهم وكافرهم . فلما

---

(١) العرب تسمى ابن العم الشقيق أخا .

عرفت قريش أن رسول الله قد منعه قومه أجمعت ألّا تدخل إليهم شيئًا ، وقطعت عنهم الأسواق ثلاث سنين .

وكان « أبو طالب » يأمر رسول الله أن يأتى فراشه كل ليلة ، حتى يراه من أراد به شرًّا . فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بنى عمه . فاضطجع على فراش الرسول . وأمره أن يرقد على بعض فرشهم فيرقد عليها . حتى إذا أكملوا ثلاث سنين أخبر الله رسوله أن العهد الذى تعاهدته قريش فى صحيفة علقوها بالكعبة قد أكلته الأَرَضَةُ . ولحست باقى الصحيفة . فخرجوا من الشعب إلى قريش . وأنبأ أبو طالب قريشًا أن الصحيفة قد أُكلت ، وأسماءهم قد لُحست ، كما أخبره ابن أخيه ، وأنبأهم أنه وأهله سيحمونه عن آخرهم .

وذات يوم سأل النبى أهله : أيكم يوالينى فى الدنيا والآخرة ؟ – وعلىّ جالس – فسكتوا . وقال علىّ : أنا أواليك فى الدنيا والآخرة . فكانت هذه أوّل موالاة من النبىّ لعلىّ .

ولما حضرت الوفاة أبا طالب فى السنة العاشرة من المبعث عن بضع وثمانين ، جمع إليه وجوه قريش فقال بين ما قال : « .. وإنى أوصيكم بمحمد فإنه الأمين فى قريش . والصديق للعرب . وهو الجامع لكل ما وصيتكم به . وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن .. يامعشر قريش كونوا له ولاة .. » .

والنبى يقول : « مازالت قريش كاعة حتى مات عمى أبو طالب » .

وماتت خديجة بعد أبى طالب بأيام أو أشهر أو أكثر . وأذن الله للرسول فى الهجرة إلى المدينة ، وكان قد أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة ولم يبْقِ فيها إلى جوازه إلا أبا بكر وعليا . والأول هو الصِّديق والثانى هو « ألفدائى الأوّل » .

فلقد رأت قريش ذلك فأجمعت على قتل النبى ، فبيتوه ورصدوه طول ليلهم ليقتلوه إذا خرج . فأمر عليًّا أن ينام على فراشه . ودعا ربه أن يعمى على

قريش أثره ، وخرج وقد غشى أبناءها النوم . فلما أصبحوا خرج علىّ عليهم وقال : ليس فى الدار ديار . فعلموا أن رسول الله نجا .

وكان « الفدائى الأوّل » قد شارف العشرين من العمر . استبقاه الرسول لأمر يتعلق بحياة الرسول . ليضحى من أجله بحياته . وسلمت الحياتان ، لأن الأولى حياة الإسلام ، ولأن الثانية سوف تفديها وتحرسها مرة إثر أخرى .

أخو النبى :

أقام علىّ بمكة أيامًا ليردّ فيها ودائع كانت عند الرسول . ثم لحق به فى المدينة . فنزل معه بقباء ، حيث أقام رسول الله مسجدها ثم خرج إلى دور أخواله بنى عدى بن النجار فأقام بها أشهرًا بنى فيها مسجده . وآخى بين تسعين من المهاجرين والأنصار على الحق والمساواة والتوارث . حتى نزل قوله تعالى : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) .

أما « أبو بكر » فآخى بينه وبين خارجة بن زيد . وأما « عمر » فآخى بينه وبين عتبان بن مالك . وأما « عثمان » فآخى بينه وبين أوس بن ثابت « أخى حسان » .

أما « علىّ » . فآخى بينه وبين نفسه ﷺ . بل هو قال له : « أنت أخى وصاحبى » . وفى ذلك رواية ابن عباس أن عليًّا كان يقول : « والله إنى لأخو رسول الله ﷺ ووليه » . وهذه هى المؤاخاة الثانية . فالأولى كانت بمكة .

ثم خرج المسلمون ليوم « بدر » ، فدفع رسول الله الراية إلى علىّ . ورواية أخرى لرجل من الأنصار . فهذه أولى معارك الإسلام وكبراها . وفعل علىٌّ الأفاعيل بالعدو : قتل من المشركين بيده أربعة . وقيل خمسة وقيل ستة : أكثرهم من أهل معاوية بن أبى سفيان ، وهو لا يزال بين المشركين ، ثم قدّم الرسول فلذة كبده « لبطل بدر » . فبنى بفاطمة الزهراء وهى فى الثامنة عشرة[1] .

---

(١) روى جميع بن عمير التيمى قال : « دخلت مع عمى على عائشة فسألت : أى الناس كان =

روى ابن الأثير فى أسد الغابة : « أخبرنا .. عن الحارث عن علىّ فقال : خطب أبو بكر وعمر - يعنى فاطمة - إلى رسول الله ﷺ فأبى رسول الله ﷺ عليهما . فقال عمر : أنت لها ياعلىّ .

فقلت : مالى من شيء إلّا درعى أرهنها . فزوّجه رسول الله ﷺ فاطمة . فلما بلغ ذلك فاطمة بكت . قال ؛ فدخل عليها رسول الله ﷺ فقال « مالك تبكين يافاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم خلقًا وأولهم سلمًا » .

أما العلم والحلم والسلم فهى التى احتاج فيها علىّ - وهو فى فتاء السن - إلى الشهادة بها من النبى لدى زهراء النبى .

وأما ميادين الوغى فقد شهدت له فيها رايات « بدر » . وستشهد له فيها الرايات الأخر :

فى يوم أحد - أخطر معارك الإسلام - كان علىّ فى الحرس ، إلى جوار النبى ، حين أصيب النبى فى المعركة . وكان طبيعيًا أن يُصاب علىّ بست عشرة ضربة ، كلّ ضربة تلزمه الأرض . وكما يقول سعيد بن المسيب سيد التابعين : « فما كان يرفعه إلاّ جبريل عليه السلام » فلما اشتدّ الخطب ، وقتل حامل الراية - مصعب بن عمير - دفع الرسول الراية لعلىّ .. فقتل علىّ يوم ذاك واحدًا وقيل ثلاثة مشركين .

وفى يوم الخندق أزفت الآزفة حيث تيمم المشركون مكانًا ضيقاً فاقتحموه بخيلهم . فخرج لهم علىّ بن أبى طالب فى نفر من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الثغرة التى اقتحموا منها . وكان عمرو بن عبد ودّ - فارس العرب - يريد أن يعرف مكانه يوم الخندق . فنادى من فوق الخيل : هل من مبارز ؟ فبرز له

= أحب إلى رسول الله ؟ قالت فاطمة . قيل من الرجال ؟ قالت زوجها . أن كان ما علمت صواما قواما » وفى مسند الإمام أحمد عن على أنه قال : دخل علىّ رسول الله ﷺ ، وأنانائم ، فاستسقى الحسن أو الحسين فقام النبى إلى شاة لنا بكىء « قليلة اللبن » فحلبها فدرت فجاء الحسن فنحاه النبى فقالت فاطمة : يارسول الله . كأنه أحبهما قال لا ولكنه استسقى قبله . ثم قال : « أنا وإياك وهذين ، وهذا الراقد ، فى مكان واحد يوم القيامة » .

توفيت بعد رسول الله بستة أشهر وقيل ثلاثة . وقيل بسبعين يوما عن تسع وعشرين سنة أو ثلاثين .

عليّ . قال له عمرو : ما أحب أن أقتلك لما بيني وبين أبيك .. وأصر عليّ ونزل عمرو عن فرسه . وتجاولا. فلما انجلى النقع حتى قتله عليّ . وفرّ أصحاب الثغرة بخيولهم منهزمين .

وفى غزوة بنى قريظة كانت له راية المسلمين :

وفى صلح الحديبية كان « كاتب » صحيفة الصلح عليّ بن أبي طالب يملى عليه رسول الله ﷺ ! فذلك كان أيمن صلح عرفه التاريخ البشرى . فلقد أصبح الذين أسلموا بعده وقبل فتح مكة ، أكثر ممن أسلموا قبله.. وبه حفظت دماء الذين بايعوا تحت الشجرة ، ليظهر الإسلام على أعدائه وييسر فتح مكة .

وفى غزوة خيبر فتح الله على المسلمين حصناً واستعصى اثنان على أبي بكر وعمر . فقال عليه الصلاة والسلام : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . ليس بفرّار . يفتح الله عز وجل على يديه » . ولما أصبح دعا عليًّا وقال : « خذ الراية وامض حتى يفتح الله عليك » .

وحمى الوطيس . وسقط ترس عليّ . فتناول بابًا وترس به نفسه .. ولم يزل يقاتل حتى فتح الله عليه .

وصدق أبو بكر بعد سنين فى وصف عليّ عندما حدث المسلمين عن عليّ وعمر : إن عليًّا إذا اعترضته عقبة حاول اقتحامها . فإما كسرته أو كسرها . أما عمر فإنه إذا صادفته عقبة دار لها .

وحمى الله فضائل الإسلام على يد عليّ . فلم يره أحد فى موقف المنكسر . ولما استشهد فى دفاعه عن هذه الفضائل ، كان الإسلام ينتصر .

وفى يوم حنين أعجبت المسلمين كثرتهم . فكادوا ينهزمون . وثبت الرسول . وقتل على صاحب راية المشركين وأخذها منه ، وكرّ المسلمون عليهم فهزموهم بإذن الله .

ولما قتل خالد بنى خزيمة خطأ وسباهم – وهم مسلمون – بعث الرسول عليًّا فوداهم وردّ إليهم أموالهم وقال لهم : انظروا إن فقدتم عقالاً لأدينه . فبهذا أمرنى رسول الله ﷺ .

وفى السنة التاسعة خرج رسول الله إلى تبوك . واستعمل عليًّا على المدينة . فسأل علىّ النبى فى ذلك . فأجابه : « إنما خلفتك لما تركت ورائى . فارجع فاخلفنى فى أهلى ، وأهلك . فأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبّى بعدى .. » فكان تخليفه عن هذه الغزوة تقديمًا له .إذ وضعه موضع هٰرون من « موسى » عليه السلام . أى فى منزلة أخ الرسول من الرسول .

وتتابع التقديم . إذ نزلت عشر آيات من صدر سورة « براءة » من عهد كل مشرك لم يسلم أن يدخل المسجد الحرام بعد هذا العام .

فقالوا للرسول ؛ ابعث بها إلى أبى بكر – وكان على الناس فى حج البيت الحرام – فقال عليه الصلاة والسلام « لا يؤديها عنى إلّا رجل من أهل بيتى » وبعث عليًّا على ناقته ﷺ فأدرك أبا بكر فى الطريق . فسأله أبو بكر هل جاء أميرًا أو مأمورًا ؟ قال علىّ : بل مأمورًا . فهو قد جاء بغرض خاص بتبليغ القرآن . أما إمارة الحاج فكانت لأبى بكر .

وفى كتب السنن أن النبى بعد عودته من حجة الوداع نزل بغدير خم وأعلن أنه يترك القرآن و « عترته » للمسلمين ثم أخذ بيد علىّ ودعا ربه : « اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه » .

وكان للرسول « كُتّابه » « والمنفذون » لأمره و « المفتون » فى حياته .

– ثقة من الله والرسول فى شجاعتهم وحكمتهم وسداد رأيهم – وفى كل صفة ، وكل طائفة ، كان على . فامتاز بهذه الخصيصة التى تحوى جماع خصائص أصحاب النبى .
– فكُتّاب النبى : أُبى بن كعب ، وأبو بكر وعمر ، وعثمان ، و« علىّ » ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وحنظلة بن الربيع .
– والمنفذون لأحكامه « ومنها ضرب الأعناق بين يدى النبى » . « علىّ » ، والزبير ، ومحمد بن مسلمة .
– والمفتون فى عهده : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، و« على » ، وأُبى ابن كعب ، وابن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وعمار بن ياسر ، وزيد

ابن ثابت ، وسلمان ، وأبو الدرداء ، وأبو موسى الأشعرى .

ولما بعث النبى عليه الصلاة والسلام عليًّا إلى اليمن قال على : « يارسول الله تبعثنى إلى اليمن ويسألوننى عن القضاء ولا علم لى به » . فضرب النبى بيده على صدره ثم قال « اللهم ثبت لسانه واهد قلبه » قال علىّ : « فو الذى خلق الحبّة وبرأ النسمة ما شككت فى قضاء بين اثنين بعد » . وهى خصيصة يدرك جلال اليقين فيها من ولى القضاء .

بين الخلفاء الراشدين :

صعدت روح رسول الله إلى الرفيق الأعلى وعلىّ بطل جيوشه غير منازع . وكان قد درّبه على القضاء والإفتاء ، فهاتان الوظيفتان هما أسمى عمل فى الدول ، وبخاصة فى الدول المسلمة ، حيث الحفاظ على الشريعة ، وإدارة الدول ، وسياسة الأمم ، واستقرار النظم ، واطمئنان الجماعة واجبات دينية . والإفتاء يعدل التشريع فى أيامنا هذه . والقضاء هو توزيع العدالة . والعدل صفة الله سبحانه .

لقد بعثه إلى اليمن . فقضى . وله قضاء مشهور عرض على النبى فاستحسنه . وله السؤال المشهور يوم ذاك إذ سأل : أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام : « بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب » . فدلّ بذلك على تفويضه فى أن يجتهد ، وأن يعمل بمقاصد الشريعة .. وكان أيامئذ فى عنفوان شبابه . فلم يفارقه الاجتهاد العظيم للأمة فى كل مناسبة تقتضى الاجتهاد .

وبالتربية النبوية فى القضاء والإفتاء . نفذ علىّ إلى صميم الفكر التشريعى فى الأمة . أى صميم شريعة الإسلام . فاحتاج أبو بكر وعمر إليه فى جوارهما ١ - ليشير عليهما . ٢ - ويقضى . ٣ - ويفتى .

أما فتاواه التشريعية فستبقى مثلاً أعلى للفكر الإسلامى فى سياسة الدولة وسياسة الناس .

إذ اشتهر عمر بأنه المجتهد الأكبر من كثرة ما واجه من ظروف طارئة على الدولة المنتصرة فى الشرق والغرب ، ومن طول ما حكم وهو خليفة ، واتساع ما فتح من الفتوح ، واختلاف من أسلم من أهل البلاد المفتوحة ، فعلىّ كان يصحح الكثير للمجتهد الأكبر . وفى ذلك الحجة القاطعة على أنه فى أسمى وظائف الفكر ، وهما التشريع والقضاء ، كان بدوره مجتهدًا أكبر .

إليك قليلا من الأمثال ، تخيرناها ، من أمور معلمة فى الدين والفقه والسياسة :

* منع عمر تدوين الحديث - مخافة أن يخلط القرآن بشىء - وبهذا أبطأ التدوين عند أهل السنة قرنًا بتمامه . وانفتحت أبواب للجرح والتعديل وللوضع ، والضياع . أما علىّ فدوّن من أوّل يوم مات فيه الرسول . ولعلّه إذ دوّن صار مرجع الصحابة بما فيهم عمر .

وهذا الاتجاه العلمى للتدوين ، يؤازره اتجاه دينى ، وفقهى ، وسياسى ، واقتصادى ، لتوزيع الحقوق .

* قال عمر للناس يوما : ما ترون فى فضل عندنا من هذا المال « مال الصدقة » قالوا : ياأمير المؤمنين . قد شغلناك عن أهلك وضيعتك فهو لك .

فالتفت إلى علىّ : وقال : ما تقول ؟ قال : قد أشاروا عليك . قال عمر : قل .

قال على : لم تجعل يقينك ظنًّا ؟ أتذكر حين بعثك رسول الله - ﷺ - ساعيًا فأتيت العباس بن المطلب ، فمنعك صدقته .

فقلت لى : انطلق إلى رسول الله - ﷺ - فوجدناه خاثرًا . فرجعنا ثم غدونا عليه . فوجدناه طيب النفس فأخبرناه بالذى صنع ..

فقال لك : أما علمت أن عمّ الرجل صنو أبيه ؟ وذكرنا الذى كان من طيب نفسه فى اليوم التالى فقال : أما أنكما أتيتمانى اليوم وكان عندى من الصدقة ديناران . فكان الذى رأيتماه من خثورى له . وأتيتمانى اليوم وقد وجهتهما غدًا « صباح اليوم » فذاك الذى رأيتما من طيب نفسى .

* ودعا عمر امرأة فأجهضت ما فى بطنها بفزعها فاستشار فى الدية .

فقال له عثمان وعبد الرحمن : لا عليك . إنما أنت مؤدب .

وقال علىّ : إن كانا قد اجتهدا فقد أخطأا . وإن لم يجهتدا فقد غشاك . أرى عليك الدية .

فقال عمر : عزمت عليك ألّا تبرح حتى تفرضها على بنى عدى .. وهذه الفتوى تعتبر تقدمًا تحاول أن تبلغه الحضارة المعاصرة ، ولا تكاد .

* ورأى عمر ذات يوم رجلًا مع امرأة على معصية . فاستشار فى أن يقضى بعلمه أم لابدّ من شهادة غيره ؟

قال علىّ : « يأتى بأربعة شهداء أو يجلد حدّ القذف شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين » .

* ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون لأنفسهم أربعة أخماس الأراضى المفتوحة أخذًا بظاهر الآية . فاستشار عمر الصحابة . فاختلفوا . لكن عليًّا كان من الرأى الذى أخذ به عمر ، وهو إبقاء الأراضى فى أيدى أصحابها وتكليفهم الخراج تسدّ من حصيلته حاجات الدفاع عن الأمة والإنفاق على المحتاجين .

وفى بقاء الأرض فى أيدى أصحابها بقاء لهم أو لمن يجيئون بعدهم . وأثر هذه الفتوى فى نشر الإسلام يذكر ويشكر .

* وعلىّ صاحب الرأى الشهير بتضمين الصناع ما يتلفونه إلّا أن يثبتوا أنه من عمل غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون لأن يدهم يد الأمين . لكن الزمان تغير فاقتضى تغير الناس التضمين. وفى ذلك قول علىّ : لا يصلح الناس إلّا ذاك . وهذا مضرب المثل على العمل بقصد الشارع من حفظ مصالح المسلمين وتوخى المصلحة الإسلامية حيث تكون .

* ورفعت إلى عمر قضية رجل قتلته امرأة وخليلها . فتردد هل يقتل الكثيرين بالواحد ؟ قال على : أرأيت لو أن نفرًا اشتركوا فى سرقة جزور هذا عضوا وهذا عضوا . أكنت قاطعهم ؟ قال : نعم . قال على : فكذلك .

فكتب عمر إلى عامله أن : اقتلها فوالله لو اشترك أهل صنعاء كلهم لقتلتهم .

* وجيء عمر يومًا بامرأة زنت وأقرّت فأمر برجمها . لكن عليًّا قال : لعل بها عذرًا . ثم سألها : ما حملك على ما فعلت ؟ قالت : كان لى خليط وفى إبله ماء ولبن . ولم يك فى إبلى ماء ولا لبن . وظمئت واستسقيته فأبى أن يسقينى حتى أعطيه نفسى . فأبيت عليه ثلاثًا . فلما ظمئت وظننت نفسى ستخرج أعطيته الذى أراد فسقانى . قال على : الله أكبر (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه . إن الله غفور رحيم) .

* لقد كان عمر على الحق إذ أمر ألّا يفتى أحد بالمسجد وعلىّ حاضر . فجعل القضاء وقفًا عليه فى ساحة القضاء .

* وكان يقول اللهم لا تنزل بى شديدة إلّا وأبو الحسن إلى جنبى[1] .

بل يحيل سائليه علَى علىٍّ ويجيب أذينة العبدى إذ يسأله : من أين أعتمر ؟

إيت علىَّ بن أبى طالب فاسأله .

بل يقول : لولا علىٌّ لهلك عمر .

* ولعلىّ عهده المشهور إلى الأشتر النخعى[2] إذ ولّاه مصر . فهو دستور سياسى

---

(١) لا يتسع المقام فى هذا الباب إلا لبعض أمثال :

* قاضاه خصم إلى عمر وناداه عمر : قم ياأبا الحسن . ولاحظ عمر أنه تألم فسأله . فقال : « تألمت إذ كنيتنى ولم تكن خصمى فلم تسوّ بيننا » .

* وقاضاه يهودى – وهو خليفة – فى درع – ولم تكن للخليفة بينة . فقضى القاضى ضدّه ، فأسلم اليهودى لما رأى من العدل .

* وأودع قرشيان مائة دينار – لدى قرشية على ألّا تدفعها لأحدهما دون الآخر . ولبثا حولاً ثم جاء أحدهما وادّعى أن الآخر مات . فدفعت إليه المال . ثم جاءها الآخر فأخبرته . فترافعا إلى علىّ وعرف علىّ أن الرجلين مكرا بها . فقال للرجل : أليس قلتما لها لا تدفعى لواحد دون صاحبه ؟ قال بلى . قال اذهب فجيء بصاحبك . فذهب ولم يرجع .

وهذه اللفتات المرتجلة تصدر عن وحدة فكرية فى أمور الإثبات والإجراءات وإدارة الجلسات وهى دلائل متضافرة على اقتدار مقطوع القرين « لعقل قضائى » أجمع الصحابة العظماء على أنه أقضاهم .

(٢) الأشتر أوّل من عبر التعبير الشهير فى شأن معاوية حين سئل : أشهد معاوية بدرًا ؟ فأجاب : نعم من الجانب الآخر « أى جانب المشركين » .

ودينى وعالمى يضؤل دونه كل العهود ، بما فيه من شمول وتفصيل لقواعد الحكم الصالح . وإليه يرجع كل من أراد نجاحًا للحكم بصلاح الدنيا والدين .

والمصريون - مسلمين ومسيحيين - يحفظون قوله فيهم لواليه : « وأشعر قلبك الرحمة بهم والمحبة لهم . واللطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم . فإنهم : إما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل » .

* وعلىّ هو الذى يضبط فحوى الشرع ويرفعه إلى مقامه الحق فى تعريفه للفقيه فيقول للمسلمين : « ألا أنبئكم بالفقيه . حق الفقيه ؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله . ولم يرخص لهم فى معاصى الله . ولم يؤمنهم من مكر الله » .

* * *

كان منذ شبابه الذى أنضجته أحداث النزال والطعان فى الميدان - أعبد الناس وأكثرهم فى عبادته جمعًا مع الله لا يقطع صلاته والسهام تقع بين يديه يمينًا وشمالا . يربط على بطنه من الجوع فى حين يتصدق بأربعة آلاف درهم ، وعليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم . أما قوته فمن دقيق الشعير . يأخذ قبضة فيضعها فى الماء فيصبّ عليها قدحًا فيشربه .. وفى يده كل مال المسلمين !

ولما أصهر عمر إليه فى « أم كلثوم » كان يتوسل إلى الآخرة بلحمة النسب . فلقد كان يقول : « لقد أعطى علىّ بن أبى طالب ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلىَّ من حمر النعم : تزويجه فاطمة بنت رسول الله ، ﷺ وسكناه المسجد مع رسول الله . يحل فيه ما يحل له » .

ولم يبرح عمر المدينة فى خلافته إلّا استخلف علياً عليها . فلقد كان ذلك سُنّة عنده . أليس صاحبها - ﷺ - كان يستخلفه ، إذا برح المدينة ؟

وعلى « باب مدينة العلم » . يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأت بابه » .

وهو « إمام البلاغة » . يجىء معاوية رجل من الكذبة فيقول له : جئتك من

عند أعيا الناس – يقصد عليًّا – فيجيب معاوية ، وهو أعدى الناس لعلىّ :

« ويحك فوالله ما سنّ الفصاحة للناس غيره » . كيف لا ؟ وبلاغته من بلاغة النبى .. مذ كان فكره من فكره ، وكان قد ربّاه فأحسن تأديبه ، حتى ليعيا بلغاء العرب عن فهم المعنى النبوى ويراه علىّ بادى الرأى .

شكا العباس من مرداس للنبى قسمه من الفَىْء بقوله :

أتجعــل نهبى ونهب العبيـــد كنهب عيينــة والأقــرع

« والعبيد فرس الشاعر . وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم » .

قال عليه الصلاة والسلام : « يا على اقطع لسانه » .

فأخذه علىّ ومضى .

قال العباس : أقاطع أنت لسانى ياأبا الحسن ؟

قال علىّ : إنى لممضٍ فيك ما أمر ..

ثم مضى به إلى إبل الصدقة وقال له : خذ ما أحببت .

ومن « نهج بلاغته » يسقى بلغاء العربية وحكماء الإسلام . ومن تعليمه وضع النحو العربى[1] . ووضع النحو بتعليم علىّ يذكر بالمكانة الخاصة لعلىّ فى علوم

---

(١) روى الأنبارى فى تاريخ الأدباء أن سبب وضع علىّ كرم الله وجهه لهذا العلم ما روى أبو الأسود الدؤلى (٦٧) حيث قال : دخلت على أمير المؤمنين علىّ فوجدت فى يده رقعة فقلت : ما هذه ياأمير المؤمنين فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء « يعنى الأعاجم » فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه ثم ألقى إلىّ الرقعة ومكتوب فيها : « الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبئ به والحرف ما أفاد معنى » وقال لى : انح هذاالنحو وأضف إليه ما وقع عليك وأعلم ياأبا الأسود أن الأسماء ثلاثة .. ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر . وإنما يتفاضل الناس ياأبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر « أراد بذلك الاسم المبهم » قال : ثم وضعت بابى العطف والنعت ثم بابى التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها فكتبتها ماخلا « لكن » فلما عرضتها على أمير المؤمنين عليه السلام أمرنى بضم لكن إليها . وكلما وضعت بابًا من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، فقال : ما أحسن هذا النحو الذى نحوت فلذا سمى النحو . وإنّ المرء ليلاحظ أن هذا الفتح العظيم فى العلم كان من اهتماماته وهو أمير للمؤمنين ، ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداد لمعركة . وأن أبا الأسود هو واضع علامات الإعراب فى المصحف فى أواخر الكلمات بصبغ يخالف لون المداد الذى كتب به المصحف . فجعل علامة الفتح نقطة=

الإسلام . فالنحوالعربى هو الذى حفظ العربية . لغة القرآن . وهو أمر أصولىّ للغة ، كأصول الفقه . وسنرى موقفه المبدع فيها . وكذلك كانت مواقف علىّ بعد ظهور الإسلام ، وفى خلافة سابقيه ، تتصدى للأساسيات فى الإسلام .

لقد كان أطول الراشدين حياة فى الإسلام مما يظهر أثره عميقًا ، عمق الحوادث والعلوم وأثرها فى الإسلام ، وطويلًا لطول المدة التى حييها فى المراكز الأولى منذ ظهور الإسلام .

وربما أجمل القول فى مكان علىّ بين المسلمين قولُ ابن عباس :

« لعلىّ أربع خصال ليست لأحد غيره : هو أوّل عربى أو أعجمى صلى مع رسول الله - ﷺ - وهو الذى كان لواؤه معه يوم الزحف . وهو الذى صبر معه يوم فرّ غيره . وهو الذى غسله فأدخله قبره » .

أما عن العلم فيقول ابن عباس : « إذا ثبت لنا الشيء عن علىّ لم نعدل إلى غيره » . وأما عن العدل فيقول ابن مسعود معلم الكوفة وسادس المسلمين : « كنا نتحدث أنّ أقضى أهل المدينة علىّ » .

من أجل هذا وكثير غيره ، صحّ عند الشيعة أن النبى أفضى إليه بظاهر الشريعة وخافيها . وأنه أفضى بها إلى من خلفه .

* * *

وليس يملك أحد أن يفاضل بين الخلفاء الراشدين الأربعة إلّا باجتهادات تحتمل الخطأ والصواب . لقد بايعهم المسلمون بيعة صحيحة . وبايع علىّ الثلاثة السابقين عليه . فكانت بيعته شهادة لهم وله . فلهم جميعا مكانة الراشدين التى بوأهم الله إيّاها فى الزمن الذى أراده .

= فوق الحرف . والضم نقطة إلى جانبه والكسر نقطة فى أسفله والتنوين مع الحركة نقطتين ثم وضع نصر ابن عاصم (٨٩) تلميذ أبى الأسود النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها ثم جاء الخليل بن أحمد (١٧٥) فشارك فى إتمام بقية الإعجام .. والخليل شيعى كأبى الأسود . وهو واضع علم العروض وصاحب المعجم الأوّل وواضع النحو على أساس القياس .

فاللغة العربية مدينة لعلىّ وتلاميذ علىّ . وكمثلها البلاغة العربية .

وعلىّ معدود من خطباء التاريخ العالمى بخطبه والمناسبات التى دعت إليها .

ومن الحكمة أن ندرأ أسباب المراء والشحناء ، فننتهى عن المفاضلة بين السابقين الأولين إلّا لحاجة . وأولى الناس بذلك الصحابة الذين أُمرنا بالاستغفار لهم ، وألّا نجعل فى قلوبنا غلًّا لهم .

ولئن فاضل « الأشعرى والغزالى » وبعض المتكلمين ، بين الخلفاء الراشدين ، فرتبوهم على حسب ترتيب استخلافهم ، فربما كان الأرجح أن مجىء علىّ فى آخر الخلفاء الأربعة تنحصر دلالته فى أن الله تعالى أجاءه إلى حيث كان دوره - لا مرتبته - هو الرابع . ولله الحكمة البالغة .

* * *

وعلىّ فى كثير من الأمور هو الأوحد : فالنبى هو الذى ربّاه . وآخاه . وأعّده للعظائم فصنعها . وعهد إليه تبليغ آى القرآن .. وهى جميعًا « خصوصيات » لا يرقى رقيّه فيها أحد . أما ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة وشاركها فيه كثيرون من علماء أهل السنة منذ القرون الأولى - كالمسعودى والحاكم والكنجى - حتى القرون الحديثة - كالألوسى ، وهو أن عليًّا ولد بالكعبة .

وإذا كان للصديق مكان « الصديقية » فلعلى قوله عليه الصلاة والسلام : « علىّ منى وأنا منه » .

وإذا كانت لعمر مكانة الفاروق ، فعمر نفسه كان يتمنى لو كان له واحدة من ثلاثة من خصال علىّ .

وإذا كان عثمان ذا النورين بإصهاره إلى النبى فى زوجتين لعثمان . فعلىّ - وحده - صاحب النسب ، والعقب ، الباقى من رسول الله .

لقد كان الحسن والحسين يسميان الرسول أباهما . كما كان الرسول يسميهما ابنيه طول حياته . ولم يناديا عليًّا بأنه أبوهما إلّا بعد أن انتقل إلى الرفيق الأعلى رسول الله ﷺ .

الشيعة :

لعلىّ - على ما رأينا - من فضل الله ما سلّمه الجميع له وتؤثره من جرائه

الشيعة ، منذ القرن الأوّل ، أى جيل الصحابة . ثم تلاحق عليه الجيلان التاليان . وهى الأجيال الثلاثة المفضلة بقوله ﷺ : « خير القرون قرنى – جيلى – ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » ، وتوالت على تكريمه به جماعة المسلمين إلّا من ظلم . وهو موقعه الخاص من النبى ومن علوم الإسلام : إذ تتفرع عنه فروع النسب من أهل البيت . وتنبع منه بحار شتى للمعرفة تسقى منها المذاهب كافة . وفيها المتصوفة والمعتزلة ، وتفيد منها العلوم كافة ، ومنها العبادات والمعاملات والحرب والسلم والسياسة والاقتصاد والإدارة . فتطبع بطابعه العلوم الإسلامية عند الشيعة ، وتظهر آثاره فى علوم أهل السنة .

« والشيعة » كلمة قرآنية : (وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم) .

والتشيّع لعلىّ مكانة للفوز تقررت بالسنّة – روى السيوطى عن جابر ابن عبد الله قال : كنا عند النبى فأقبل علىّ فقال النبى : « والذى نفسى بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة » .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال رسول الله لعلى : « هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » .

وعن أم سلمة – رضى الله عنها – أن النبى قال لعلىّ : « أنت وأصحابك فى الجنة » .

وفى نهاية ابن الأثير ما نصّه فى مادة « لواقح » « وفى حديث علىّ قال له النبى ستقدم على الله أنت « وشيعتك » راضين مرضيين ويقدم عليك عدوّك غضابًا مقمحين » .

والزمخشرى يروى فى ربيع الأبرار حديث النبى عن « شيعة ولدك » وهو يتحدث إلى علىّ . وفى مسند أحمد بن حنبل وخصائص النسائى كثير فى الدلالة على شيعة علىّ .

ويخصص المسلمون « الشيعة » بأنهم هم التابعون والمقتدون والمتميزون باتباعهم واقتدائهم الكامل بالإمام علىّ والأئمة من بنيه .

وربما كان تعريف ابن حزم للشيعة جامعًا مانعًا . فهو يقول : « من وافق الشيعة فى أن عليًّا « أفضل » الخلق بعد رسول الله و« أحقهم » بالإمامة وولده من بعده ، فهو شيعى . وإن خالفهم فيما عدا ذلك فيما اختلف فيه المسلمون . فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيًّا » .

ظهر تفضيل الشيعة لعلىّ على جميع الصحابة بمجرد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، إذ دعت إلى ذلك دواع سياسية . فقد اجتمع المهاجرون والأنصار – وعلىّ مشغول بتجهيز رسول الله لقبره – فبايعوا أبا بكر باقتراح عمر . وثقل على بطل الإسلام علىّ أن يمضى الصحابة الأمور دونه ، وثقل على الزهراء[1] وعلى « شيعة علىّ » من صحابة الرسول . كما رأى البعض أحقية علىّ بالخلافة[2] .

---

(١) لم يورث الخليفة الزهراء من أبيها . وقصد إليها مع عمر يذكران لها حديث الرسول فى حرمانها من ميراثها . قال الصديق : إنى سمعته ﷺ يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » .

ثم قال الصديق : والله إن قرابة رسول الله أحب من قرابتى . وإنك أحب إلى من عائشة « بنته » .

قالت : أرأيتكما إن حدثتكما حديثًا عن رسول الله تعرفانه وتعملان به ؟

قالا : نعم .

قالت : ألم تسمعا قول الرسول : « رضا فاطمة من رضاى وسخط فاطمة من سخطى » .

قالا : سمعنا .

قالت : أنى أشهد الله أنكما أسخطتمانى . وما أرضيتمانى . ولئن لقيت رسول الله لأشكونكما إليه . وخرجا يبكيان . فلقد كانت تبكى .

ولقد كانت لله لا للدنيا دموع الزهراء والصديق والفاروق !

وأهل السنة ينحون نحوهما فى تفسير الحديث النبوى .

والشيعة لا يتسامحون فى حرمان الزهراء ميراثها .

ومن الغلاة فى الخصومة للشيخين من يقولون : إن عمر كان سبب البيعة لأبى بكر يوم السقيفة إذ قال له : امدد يدك أبايعك . وإن أبا بكر كان مصدر البيعة لعمر يوم استخلفه ليصرفا الأمر عن علىّ ، مع أن البيعة كانت عامة من الأمة .

وأهل السنة على أن الصحابة اجتهدوا للمسلمين ، وأن عليًّا أيدهم فى اجتهادهم إذ بايع ، بل تبع رأى عمر فيها بعد لما جعل « عمر » الأمر شورى فى الستة . ثم كان أصدق المسلمين فى طاعة عثمان .

(٢) ومنذئذ كانت لعلىّ شيعته . قال أبان بن تغلب : قلت لجعفر بن محمد « الصادق » جعلت فداك . هل كان أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنكر على أبى بكر فعله ؟ قال نعم : اثنا عشر =

ولكن عليًّا لم يلبث أن كمل اجماع المسلمين بالبيعة للصديق ، وجمل خلافة الصديق بالمشاركة والمشورة ، وتحمل فى خلافة الفاروق أعباء فى أخطر شئون الدولة والدين والناس والخليفة .

لقد كان كله شجاعة نفس وسداد رأى يوم الردة . قالت عائشة رضى الله عنها : خرج أبى يوم الردة شاهرًا سيفه راكبًا راحلته . فجاء على رضى الله عنه فأخذ بزمام راحلته وقال : أقول لك ما قال لك رسول الله - ﷺ - يوم أحد : « شم سيفك لا تفجعنا بموتك . فو الله إن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدا » .

ولقد كان كله شجاعة فكر ، وبراعة فقه ، يوم استشاره عمر فى غزو الفرس بنفسه وكرر « أخو النبى » نصحه فى بلاغة معلّمة وأسانيد تترى . لكنه لم يذكر « السابقة » لعمر كما صنع مع أبى بكر . فالصديق هو إمام « الاتباع » الذى بلغ به مراتبه . أما عمر فهو « يجتهد » ويتبع . وعند على من « الاتباع » و « الاجتهاد » ما يروى الشيخين معًا :

قال لعمر بين ما قال : « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة . وهو دين الله الذى أظهره .. ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه . فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدًا . والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع . فكن قطبًا واستدر الرحى بالعرب . وأصلِهم دونك نار الحرب .

إنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع من الفورات أهم إليك مما بين يديك . ان الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا يقولوا هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشدّ لِكَلَبِهم عليك ومطمعهم فيك .. » .

= رجلًا . من المهاجرين : خالد بن سعيد بن العاص ، وسلمان الفارسى ، وأبو ذر الغفارى ، والمقداد ابن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وبريدة الأسلمى ، ومن الأنصار : أبو الهيثم بن التيهان ، وسهل وعثمان ابنا حنيف ، وخزيمة بن ثابت ، وأبى بن كعب ، وأيوب الأنصارى .

فلنلاحظ . هذه الخطة المتعددة الغايات بالحركة الواحدة : أن يبقى قطبا للرحى ، وأن يستديرها بالعرب ، وأن يجعلهم يحاربون العدو بدلاً من الخليفة .

وأن يحميهم من تنازعهم ولم يكن قد مضى على توبة بعضهم من الردة إلّا شهور . ولنلاحظ ذلك الاحتياط فى الحرب حتى لا يجد العدو الخليفة غرضا قريبًا فى متناوله يستميت فى إصابته .

ولنلاحظ تشبيه الخليفة بنظام العقد الذى يمسكه أن ينتثر .

ولنلاحظ الوجازة ، والنصاعة ، والبلاغة « العلوية » ، ومستواها فى لسان العرب .

ولما قبل الصديق والفاروق نصيحته فى الحالين وضعته النصيحتان فى موضعه معهما ومن المسلمين - وهو فى صدر شبابه - فى الصدارة .

ولا ينال من هذه العبقرية فى وضع الخطط ، ما سيصيبه والمسلمين معه ، يوم يستحبون الدعة ، بعد ربع قرن عندما آلت إليه المقاليد ، وجاء إلى الوجود جيل جديد ، فعلت الفتن فيه أفاعيلها . فأتاحت لعلىّ بدلاً من إنفاذ خططه ، أن يلقى خطبه الخالدة التى تعتبر مصادر للبلاغة العربية والحكمة السياسية والفلسفية على مرّ الزمان . فتخصّ الإمام بمقام بين خطباء التاريخ لا يرقى إليه أحد .

* * *

عهد الصديق لعمر فكان عهده له فتحًا من الفتوح على أبى بكر والأمة ، منذ كان عمر كأبى بكر مطلوبين للأحداث ، ولم يكن لدى المسلمين ساعة لِيَشْتَوِرُوا . فأرواح الشهداء تساقط فى الميادين ، فى الشرق والشمال ، بالعراق والشام ، لتضىء العالم بأنوار الإسلام .

ولايمكن أن يَرِدَ على الذهن أن أبا بكر، فى عهده لعمر، فكّر لحظة واحدة تفكير بعض قريش فى أن تصرف الخلافة عن بنى هاشم ، مخافة أن تبقى وراثة فيهم ، فلا تنال قريش حظوظها من السلطة . فإنما كانت هذه الفئة فى فكرها ظالمة لنفسها ولبنى هاشم ، بمثل ما قد طالما ظلمت الصديق والفاروق معًا .

فلقد عهد الفاروق لعليّ بين الستة الذين عهد إليهم أن يختاروا للمسلمين من يبايعونه . وهو القائل عن عليّ : « لو ولّوه لحملهم على الجادة » . وكان الجميع يعلمون أن الخلافة دائرة بينه وبين عثمان .. ولم يشأ عمر أن يحمل مسئولية الاختيار – وهو طعين – وكانت المشورة ممكنة ، لا خطرة ، كما كانت عند وفاة أبي بكر .

ولما جاء دور عليّ – وهو طعين – لم يفكر في أن يعهد لواحد من بني هاشم . بل قيل له : « إن فقدناك – ولا نفقدك – هل نبايع الحسن ؟ » فأجاب : « لا آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر » . وترك الأمر شورى للمسلمين .

وكذلك ليس من الدقة أن يستنتج من تقدير عمر لعليّ أو لأهل البيت أو لأم كلثوم بنت علي – وهي تحت جناح عمر – أن عمر كان يتمنى شيئاً خاصا لعليّ في صدد الخلافة . فلقد كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين أجمعين ، يوم عهد إلى الستة أن يختاروا واحدًا منهم يبايعه المسلمون ..

كان عمر ينظر لمصلحة المسلمين يوم دوّن الديوان . فدعا الأخ الأكبر لعليّ ، عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، وقال لهم : « اكتبوا الناس على قدر منازلهم » فكتبوهم مبتدئين ببني هاشم ثم ببني تيم – قبيلة أبي بكر – ثم بني عدى – قبيلة عمر – فقال : « وددت أنه هكذا ولكن ابدءوا بقرابة النبي – ﷺ – الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله » .

ويوم فضل بعض الناس في العطاء جزاء ما قدموا للإسلام . فلما ذكر له صنيع أبي بكر يوم رفض التفضيل وقال : « إنما أسلموا لله . ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك في الآخرة . وإنما هذه الدنيا بلاغ » أجاب عمر : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه .. » .

ويوم فضل أهل بدر على من عداهم . ثم جعل الباقين درجات . ومع ذلك قدّم الأدنين من رسول الله دون نظر إلى جهاد أو سابقة إسلام . ففرض للعباس – عم النبي – اثني عشر ألف درهم . ولأخته صفية عمة النبي وعلي –

ستة آلاف .. ولكل واحدة من زوجات النبي عشرة آلاف . وميّز عائشة لمحبة رسول الله إياها فجعل لها اثنى عشر ألفًا .

ويوم فضل الحسن والحسين إذ فرض لكل واحد شهد بدرًا خمسة آلاف ، ولأبنائهم ألفين ألفين ، إلّا الحسن والحسين ابنى علىّ من فاطمة الزهراء ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول الله . ففرض لكل منهما خمسة آلاف ..

حتى أسامة بن زيد بن حارثة – مولى الرسول – فرض له أربعة آلاف . وأجاب ابنه عبد الله – فقيه المسلمين ومحدثهم – إذ راجعه قائلا : « فرضت لى ثلاثة ولأسامة أربعة . وقد شهدت ما لم يشهد أسامة » فقال لابنه : « زدته لأنه كان أحب إلى رسول الله منك . ولأن أباه كان أحب إلى رسول الله من أبيك » .

وعبد الله أخ شقيق لحفصة أم المؤمنين .

ولما فرض لعمر بن أم سلمة – أم المؤمنين – أربعة آلاف ، وكان من شيعة علىّ ، استعتب البعض الخليفة لحداثته فأجاب : فليأتنى الذى استعتب بأم مثل أم سلمة أعتبه » .

وأم المؤمنين أم سلمة أعلى الأصوات فى الدفاع عن علىّ .

ولقد كان عمر صادقًا يوم عدل إلى رأى أبى بكر وقال : « لئن بقيت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأوّلهم ولأجعلنهم رجلا واحدًا »[1] .

وجرى قضاء الله بأن يطعن أبو لؤلؤة المجوسى عمر فى المسجد فبعث عمر

---

(١) ربما أوضح أن المال – بالنسبة للصحابة رضوان الله عليهم – لم يكن وسيلة للثراء وإنما كان حقًا لهم يجىء من بيت المال ، لينفقوه فى وجوهه ، ومساعدة المحتاجين ، أن أم المؤمنين زينب بنت جحش تصدقت بالمال كله . وتمنت أن تموت قبل أن يحول الحول . فاستجاب لها ربها فكانت أسرع زوجات الرسول لحوقًا به . وأن أم المؤمنين عائشة لم ترض أن تنماز عن أمهات المؤمنين . وأن أموالهن كانت تجرى إلى المسلمين .

وروى الطبرانى وأبو نعيم عن خزيمة بن أوس قال : قدمت على النبى يوم تبوك فسمعته يقول هذه الحيرة قد رفعت إلى ، وإنكم ستفتحونها . وهذه الشيماء بنت نفيل الأزدى على بغلة سوداء معتجرة بخمار أسود – فقلت : يارسول الله . إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهى لى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « هى لك » . فأقبلنا مع خالد نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيماء على بغلة سوداء معتجرة بخمار أسودفتعلقت بها وقلت : هذه وهبها رسول الله لى .

فطلب منى خالد البينة. فأتيته بها. فسلمها لى. ونزل إلينا أخوها عبد المسيح فقال لى: أتبيعنيها؟=

إلى قوم كانوا يجلسون بين منبر الرسول وقبره من يقول : يقول لكم عمر : أنشدكم الله . أكان ذلك عن رضا ؟ فتلكأ قوم . فقال على : « وددنا أنا زدنا فى عمره من أعمارنا » - هكذا أصاب البعض الحصر . وواتت عليًّا الإجابة المواسية . وهى يقين عند عمر .

أوصى عمر أن تكون الخلافة لواحد من الستة الذين مات النبى وهو عنهم راض . ثم اختاره الله إلى جواره . واجتمع أصحاب الشورى وأدار المداولات عبد الرحمن بن عوف ، مذ أعلن أنه لن يكون له فى الخلافة أرب . واستجوب الناس حتى استيقن من تحقيقاته أن لكل من علىّ وعثمان مؤيدين فى جماعة المسلمين - فرقى المنبر وجلس مجلس النبى وأخذ بيد علىّ وقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر ؟

قال علىّ : اللهم لا . ولكنى أحاول من ذلك جهدى وطاقتى .

فأرسل عبد الرحمن يده وقال : هلم إلىّ ياعثمان . فأخذه بيده وقال : هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبى بكر وعمر . قال عثمان : اللهم نعم ..

قال عبد الرحمن : اللهم اشهد .. اللهم اشهد .. وبايع عبد الرحمن عثمان . وقام الناس فبايعوا .. وفيهم علىّ بن أبى طالب .

وظاهر أن فيصل التفرقة بين الجوابين هو قول علىّ : أحاول جهدى وطاقتى وهو جواب رجل طالما حاول جهده وطاقته للنبى ، ولأبى بكر وعمر . كما صنع أبو بكر وعمر ، وكما سيصنع علىّ فى خلافته وسيصنع عثمان فى خلافته . فلا عليه إن أجاب ذلك الجواب الفقهى ، الصادق . من كل وجه . لكن السماء لم ترد أن يرضى ذلك الجواب عبد الرحمن ، لتكون الخلافة يومئذ لعثمان ابن عفان ، باختيار من المسلمين ، فى حدود ما قدرته السماء . وكان فى المسلمين يومئذ شبه إجماع على أن الخلافة آيلة إلى علىّ بحكم سنه .

= قلت . نعم . قال : احتكم . قلت : لا أبيعها بأقل من ألف درهم . فدفعها . فقيل لى : لو قلت مائة ألف لدفعها ! قلت : لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم . قال الطبرانى : وبلغنى أن البينة كانت محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر .

الفصل الثانى

أبُو الشهَداء

« هذان ابناى وابنا بنتى . اللهم
إنى أحبهما . فأحبهما . وأحب من
أحبهما » .

« حديث شريف »

هما ريحانتاى من الدنيا .

« حديث شريف »

مضت سنوات ست على عثمان فى الخلافة وهو راض مرضىّ يحدر إلى الثمانين أو منها ، أعقبتها ست أخرى ، منها أربعة تتناهى إلى سمعه فيها وشوشة الشكوى من كل صوب . ومنها اثنتان يتعالى فيهما تشويش المشوّشين ممن لا يصبرون . ومراجعة الذين يتحملون المسئولية معه : غاضبه عبد الرحمن ابن عوف الذى اختاره للمسلمين . وغضب هو على عبد الله بن مسعود وعلى أبى ذر – أصدق الناس لهجة – وعلى عمار بن ياسر ، الذى واعده الرسول وأباه وأمه على الجنة . وهذان الأخيران ، منذ انفجر فجر الإسلام ، شيعة علىّ .

أما ابن مسعود فهو القائل يوم اختيار عثمان : بايعنا أفضلنا ولم نأل . وأما عبد الرحمن فقد أوصى لعثمان بين أهل بدر . ولما مات أخذ نصيبه . ونفى عثمان أبا ذر من المدينة إلى الرَّبذة[1] أو نفى أبو ذر نفسه ، احتجاجًا

(١) قرية على مبعدة ثلاثة أيام من المدينة .

على ما صار إليه أمر معاوية وعثمان .

في هذه الفترة الأخيرة اجتمع الناس فتذاكروا الأحداث ، وكلّفوا عليًّا أن يكلّم عثمان كما روى الطبرى فى أحداث سنة ٣٤ . وعلىّ وعثمان صهران للرسول : الأوّل فى زهراء الرسول والثانى فى ابنتى الرسول .

والرسول يقول وهو يزوّجه : « لو كنّ عشرًا لزوجتهن عثمان » . ونصح علىّ عثمان أغلى النصيحة ، وأجابه عثمان بمبرراته فى تعيين الولاة من أهله ، ومما قال : « إن معاوية عينه عمر » . قال على : « لكنه كان أخوف له من خادمه يرفأ » .

واستمر الناس فى ضيقهم بالأمور ، حتى إذا كان الموسم حجّ الولاة فجمعهم عثمان للمشورة فكانوا معاوية بن أبى سفيان « الشام » وسعيد بن العاص « الكوفة » وكلاهما ابن عم لعثمان[1] . وعبد الله بن سعد بن أبى سرح « مصر » وهو أخو عثمان من الرضاع . وعبدالله بن عامر « البصرة » وهو ابن خال عثمان[2] فلما انصرفوا إلى أقاليمهم ردّ أهل الكوفة سعيد ابن العاص ، وطلبوا أن يتولّى عليهم أبو موسى الأشعرى ، فولّاه عثمان وأرسل المصريون فى سنة٣٥ وفدًا للعمرة يناظرون عثمان فى سياسة ولاته وكان

---

(١) كان أبو سفيان إحدى تبعات معاوية، أرسل معه من دمشق أموالا وأغلالا إلى عمر ليظهره على الأغلال التى كان أسارى المسلمين مقيدين بها فى حصون الروم . فلما رجع أبو سفيان إلى المدينة ذهب إلى عمر بالأغلال ولم يذهب بالمال . فسأله عمر : أين المال ؟ قال : كان علينا دين ومئونة ولنا فى بيت المال حق . فإذا أخرجت لنا شيئا ؟ قال عمر : اطرحوه فى القيود حتى يأتى بالمال .. فأرسل أبو سفيان فجاء بالمال .

(٢) عبد شمس أخو هاشم جد النبى . وهما ابنا عبد مناف . ولعبد شمس بنون : منهم حبيب جد عبد الله بن عامر .

ومنهم أمية أبو حرب والد أبى سفيان ، والد معاوية .

ومنهم أبو العاص وله أبناء منهم عفان أبو عثمان . والحكم أبو مروان . ومروان كاتب عثمان ومنهم أبو عمرو وله أبناء منهم أبو معيط جد الوليد بن عقبة الذى حده عثمان للخمر ، وهو وال له . ومنهم العاص أبو سعيد أحد ولاة عثمان .

ومنهم أبو العيص جد عتاب بن أسيد عامل النبى على مكة . حيث ولى النبى أعداءه السابقين ولم يول أهله .

عليّ ومحمد بن مسلمة رسولى السلام بين الخليفة وبين الناس[1] .

وانضم بعض أهل المدينة إلى الناقدين فى نقدهم . وعنفوا على عثمان بالمسجد . فقنع بالبقاء فى داره . وأحاط القوم بالدار .

وأقبل بعض بنى أمية يحرسونها ، لكن الحراسة الحق كانت حراسة أبناء الصحابة : الحسن بن عليّ ، والحسين بن عليّ . وعبد الله بن عمر ومحمد ابن طلحة وعلى إمرتهم عبد الله بن الزبير إذ عينه الخليفة . وأمر الرجال ألّا يحاربوا أحدًا . ولم يخرج الخليفة للحج وأمّر عليه عبد الله بن العباس .

ولم يقدم للحج أحد من ولاة عثمان هذا العام ، فلم يكن ذلك مفهومًا لأحد ، إلّا أن يكون تقصيرًا من الولاة .. وليس فى المدينة جند . فهى كما يقول الرسول « حرم آمن » . وإنما الجند فى الأقاليم وبخاصة فى الشام حيث معاوية .

ولما تلا ابن عباس خطاب الخليفة على الحجيج لم يخفوا لنصرته .. وأصبح عثمان صائمًا غداة ليلة ، وبقى يحدث الحرس ألّا يقاتلوا . حتى أقبل الثوار وقتلوه .

* * *

اجتمع أصحاب الرسول بعد مقتل عثمان يشتورون ، وفيهم طلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام ، فأتوا عليًّا وقالوا : لابدّ للناس من إمام . فقال لهم والضيق يغلب على نفسه : « لا حاجة لى فى أمركم . فمن اخترتم رضيت به » . قالوا : ما نختار غيرك . وألحوا . وهو يرفض ويقول : « لأن أكون وزيرًا خير من أن أكون أميرًا » . قالوا : والله ما نحن منصرفين عنك حتى نبايعك .

ولما رأى إلحاح القوم خرج إلى المسجد وبايعه الناس . فصعد المنبر وقال : « أيها الناس . عن ملأ وأذن . إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلّا من

---

(١) راجع مالك بن أنس إمام دار الهجرة للمؤلف طبعة دار المعارف حيث تفصيل أكثر للخلاف بين أهل المدينة وعثمان .

أمرتم . وقد افترقنا أمس على أمر ، وكنت كارهًا لأمركم ، فأبيتم إلاّ أن أكون عليكم . ألا وإنه ليس لى دونكم إلاّ مفاتيح أموالكم معى . وليس لى أن آخذ درهمًا دونكم » .

وفرق أمير المؤمنين عماله فى الأمصار ، وتوقف بعض الناس فى بعض الأمصار ، فجمع رجلى شوراه ، طلحة والزبير ، فقال : « إن الأمر الذى كنت أحذركم قد وقع ، وافترق المسلمون وسأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدواء الكى » . وكتب إلى الأمصار فأجمعت الطاعة إلاّ معاوية ابن أبى سفيان بالشام . حبس رسول أمير المؤمنين إليه ثلاثة أشهر ، ثم بعث بردّه يصدّره بقوله : من معاوية إلى علىّ . كأنه ندّ له ! بل طالبه فيه بدم عثمان . كأنما علىّ هو الذى قتله ! وكأنما معاوية صاحب دمه ! وهو واحد من تاركيه بالمدينة ، للثوار ، بلا نجدة ! وعبأ معاوية جيشه لقتال علىّ .

وفيما كان علىّ يتجهز لقتال معاوية أتاه الخبر أن طلحة والزبير قد نقضا البيعة وأنهما ، ومعهما أم المؤمنين عائشة وأهل مكة ، خالفوه ، وخرجوا عليه ، قاصدين إلى البصرة ، فنهد للحرب . وكانت وقعة الجمل حيث انتصر ، وذكر يوم ذاك الزبير بقول النبى للزبير : « لتقاتلنه وأنت ظالم له » فترك الزبير حربه ، وندم طلحة قبل أن يستشهد .

ثم رجع أمير المؤمنين يسوى حسابه مع جيش الشام بقيادة معاوية ، وتلاقى الجيشان فى صفين[1] وفيها استشهد عمار بن ياسر ، وهو فى التسعين من العمر . وفيه قول الرسول : « تقتلك الفئة الباغية » . وهو حكم على جيش معاوية .

أما أمير المؤمنين يومئذ ففيه يقول ابن عباس جوابًا لرجل سأله : أكان علىّ يباشر القتال فى صفين ؟ : « والله ما رأيت رجلاً أطرح لنفسه فى متلفة مثل علىّ ، رضى الله تعالى عنه . ولقد كنت أراه يخرج حاسرًا عن رأسه بيده السيف إلى الرجل الدارع فيقتله » .

---

(١) شهد صفين مع علىّ ألفان وثمانمائة من الصحابة .. منهم سبعة وثمانون من أهل بدر وتسعمائة من الأنصار ومن بايعوا بيعة الرضوان .

تراءت بشريات النصر للبطل الذى تعوّد النصر ، فرفع جيش الشام المصاحف على أسنة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله بينهم ، فأبى علىّ أن يحارب والمصاحف مرفوعة . وتمت خدعة التحكيم باختيار معاوية عمرو بن العاص حكمًا يمثله ، واختيار أصحاب علىّ أبا موسى الأشعرى ، وخديعة عمرو لأبى موسى . إذ راوده على أن يخلع كل منهما صاحبه ويتركا الأمر للمسلمين يختارون من يشاءون . فقبل - ثم قدّم عمرو أبا موسى فخلع صاحبه . فلما جاء دور عمرو ثبت صاحبه ...!

وخرج من أصحاب علىّ جماعة لقبوله التحكيم فيما هو حق له . فحاربهم وانتصر عليهم فى « النهروان » وأطلق عليهم المسلمون اسم « الخوارج » .

وأخذ يعبئ جنده لمنازلة جيش الشام ، وبدا على جنده آثار التعب من القتال ، وعلى جيش معاوية آثار شرائه للرجال . وانقسم المسلمون فهذا حزب علىّ . وهذا حزب معاوية ! والذين عاصروا الإسلام منذ ظهوره ، كالذين درسوه والذين صدقوا فيه ، يفهمون المرارة فى قول أمير المؤمنين : « أنزلنى الدهر حتى قيل علىّ ومعاوية !» .

رضى الله عن أمير المؤمنين وأرضاه . فما كان ذلك ليقع إلاّ فى آخر الزمان الذى قدره الله للخلفاء الراشدين[1] . وفى آخر الأيام التى قدرها الله لحياته .

لقد طعنه عبد الرحمن بن ملجم فى السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ ، باتفاق بينه وبين زميلين من « الخوارج » أن يقتلوا عليًّا ومعاوية وعَمرًا .

---

(١) أما أهل السنة فيمثل رأيهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل إذ سئل من الخلفاء ؟ وأجاب : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . قال السائل : فمعاوية ؟ قال أحمد : « لم يكن أحد أحق بالخلافة فى زمن علىّ من علىّ . ورحم الله معاوية » . ولما ذكر عنده سير عائشة مع طلحة والزبير قال : فكرت فى طلحة والزبير ، أهما كانا يريدان أعدل من علىّ بن أبى طالب ؟ رضوان الله عليهم أجمعين - وجاءه يومًا جماعة فأكثروا القول وأطالوه فى خلافة علىّ فرفع إليهم رأسه وقال : إن الخلافة لم تزين عليًّا ولكن عليًّا زينها .

ومثل الشافعى رأى المسلمين عندما قال رجل : « ما نفر الناس من علىّ إلاّ لأنه كان لا يبالى بأحد » فبهته الشافعى بقوله : « كان له أربع خصال لا تكون واحدة منها لإنسان إلاّ ويحق له ألاّ يبالى بأحد : أنه كان زاهدًا ، والزاهد لا يبالى بالدنيا وأهلها . وكان عالمًا ، والعالم لا يبالى بأحد . =

فأصيب معاوية فى عجزه . ولم يصب عمرو إذ لم يخرج للصلاة وأناب نائبًا عنه فقتل .

أمر معاوية بالرجل فقتل ، وأمر عمرو برجله فقتله . لكن أمير المؤمنين أمر باستبقاء قاتله قائلاً – وهو الطعين المشرف – إنه إذا عاش فهو ولىّ دمه . وإذا مات فإنه ينهى عن المثلة . ليعلّم الناس الدين ، كمثل ما علّم العالم جميعه « قوانين الحرب والسلام » فى حروبه فى « الجمل » سنة ٣٥ ، و« صفين » سنة ٣٦ ، و« النهروان » سنة ٣٧ . فتداولتها المذاهب الأربعة لتقدمها هدية من فقه الإسلام للقوانين المعاصرة .

ومات أمير المؤمنين بعد يومين عن ٦٥ أو ٦٣ عامًا ، وأربعة أعوام وتسعة شهر ويوم واحد فى خلافةٍ كلها معارك .

ولما مات لم يوجد بخزائنه إلّا ستمائة درهم استبقاها ليشترى بها خادمًا . بل – وكما لخص حياته سفيان الثورى – « ما بنى لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وإن كان ليؤتى بحبوته فى جراب » . الحبوة الخراج .

وكما يقول محمد بن كعب القرظى : « سمعت علىَّ بن أبى طالب يقول : لقد رأيتنى وأنا أربط الحجر على بطنى من الجوع وإن صدقتى لتبلغ ذلك اليوم أربعة آلاف دينار » .

= وكان شجاعًا ، والشجاع لا يبالى بأحد . وكان شريفًا ، والشريف لا يبالى بأحد » .

وأما الخوارج على جيشه فكانوا ثمانية آلاف دعاهم ليزيل شبهتهم . فأبوا أن يجيئوه إلّا أن يقر بالكفر على نفسه ثم يتوب ، فحاربهم ونصره الله عليهم . ثم حاربوا الأمويين والعباسيين . ومع تكفيرهم الكثيرين من جمهور المسلمين بدعوى التهاون فى الدين فالمسلمون لا يكفرونهم لأنهم متأوّلون . وأمير المؤمنين علىّ يعلم المسلمين ذلك بقوله عنهم : « إخواننا بغوا علينا » .

وفقه علىّ فى معاملة العدو وفى الحرب عنوان على علم الإمام وحلمه . فهما من علم النبى وحلمه .

إذا كانت هند بنت عتبة « أم معاوية » مثلت بجثة أسد الإسلام حمزة يوم أحد ، وقال النبى يوم ذاك « ما وقفت موقفًا قط أغيظ لى من هذا » فلما جاءه يوم فتح مكة « وحشى » قاتل حمزة اكتفى بقوله : « ويحك غيب عنى وجهك » . وقال يوم ذاك لهند بنت عتبة ، آكلة الأكباد : « مرحبًا بك » . وقال للأعداء : « أنتم الطلقاء » ، فلقد صنع على صنيعه « يوم الجمل » عندما ظفر بابن الزبير فاكتفى بأن قال له : « لا أرينك بعد اليوم » وظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه . وظفر بأهل البصرة فصفح الصفح الجميل .

ولما قال معاوية لضرار من ضمرة : صف لى عليًّا ، قال فيما قال : كان بعيد المدى ، شديد القوى . يقول فصلًا . ويحكم عدلًا . يتفجر العلم من جوانبه . وتنطق الحكمة من لسانه . يستوحش من الدنيا وزهرتها . ويستأنس بالليل ووحدته . وكان – والله – غزير الدمعة ، طويل الفكرة يعجبه من اللباس ماقصر ، ومن الطعام ماخشن . وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه . ويبتدئنا إذا أتيناه .. ونحن – والله – مع تقريبه لنا ودنوّه منّا لا نكلّمه هيبة له . لا يطمع القويّ فى باطله ولا ييْئس الضعيف من عدله .. يبكى بكاء الحزين ويقول : يادنيا إلىَّ تعرضت أمْ إلىَّ تشوفت . فهيهات ، هيهات . غرِّى غيرى » .

* * *

بايع المسلمون الحسن بن على أميرًا للمؤمنين . فخرج بجيش قوامه أربعون ألفًا للقاء جيش معاوية . وتخاذل جنده كهيئة تخاذل الجند بين يدى أبيه . وجرت البُرد بينه وبين معاوية فأحدث بينه وبين معاوية صلحًا بعد خلافة دامت ستة أشهر وخمسة أيام « لعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » . فذلك قول جده عليه الصلاة والسلام .

ودخل المتصالحان الكوفة . فسمّى البعض عامهما هذا عام الجماعة . وأسماه الجاحظ (عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة) .

حدث الشعبى قال : شهدت خطبة الحسن رضى الله عنه حين صالح معاوية وخلع نفسه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فان أكيس الكيس التقى . وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه ، إن كان له فهو أحق به منى ، وإن كان لى فقد تركته إرادة لإصلاح الأمة وحقن دماء المسلمين . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » .

ورجع الحسن إلى المدينة . وعوتب على صلحه فقال : « اخترت ثلاثًا على ثلاث . الجماعة على الفرقة ، وحقن الدماء على سفكها ، والعار على النار » .

وليس بغير هذا يتكلم الحسن . فلقد كان رجل عبادة وسلام للناس . خرج

من ماله مرّتين . وقاسم الله ثلاث مرات . وحج عشرين حجة ماشيًا من المدينة إلى مكة وكان من شروط الصلح أن يكون الأمر للشورى بعد معاوية .

وفى ربيع الأوّل سنة ٤٩ هـ . شعر بالسم يسرى فى جسده لتبدأ به سلسلة أئمة أهل البيت الذين يموتون مسمومين على أيدى بنى أمية وبنى العباس . فأوصى للحسين . وقال : « إذا متّ فادفنى مع جدى ما وجدت لذلك سبيلا » .

لكن مروان بن الحكم والى معاوية على المدينة منع من تنفيذ الوصية ، فدفن الحسن بالبقيع . وسيدفن معه فى قبره أئمة أهل البيت الرابع والخامس والسادس . فأكرم به قبرًا : فيه أمير المؤمنين الحسن ، وعلى زين العابدين - بن الحسين - وابنه محمد الباقر وابن الباقر : « جعفر الصادق » .

* * *

لما مات الحسن كبر أهل الشام : فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية . أعلى موت ابن فاطمة تكبر ؟ قال : ما كبرت شماتة بموته ولكن استراح قلبى .

وقال له ابن عباس : والله يا معاوية لا تسدّ حفرته حفرتك ولا يزيد عمره فى عمرك ..

وطلب معاوية البيعة لنفسه من محمد بن مسلمة الفدائى الثانى من أصحاب الرسول - إذ علىّ الفدائى الأول[1] - فقال له : « لعمرى يامعاوية ما طلبت إلّا الدنيا ولا اتبعت إلّا الهوى ، ولئن كنت نصرت عثمان ميتًا لقدخذلته حيًّا . ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولى بالصواب » .

---

(١) أوّل عمل فدائى فى الإسلام قام به علىّ ليلة نام فى فراش النبى .

ومحمد بن مسلمة هو الرجل الثانى فى هذه المدرسة . سمع الرسول يقول - فى المدينة - من لكعب ابن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله - وكان كعب يؤذى المسلمين بهجائه ويحرض قريشا عليهم - فقام محمد بن مسلمة فقال : يارسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال : نعم . قال : فأذن لى أن أقول شيئا « مما يتقرب به إلى كعب وهو بحسب الظاهر طعن فى الإسلام » قال النبى ؛ قل ما بدا لك - فأتاه محمد بن مسلمة فى نفر من الأنصار منهم أبو نائلة أخو كعب من الرضاع .

قال ابن مسلمة : ياكعب إن هذا الرجل « يعنى النبى » قد عنانا بالصدقات وإنى قد أتيتك استسلفك . قال كعب : والله لتملنه . قال ابن مسلمة : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى تنظر ما يكون من شأنه . وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين . قال : فارهنونى أبناءكم . قال ابن مسلمة : كيف =

ولما دخل سعد بن أبي وقاص على معاوية قال : السلام عليك أيها الملك . قال معاوية : ما كان عليك ياأبا إسحق إن قلت أمير المؤمنين ؟

كتب معاوية إلى عماله بنسخة واحدة « انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليًّا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه » وأمر من يأتمرون بأمره ألّا يرووا أحاديث فضائل علىّ وشيعته ، ثم تمادى ، فكلّف ولاته أن يلعنوا عليًّا ومن أحبه على المنابر . فكتبت إليه أم المؤمنين أم سلمة تقول : « إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم لأنكم تلعنون عليًّا ومن أحبّه وأشهد أن رسول الله ﷺ أحبّه » .

= نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين . نرهنك السلاح . فقبل ... وتواعدوا على الليل حتى جاءوه فنزل إليهم من حصنه فضربوه بأسيافهم فقتلوه .

وكان ابن مسلمة . يسمى « فارس رسول الله » . كان على رأس مائة فارس يسبقون المسلمين طلائع لهم يوم الحديبية . واستخلفه الرسول على المدينة عندما سار بجيش العسرة ليرد الروم إلى تخوم شبه الجزيرة بعد فتح مكة .

وكان سعد بن أبي وقاص بطل القادسية وفاتح العراق ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ومنهم الراشدون الأربعة . والرسول يقول عنه : هذا خالى . فليأت كل فتى بخاله ! وقد دعا له الرسول بالاستجابة لدعائه ، فكان الكل يخشى أن يدعو عليه . لكن عمر بلغه أن سعد بن أبي وقاص بنى لنفسه قصرًا وجعل عليه حاجبًا فبعث إليه محمد بن مسلمة ليحرق عليه القصر وكتب إلى سعد يقول : « بلغنى أنك بنيت قصرًا اتخذته حصناً ويسمى بيت سعد .. وجعلت بينك وبين الناس بابًا . فليس بقصرك . ولكنه قصر الخبال » وصنع محمد بن مسلمة – وعاد بسعد وبالشاكين إلى عمر . فضنّ عمر بسعد عليهم ورفض أن يعيده إلى بلدهم .. وقال لعثمان : إنى لم أعزله عن خيانة . ووضعه بين الستة أصحاب الشورى .

ولما دارت المكاتبات بين عمر وعمرو بن العاص . فاتح مصر – بعث إليه محمد بن مسلمة وكتب إليه يقول : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن لك حين وليت مصر » وأجاب عمرو إن أرضنا أرض زرع وشجر ونحن نصيب فضلا عما نحتاج لنفقتنا . ورد عمر : « إنى خبرت من عمال السوء ما كفى وكتابك إلى كتاب من أقلقة الأخذ بالحق . وقد سؤت بك ظناً . ووجهت إليك محمد ابن مسلمة ليقاسمك مالك . فأطلعه طلعلك . وأخرج إليه ما يطالبك . وأعفه من الغلظة . فقد برح الخفاء » .

فقاسم محمد عَمرًا . وعَمرو يقول متوجعًا : « إن زمانًا عاملنا فيه ابن حنتمة « أم عمر » هذه المعاملة لزمان سوء . لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج » قال محمد : « لولا زمان ابن حنتمة هذا الذى تكره ألفيت معتقلا عنزًا بفناء بيتك » قال عمرو : « أنشدك الله لا تخبر عمر بقولى فإن المجالس بالأمانة » قال محمد « لا أذكر شيئًا مما جرى وعمر حى » .

ولما دانت الدنيا لمعاوية قيل له : قد بلغت ما بلغت . فلو كففت عن الرجل ؟ فقال : « لا والله حتى يربو عليها الصغير ويهرم الكبير » .

ولو عاش بضع سنين بعد عام موته لشهد انهيار دولته وانتهاء أسرته - أما الذين جاءوا بعده فسيشهدون صعود الشمس فى السماء معلنة حق علىّ ، مؤذنة بظهور أهل بيت النبى .

جعل معاوية الخلافة ميراثًا لابنه يزيد ، بالسيف على رءوس أبناء الصحابة جهرة . وبالرعب فى قلوب المستضعفين ، وبالرشى فى جيوب الآخرين !

أما الحسين بن علىّ فلم يستدرج ولم يستضعف وأبى أن يبايع ليزيد .

وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فقال لمعاوية كلمته الخالدة فى خلافته وخلافة ابنه ومن جاءوا بعده : إنهم جعلوها « هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل » .

وعبد الرحمن بن أبى بكر هو جدّ « جعفر الصادق » من ناحية أمه وأمها . أما الحسين فجدّه من ناحية أبيه .

وكان رأى محمد بن مسلمة وسعد بن أبى وقاص أن معاوية ، صاحب ملك .. ولكن ملك معاوية كان بصلح مشروط . فلما خرج على الشروط ، أمسى حقًّا لكل مجتهد أن يقول فيه باجتهاده ، فى المرّة الأولى والمرّة الآخرة .

ولقد قال أمير المؤمنين على قوله فيه . وكشف الله لحكمة الإمام وجه الحق فيما صار إليه أمر معاوية وأمور المسلمين . فحسبنا وحسبه قول علىّ فيه - وقد أسلفناه - بل قول النبىّ لعمار عن جيش معاوية : « تقتلك الفئة الباغية » .

أما عمرو فلأئمة السّنة فيه ما يكفيه . وحسبه قول الشافعى فيه ، حول أساطين جامعه ، حيث راح الشافعى يروى بعد قرن ونصف قرن فى « جامع عمرو » بفسطاط مصر ، دخول ابن عباس على عمرو ، وهو ابن بضع وثمانين ، وقول عمرو : أصبحت وقد ضيعت من دينى كثيرًا وأصلحت من دنياى قليلا ، فلو كان الذى أصلحت هو الذى أفسدت والذى أفسدت هو الذى أصلحت لقد فزت .. فعظنى بعظة أنتفع بها يا ابن عباس . قال ابن عباس : هيهات .. قال عمرو : ابن بضع وثمانين وتقنطنى من رحمة الله ! ثم رفع يديه

وقال : اللهم إن ابن عباس يقنطنى من رحمتك . فخذ منى حتى ترضى .
قال ابن عباس : هيهات يا أبا عبد الله . تأخذ جديدًا وتعطى خلقًا .
قال : من لى منك يا بن عباس . ما أرسل كلمة إلّا أرسلت نقيضها !
والمسلمون يتناقلون قول الشافعى فى جامع عمرو عن عمرو : قدم ابن عمامة على عمرو فألفاه صائمًا وقد أحضر إخوانه طعامًا ، وصلى صلاة فأتقنها . ثم أتى بمال فأمر بتفريقه . قال ابن عمامة : يا أبا عبد الله واتاك مال أنت به أحق من غيرك ففرقته . بم ذاك يا أبا عبد الله ؟ قال : ويحك يا ابن عمامة فلو كانت الدنيا مع الدين أخذناها وإياه . ولو كانت تنحاز عن الباطل أخذناها وتركناه . فلما رأينا ذلك كذلك خلطنا عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى أن يرحمنا الله .
وسمع العالم الشافعى فى جامع عمرو يهتز تحنانًا إلى أبناء علىّ فى الحجاز فينشد :

ياراكبًا قف بالمحصب من منى	واهتف بقاعد خيفها والناهض
....	....
إن كان رفضًا حب آل محمد	فليشهد الثقلان أنى رافضى

ريحانة النبى فى كربلاء :

انتهى عصر معاوية بعد خلافة طالت تسعة عشر عامًا وثلاثة أشهر وخمسة أيام[1] ليبدأ عصر يزيد (٦١ – ٦٤) فكان أفسد حكم . وقع فيه أفظع ظلم . وأعمق جرح فى قلوب أهل الإسلام . أنهاه الله بإنهاء عمره وانقطاع عقبه

(١) بنو أمية : معاوية : ٤١ – ٦٠ « يزيد » ٦٠ – ٦٤ « معاوية بن يزيد » ثلاثة أشهر فى سنة ٦٤ .

بنو مروان :	مدة الخلافة :	
مروان بن الحكم :	٦٤ – ٦٥	
عبد الملك بن مروان مدة الخلافة :	٦٤ – ٨٦	=

وعقب أبيه من سجل الدولة التى سعيا لها كل ذلك المسعى !

فسيخلفه ابنه معاوية بن يزيد . فيعلن أنه وأهله لا يستحقون الخلافة . ويعتزل بعد نحو أشهر ثلاثة . فكان اعتزاله من تلقاء نفسه وعباراته . وهو يعتزل ، شهادتين بالفعل وبالقول ، من نفس بنى أمية . بأنهم جائرون .

أنهى يزيد سنوات حكمه بتجريد جيش على المدينة يسفك دمها ، وينتهك حرمها ، فى وقعة الحرة سنة ٦٣ ، ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول . فلم يبق بعدهم على ظهر الأرض بدرى واحد ! وقتل من قريش والأنصار ثمانمائة ! ومن الموالى والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف ، ثم لفظ آخر أنفاسه وجيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها ! وأىّ نهاية لبشر أفظع من هذه النهاية ! بل أى نهاية لدولة أبلغ فى الدلالة على غضب السماء عليها !

فما كان حرق الكعبة ولا قتل الصحابة وتذبيح الآلاف إلّا تتابعًا للأحداث التى بدأ بها السنوات الثلاثة . وختامًا طبيعيًّا للبداية المفظعة لحكمه . وجزاء له ولدولته . ينزله بها وبنفسه .

لقد استفتح حكمه بجريمة كربلاء فى يوم عاشوراء ! فى العاشر من المحرم سنة ٦١ . فوقع فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، مثله أو قريبًا منه ، من استشهاد أبى الشهداء : الحسين بن على الذى دعا له النبى : « اللهم إنى أحبّه .. فأحب من يحبه » ، والذى عظّمه الخلفاء الراشدون والناس جميعًا على مدار العصور . وهو القدوة فى عطائه وعبادته وتواضعه وشجاعته فى كل موقف :

= الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة : ٨٦ - ٩٦
سليمان بن عبد الملك مدة الخلافة : ٩٦ - ٩٩
عمر بن عبد العزيز بن مروان مدة الخلافة : ٩٩ - ١٠١
يزيد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٠١ - ١٠٥
هشام بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٠٥ - ١٢٥
الوليد بن يزيد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٢٥ - ١٢٦
يزيد بن الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٢٦
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك مدة الخلافة : ١٢٦
مروان بن محمد بن مروان مدة الخلافة : ١٢٧ - ١٣٢ هـ أو ٧٥٠ م .

فى « الجمل » و « صفين » و « النهروان » إلى جوار أمير المؤمنين علىّ وفى غزو أفريقية . وخراسان . وجرجان . والقسطنطينية . متصدرا جيوش المسلمين فى عهد معاوية .

كان بقية الرسول ﷺ . وكانت آمال الأمة فيه آمالها فى بقية الرسول .

وكان أبعد الناس عن أن يستخلف على المسلمين يزيد : يزيد الصقور ، يزيد الخمور كما لقّبه معاصروه . فلم يكن أحد ليأمل شيئًا من عهد يزيد ، إلّا دنيا يصيبها أو أموالاً يجمعها . ولذلك رفض الحسين أن يبايعه .

ودعا أهل الكوفة الحسين إليهم فبعث قبله مسلمًا ابن عمه عقيل . وخرج فى أثره . فقتل عبيد الله بن زياد والى الكوفة مسلمًا . وتخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين . فمضى حتى بلغ « كربلاء » على مبعدة خمسة وعشرين ميلاً من الكوفة وفى ركبه ثمانية عشر رجلاً من أهل بيته وستون من شيعته .

هنالك لقيهم جيش عبيد الله بن زياد ، على رأسه عمر بن سعد والى عبيد الله على الرى ، فأعلن لهم الحسين أنه لا يريد الحرب ، وخيّرهم بين ثلاث : « أن تتركونى ألحق بيزيد . أو أن أعود من حيث جئت . أو أمضى إلى بعض ثغور المسلمين فأقيم فيها » ورفض ابن زياد إلّا أن ينزل الحسين على حكمه ، أى أن يستسلم ليصير أسيرًا لابن زياد ويزيد ! ليصنعا فيه ما صنعاه بأهل المدينة ، بعد عامين ، من استرقاق الرجال والنساء .

وحاول ابن بنت رسول الله أن يسير بأهله فى أرض الله الواسعة ، فسدّت الجيوش أمامه كل مخرج !، وانقضت عليه سهام الآلاف وسيوفهم ، وهو يحارب كالأسد . وتسيل جراحات جسمه وهو فى السابعة والخمسين حتى استشهد[1]

---

(١) كان المحرض على قتل الحسين وأهل البيت شمر بن ذى الجوشن رقيب ابن زياد على قائد الجيش . أما قاتل الحسين فالتاث عقله ، وحمل الرأس الكريم إلى فسطاط القائد فصاح فى وجهه – وهو مراقب من شمر بن ذى الجوشن – أشهد أنك مجنون . وحذفه بقضيب . فلقد كان المجنون يصيح والرأس فى يده :

أوقـر ركـابى فـضـة وذهبـا	فقـد قتلت السيـد المحجبـا
قتلت خير النـاس أمًّا وأبـا	وخيـرهم إذ ينسبـون نسبًـا

واستشهد رجال أهل البيت جميعًا . والرجال الستون الذين يتألف منهم ركبه ، إلّا غلامًا مريضًا عاجزًا أن يتحرك هو ابنه زين العابدين « على بن الحسين » ! وساق المجرمون الحريم . وجهز عبيد الله بن زياد . زينب بنت على[1] وهذا الابن الوحيد الباقى من ذرية النبى ، ومن معهما من الحريم . مع الرأس التى طالما مسح عليها ، وقبل فاها ، رسول الله ﷺ ، إلى يزيد بن معاوية فى دمشق .

وأعاد يزيد الوفد إلى المدينة .

* * *

إن فى إنسانية البشر قابلية للفساد كهيئة قابلية المواد للهبوط إلى الأرض بقانون الجاذبية . والإسلام لذلك يرفع الناس إلى أعلى ، إذ يدفع الأنفس إلى ما هو أقوم ، بالعبادة اليومية على مدار الليل والنهار ، وتطهير النفس على مدار العمر .

---

(١) اشتركت السيدة زينب أخت الحسين من أبيه وأمه معه فى المعركة . وكان أثرها فى مصير أهل البيت عظيمًا .

كانت زوجًا لابن عمها عبد الله بن جعفر وكان قد أذن لها فى الخروج مع الحسين فكانت تمرض المصابين فى الصفوف أثناء القتال . ولقد هم شمربن ذى الجوشن بقتل زين العابدين ، فاحتضنته لتقتل معه ، فانصرف المجرم مذمومًا مدحورًا . ولما انتهت المعركة اقتيدت بين الأسرى إلى ابن زياد فى الكوفة وإلى يزيد فى دمشق ومعها زين العابدين تكلؤه بعناية الله على يديها لينجب ، فيتسلسل منه أئمة أهل البيت الاثنا عشر ، بل كل نسل الحسين من الرجال . وكانت مثال الشجاعة والبلاغة العلويتين فى وجه ابن زياد ويزيد .

ولما أعيد الأسرى إلى المدينة أمر يزيد بإبعادها إلى مصر فسارت إليها ، فاستقبلها أهل مصر فى بلدة بلبيس على مبعدة عشرات الأميال من الفسطاط ، وعلى رأس مستقبليها أمير مصر « مسلمة بن مخلد » فعاشت فى مصر عامًا . ثم ماتت سنة ٦٢ . وقبرها فى الحىّ المعروف باسمها وهو من أقدم أحياء القاهرة . وعلى مقربة منها حىّ السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن . جاءت إلى مصر مع زوجها فى المائة الثانية للهجرة ، ولقيها الإمام الشافعى ، ولما مات حملت جنازته إليها فصلت عليها وقالت : « رحم الله الشافعى . إنه كان يحسن الوضوء » ويحمل اسم السيدة نفيسة حىّ معروف بالقاهرة ، كما يحمل اسم « الحسين » المسجد الأشهر بالقاهرة والحى الذى يجد عاصمة مصر وتتعالى فيه معاهد الجامع الأزهر وغيره من آثار الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتى المماليك .

ومن الفساد ما يستغلظ فيحوج إصلاحه إلى آية من السماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر . وفى استشهاد أبى الشهداء آية من الآيات .

كانت كربلاء قارعة رجّت الأرض رجًّا يعيد الإسلام غضا فى الأنفس ، بما كان فيها من التصميم والإجماع على الاستشهاد فى سبيله .

لقد انقضى بين يوم وفاة النبى وبين كربلاء خمسون عامًا ، كانت ضرورية لتدهور إحساس بعض الرجال فى أجيال ، تدهورًا كافيًا ليقتلوا ابن نبيهم ! وهم يصلون عليه ! وعلى آله الذين يقتلونهم !

وحسب هؤلاء المجرمين حكمًا عليهم أن يقول لهم كبيرهم « يزيد ابن معاوية » وعيناه تدمعان : « قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين » ..

وإنما أطلق الروع دموعه ، وأنطق الفزع لسانه ، بقالة رياء فلقد كرر جنده يوم « الحرة » ما فعلوه ، منذ عامين ، فى كربلاء . كما صنعوه مرّة ثالثة إذ قذفوا الكعبة بالمنجنيق من أعلى جبل أبى قبيس . فالجريمة الأولى تدفع إلى الثانية ، فالثالثة وغيرها . والجرائم يصنعها المجرمون ، وتصنع المجرمين .

ويبقى هذا الرياء من يزيد ، صيحة استهزاء بقوم باعوا أنفسهم للشياطين . لقاء متاع قليل ، لا يلبث أن يزول . ربما لا يرضى عنه من ارتكب لأجله ، لكنه مأخوذ به ، ولو لم يرض عنه . فالقائد الظالم مسئول عما يقع من جنده . فما يظلمون إلّا بظلمه ، إن لم يظلموا بأمر صريح منه .

قالوا : كان الحسين يستطيع بالمداورة أو المناورة أن يكسب الزمن ، أو يستطيع بالاستسلام أن يكسب الحياة ، لكنه الذى قال فيه وفى أمه وأبيه وجده ، إقبال[1] :

هى بنت من! هى زوج من! هى أم من! من ذا يدانى فى الفخار أباها !

---

(١) الشاعر محمد إقبال . شاعر الهند وباكستان .

ومن قبله رفض أبوه رأى المغيرة بن شعبة أن يكسب الزمن بترك معاوية على الشام حتى يبايع . فلم يقبل علىّ أن يناور أو يكسب الزمن . وناور المغيرة فصار عاملا لمعاوية !

الحق أن الحسين قدم للمسلمين الذين تعاقبوا فى آثاره على مدار الزمان ، حجة بالغة من أهل بيت الرسول . إذ ينفردون فى التاريخ بهذه الخصيصة التى لم يماثلهم ، أو يقاربهم ، فيها أهل بيت آخر فى تاريخ الإنسانية : الاستشهاد فى سبيل هداية البشر لما هو أقوم . وهى بعض خصائص الرسل .

منح الاستشهاد اسمًا لكربلاء . وخلّد الأسماء التى تساقط أصحابها كالكواكب المنتثرة من السماء فوق الصحراء ، لا لتنكدر ، ولكن لتقدّم للبشر درس الدفاع عن الحق . من فئة قليلة ، واثقة فى الحق سبحانه ، لا تهمها أرواحها ، وإنما يهمها العمل الصالح فى ذاته . ولا تنظر إلى الساعة التى هى فيها ، وإنما تمد أبصارها إلى مستقبل الإنسانية كله ، لترتفع بالدنيا إلى مستوى أفكار الأئمة .

ولقد صدق الحسين المسلمين فى كل موقف وقفه . وكان عند وصية أبيه له ولأخيه الحسن وهو يجود بأنفاسه الأخيرة : « أوصيكما بتقوى الله . ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما » فلم يبتغ الدنيا واشترى بها الآخرة .. فأمسى يقول : « إنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برما » .

وشملت السماء ابن النبى فى كربلاء بمزيد من التأييد . بمعان جليلة من جلال الإسلام ، تختار منها هنا واقعة منه وواقعة من عدوه : فى الأولى أخذ إخذ أبيه فسقى جيش العدو من العين التى نزل عندها ولم يحرم الماء قاتليه[1] . وفى

(١) وتعلّم عليهما صلاح الدين فى حربه مع الصليبيين يوم أرسل طبيبه إلى الملك رتشارد قلب الأسد قائد الصليبيين .

وأين من قواعد الحرب الإسلامية قواعدها عند الأوربيين . إن أبقراط أبا الطب اليونانى الذى ورثت أوربة قَسَمه الأشهر يقسمه كل طبيب قبل أداء واجبه بالنزاهة والأمانة وعدم التعصب – لكن أبقراط=

الأخرى ترك قائدان من القواد جيش ابن زياد ، فى وطيس المعركة ، إلى الجماعة العزلاء حول الحسين ، ليستشهدوا فى الدفاع عن سيد الشهداء . بين رجاله الذين ماتوا عن آخرهم ، وهم عليمون أنهم يخوضون معركة خاسرة بكل المقاييس التى يتقايس بها المتحاربون ، مظفرة بمقاييس المؤمنين .

ولو عاش هؤلاء الشهداء العظماء . سنوات أو أشهرًا أخرى ، لماتوا كما يموت الآخرون . لكنهم ماتوا شهداء « كربلاء » ، ليحيوا فى ضمير الزمان كله أمثالاً للحق ، وعناوين على عظمة الإسلام .

* * *

كانت كربلاء رسالة من ابن النبى للمسلمين : هى الأولى من نوعها بما تحتويه من دروس . لا تحصى ، فحسبنا أن نشير إلى البعض منها . وفى الدرس الواحد جماع دروس :

وأوّل الدروس : يتعلق بالحق ذاته . وفى الحق أعظم الدروس : ألّا يقرّ أحد الباطل . وأن يقدّم فى سبيل ذلك نفسه ، وأن يكون قدوة .

وألّا يهاب المكثورون كثرة الظلمة . فالأمم تبقى بالمقاومة ولا تصيبها الهزيمة إن فقدت معركة ، مادامت فيها إرادة النصر ، يسعى إيمانها بين يديها لتبلغ غرضها كله ، ان لم يكن من فورها ، فمرحلة بعد مرحلة .

وأوّل من تعلم على الحسين بن على درس سنة ٦١ كان عبد الله بن الزبير باستشهاده بمكة بعد أعوام عشرة ، وهو مكثور بجند عبد الملك بن مروان بعد إذ حرقوا الكعبة ، كما حرقها جند يزيد بن معاوية .

وتعلّم عمر بن عبد العزيز وعلّم المسلمين - فى مدة خلافته - أن الكلام أو الصياح ، ليس الأداة المثلى للإصلاح ، وإنما المواقف هى التى تهزّ وجدان الشعوب ، فكان له أعظم المواقف إذ بدأ بنفسه وأهله فضحى فكانت فيه الأسوة الحسنة . وكلل الله سعيه فى أقصر مدة : ثلاثين شهرًا كانت كافية

= علم الأوربين درسًا آخر حين رفض أن يعالج مرضى الطاعون فى الجيش الفارسى قائلاً : إن شرفه يمنعه من معالجة عدو لبلاده !

لإصلاح دولة أدماها نحو قرن من الفساد ، ولإسعاد أمة تنتظر القدوة من حكامها فلا تجدها .

والدرس الثانى : يتعلق بجزاء السماء وبمصاير الطغاة وطرائفهم : إنهم يحسبون الدنيا تدوم ولا تدور ، ولا يدركون أن « الدهر بالإنسان دوّارى » . كما يقول الشاعر العربى . وتركبهم شياطين الشهوة فيخالون أنهم يمسكون كرة الأرض فى قبضتهم . يصطنعون أسباب الوثوب على أعدائهم من حين لآخر ، ويتحينون الفرص المواتية ، ويختلقون الأعذار الزيوف ، ليقطعوا دابر العدو .. وكلما جدّ جيل جدّت لهم الأعذار ولم تغنهم النذر .. فالذى حاوله فريق معاوية مع علىّ فى صفين ولم يظفر به - من إفناء شيعة علىّ أو من الإطاحة بأخصائه بالسمّ من الوجود - قد أتاحته ليزيد فرصة فى كربلاء .

وللطغيان طبيعة ومنهج . ومن طبيعته أن يعمى ويصم . فلا ينظر ولا يسمع إلاّ ذاته وأصواته . وأما المنهج فهو الغيلة . مرة واحدة إن أمكنه ، وإلاّ فوثبة وثبة . ولكل واحدة ما بعدها .

والذى قارفه يزيد ليس مجرد سقطة وإنما كانت أم السقطات . فمن بعد كربلاء كانت وقعة الحرة ، ثم كان حريق الكعبة .. فى سنوات ثلاثة متعاقبة . فحق عليها جزاء السماء فأوردته حتفه .. والسماء تملى للظالم ، حتى إذا أخذته لم تفلته .

والدرس الثالث : يتعلق بأهل البيت أنفسهم .

١ - فهم العترة الطاهرة . يدخلون الجنة مع جدّهم ، بعملهم ، فلا يعملون إلاّ العمل الأصلح . والذى صنعوه فى كربلاء هو الذى كان يصنعه جداهم . والذى صنعه أصحابهم معهم هو الذى كان يصنعه الصحابة - وأعظم به وبهم صنيعًا وصنّاعًا . فما هو إلاّ صفحات جديدة يضيفونها إلى السيرة العطرة .

٢ - وهم مثل جميع المسلمين ، إن لم يكن قبل جميع المسلمين ، مطالبون بالجهاد والتضحية وليس فضلهم ليسقط التكليف عنهم . كما يزعم بعض المتصوّفة عن رجال من المتصوفين .

وهذا درس للمتواكلين الذين لا يقبل الإسلام تواكلهم .

٣ – وهم يبلغون الذروة فيما يعملون : إذا حاربوا ماتوا شهداء ، ولم يعطوا الدنية أو يستسلموا . لأن للمسلمين فيهم ، كما كان لهم فى جدّهم . الأسوة الحسنة . وفى بيتهم سمقت المبادئ الكبرى . فمنهم يطلب البلاء الممتاز . ومن هذا كان صغارهم ، كالكبار منهم ، أبطالاً يستشهدون ولا يتراجعون .

لقد أذن الحسين لصحبه فى أن يعودوا تحت جنح الليل ويدعوه وحده يواجه مصيره ، فلم يقبل ذلك واحد منهم . ولم يرجف المرجفون من خصومهم ، حتى اليوم ، بأن واحدًا منهم قد تردّد . بل قال له ابنه زين العابدين ، وهو مريض طريح على الثرى لا يقدر على الحركة : « ألسنا على الحق » ؟ قال : « بلى والله الذى يرجع إليه العباد » قال الفتى : « فإذن لا نبالى » .

والدرس الرابع : يدور حول وحدة العمل الصالح. وفيه يجتمع الحق والحقيقة فى المبدأ والمنتهى وما بينهما . فإذا كانت الحقيقة أن أبناء الرسول رجال سلم وعلم وقيادة ، فهم لا يدّارءون وراء هذه الحقيقة ، فيقعدون عن الجهاد جنودًا – للحق ، أو يكتفون دونه بالعلم إذا دعا الداعى إلى الجهاد ، أو يوصون بالسلم حيث الحرب واجبة لإعلاء كلمة الله ، بل يستمسكون بالحق ويضعون الحقيقة كلها فى خدمته .

والحق والحقيقة والعمل الصالح كل لاينقسم . والأهداف العظيمة لا يبلغها الناس إلاّ بأعمال عظيمة ووسائل سليمة .

والدرس الخامس : درس فى الواجب وأدائه فى كل الظروف. وإن وهم المطالب به أنه غير مجدٍ عليه أو على غيره – فهو لم يصبح واجبًا إلاّ لأن التكليف به يحقق المصلحة العامة أو الخاصة ، إن حالّة وإن مؤجلة ، منظورة أو غير منظورة . وهو قد أصبح واجبًا لأنه فضيلة . وإذا لم يكن مجديًا فى لحظة ، أو لرجل ، ففى القيام به خير للناس ، وللدنيا ، فى الظرف ذاته أو فى ظروف أخرى .

والظروف غير المواتية لا تجعل الفضائل غير مواتية . فالفضائل مواتية أبدًا ، مطلوبة دائمًا .

وإذا كانت القدرة شرط التكليف والرخص متروكًا تقديرها للرجال ، فبالمعاناة أو التضحية ينسلخ الأقوياء من مسلاخ الضعفة . ويخلع الناس على العظماء وصف العظمة .

وما المعاناة والتضحية إلّا محاولات للثبات فى وجه الخطر ، أو لاقتحامه . فهى درجات فضل وأدوات تقدم فى معترك الوجود الإنسانى . تضيف إلى تياره المتدفق أسباب طهر ونقاء ، وأساليب بقاء ، منظورة للكثيرين ، وإن عمى عنها آخرون .

والدرس السادس : يتعلق بوظيفة التاريخ . فهو يصحح العوج ويصوب الانحراف ، بالاستقامة على الجادة ، خضوعًا للعدل . وهو قانون السماء .

إن الغلام المريض الذى بقى فى خيمة أبيه يوم كربلاء « زين العابدين » سيحيا ثلاثة وثلاثين عامًا حتى عام ٩٤ ، لتتسلسل فى عقبه ذرية ترفع أعلام الإسلام عالية فى ضمائر البشر . فى حين أن الطاغية الذى يرسل النار والدمار على البيت العتيق بالحجاز وعلى أهل البيت ، فى صحراء العراق ، سيزول ملكه – هو – وينقطع دابره – هو – بعد ثلاث سنين بتنازلٍ من ابنه عن ذلك الملك . لينقطع اسم معاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بن معاوية ، من سجل الحوادث . وتخلد آثار أهل البيت ما تعاقب الجديدان ، آية من السماء على أن دولة القتلة لم تعش . وأن دولة القتلى ستعيش أبدًا . وأن دولة الظلم لا تبقى بمقاييس الزمن إلّا ساعة أو هُنَيَّةً – أما دولة العدل فتبقى إلى قيام الساعة . وأنه تعالى صادق الوعد (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .

وما أكثر ما كانت الغلبة ببقاء أسباب الانتصار ، يتحقق بها النصر فى مكان آخر أو زمان آخر ، بقوم يحبهم الله فينصرهم مهما كان عددهم ، ويحبونه فيجودون بأرواحهم .

والدرس السابع : درس فى مبلغ ما تنجح الاستقامة ويفلح الإخلاص : فإذا كان أقرب الخطوط إلى الهدف هو الخط المستقيم وإن كان ترسّمه أشد رهقًا ، فإن استشهاد أبى الشهداء كان الأساس السليم لقيام الصرح العظيم الذى جمع بين عمله وبين اسمه فصيرهما مبدأ . يحدث أثره فى عمارة الدنيا وإصلاح الجماعة ، فى شكل قيام دولة ، أو غلبة مذهب ، أو وجود قدوة ، أو ازدهار أمل ، فى بعث منتظر .

بهذا دارت الأفكار الدينية والمذاهب الفقهية للشيعة ، سواء الإمامى منها ، أو الإسماعيلى ، أو الزيدى . فى آفاق الحسين العالية . وبلغت أوجها فى الفقه العملى القدير على التطور وفق حاجات البشر ، فى العبادات والمعاملات والأخلاق والنهج العلمى .

واستمسك المسلمون عمومًا والشيعة خصوصًا ، بالحسين وآله وأبنائه ، واقتدوا ببطولاتهم ، ومقولاتهم ، فاستخرجوا منها أصولاً زخارة . وبنوا عليها فروعًا فى الدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، لتقيم نظمًا سياسية وعلمية وفكرية واقتصادية متكاملة ، هى كالنهر العظيم يجرى إلى جوار النهر الذى يسبح فى تياره أهل السنة .

والنهران يتجاريان ، كأنهما البحران يلتقيان ، على أصول الإسلام . ويعملان - كل على شاكلته - فى تدعيم مبادئه .

* * *

وفى استشهاد علىٍّ بطعنة خارجىّ ركبته الشياطين ، وفى ظلم معاوية وقومه له، حيًّا وميتًا ، وفى استشهاد الحسين وبنيه ، وبنى أخيه ، ومن كانوا معه من الشهداء الذين ذكرناهم ، والذين سنذكر البعض منهم ، على أيدى الكثيرين ممن سنرى فظائعهم بعد ، نمت وترعرعت عقيدة أهل الإسلام :

١ - أن عليًّا قبل التضحية دائمًا ، فى جوار النبى ، وبعده ، هو وبنوه . وأنهم ضربوا الأمثال من أنفسهم ، لا بمجرد النصيحة أو الفصاحة ، أو السياسة . ولكن بالدم الذى يتكلم ، فتكون له بلاغة الشهادة بين يدى الله

سبحانه . فأصبحوا عنوانًا على العدل المفتقد ، والأمل المنتظر ، وبابًا للرجاء فى عدل السماء ، لتتدارك المسلمين برحمتها ومغفرتها .

٢ - أن المسلمين يضيفون إلى حساب الحسين ، من حساب بنى أمية وعمالهم وسفاحيهم ، إذ أرادوا السلطة والمال وشفاء صدور قوم مبطلين . فقطعوا صلتهم بالله يوم قطعوا رأس ابن بنت رسول الله . وفى حين يتراءى قتلة أمير المؤمنين علىّ « خوارج » كما تضافرت الأمة على وصفهم ، أو « بغاة » كما سماهم أمير المؤمنين نفسه ، إذ لم يخرجوا عليه إلّا لفهم مخالف من أجل الدين . يتدلّى قتلة الحسين إلى أدنى درك فى جهنم ، سفّاحين أجراء . وتتعالى بطولات الحسين قدر ما تتعمق الحسرة من أجل استشهاده . فتبرز فى إجماع المسلمين عليه بطلًا ، وفى الفكر الشيعى ، حيث يضاف جهاده إلى الوصية له بالإمامة .

فهذا يوم للحسين وحده ، ناله بحقّه ، وفيه سند لإمامة الأئمة من أبنائه : على زين العابدين . فمحمد الباقر . فجعفر الصادق . فالباقين من الأئمة .

* * *

ظلت شجرة العدل ، والعلم ، والأمل ، تُسقى بدماء الشهداء كلما رأت السماء مصلحة للأمة . فلم تلبث الكوفة بعد نحو عام واحد من وقعة الحرة أو ثلاثة أعوام من يوم كربلاء أن هزّ ضميرها تقصيرها .

فقامت من الفور حركة التوّابين سنة ٦٤[1] بين أهل الكوفة الندامى على ما فرط منهم من تقصير . فقتلوا قتلة الحسين وقوّاد جيش عبيد الله بن زياد ، ولم تنته الندامة بقتل المختار بن عبيد زعيم التوابين سنة ٦٧ ، بل توالت الحروب على دولة بنى مروان ، بقيام دولة عبد الله بن الزبير ، وخروج

---

(١) تزعمها المختار بن عبيد الله الثقفى قائد عمر لفتح العراق . وكان المختار بن عبيد الله ممن قدموا مع مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة فحبس ثم شفع له صهره عبد الله بن عمر فقبل ابن زياد الشفاعة فيه إذ لم يخف خطره . ولما خرج المختار أعلن أنه يحارب باسم محمد بن الحنفية « أخى الحسين لأبيه » ثأرًا لدم الحسين . وانتصر المختار على جيوش بنى أمية . ثم قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ . وأعلنت عليه حرب الدعايات فاتهموه بادعاء النبوة وأن من اتباعه من ينتظرون رجعته .

الخوارج ، وقيام الفتن ، ومنها فتنة ابن الأشعث وقد انضم إليها العلماء . وخروج زيد بن على زين العابدين ، وخذلان أهل الكوفة له سنة ١٢١ كما خذلوا جدّه سنة ٦١ . فاستشهد زيد ومثّل برأسه[1] الخليفة هشام ابن عبد الملك ، ثم استشهد ابنه يحيى سنة ١٢٥ .

* * *

وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين شجرة باسقة تترعرع فى كل ورقة من أوراقها خصيصة من خصائص أهل البيت فى عصر جديد للعلم . تعاونت فيه أجيال ثلاثة متتابعة منه ومن أبيه وجدّه .

ولما استمسك بإمامته وقنع بمنصبه التعليمى ، علا قدره فى أعين طلاب السلطة . وأمنوا جانبه . واتخذوا من زهده فيها شهادة لهم ضدّ من ينازعونهم .

لكنه كان الغرض الذى تنجذب إليه الأنظار : فهو يمثل العقيدة الدينية التى يقاس بفضائلها عمل الحكام فى الإسلام ، وما يتبعه من رضى العامة عنهم ، أو سخطها عليهم .

وهو – بوجه خاص – حجر الزاوية من صرح « أهل البيت » ترنو إليه أبصار الذين يدّعون الخلافة بدعوى أنهم من « أهل البيت » .

وهو مقيم فى المدينة ، العاصمة الأولى ، والدائمة ، للإسلام ، يتحلق فيها المتفقهة ، حول علماء الإسلام فى مسجد الرسول ، يحملون بأيديهم مصابيح السنّة ، أو يعلنون شرعية الحكومة أو عدمها ، وحسن السيرة أو فسادها ، وإقرار أهل العلم أو إنكارهم . وهى أمور أساسية ، تحرص عليها الدولة العادلة ، وتتجنب الاتهام بمخالفتها أى دولة .

وإذا كانت دمشق قد أدارت ظهرها لمدينة الرسول ، أو كانت بغداد قد فتحت أبوابها على العالم ، وأوصدتها دون أهل المدينة ، فالمسلمون يأتون إلى

---

(١) لم تمض أعوام حتى دالت دولة بنى مروان ، ونبش العباسيون قبور معاوية وابنه يزيد وعبد الملك ابن مروان فلم يجدوا فيها ما يصنعون فيه مثلة . أما قبر هشام فوجدوا فيه جثة هشام لم تبل بعد ، فصنعوا فيها أكثر مما صنع برأس زيد . إذ أمر السفاح بضربها بالسياط وصلبها وحرقها وتذريتها فى الهواء .

مدينة الرسول كل عام ، خفافًا وعلى كل ضامر ، إذ يحجّون إلى البيت العتيق بمكة ، ويزورون قبر الرسول ويشهدون آثاره فى المدينة .

وإذا كان الخليفة المنصور يقول عن نفسه : « إنما أنا سلطان الله فى الأرض » فهو يحسّ وطأة « سلطان الدين والعلم » فى المدينة ، حيث إمام المسلمين غير منازع « جعفر بن محمد » الذى يصفه الناس - وأبو جعفر المنصور فى طليعتهم - « بالصادق » .

ومن أوصافه كذلك: « الطاهر » و « الفاضل » و « الصابر » .

البَـابُ الثـانى

بَين السّلطان والإمَام

« السلطان كراكب الأسد ،
يهابه الناس ، وهو لمركوبـه
أهيب »

أفلاطون

آلت الخلافة إلى بنى العباس سنة ١٣٢ وكان « السفاح » أوّل خلفائهم . ثم مات فخلفه أبو جعفر المنصور ، ليبقى فى الخلافة اثنين وعشرين عامًا (١٣٦ – ١٥٨) . وطّد فيها أركان الدولة العباسية ، وأخضع الخارجين عليها فى كل أرجاء « الإمبراطورية » فهى لم تعد دولة دينية كما دعوا لها منذ بثّوا دعاتهم من فاتحة القرن . ولم تصر « للرضا من آل محمد » كما كانوا يدّعون . بل غصبوا حق أبناء علىّ ، كما كان بنو علىّ عند قيامها عاجزين عن تولى السلطة . وكان أحقهم بها – وهو جعفر بن محمد – عازفًا عنها ، عارفًا أن مهمة حياته هى تعليم المسلمين .

وجرت الأمور مجراها الطبيعى للغالبين على السلطة ، يطوون أضالعهم على الخوف والحقد والحذر . ويشرعون أسلحتهم فى كل مكان للدفاع عن دولتهم . وكان ذوو القربى فى طليعة الأعداء ، فاستعرت الشحناء بين الأقرباء ، ثم سالت الدماء . وجعفر الصادق ، بعزوفه واستعلائه ، بعيد عن المذابح . لكن بعده عنها ، لا يقيه بطش خليفة حذر ، متنمر ، تدعوه إلى المواجهة الشرسة ما توسوس له هواجسه مخافة أهل البيت وشيعتهم . وكان توفيق السماء حليف الإمام فى مواجهاته ، وإن بقيت الدولة على حذرها ، تنزل بأهل البيت العذاب والاسترهاب والحبس والقتل للخلاص منهم – مع التظاهر بالعدل فيهم ، حتى تقطع دابرهم .

الفصل الأول

بين السلطان والإمَام

« إنما أنا سلطان الله فى الأرض »
« أبو جعفر المنصور »

أهل البيت

اختلف أهل التأويل فى صدد « أهل البيت » ، وهم يفسرون قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سراحًا جميلا . وإن كنتن تُرِدْنَ الله ورسولَهُ والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا) ثم يوجه الخطاب فى الآيات ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، وفى الأخيرتين يقول – لنساء النبى – (وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية الأولى . وأَقِمْنَ الصلاة وَآتين الزكاة وأَطِعْنَ الله ورسوله . إنما يريد الله لِيُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . وَاذْكرْنَ مايُتْلَى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا) .

وإذ كان التطهير هو الدرجة العليا للبشر ، والاختصاص به بين المسلمين يجعل لأهل البيت حقوقًا وامتيازات تؤهل لإمامة الدين ، وإمامة الدنيا ، أى خلافة الدين والدنيا ، وكان ثمة سنن مروية فى تفضيل علىّ وبنيه وجعلهم من الأمة مجعل الأوصياء أو الأئمة وهذا شأن لا يسلمه بنو أمية ، ولا بنو مروان ، ولا بنو العباس ، ولا كثير من قريش ، فقد ذهب الفقهاء عمومًا ، والمفسرون

خصوصًا ، مذاهب شتى فى تعريف أهل البيت ، يمكن تحصيلها فيمايلى :

١ - قال الشيعة : إن أهل البيت هم رسول الله ﷺ وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين . يؤيدهم فى ذلك حديث أم سلمة أم المؤمنين أن النبى أجلس الأربعة حوله على كساء له وضعه فوق رءوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل البيت . فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

وعن أم سلمة أن الآية نزلت والرسول ﷺ فى بيتها وأنها عندئذ كانت على باب البيت فقالت : أنا يارسول الله من أهل البيت ؟ وأنه قال : « وإنك إلى خير وأنت من أزواج النبى » وعنها أنها قالت : يارسول الله أدخلنى معهم . وأنه قال : « إنك من أهلى » .

٢ - وقال البعض : بلى عنى الله بذلك أزواج النبى ، والحجة فى ذلك توجيه الخطاب إليهن . ونقلوا ذلك عن ابن عباس ، تلميذ علىّ وشيعته ، وعامله - وذهبوا إلى أن « البيت » أريد به مساكن النبى ﷺ .

٣ - وقال فريق : بل إن « أهل النبى » هم أهل بيته . ولو كان أهل البيت هم زوجاته فقط لكان النص : (ليذهب عنكن الرجس) لا (عنكم) كما هو النص فى الآية . فدخل فى ذلك رجال . وأهل النبي - بدلالة السنن التى أشرنا إلى بعضها - هم فاطمة وعلى والحسن والحسين ويؤيد ذلك قول الآية (ويطهركم) . وهذا يوافق الرأى الأوّل .

٤ - وإذا دخل الرجال فهم - كما قال فريق آخر - بنو هاشم . والبيت يراد به بيت النسب . فيدخل فى ذلك أعمام النبى ، وفيهم بنو العباس وبنو أبى طالب .

٥ - ويتوسع محيى الدين بن عربى (٥٦٠) - فى الفتوحات المكية - فيدخل « الفارسى » فى أهل البيت . إذ الرسول يقول : « سلمان منّا أهل البيت » ويضيف ابن عربى أن جميع ما يصدر عن أهل البيت معفو عنهم فيه . فهو مطهرون بالنص . معصومون . وإن توجهت عليهم الأحكام الشرعية .

ويذكر البعض قول الرسول : « سألت ربى ألاّ يُدخِل النار أحدًا من أهل

بيتى فأعطانا ذلك » وقوله : يافاطمة ، تدرين لم سميت فاطمة ؟ فقال علىّ : لم سميت ؟ قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله عزّ وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة » .

٦ – وفريق يرى أن أبناء علىّ من الزهراء هم الذرية المقصودة فى سورة الطور حيث قوله – جل ثناؤه : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء) ورووا عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه فى درجته » .

وبهذا ترتفع ذرية النبى – وهى ذرية علىّ من الزهراء – فتلتحق بالنبى . وهذا المعنى تفيده الآية ٢٣ من سورة الرعد : (جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) فأهل البيت ذرية داخلة الجنة مع جدها عليه الصلاة والسلام .

٧ – وهذا فريق يوسع فيشمل ذوى القربى ، وتشمل آل محمد ، بقوله تعالى فى سورة الشورى : (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلاّ المودة فى القربى) .

وقال قوم : إن للنبى قرابة فى كل بطن من بطون قريش ، وإن كان أخص القرابة هم الذرية .

* * *

وظاهر أن كل هذه الأفراق على أن ذرية علىّ من فاطمة من أهل البيت ، وأن الخلاف فيما عدا ذلك ، فيرجح البعض أن القرآن والسنّة الشارحة يجعلان أهل البيت هم ذرية النبى من علىّ وفاطمة ، وهما ومعهما أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

لكن الشيعة يقولون قولاً واحدًا : إن الذرية وحدها وعليًّا وفاطمة هم أهل البيت ، بدلالات شتى من الحديث . ثابت منها أن النبى طفق ستة أشهر – بعد نزول آية التطهير – يمر وقت صلاة الفجر على بيت فاطمة فينادى « الصلاة ياأهل البيت . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم

تطهيرًا » . فهذا نص وأنص منه حديث أم سلمة . إذ أفصح عنهم . واستبعد سواهم .

وفى بعض الروايات أن النبى ﷺ أدخل عليًا وفاطمة وابنيهما تحت الكساء ثم جعل يقول : « اللهم إليك لا إلى النار وأنا وأهل بيتى . اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى - وفى رواية وحامتى - اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » .

وسيظل وصف أهل البيت قضية بين بنى العباس وبنى علىّ . فهو من مسوغات الخلافة واستمرار الرضا عنها . سأل الرشيد يومًا الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق : بم قلتم نحن ذرية رسول الله وأنتم بنو علىّ ؟ قال : قال تعالى : (ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى) وليس لعيسى أب ، وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه . وكذلك ألحقنا بالنبى أمّنا فاطمة . وزيادة على ذلك قال عز وجل : (فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ولم يدع رسول الله ﷺ عند مباهلة النصارى غير علىّ وفاطمة والحسن والحسين .

ولم يكن لوصف أهل البيت كبير خطر ، فى دنيا الملوك من بنى أمية ، فلقد غلبوا أهل البيت على أمرهم جهارًا نهارًا ، برماحهم ، واستقرار الأمور لهم - لكن الدولة فى عهد بنى العباس قامت على شعار الدعوة « للرضا من آل محمد » دون تسمية أحد بذاته .

ولما أقبلت جيوش خراسان يقودها أبو مسلم الخراسانى ، بالدولة الجديدة ، بعد ربع قرن من الإعداد السرى ، كان مقدمها استجابة لهذا الشعار .

* * *

كتب أبو مسلم الخراسانى أيامئذ إلى الإمام جعفر الصادق : « إنى قد أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن بنى أمية إلى موالاة « أهل البيت » . فإن

رغبت فلا مزيد عليك » . وأجاب جعفر الصادق معلنًا فلسفته : « ما أنت من رجالى . ولا الزمان زمانى »[1] .

وفى الوقت ذاته بعث أبو سلمة الخلال - الملقب بوزير آل محمد ، والذى سيصبح وزيرًا للسفاح أوّل خلفاء بنى العباس - إلى جعفر الصادق ، وعبد الله ابن .. « الحسن » ، وعمرو الأشرف ، من أبناء علىّ ، مع رجل من موالى أبى سلمة قائلًا له : إن أجاب جعفر فلا تذهب إلى غيره ، وإن لم يجب فاقصد إلى عبد الله . فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو . وذهب الرسول إلى جعفر فقال : مالى ولأبى سلمة ، وهو شيعة لغيرى . ووضع الكتاب فى النار حتى احترق - وأبى أن يقرأه . قال الرسول : ألا تجيبه ؟

قال : قد رأيت الجواب .

ثم مضى الرسول إلى عبد الله . فقرأ الكتاب . وقصد إلى جعفر الصادق ينبئه بورود الكتاب إليه من شيعته بخراسان . قال الصادق له : ومتى كان لك شيعة بخراسان ؟ أأنت وجهت أبا مسلم إليهم ؟ هل تعرف أحدًا منهم باسمه ؟ فكيف يكونون شيعتك وهم لا يعرفونك وأنت لا تعرفهم ؟

قال عبد الله : كأن هذا الكلام منك لشىء ؟

قال الصادق : قد علم الله أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم . فكيف أدخره عنك ؟ فلا تمن نفسك فإن الدولة ستتم لهؤلاء .

وذات يوم دخل على جعفر الصادق سدير الصيرفى قال : ياأبا عبد الله . مايسعك القعود . قال : لمَ ؟ قال : لكثرة أنصارك .. مائة ألف . مائتى ألف . فتساءل الإمام عن عدد المخلصين منهم . وأبدى زهدًا وبصّرا بالعواقب .

---

(١) خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب على بنى مروان سنة ١٢٧ فى الرى بخراسان ثم استسلم لأبى مسلم بعد إذ ظفر الأخير بجيوش بنى مروان . وكتب إليه يستعطفه بقوله : « من الأسير بين يديه بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . فإن الناس من حوضك رواة ونحن منه ظماء رزقنا الله منك التحنن ... فإنك أمين مستودع ورائد مصطنع . والسلام عليكم ورحمة الله » ولم يطلقه أبو مسلم . بل أورده حتفه . وقيل سمّه .

والحق أن زين العابدين وابنه وحفيده وبنيهم لم يتجهوا إلى أن تكون لهم « دولة » . ومن ذلك قول الكاظم لهشام بن الحكم : « ياهشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا » .

ولما خرج زيد بن زين العابدين على هشام كان خروجه ثورة طارئة . والمنهج الزيدى غير منهج الإمام جعفر . وثورة زيد لم يسبقها إعداد بل استجاب لأهل الكوفة فخذلوه كما خذلوا جدّه . وإنما الذى فكر ودبر وأنفذ الدعاة ، وتابع الدعوة ، هم بنو العباس .

وإبراهيم الإمام يكتب إلى واحد من دعاته فى خراسان : « .. وإن استطعت ألا تبقى فى خراسان من يتكلم العربية فافعل » وهو تعطش للدم فى سبيل السلطة ، وسفك لدماء العرب خاصة ، لا يقول به واحد من الأئمة .

* * *

وكان بنو هاشم قد اجتمعوا قبل ذلك بالأبواء – مكان فى أعلى المدينة – والقدور تغلى فى خراسان ، والجو يزخر بالنذر ، فعلى الذين يرسلون الدعاة إلى خراسان ، والذين تجرى الدعوة لهم ، أن يتدارسوا أمورهم ، ليعرفوا لمن تئول الأمور . فمثل فرع العباس بن عبد المطلب عم النبى إبراهيم الإمام « بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس » ، وأخوه أبو جعفر « المنصور » . وعمهما صالح بن على . ومثل فرع بنى علىّ بن أبى طالب ، عبد الله بن الحسن « بن الحسن بن على » وابناه محمد وإبراهيم . ومحمد ابن عبد الله بن .. عثمان بن عفان « لأن أمه من بنى الحسن بن على » وهو أخو عبد الله لأمه .

وأجمع الفرعان على « محمد بن عبد الله بن الحسن » الملقب بالنفس الزكية لورعه الكامل وعلمه المشهود به . بل قد تحمس له أبو جعفر ، وكان يومئذ يلبس قباء أصفر . ولما حج محمد لقى أبا جعفر فبايعه مرة أخرى . بالمسجد الحرام ذاته . وأمسك أبو جعفر بركابه يوم ذاك وراح يقول للناس : هذا مهدينا أهل البيت .

وإذ لم يكن لبيت الحسين ممثل فى اجتماع يوم الأبواء بعث عبد الله ابن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد فحضر واعترض على بيعة محمد ابن عبد الله .

قال : لا تفعلوا . فإن هذا الأمر لم يأت بعد . لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك . وفى رواية أخرى أنه أضاف : إن كنت ترى أن ابنك هذا هو المهدى فليس به . وإن كنت إنماتريد أن تخرجه غضبًا لله وليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فإنا والله لا ندعك وأنت شيخنا ونبايع ابنك[1] .

فغضب عبد الله وقال ؛ لقد علمت خلاف ما تقول . ولكن يحملك على هذا الحسد لابنى[2] .

قال جعفر : والله ماذاك يحملنى . ولكن هذا وإخوته وأبناؤهم دونكم .. إنها والله ما هى إليك ولكن لهم . وإن ابنيك لمقتولان . ثم نهض وتوكأ على يد عبد العزيز بن عمران الزهرى فقال : « أرأيت صاحب القباء الأصفر » - « أباجعفر » - قال نعم : قال : فإنا والله نجده يقتله .

قال عبد العزيز : أيقتل محمدًا ؟ قال : نعم .

قال عبد العزيز : فيما بعد « فقلت فى نفسى حسده ورب الكعبة » ثم قال عبد العزيز : ثم والله ما خرجت من الدنيا حتى رأيته قتلهما « محمدا وأباه » .

قال : فلما قال جعفر ذلك انفض القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها . وتبعه أبو جعفر وعبد الصمد « من أعمام أبى جعفر » فقالا : ياأبا عبد الله « جعفر الصادق » أتقول هذا ؟ قال : نعم . أقوله والله وأعلمه ..

قالوا : كان أبو جعفر يسميه الصادق لصدق نبوءته .

وقالوا : دعا محمد عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة لمبايعته فاعتل عليه وقال لا أبايع أحدًا حتى أختبر عدله .

---

(١) وليس فى نص الروايتين بيعة من جعفر الصادق لعبد الله أو لابنه محمد ، كما وهم البعض ، وإنما فيهما تفضيل للأب على الابن مع رفض البيعة .

(٢) وفى رواية أخرى أنه أضاف « ووالله ما أطلعك الله على غيبه » .

ولقد ظل أبو جعفر المنصور يذكر هذا لعمرو .

وكان جعفر الصادق إذا رأى محمد بن عبد الله بعد ذلك تغرغرت عيناه وقال : بنفسى هو .. إن الناس ليقولون إنه المهدى . وإنه لمقتول . ليس فى « كتاب علىّ » من خلفاء هذه الأمة .

بايع أبو سلمة الخلال للسفاح . ولم يبايع لأبى جعفر ، الأخ الأكبر ، لأن أمه كانت أم ولد بربرية تدعى سلامة . وبدأ حكم بنى العباس فى سنة ١٣٢ .

وأذيع فى الملأ أن محمد بن على - أبا السفاح - موصى له بوصية من « أبى هاشم » عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علىّ بن أبى طالب ، إذا أحسّ عبد الله أثر السمّ الذى سقاه دسيس من الخليفة سليمان بن عبد الملك ابن مروان (٩٨) فمال فى الطريق إلى حيث مات عند محمد « بالحميمة » . وثمة من يعتقد أن الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلى أخيه محمد ابن الحنفية « أمه خولة بنت جعفر من بنى حنيفة » .

وهذه الوصية تغنى بنى العباس عن الخلاف مع أبناء علىّ ، فى أن يكون العباسيون من أهل البيت أو لا يكونون .

بهذا صيّر بنو العباس محمد بن على بن عبد الله بن العباس إمامًا . فلما مات آلت الإمامة إلى ابنه إبراهيم فنودى بأنه « إبراهيم الإمام » . فلما قتل إبراهيم بايعوا للسفاح سنة ١٣٢ .

بين أبناء علىّ وبنى العباس :

قضى « السفاح » على الأحياء من بنى أمية ، وبنى مروان . فاستحق فى التاريخ لقبه . وأدار وجهه للآخرين . فسأل عبد الله بن الحسن عن ابنه محمد « النفس الزكية » وأخيه إبراهيم ، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب حينًا ، ثم عاجله أجله . وولى أبو جعفر سنة ١٣٦ . وألحّ فى طلبهما ، فأعجزاه هربًا .

وللأقرباء ، أو الأصدقاء ، أوّلية فى سورة السلطة إذا عريت من خشية الله .

وأولى الناس بالفتكة البكر منها : الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء ، والأصدقاء الذين يحتمل أن يقدروا على الإيذاء .. فالأولون يغرى السلطان بهم الحسد أوالحقد أو الخوف من جانبه ، لما يعرفون من دخائل يخشاها . أو لما يتضح لهم من عورات ، أو فيهم من مطامع . و استخفاف بالسلطان . الذى رأوه وهو سوقة ، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه ، أو أكثر من حقه والآخرون أحرى بالخوف والحذر . سدًّا لذريعة الوثوب وافتراص الفرص . أو شغلا لهم بأنفسهم ، أومعالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفزع من جراء الحكم ، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق . وكالسلطان أعوانه .

ولا يتوازن فى سُدّة السلطة إلّا القليلون . وَقَلَّما ما يتوازنون ، وللإمام الصادق فى ذلك مقولة معلمة : « إذا كان لك صديق فولى ولاية فأصبته على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته فليس بصديق سوء » .

قيل لأبى جعفر : « لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو » ! فقال « لأن بنى مروان لم تبل رممهم بعد . ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء ، فليس تتمهد هيبتنا فى نفوسهم إلّا بنسيان العفو واستعمال العقوبة » .

وصاحب السلطة كراكب الأسد – على ما قال أفلاطون – يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب .

لهذا أخذ بنو العباس أبناء علىّ ، أخذ ظلوم غشوم ، وبطشوا ، وغدروا بمن حذروهم من أنصارهم وذويهم ، كعبد الله بن على عم المنصور . وأبى مسلم الخراسانى قائدهم . وأبى سلمة الخلال وزيرهم ، بمثل ما غدروا بأعدائهم بعد أن أمنوهم .

ولما أعطى أبو جعفر المنصور محمد بن عبد الله أمانًا كتب إليه محمد ساخرًا : « أى أماناتك هو ؟ أأمان ابن هبيرة ، أو أمان عمك عبد الله ، أو أمان أبى مسلم » .. فقد أعطى أبو جعفر عهودًا للكل ، وقتل الأوّل

والثالث ولم يكن قد قتل الثانى بعد . لكنه كان قد حبسه من سبع سنين ليقتله بعد أن يقتل محمد بن عبد الله بن الحسن ذاته . فصيّر خلافته ، كالمسبعة ، لا يأمن فيها الصديق ، أو العدو ، أو الصياد ، أو الفريسة !

وزاد ضراوة أبى جعفر على أقربائه أن لواحد منهم فى عنقه بيعة ، على ملأ منهم . كانت حريةأن تمنعهم وتمنعه . لولا ما للشهوة من خدر يطيح بالتوازن ، فسوّلت له نفسه أن يتخلّص من البيعة بالخلاص ممن بايعه ، وإن كان من قبل يمسك بركابه . بل طوّعت له شهوته أن يتخلص ممن قد يشهد ضدّه حتى لا يراه الناس أو يسمعوه يحكى لهم ما قد رأى وقد سمع .

قال يعقوب بن عربى : « سمعت أبا جعفر يقول فى أيام بنى أمية ما فى آل محمد أعلم بدين الله ولا أحق بولاية الأمر من محمد بن عبد الله . وبايع له . وكان يعرفنى بصحبته ، والخروج معه .. فلما قتل حبسنى عشرين سنة » .

* * *

طلب أبو جعفر من عبد الله بن الحسن ابنيه محمدًا وإبراهيم . فأنكر مكانهما ، فتقاولا . وأغلظ كل لصاحبه ، وانصرف الخليفة من المدينة . فبث الجواسيس يأتونه من كل مكان بأخبار بنى الحسن .

وفى سنة ١٤٠ قصد أبو جعفر للحج فنزل بالمدينة . ودعا عبد الله ابن الحسن وطالبه بولديه .

وكانا يأتيان أباهما معتمين فى هيئة الأعراب فيستأذنانه فى الخروج فيقول : « لا تعجلا حتى تملكا . إن منعكما أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين » .

ولما لم ينل أبو جعفر منالاً انصرف من المدينة وأمر بحبس عبد الله ، وأهل بيته ، فبقوا فى السجن ثلاث سنين فى دار مروان - دار الإمارة فى حكم بنى أمية - حتى إذا كانت سنة ١٤٤ ولى أبو جعفر المنصور رباح بن عثمان عاملاً على المدينة .

وحجّ فى العالم ذاته فتلقاه عامله بالربذة فردّه إلى المدينة لإشخاص عبد الله ابن الحسن وأهل بيته - بما فيهم محمد بن عبد الله ... بن عثمان - شاهد

البيعة يوم الأبواء - فكانوا خمسة عشر أخذوا فى محامل إلى الربذة . ونظر الإمام الصادق إليهم وعيناه تهملان حتى جرت دموعه على لحيته . واقتيدوا إلى الربذة فى الأغلال . ومزقت السياط جسد « محمد بن عبد الله .. بن عثمان » حتى إذا خرج أبو جعفر فى محمل ، ناداه عبد الله بن الحسن قائلا : ياأبا جعفر . والله ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر ... فلوى أبو جعفر رأسه كبرًا ولم يعرج . وحمل أهل البيت تلقاء النجف . حتى إذا دخلوا الكوفة حبسوا فى قصر كان لابن هبيرة فى شرقى الكوفة .. وهدم عليهم البيت بعد ستين يومًا . فمات الذين لم يموتوا فى أثنائها . ودفن الجميع تحت الأنقاض . وشيخهم عبد الله فى الخامسة والسبعين !

وخرج محمد بن عبد الله لليلتين بقيتا من جمادى سنة ١٤٥ فاستولى على المدينة . وخرجت المدينة بأسرها مع محمد . فكان فى جيشه علماؤها الفحول . فيهم ابن هرمز شيخ مالك . وابن أبى سبرة ، وعبد الله بن عمر العمرى . ومصعب بن ثابت الزبيرى . أما مالك فاكتفى فى الحرب بفتياه أن بيعة المنصور كانت مكرهة ، ومن أجلها أصابه ما أصابه[1] من والى أبى جعفر وابن عمه سنة ١٤٦ .

وخرج مع محمد موسى وعبد الله ابنا الإمام جعفر الصادق .

وقصد جعفر الصادق إلى محمد فى مجلس حربه قال : أتحب أن يصطلم أهل بيتك « يستأصل » قال ما أحبّ ذلك . قال : فإن رأيت أن تأذن لى ، فإنك تعرف علّتى . قال محمد : قد أذنت لك .

ومضى جعفر الصادق : فالتفت محمد إلى ابنى جعفر وقال لهما : الحقا بأبيكما فقد أذنت لكما . والتفت جعفر فقال : ارجعا فما كنت لأبخل بنفسى وبكما . فحاربا مع محمد أعظم حرب ، وكان لعبد الله بلاء ممتاز .

ووجه المنصور إلى المدينة جيشًا بقيادة ابن عمه ، وولى عهده ، عيسى ابن موسى . وفى غرة رمضان خرج إبراهيم أخو محمد واستولى على أكثر من

(١) مالك بن أنس - عبد الحليم الجندى - طبعة دار المعارف ص ٢٣٨ حيث تفصيل الواقعة .

مكان فى إقليم البصرة - ثم استشهد محمد فى ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ . واستشهد إبراهيم[1] عند باخمرى لخمس بقين من ذى القعدة . وأرسلت رأسه إلى أبى جعفر المنصور ، فطوّف بها فى الآفاق .

واستولى عيسى بن موسى على عين أبى زياد ، ضيعة جعفر الصادق التى يقتات منها ، ويشرك فى ثمرها أهل المدينة .

وسنرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية العهد . ويولى ابنه المهدى سنة ١٤٧ . وكان قد حبس عمه عبد الله بن على من سنة ١٣٨ فى دار لتخرّ عليه فيموت سنة ١٤٧ !

وعبد الله عمه وقائده المنتصر على آخر ملوك بنى أمية يوم الزاب . لكنه خرج عليه ، فأرسل إليه جيشًا بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، ولجأ عبد الله إلى أخويه سليمان وعيسى فأخذا له عهدًا على المنصور كتبه « ابن المقفع » وفيه : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه فنساؤه طوالق . ودوابه حبس . وعبيده أحرار . والمسلمون فى حلٍّ من بيعته » فأما « أبو مسلم » فسيدعوه أبو جعفر إلى قصره بعد أمان يعطيه إيّاه ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونه أمامه .

وأما عبد الله بن المقفع فسيقتله والى أبى جعفر سنة ١٤٢ . فيشفى صدر أبى جعفر .

* * *

روى الإمام الصادق ما كان بعد أن هدأت الأحوال . قال : « لما قتل إبراهيم بن عبد الله بباخمرى - حسرنا عن المدينة - ولم يترك فينا محتلم حتى قدمنا الكوفة . فمكثنا فيها شهرًا نتوقع القتل . ثم خرج إلينا الربيع الحاجب فقال : أين هؤلاء العلوية ؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوى

---

(١) كان صاحب فقه وأدب . سأل عن صاحب له فقيل تركناه يريد أن يموت فضحك قوم ، فقال : لقد ضحكتم منها عربية ! قال عز وجل : (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) . يعنى يكاد أن ينقض . فوثب أبو عمرو بن العلاء فقبل رأسه وقال : « لا نزال والله بخير مادام مثلك فينا » وأبو عمرو من أئمة اللغة الأولين .

الحجى . فدخلنا إليه أنا والحسن بن زيد . فلما دخلنا عليه قال : أأنت الذى تعلم الغيب ؟

قلت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : أنت الذى يجبى إليه هذاالخراج ؟
قلت : إليك يجبى - ياأمير المؤمنين - الخراج . قال : أتدرون لم دعوتكم ؟
قلت : لا .

قال : أردت أن أهدم رباعكم وأروع قلوبكم وأعقر نخلكم . وأترككم بالسراة لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق . فإنهم لكم مفسدة .
قلت له : ياأمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر . وإن أيوب ابتلى فصبر . وإن يوسف ظلم فغفر . وأنت من ذلك النسل .

فتبسم . وقال : أعد علىّ ما قلت . فأعدت ، فقال : مثلك فليكن زعيم القوم . وقد عفوت عنكم ووهبت لكم جرم أهل البصرة . حدثنى الحديث الذى حدثتنى عن أبيك عن آبائه عن رسول الله ﷺ .
قلت : حدثنى أبى عن آبائه عن علىّ عن رسول الله - ﷺ وآله - : صلة الرحم تعمر الديار وتطيل الأعمار وإن كانوا كفارًا . قال : ليس هذا .
قلت : حدثنى أبى .. عن رسول الله ﷺ وآله : الأرحام معلقة بالعرش تنادى : اللهم صِلْ من وَصَلَنِى وَاقْطَعْ مَنْ قَطَعنى . قال : ليس هذا .
قلت : حدثنى أبى . أن الله عز وجل يقول : أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن بتّها بتته . قال ليس هذا الحديث .
قلت : حدثنى أبى .. أن ملكًا من الملوك كان فى الأرض كان بقى من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه ، فجعلها الله ثلاثين سنة .
قال : هذا الحديث أردت . أىّ البلاد أحبّ إليك ؟ فو الله لأصلنّ رحمى إليكم .
قلنا : المدينة . فسرحنا إلى المدينة . وكفى الله مُؤْنَته » .
فى هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بنى علىّ ، ومن الصادق بالذات . فما

يخشاه من بنى علىّ هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم . أما ما ينعاه على الصادق - وهو الوحيد الباقى ممن يمكن أن يجتمع بنو علىّ ، والناس ، حولهم - فلقد كان خليقًا أن تطيب به نفسه لما فيه من مصلحة له . وهو الادعاء على الصادق بأنه يعلم الغيب . فإنه لم يبايع لأحد يوم الأبواء .. بل ذكر أنها « الخلافة » ستكون لصاحب القباء الأصفر وهو أبو جعفر .

. لكن الصادق كان حاسمًا فى ردّه عليه بأنه لا يعلم الغيب إلا الله .

وكان مما يخشاه أن يجبى إلى الصادق خراج بعض الرعية ، مما يعطى للإمام ، وكان الصادق فى ذلك حاسمًا أيضًا . إذ أعلن أن الخراج لا يجبى إلّا لأبى جعفر ، لأنه أمير المؤمنين . قال : إليك يجبى - ياأمير المؤمنين - الخراج . وجعل التسليم بإمارة المؤمنين يسبق كلمة الخراج ، فهذه العبارة بيعة بتمامها والخراج حق من بويع له .

وكان انتقال أبى جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم ، نقلة من الغضب إلى غيره . ومن الاستجواب إلى الوعيد ، وإلى الاستعلاء .

لكن الصادق نقله من عالم الكبرياء المظلم ، إلى آيات الله التى تطمئن لها القلوب . فجعله - دون أن يشعر - مقارنًا فى موقفه بمواقف الأنبياء ، لعله يهتدى بهم . وذكره كلام ربه جلّ وعلا . وذكره الشكر والصبر والمغفرة . وذيّل ذلك كله بأنه من نسل الذين يغفرون ويشكرون ويصبرون .

بهذا أمكن الرجل الذى قُدَّ قلبه من الصخر أن يبتسم . بل أقبل يسأل أن يتعلم . فحدثه الإمام الأحاديث ، واحدًا بعد واحد ، حتى وقف منها عند حديث طول العمر . فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته ، التى يخسر من أجلها فى كل يوم آخرته ، إلّا أن يغفر الله له ... فظنّ أنه بهذا الحديث يجد أمانًا لنفسه أو تخفيفًا لما تكابده . وعندئذ ظهر ضعف نفسه ، وجلال شأن المعلّم الذى يتعلم عليه .

ولم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتى راح يعلّمه درسًا من الدروس فى البداء : وهو أن القضاء الذى يتوقف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط .

فهذا ملك وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلى ثلاثين - وكان أبو جعفر ملكًا - ولكم طالت العمر على ملك بنيه وحفدته . فلقد كان كل خلفاء بنى العباس بعده منهم ، ملكوا خمسة قرون ، حتى دمر الظلم دولتهم .

إنما كان أبو جعفر يتداول الإمام الصادق بحذر خليق بما للصادق من كرامة عند الله والناس . وهو صاحب أكبر مدرسة شهدتها حواضر الإسلام فى ذلك الزمان : المدينة ومكة والكوفة وبغداد والفسطاط . وكان فى الستين من العمر ، يروى عنه الآلاف حديث النبى وفقه الصادق وأبيه وأجداده .

والذين يحسنون الظن بالمنصور لا يتصورون حلمه يطيش فيفقد الامة الإمام الذى لا ينازعه ملكه . وربما جاز للذين لا يحسنون الظن ، أن يخالوه يحسب حسابًا للأعداد التى لا تحصى من تابعى الإمام . وقد كان أبو جعفر يحسب حساب العلماء .

ومن بطش الحكام بالعلماء ما يدمر الدول .

ومن فداء الأتباع ما يستهان فيه بعرين الأسد . لقد اقتحم الفدائيون من أتباع سنان « شيخ الجبل » خيمة صلاح الدين وهو فى عسكره ليصيبوه بخناجرهم فى وجهه .

* * *

ظاهر من حديث الإمام أنه حدثه فى صلة ذوى الأرحام ، وإن كانوا كفارًا . فما أحراهم بالصلة إن كانوا غير ذلك . ويظهر مما يرويه الطبرى أن أبا جعفر كان يودّ أيامئذ لو نسى الناس ما كان من أهل البيت فى حقه . وما كان منه فى حقهم .

روى الطبرى : لما أتى المنصور برأس إبراهيم بن عبد الله وضعه بين يديه وجلس مجلسًا عامًّا وأذن للناس . فكان الداخل يدخل فيسلم ويتناول إبراهيم فيسىء القول فيه . ويذكر منه القبيح التماسًا لرضا أبى جعفر ، وأبو جعفر ممسك متغير لونه . حتى دخل جعفر بن حنظلة البهرانى فسلّم ثم قال

« عظم الله أجرك ياأمير المؤمنين فى ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقك » فاصفر لون أبى جعفر وأقبل عليه فقال : أبا خالد . مرحبًا وأهلا . فعلم الناس أن ذلك قد وقع منه . فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلة .

وربما دلّ على ذلك الميل ما يرويه عيسى بن رؤبة : لما جىء برأس إبراهيم فوضع بين يدى أبى جعفر بكى . حتى رأيت دموعه على خدى إبراهيم . ثم قال : أما والله إن كنت لهذا لكارهًا . لكنك ابتليت بى وابتليت بك .

ولقد ترك أبو جعفر الذين تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد وإبراهيم ، ومنهم الحسين بن زيد . وكان الحسين قد تربى فى بيت جعفر الصادق بعد قتل زيد . وكان يسمى « ذا الدمعة الكبيرة » لكثرة بكائه على أبيه وأخيه يحيى . ولم يسائل أبو جعفر ولدى جعفر الصادق « عبد الله وموسى » وقد خرجا مع محمد . وترك علماء المدينة . وترك عيسى بن زيد إذ توارى عنه . ولما قيل له من حرسه أو من المنافقين : ألا تطلبه ؟ قال : لا . والله لا أطلب منهم رجلاً بعد محمد وإبراهيم : أنا أجعل لهم ذكرا ؟

ومن ناحية أخرى ففقه الإمام الصادق يعلم ألناس طاعة الإمام العادل . والصادق هو القائل : « لا يستغنى أهل بلدة عن ثلاثة يفزع إليهم فى أمر دنياهم وآخرتهم . فقيه عالم ورع . وأمير خيّر مطاع . وطبيب بصير ثقة ، فإن عدموا ذلك كانوا همجًا » .

وهو فقه فى طاعة الخليفة العادل أو الأمير الخيّر . وأبو جعفر يتمنى أن يظهر فى الناس كذلك .

والصادق يقول – ولا نحسبه يقصد إلّا أبا جعفر وأبناء عمه – « ماتثبت الدنيا إلّا على بنى العم المتعاطفين بالبر المتعلقين بالأدب المجتمعين على التناصر » . فهذه يد ممدودة بالسلام من الإمام . ودرس للرعية لتسلم العنان لأمير خيّر . وما أحرى أبى جعفر أن يكونه .

وفى سنة ١٤٧ عزم المنصور وهو راجع من موسم الحج أن يسير الإمام الصادق من المدينة إلى العراق فاستعفاه الإمام فلم يعفه وحمله معه . ولكن

الصادق كان يقبل عليه بمقدار فليست دنيا أبى جعفر لتجدر بالمقاربة .

وفى ذات يوم أرسل إلى الصادق : لماذا لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس ؟

فأجابه : « ما عندنا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له . ولا أنت فى نعمة فنهنيك عليها . ولا نعدها نقمة فنعزيك عليها . فلمَ نغشاك » ؟ ويجيب أبو جعفر : تصحبنا لتنصحنا . ويجيب الإمام :

« من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك » فالذى يريد الدنيا يسير فى ركب صاحبها فلا يقول كلمة لله . والذى يريد الآخرة يعتزل مجالس رجل يعجزه عمله ويعميه أمله عن طريق الآخرة .

وصدق « جعفر الصادق » ولم يكذب أبو جعفر المنصور .

فلقد كان أحوج الناس إلى النصيحة . وكانت صحبة الصادق له أمانًا من النار .

* * *

دخل عليه سفيان الثورى يومًا فقال له : اتق الله فقد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا فطأطأ رأسه وقال : ارفع حاجتك .. قال سفيان : حج عمر فقال للخازن : كم أنفقنا من بيت المال . قال : بضعة عشر درهمًا . وأرى هنا أموالاً لا تطيق الجمال حملها ..

وخرج سفيان .

ولما راجع المنصور كاتبه ليقتل سفيان قال له : « اسكت ياأنوك « أحمق » . فما بقى على الأرض من يستحى من غير « مالك » وسفيان »[1] .

---

(١) يروى مالك أنه استدعاه فدخل فوجد عنده ابن أبى ذؤيب (١٥٩) والقاضى ابن سمعان فسأل مالكًا عن حكمه « حكم المنصور » هو عدل أم جور ؟ فاستعفاه مالك بن الجواب . فسأل ابن سمعان عن حكمه فأثنى عليه . فسأل ابن أبى ذؤيب فأجاب : « أنت والله عندى شر الرجال . استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وأهلكت الضعيف وأتعبت القوى . وأمسكت أموالهم . فما حجتك غدًا بين يدى الله » قال المنصور ويحك . ما تقول ؟ قال : رأيت أسيافًا وإنما هو الموت ولابدّ منه . عاجله خير من آجله .

قال مالك . ثم خرجا وجلست . فقال المنصور : أجد رائحة الحنوط عليك ؟ قلت : أجل لما نمى=

... ...

= إليك عني ما نمي وجاءني رسولك ظننت أنه القتل .. قال : أو ماتراني أسعى فى أود الإسلام وإعزاز الدين عائذًا بالله .. يا أبا عبد الله انصرف إلى مصرك راشدًا مهديًا .. وإن أحببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدًا . قلت : إن يجبرنى على ذلك أمير المؤمنين فسمعًا وطاعة . وإن يخيرنى اخترت العافية .. قال : انصرف إلى أهلك معافى مكلوءًا . فلما أصبحنا أمر بصرر دنانير فى كل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطته فقال له : تدفع إلى كل رجل منهم صرة . أما مالك إن أخذها فبسبيله . وإن ردّها عليك فلا جناح عليه . وإن كان ابن سمعان ردّها ، فأتنى برأسه وأن أخذها فهى عافيته . وإن أخذها ابن أبى ذؤيب فأتنى بأسه وإن ردّها عليك فسبيله .

قال مالك : أما ابن سمعان فأخذها وسلم . وأما ابن أبى ذؤيب فردّها وسلم . وأما أنا فكنت والله محتاجًا إليها فأخذتها . ثم رحل أبو جعفر متوجهًا إلى العراق .

وروى مالك أنه استدعاه يومًا وعبيد الله بن طاووس بن كيسان . وكان طاووس فقيه اليمن حتى مات فى سنة ١٠٦ « طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس جد أبى جعفر » قال أبو جعفر : حدثنى حديث أبيك . قال عبيد الله حدثنى أبى أن أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة رجل أشركه الله فى سلطانه فأدخل عليه الجور فى حكمه . قال مالك فضممت ثيابى خوفًا من أن يصيبنى دمه .. فقال المنصور ناولنى هذه الدواة .. ثلاث مرات . فلم يفعل . قال أبو جعفر لم لا تناولنى ؟ قال أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها . قال : قوما عنى . ذلك ما كنا نبغى قال مالك : فمازلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم .

ويروى الإمام الشافعى حول أساطين جامع عمرو عن عمه محمد بن على بن شافع مثل ذلك . عندما قال ابن أبى ذؤيب أخذت المال من غير حلّة وجعلته فى غير أهله ، وأن المنصور رد عليه بقوله : والله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس والروم والديلم هذا المكان منك فوالله لولا أنى أعلم أنك صادق لقتلتك .

أما عمرو بن عبيد فكان أبو جعفر المنصور يستقبله بالترحاب وينشد فى نزاهته الشعر « كلكم يمشى رويد . كلكم طالب صيد . غير عمرو بن عبيد » وهو زعيم المعتزلة الذين يطلقون ألسنتهم فى الملوك والصحابة . دخل عليه فقال : « إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها واذكر ليلة تتمخض عن يوم لا ليلة بعده » قال الربيع بن يونس حاجب المنصور : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . قال عمرو للمنصور : « إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يومًا واحدًا . وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سنة نبيه » قال أبو جعفر المنصور : فما أصنع ، قلت لك خاتمى فى يدك فتعال أ- بحابك فاكفنى . قال عمرو : لا : ادعنا بعدلك ، تسخ أنفسنا بعونك ، ببابك ألف مظلمة أردد منها شيئًا أنك صادق . ولما مات عمرو كان أول واحد من الرعية ، وآخر واحد ، ينظم فى رثائه الخليفة شعرًا . أبياته :

وإذا الرجال تنازعوا فى شبهة   وصل الحديث بحجة وبيان
ولو ان هذا الدهر أبقى صالحًا   أبقى لنا عمرًا أبا عثمان

والجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه : « إن عبادته تفى بعبادة عامة الفقهاء والمحدثين » . وستبقى صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلا بعد وفاة عمرو وأبى جعفر لأن المعتزلة يمدون إلى =

وإذا كان هذان الإمامان اللذان ليس فى الأرض غيرهما ، تلميذين فى مجلس الإمام الصادق . يلتمسان علمه ويترسمان هديه . فما أحوج الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعوه إلى مجلسه .

الحق أن أبا جعفر كان من فزعه من الآخرة وحاجته إلى رضا الرعية صادق الرغبة فى التقرب إلى العلماء ، ومن أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامعه من النقد وإن كان لا يستجيب له .

طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد ، والمعافرى[1] ، فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابه كما قالا له . وهزّ ضميره ابن أبى ذؤيب وتوعده بجهنم . وكمثله صنع ابن طاووس فقبل استعفاء الصديقين . وأقر صدق ابن أبى ذؤيب[2] فقال له ؛ لولا أننى أعلم أنك صادق لقطعت عنقك ، كما ارتاح لابن طاووس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدّى طاعته إلى المشاركة فى معصية .

ولقد رفض أبو حنيفة أن يجلس للقضاء فى دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاء لحاشية يحب أبو جعفر أن يكرمها ، وما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم ، لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه .

= بنى العباس سببًا علميًّا وسببا سياسيًّا قالوا : إن واصلا « وهو زعيمهم مع أخى زوجته « عمرو بن عبيد » أخذ أصوله عن أبى هاشم (٩٨) عبد الله بن محمد بن الحنفية – بن علىّ بن أبى طالب وكان أبو هاشم قدريًّا مثلهم – ينفى القدر – ويضيفون أن محمد بن عبد الله بن عباس [1] تعلم على أبى هاشم[2] وتلقى منه الوصية بالإمامة بعده – دون بنى على بن أبى طالب – عندما أحس أبو هاشم بدنو أجله إذ دس السم إليه سليمان بن عبد الملك .

(١) لما استخلف أبو جعفر قصد إليه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى قادمًا من القيروان وكان زميلا له فى عهد الطلب ، فعرض عليه المقام ببغداد . وقال له كيف رأيت ما وراء بابنا ؟ فأجابه : رأيت ظلمًا فاشيًا وأمرًا قبيحًا . قال : لعله فيما بعد من بابى . فأجابه : بل كلما قربت استفحل الأمر وغلظ . قال : ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا وقولك مقبول عندنا ؟ فأجابه : رأيت السلطان سوقًا . وإنما يرفع إلى كل سوق ما ينفق فيها . قال : كأنك كرهت صحبتنا ؟ فأجابه : ما يدرك المال والشرف إلا من صحبتكم . ولكنى تركت عجوزًا وإنى أحب مطالعتها .

(٢) يفضل أحمد ابن حنبل بن أبى ذؤيب على مالك لمجاهرته بالحق فى وجه أبى جعفر . وتقدير الشافعى لابن أبى ذؤيب يتراءى فى رأى تلميذه أحمد . وفى رواية الشافعى عن عمه فى صدده . أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة .

وهذا ردّ فقهى من إمام أهل الرأى يتضمن التنديد بأبى جعفر وصحبته .

وصحبة الظالم وجه مشاركة فى الحكم ، وربما فى الظلم ، بتوطيد الأمور للظالم أو بتمكينه أن يبلغ غرضه ، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين . وفيها شهادة له فى الناس . فهى شركة خاسرة فى الدنيا والآخرة .

والإمام الصادق هو القائل : « أيما مؤمن قدّم مؤمنًا إلى قاض أو سلطان جائر ، فقضى عليه بغير حكم الله ، فقد شركه فى الإثم » وعلىّ يقول : « كفاك خيانة أن تكون أمينًا للخونة » .

وذات يوم دخل زياد الفندى على الصادق فقال له : وليت لهؤلاء ؟ - يقصد أصحاب السلطان - قال : نعم . لى مروة وليس وراء ظهرى مال . وإنما أؤاسى إخوانى من عمل السلطان . فقال « يازياد أما إذ كنت فاعلا ، فإذا دعتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك فاذكر قدرة الله عز وجل على عقوبتك وذهاب ما أتيت إليهم عنهم ، وبقاء ما أتيت إلى نفسك عليك » .

وفى واحد من اللقاءات يقول الصادق لأبى جعفر : « لقد بلغتُ ثلاثة وستين ، وفيها مات أبى وجدى » ليعلن له الاستخفاف بالموت الذى يتهدد الناس به ، وأن الإمامين اللذين قضيا - زين العابدين والباقر - لم يعمرا أكثر مما عمر ، ولكل أجل كتاب . فماذا يهاب ؟ إنه يطلق إعلانه بلغة عالية ، وفى هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجل خصِم . وفى توكل على الله يبلغه مأمنه . فهو إذا واجهه واجهه والله معه .

أرسل إليه أبو جعفر ذات يوم رزام بن قيس يدعوه للقائه ، ففصلا عن المدينة ، حتى بلغا النجف فنزل جعفر عن راحلته فأسبغ الوضوء وصلّى ركعتين ثم رفع يديه وهو يقول : « اللهم بك أستفتح ، وبك أستنجح ، وبمحمد عبدك ورسولك أتوسل . اللهم سهل حزونته وذلل لى صعوبته وأعطنى من الخير أكثر مما أرجو واصرف عنى من الشر أكثر مما أخاف » .

ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور ، أعلم المنصور بمكانه . فلم

يحجبه قليلاً أو كثيرًا ، بل تفتحت الأبواب . ورفعت الستر . فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه . وأخذ بيده وماشاه . حتى انتهى به إلى مجلسه . ثم أقبل عليه يسأله عن حاله .

وذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس أن يدعوه ، وكانت تبرق فى أساريره بوارق الخطر . فلما خرج من اللقاء بسلام سأل الربيع الإمام الصادق عن الدعاء الذى دعا به ربه فأكرمه الله فى لقاء المنصور . فأخبره به . فالصادق يستحضر رضا بارئ السماء فى كل آونة وتعينه السماء .

ومع ذلك السلام الذى نشده الصادق وعلمه ، يروى الطبرى أن المنصور لما عزم الحج – فى آخر أيامه – دعا ريطة بنت أبى العباس زوج المهدى ، وكان زوجها بالرى ، فأوصاها بما شاء ودفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته ، وأمرها ألا تسلمها إلى المهدى إلا عندما يجىء نبأ موت المنصور . فلما مات ذهبت ريطة والمهدى ففتحا الغرفة فإذا بقتلى من بنى علىّ فى آذانهم رقاع . فيها أنسابهم . وهم بين شيوخ وشباب وأطفال . فلما رأى المهدى ذلك ارتاع . فحفرت لهم مقبرة دفنوا فيها ثم بنى عليها دكانًا .

لم يكن المنصور يكتفى بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر بعد ثمانية قرون « أنا الدولة » . ذلك المقال الذى نبذه واستهجنه الساسة والمؤرخون فى الشرق والغرب ، بل كان المنصور يدعى دعوى أبعد وأشدّ ، كان يخطب فيقول : « إنما أنا سلطان الله فى الأرض » فيجمع فى يده ما عجز عنه الأباطرة والبابوات جميعا ! فإنما تقاسم الإمبراطور والكنيسة الأشياء ، فى القرن التاسع للميلاد ، فصار لقيصر ملك الأرض وللكنيسة مملكة السماء . أما أبو جعفر المنصور فادعى فى الأرض سلطان السماء . وأى شىء يستبعد على صاحب هذه الدعوى !!

* * *

وأبو جعفر – مع ذلك – ليس إلاّ واحد من المستبدين الذين يزخر ثبت التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم .

إليك مثلًا واحدًا من تاريخ الدولة التى تلقى إليها الديمقراطية الغربية

مقاليدها : لقد أرسل « هنرى الأوّل » ملك إنجلترا فرسانه يقتلون « توماس » بيكت رئيس أساقفة لندن من أجل خلافه معه فى ولاية العهد لابنه فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر . وفى الثلث الأوّل من القرن السادس عشر بعث « هنرى الثامن » ملك إنجلترا « توماس » ولزى رئيس أساقفة يورك إلى السجن ريثما يصدر عليه حكم الإعدام فمات قبل أن يعدم . ثم أرسل إلى المقصلة « توماس » مور كبير قضاته من أجل خلافهما له فى زواجه وطلاقه .

* * *

ولقد كان فزع المنصور من أجل دولته حريًّا أن يخرجه عن الاتزان فيستحوذ عليه الشيطان ، لولا إمساك الإمام الصادق بالأعنة كلها كلما لقيه ، فكان يضعه فى موضع النصفة .

والذين يهابون لقاء الملوك ضعفاء عن إخفاء دخائلهم ، من البغض او الحسد أو الخوف . والذين ليس فى قلوبهم من ذلك شىء يشجعون . أما الأئمة فالله معهم . وهو حسبهم .. وأين من هذا الذى معه مالك الأرض والسماء ، ملوك دولة أو إقليم !

من أجل ذلك يشجع الرجال الصدق إذ يستشهدون ، ومن أجله نظر الصادق إلى أبى جعفر فى شجاعة وصدق . فكان يلزمه القصد والنصفة .

ولا عجب إذا كان أبو جعفر فى دخيلة نفسه ، يريد ليحفظ ظاهر الأمر فى وقار من لا يسفك الدم ، إلّا بقدر . والصادق حجة له فى ثبات حكمه ، مذ كان لا يرى بيعة غيره .

وأبو جعفر عليم بما يجرى فى ملكه : وهو من مطالع حكمه يستعمل العسس فى كل اتجاه . فلم يلبث سنين حتى أصبح يعلم بكاء بنت مالك بن أنس من الجوع فى داخل الدار ، وهى وأبوها يكتمانه إلا على الله سبحانه !

وأبو جعفر هو القائل عن أوتاد حكمه : ما أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعفّ منهم . وهم أركان الدولة لا يصلح الملك إلّا بهم . أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه فى الله لومة لائم . والآخر صاحب

شرطة ينصف الضعيف من القوى . والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية . ثم عضّ على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول : آه آه . قيل : ماهو ياأمير المؤمنين قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

الفصل الثانى

الرجُلان

« يا بنى : إن الذين حولنا
لو يعلمون عن علىّ ما نعلم تفرقوا عنا
إلى أولاده » .

عبد العزيز بن مروان

الحق أن الاختلاف كان شديدًا بين الإمام جعفر الصادق وبين الخليفة أبى جعفر المنصور : فى طبيعتهما وطريقتهما وغاياتهما .

هذا صاحب سلطان ، فيه شركاء متشاكسون ، تركبه هموم الدنيا ، وتلبس جلده شياطينها . يترافع لينحنى الناس له ، ويجمع دنياهم فى قبضته . شحيح النفس منقبض اليد ، « دوانيقى » ، يحسب بالدرهم والدانق[1] تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع . وتحوله مطامعه من الدماثة إلى الشراسة . فلا يطمئن له أحد ، أقام دولته على أشلاء الأعداء ، وفزع الأقرباء ، وجماجم أهل البيت ، فى خزائنه !

أما الإمام فرجل سلم لكل رجل : يتواضع ليرفع الناس كلهم ، ولا تستعبده الدنيا قيد أنملة . يعطى ولا يأخذ . ويحيى أنفس الناس ، بالعطاء المسماح من العلم ، والجاه ، والمال ، « ما قال لا قط إلا فى تشهده » . فهكذا كان أبوه وجده .

والحق كذلك أن المنصور – بنجاحه فى إقامة أكبر دولة فى التاريخ الوسيط –

(١) الدانق سدس درهم .

يعتبر واحدًا من ثلاثة لا يعرف لهم التاريخ الإسلامى رابعًا . ولا ينزل بهم التاريخ العالمى عن أعظم المؤسسين للدول .

أولهم معاوية بن أبى سفيان ، وثانيهم عبد الملك بن مروان . مصايرهم متشاكلة . ووسائلهم متشابهة ، وخصامهم لأهل البيت أساس دولتهم . ونجاحهم فى دنيا السلطة مقطوع القرين :

بدءوا علماء ، وانتهوا ملوكًا كالملوك الأعاجم ! والإسلام فضل من الله ، يسخر لخدمته من يشاء . ولو مال عن الجادة رجل ، فإنما يخذل نفسه ولا يصيب الإسلام بسوء .

لقد أخطأ معاوية فى إقامة دولته وفى حربه . وكان لزاما أن يقوده خطؤه إلى أن يجعل الدولة . « هرقلية كما مات هرقل قام هرقل » . فيكون ابنه يزيد أشأم وألأم خلف لسلف . لكن أحدًا لا يتنازع فى أن دولته – وإن لم تمثل دولة الدين – قد انتشرت فى البر والبحر ونشرت الإسلام وجاهد فى غزواتها الصحابة وبنوهم والعلماء والفقهاء ، بل غزا وجاهد فيها بين جيوش المسلمين أبو الشهداء ، الحسين بن على ، فى فتح أفريقية وغزو جرجان وطبرستان والقسطنطينية .

ومعاوية هو الذى مهّد لدولة ابن عمه مروان بن الحكم .

وعبد الملك بن مروان هو المؤسس الحقيقى للدولة المروانية التى أينعت فروعها بالأندلس وأبقت الإسلام فى أوربة ثمانمائة عام ، لتهيئ للحضارة الحديثة أن تنطلق من جامعات الأندلس وجوامعها . وهو عمّ عمر بن عبد العزيز وصهره .

وعمر : خامس الراشدين فى مدة خلافته . الذى كتب لعامله على المدينة يوم ولى الخلافة : اقسم فى ولد فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فقد طالما تخطتهم حقوقهم . وقال معلنًا حق علىّ وباطل بنى أمية ومروان « كان أبى[1] إذا

---

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، عينه عبد الملك على مصر وأفريقية . وهو الذى بنى مدينة حلوان ضاحية الفسطاط – القاهرة . وفيها عاش عمر بن عبد العزيز زمانا . وجيوش أفريقية هى التى فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير .

خطب فنال من علىّ تلجلج . فقلت : يا أبت إنك تمضى فى خطبتك فإذا أتيت على ذكر علىّ عرفت منك تقصيرًا ؟ قال : أو فطنت إلى ذلك ؟ يا بنى إن الذين حولنا لو يعلمون من علىّ ما نعلم تفرقوا عنا إلى أولاده .. ».

لكن أبا جعفر كان أثقل الثلاثة حملًا . إذا كان معاوية وعبد الملك قد سبقاه ففصلا بين الدين والدولة فجزّأا نظرية الدولة الإسلامية ، وكان هو قد سار على الدرب الذى اختطّاه ، إن المعارك التى خاضها من أجل دولته كانت أوسع مدى.

ففزعه من أبى مسلم وجنده لم يكن إلا رجع الصدى لصوت يتصايح فى آفاق حياته ، وأعماق ذاته : أنهم سرقوا الدولة من أبناء علىّ . ومن هنا خوفه المستمر من انتقاض أهل خراسان الذين جاءوا لمبايعة « الرضا من آل محمد » . وأهل البيت أولى منه فى أنظار الذين جاءوا به وبأخيه إلى السلطة .

وخوفه من أعضاء بيته أشدّ . فلقد كان عمه عبد الله بن على قائد جيش الشام ، لكنه خرج عليه ، وأخمد فتنته أبو مسلم الخراسانى ، حتى إذا استسلم – على عهد – حبسه أبو جعفر ليقتله بعد زمن من قتله أبا مسلم ذاته . وكذلك غدر بعيسى بن موسى الذى انتصر على محمد وإبراهيم فسلبه حقه فى ولاية العهد ، وولى ابنه المهدى عهده . فكان غدره كهيئة ما غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق فى ولاية العهد ، قائلًا : « ما اجتمع فحلان فى شول إلّا أخرج أحدهما صاحبه » .

وما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن على ، إلّا درس المعلم الأوّل للرجلين : أن يستعملا الزمن . وأن ينتهزا الفرص . وأن يحركا الحوادث بدهاء : وأن يقطفا الثمر : ثمرة ثمرة .

وأبو جعفر لا يتردد فى إعلان التشابه بينهم وفى تعطشه للدم . فيعلن فى الناس أن « الملوك ثلاثة : معاوية وكفاه زياده . وعبد الملك وكفاه حجّاجه . وأنا . ولا كفاة لى » .

كأنما لم يكن فيما سفكه كفاية . فكان يريد أن يسفك له دمًا أكثر سفاحون أصغر !

الواقع أن أزمات أبى جعفر كانت آخذة بخناقه من كل صوب . فهى فى نفسه ، وفى بيته ، وفى دولته ، وفى صلته بالأمة : أن كانت القوة العسكرية التى أجاءته إلى الحكم ، قد تخلّت عنه بل حملت السلاح ضده . وكانت القوة الفكرية التى قامت عليها الدولة ، قد صار أصحابها فرائس له . وكانت القوة العصبية ، قوة أسرته ، تترنح بخروج عمه عبد الله وقتله . وبمغامراته للاستئثار لبنيه بالخلافة دون سائر أهله .

فإذا كان ثمة من أحبه ، فإن حبهم كان أقبح من البغض ، مذ كانوا يؤلهونه، فيكفرون أنفسهم ويفضحونه ، بل كادوا يقتلونه ، يوم أحاط الراوندية بقصره فلم يمكنه الله منهم إلا بمساعدة عدو كان يطلب رأسه ، هو معن بن زائدة الشيبانى . وكان معن حريًّا أن يقتله فى وطيس المعركة . حتى الذى أنجاه كان عدوًّا له !

وفى سنة ١٤٥ انتفضت خراسان فقتلت جيوشه من أهلها سبعين ألفًا وأسرت بضعة عشر ألفًا .

ولم يكن شغله بالجيوش المحاربة فى المشرق أو فى جزيرة العرب أهم أشغاله . ففى أفريقية خرج عليه محمد بن الأشعث والى أفريقية ، فجرد عليه جيشًا بقيادة الأغلب بن سالم ، وسيقتل الأغلب بعد سنين سنة ١٥٠ . ولم ينهزم الخوارج إلا بعد أن خاضعوا ثلاثمائة وخمسة وسبعين وقعة ! وأمام جيش قوامه خمسون ألفًا .

كل أولئك وهو من شح نفسه ، ومن اصطحاب جماجم أهل البيت فى خزائنه ، فى أمر مريج . يحسب أن كل صيحة عليه هى العدو . وأن كل خروج عليه يدعو الجميع ليخرجوا . وهم على خروج قادرون .

مع كل ذلك نجح أبو جعفر بالحذر والغدر ومعاجلة الخصوم . فاستبقى دولته لتكون أطول الدول الإسلامية عمرًا . وأبعدها فى الحضارة العالمية أثرًا .

لكن التاريخ – وقانونه الاستقامة – وطبيعة الأشياء – وقانونها « لكل فعل ردّ فعل ، مساوٍ له فى المقدار ، ومضادّ له فى الاتجاه » – لم يتركا أبناءه

وحفدته دون عقاب . وكأنما كان طول عمر دولته تطويلاً للعقاب عليهم وتكثيراً لما ينزل بهم .

***

كان من لوازم السلطة أو علامات عدم الثقة بالنفس أو بالغير ، أن تتراءى من أبى جعفر فى لقائه لأهل البيت أو التعامل معهم نزعات المستوفز الحذر ، أو مظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء ، أو من يضعهم فى مواضع الأعداء لكن الإمام « الصادق » كان يمسك بالزمام فيرد الخليفة دائما إلى حيث يطلب الموعظة ، أو العلم .

ومن إمساك الزمام فى أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل على أهل البيت . فيقول له « لا تقبل فى رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك من حرم الله عليه الجنة وجعل مأواه النار . فإن النمّام شاهد زور وشريك إبليس فى الإغراء بين الناس . فقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) ونحن أنصار وأعوان . وللملك دعائم وأركان ، ما أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، وأمضيت فى الرعية أحكام القرآن ، وأرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان . وإن كان يجب عليك فى سعة فهمك وكثرة علمك ومعرفتك بآداب الله أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك فإن الكافى ليس بالواصل . إنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها . فصل رحمك يزد الله فى عمرك ، ويخفف عنك الحساب يوم حشرك » .

ويقول المنصور : قد صفحت عنك لقدرك . وتجاوزت عنك لصدقك . فحدثنى عن نفسى بحديث أتعظ به ويكون لى زاجر صدق عن الموبقات .

وبهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم ، إلى موضع المواسى لذوى القرابة ، ومكانة طالب الموعظة ، فأدلى بها إليه الإمام .

قال : « عليك بالحلم فإنه ركن العلم . واملك نفسك عند أسباب القدرة . فإنك إن تفعل ما قدرت عليه كنت كمن شفى غيظًا وداوى حقدًا ، وأحب أن

يذكر بالصولة . واعلم أنك إن عاقبت مستحقًّا لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل . والحال التى توجب الشكر أفضل من الحال التى توجب الصبر » .

تلك آداب الله ، وأسباب الحكم الصالح ، وملاك السيطرة للحاكم المسلم على قلوب الرعية .

وظاهر أن أبا جعفر كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعى الصفح ، وليس لديه تهمة .. ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعظة إليه .

وللملوك سماعات ، أو أبواق دعايات ، منتشرة فى الرعية ، تلتقط موجات الرضا والغضب ، والهدوء والقلق ، وتبث نظائرها ، حسب الحاجة . والنمامون كثر ، كالفراشات التى تدور حول النور ، تلتمس الدفء أو الظهور . ولأبى جعفر جهاز لاينى عن استعماله ليروع خصومه ، أو ليجعلهم فى قبضة يده ...

فلقد يدس من أجهزته دسيسًا بعد دسيس على بنى الحسن ، والحسين ، مثل أن يدعو ابن مهاجر ذات يوم فيقول له : خذ هذا المال وإيت المدينة والق عبد الله بن الحسن وجعفر بن محمد « الصادق » وأهل بيتهم وقل لهم : إنى رجل من خراسان من شيعتكم وقد وجهوا إليكم هذا المال . فادفع إلى كل واحد منهم على هذا الشرط . كذا وكذا . فإذا قبض المال فقل إنى رسول . وأحب أن تكون معى خطوطكم بقبض ما قبضتموه منى ... وذهب ابن مهاجر . فلما رجع قال له أبو جعفر ما وراءك ؟ قال : أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر ابن محمد . قال لى : يا هذا اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد . فإنهم قريبو العهد بدولة بنى مروان . وكلهم محتاج . فقلت • وماذاك أصلحك الله . فقال : ادن منى . فدنوت فأخبرنى بجميع ما جرى بينى وبينك كأنه ثالثنا .

قال المنصور : يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوّة إلّا وفيهم محدَّث . وإن جعفر بن محمد محدثنا اليوم .

فالصادق يكشف للمنصور ودسيسه ، حقائق يعلمونها ، وينبههما على ألّا يورطا أهل البيت من جراء حاجاتهم . يريد لأهله السلامة . وللخليفة

الاستقامة ، وللأمة الطمأنينة . وفى كل ذلك خير لأبى جعفر المنصور .

* * *

ولقد كان المنصور – نفسه – يجعل الصادق حجة من حججه ، وإذا فاخر أهل البيت فاخرهم به !

كتب إليه محمد بن عبد الله « النفس الزكية » يدعوه ليبايعه ، وعيّره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد . وأم المنصور بربرية تدعى سلامة ، يتردد اسمها على ألسنة الذين فاخروه . فتولّى المنصور كبره فى الرد على محمد . ولم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجة من مكانة الإمام الصادق . قال فيما قال : « وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل من على بن الحسين زين العابدين . وهو لأم ولد . ولهو خير من جدك حسن بن حسن . وما كان فيكم بعده مثل محمد بن على الباقر وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك . ولا مثل ابنه جعفر . وجدته أم ولد ، وهو خير منك » .

وغضّ المنصور طرفه عن أم الولد فى شجرة الباقر « شاه زنان » بنت كسرى ملك الفرس . وأين منها – بعد إذ أسلمت – سلامة !

على أن اللقاءات – أو الاحتكاكات – بين الرجلين لا تتوقف .

فهذان قطبان . لكل منهما عالمه . وهما ضدان لهما مستويان . والشرف فيهما لرجل الدين والزهد والعلم . والملوك أحوج إلى العلماء من العلماء إلى الملوك .

وأبو جعفر حريص غُدَر ، يسلط على الصادق من وقت لآخر ، وفى مكان بعد آخر ، وجوهًا من التهديد لشخصه والاتهام لولائه والإزراء بعلمه .

يقول له ذات يوم فى لقاء له بالكوفة : أنت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك على أهل البيت من بنى العباس . وما يزيدك الله بذلك إلا شدّة حسد ونكد ، وما تبلغ به ما تقدره . فيجيبه الصادق : « والله ما فعلت شيئًا من ذلك . ولقد كنت فى ولاية بنى أمية – وأنت تعلم أنهم أعدى الخلق لنا ولكم ، وأنه لا حق لهم فى هذا الأمر – فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عنى شىء من جفائهم الذى كان لى . وكيف أصنع هذا الآن . وأنت ابن عمى . وأمس الخلق

بى رحما، وأكثر عطاء وبرًّا فكيف أفعل هذا » !

والصادق بهذا يسجل للخليفة برّه . ويقدر له أوّلية ذوى الأرحام عنده فى البرّ بهم ، ويقرر له حقّه فى الخلافة .. وليس للمنصور فوق ذلك طلبات . وبهذا يستلّ الضغن من صدره ، ليدعه فى ميدانه الذى يسرّه الله له .

ومع ذلك يعاد المشهد فى بغداد ، بعد سنة ١٤٥ ، فيستحضره المنصور لمواجهة جديدة .

يقول له : يا جعفر . ما هذه الأموال التى يجبيها لك المعلى بن خنيس ؟

قال الصادق : معاذ الله ما كان من ذلك شىء .

قال المنصور : تحلف على براءتك بالطلاق والعتاق .

قال الصادق : نعم أحلف بالله ما كان من ذلك شىء .

قال المنصور : بل تحلف بالطلاق والعتاق .

قال الصادق : ألا ترضى بيمينى : الله الذى لا إله إلا هو !

قال أبو جعفر : لا تتفقه على .

قال الصادق : وأين يذهب الفقه منى ؟

قال المنصور : دع عنك هذا فإنى أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذى رفع عنك هذا حتى يواجهك .

فأتوه بالرجل ..

قال الصادق : تحلف أيها الرجل أن الذى رفعته صحيح ؟ قال : نعم . ثم بدأ باليمين ، قال : والله الذى لا إله إلا هو الغالب الحى القيوم .

قال الصادق : لا تعجل فى يمينك فإنى استحلفك .

قال أبو جعفر : ما أنكرت من هذه اليمين ؟

قال الصادق : إن الله تعالى حىّ كريم إذا أثنى عليه عبده لا يعاجله بالعقوبة . ولكن قل أيها الرجل : أبرأ إلى الله من حوله وقوته . وألجأ إلى حولى وقوتى . إنى لصادق برّ فيما أقول .

قال المنصور للرجل : احلف بما استحلفك به أبو عبد الله .

قال راوى الخبر : فحلف الرجل . فلم يتم الكلام حتى خرّ ميتًا . فارتعدت فرائص المنصور . وقال للصادق : سر من عندى إلى حرم جدك إن اخترت ذلك . وإن اخترت المقام عندنا لم نأل جهدًا فى إكرامك . فوالله لاقبلت بعدها قول أحد أبدًا .

وأين يذهب الفقه من إمام المسلمين ، وهو الذى يوجه اليمين ، ومن حقّه صياغتها !! وفى الصيغة ما ذكّر المفترى بعظم افترائه ، وبالخالق سبحانه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا) . ومن الإنسانى ، ومن جلال مقام الإمام عند الله والناس ، أن يخرّ صريعًا من يفترى على الله وعلى الإمام ، فى مجلس الخليفة .

بهذه الآية هدى جبار السموات جبارًا على الأرض لا يطأطئ رأسه . فإذا حركها عند ما يناوشه الذباب سأل حُضّاره كالمستنكر : لمَ خلق الله الذباب !! وكان الصادق حاضرًا يومًا فأجاب : ليذل الله به الجبابرة .

ولئن كان فى وجود الذباب فى المجلس تذكرة للجبابرة ، ففى سقوط المفترى على الإمام بين أيديهم آية ما بعدها آية .

وكما يضمن أبو جعفر طاعة الإمام بالبغتات يصطنعها من حين لآخر ، لا يتورع عن محاولة إفحام الإمام ، بين علماء العصر ، أو تسخير أعظم علماء العراق ، لينصب منه شركًا يوقع فيه الإمام ! وليس هوى أبى جعفر مع أى منهما . ولا بأس عنده إذا أعجز كل منهما ، أو أحدهما ، صاحبه .

وإن المرء ليلمس خساسة الحيل الظاهرة من أبى جعفر ، باتخاذ العلم والفقه أداة للشرّ المدبّر ، وعظماء العلماء وسائل للإساءة للمسالمين الذين يأمن جانبهم فلنقس عليها فظاعة تدابيره السرية لمن يخشى العواقب منهم ، ولندرك جلالة الحق إذ ينتصر على الحيلة ، وجلجلة الحقيقة إذ تظهرها وسيلة أريد بها طمس معالمها ، ومكانة الإمام الصادق فى العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء ، فى مجلس علمى يسيطر عليه خليفة عالم :

أقدم المنصور الإمام الصادق من المدينة إلى العراق وبعث إلى أبى حنيفة فقال

له : إن الناس قد افتتنوا بجعفر . فهيئ له المسائل الشداد .

يقول أبو حنيفة عن لقائه بعد ذلك : « بعث إلى أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته . فدخلت عليه وجعفر بن محمد جالس عن يمينه . فلما أبصرت به دخلتنى من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق ما لم يدخلنى لأبى جعفر فسلمت عليه ، فأومأ إلى فجلست . ثم التفت إليه فقال : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة . قال جعفر : إنه قد أتانا . ثم التفت إلىّ المنصور وقال : يا أبا حنيفة ألق على أبي عبد الله « الصادق « مسائلك . فجعلت ألقى عليه فيجيبنى فيقول : أنتم تقولون كذا . وأهل المدينة يقولون كذا . ونحن نقول كذا . فربما تابعهم . وربما خالفنا جميعا حتى أتيت على أربعين مسألة » .

ولقد قال أبو حنيفة فى مقام آخر : « ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس » .

وإنما يقصد أبو حنيفة باختلاف الناس الاجتهاد الفقهى للمقارنة بين مذاهب المجتهدين .. فأبو حنيفة – وهو الإمام الأعظم عند أهل السنة – يقرر أن الإمام الصادق أعلم الناس باختلاف الناس فى المدينة حيث علم المحدثين ، وفى الكوفة حيث علم أهل الرأى .. وكانتا قد بلغتا أوجيهما ، على أيدى أبى حنيفة ومالك ، وهما التلميذان فى مجالس الإمام الصادق . وكمثلهما كان إمام العراق الآخر سفيان الثورى .

وأبو حنيفة أكبر سنا من جعفر الصادق . وُلد قبله بأعوام وسيموت بعده . وكان أبو حنيفة كما قال مالك لو حدثك أن السارية من ذهب لقام بحجته .

والجاحظ كبير النقدة يقول بعد مائة عام : « جعفر بن محمد الذى ملأ الدنيا علمه وفقهه ، ويقال إن أبا حنيفة من تلاميذه وكذلك سفيان الثورى . وحسبك بهما فى هذا الباب » .

والجاحظ يذكر تلاميذ العراق . ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسى مالك ابن أنس .

* * *

بلغ الإمام الصادق بمسالمته للمنصور بعض آماله لأهل بيته ، بقية أيام حياته ، بل طوال خلافة أبي جعفر المنصور . فكان ميمون النقيبة بالسلام الذى نشده ، والأمان الذى دعا له ، وأطال زمانه . ومنع كثيرًا من الطغيان الذى طالما شكاه أبوه ، على ما سيروى ابن أبي الحديد فى شرح نهج البلاغة - « ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ، ونقصى ونمتهن ، ونحرم ونقتل ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا . ووجد الكاذبون والجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعًا .. فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغّضونا إلى الناس . وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن . فقُتِلت شيعتنا بكل بلدة . وقطعت الأيدى والأرجل على الظنّة . ومن يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله أو هدمت داره . ثم لم يزل البلاء يزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين . ثم جاء الحجاج[1] فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة . حتى أن الرجل يقال له زنديق أحب إليه من أن يقال شيعة علىّ » .

وفى عصر الباقر كان الحسن البصرى (١١٠) الجسور « قاضى عمر بن عبد العزيز وشيخه الذى لا يهاب الخلفاء » إذا روى عن أمير المؤمنين علىّ قال : « قال أبو زينب » ليخفى الاسم الذى لا خفاء له !

بل كان الشعبى (١٠٤) شيخ المحدثين بالعراق يقول : « ماذا لقينا من آل علىّ إذا أحببناهم قتلنا وإذا أبغضناهم دخلنا النار » .

وكان طبيعيًّا فى دولة « هرقلية » همها الملك لا الدين ، تعاقب من تتوهم خطره عليها وتترك من تزندق ، أن تزداد الاستهانة بالدين فى مقابل السلام الذى تنشده الدولة ، والبلهنية الى يؤثرها دعاة الدعة . بدأ ذلك من عهد معاوية وسيستمر استمرار فساد الدولة . وستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل بيت النبى ، أو توقع بهم لفرطات تفرط من أحدهم ، أو تعزى كذبًا إليهم ،

---

(١) أطلق الخليفة سليمان بن عبد الملك من سجون الحجاج فى يوم واحد ثمانين ألفا . منهم ثلاثون ألفًا بغير ذنب . ومنهم ثلاثون ألف امرأة .

منتهزة للفرص حينا أو مفتعلة لها فى أغلب الأحيان .

ثم كانت الأوامر تصدر من بغداد إلى أرجاء الإمبراطورية التى تدين لبنى العباس ، ومنها مصر ، أن « لا يقبل علوىّ ضيعة . ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها . وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلّا العبد الواحد - والرقيق يوم ذاك قوّة العمل - وإن كانت بين العلوىّ وبين أحد خصومة فلا يقبل قول العلوّى . ويقبل قول خصمه بدون بينة » !

وكانوا يسفرون من الأطراف إلى العاصمة ليكونوا تحت الرقابة بل أمر الرشيد أن يضمن العلويون بعضهم بعضًا ، وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم ، فمن غاب عوقب ... وكأن « أهل بيت النبى » جالية من العدو أو شرذمة من المشبوهين ..

* * *

ولقد كان يكفى للحيطة أقل القليل من حاكم يريد أن يطمئن . وإنما كان ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة ، يشترك فى تنفذها الخلفاء ، والأشياع الظلمة . تدفع الثائرين إلى أن يثوروا ، فيؤخذوا بثوراتهم ، أو يؤخذ غيرهم بجرائر تنسب إليهم ، أما سياسة أهل البيت فواضحة من شعار أبناء علىّ فى كلمة مسلم بن عقيل : « إنّا أهل بيت نكره الغدر » قالها عندما عرض عليه البعض قتل عبيد الله بن زياد فى إحدى زياراته . فنجا ابن زياد بهذا الشعار ليقتل مسلمًا فيما بعد . أما شعار حاشية معاوية فكان « إن لله جنودًا من عسل » يقصدون دسّ السم إلى أعدائهم فيه .

ولقد طالما استعمل الطغاة السمّ فى أهل البيت فى القرون التالية . فإن لم يكن سمّ فى خفاء فالقتل جهرة . ومن الروايات أن أئمة أهل البيت - الاثنى عشر - ماتوا مسمومين ما عدا أمير المؤمنين عليًّا وأبا الشهداء الحسين - ماتا شهيدين .

وفى أيام الخليفة الهادى (سنة ١٦٩) كان أهل بيت النبى فى المدينة يستعرضون كل يوم ! لكل واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب . بل ولى

عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبد العزيز بن عبد الله . فولى بدوره على أهل البيت رجلا يقال له عيسى الحائك . فحبسهم الحائك فى المقصورة . فثارت لأجلهم المدينة إذ ثاروا ، وكسرت السجون وأخرج المسجونون ، وبويع للحسين بن على بن الحسن . فبقى واحدًا وعشرين يومًا بالمدينة ثم ارتحل إلى مكة فأقام بها إلى زمن الحج .

وكرر التاريخ نفسه فى خروج الحسين ومن معه من أهل المدينة إذ جاءه الإمام موسى الكاظم يستقيله من الخروج معه ، كما صنع أبوه مع النفس الزكية « محمد بن عبد الله » . قال الكاظم للحسين « أحب أن تجعلنى فى حلّ من تخلفى عنك » قال : أنت فى سعة . قال الكاظم : « أنت مقتول .. وعند الله عزّ وجلّ احتسبكم من عصبة .. » .

وجهز الهادى جيشًا لاقاه حيث استشهد فى موقع يقال له : « فخ » ومعه كثير من العلويين . وحملت رأس « الحسين شهيد فخ » إلى القائد العباسى بالبشرى ! مع رءوس مائة آخرين .

واستعرض القائد الرءوس بالمدينة فقال الإمام الكاظم عندما عرضوا رأس الحسين : « إنا لله وإنا إليه راجعون . مضى والله مسلمًا صالحًا . صوّامًا قوامًا آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر . ما كان فى أهل بيته مثله » .

وكان مع الحسين يحيى بن عبد الله بن الحسن « أخى محمد وإبراهيم ، وإدريس أبناء عبد الله بن الحسن » فلما انتهت المعركة استترثم ظهر ، فخرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، ووجه إليه الرشيد جيشا بقيادة الفضل بن برمك حتى استسلم بعهد مكتوب . ومع ذلك استفتى الرشيد العلماء لقتله ، فأبى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة وصاح : ماذا تصنع ، لو كان محاربًا وولّى كان آمنًا .

لكن الرشيد وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله ، وكان هو أقدر على النفاق السياسى من مفتيه . أخذ من المفتى ما يملكه ، ليصنع هو ما يقدر عليه .. فسجن يحيى وضيق عليه الخناق حتى مات فى سجنه ، كمثل ما سيموت فى

سجن الرشيد الإمام موسى الكاظم ويشهد الرشيد الناس عليه ، ليبرئ نفسه من تهمة اغتياله .

أما الأخ الرابع إدريس فأفلت هاربًا إلى مصر ، ثم إلى المغرب ، وقيل دسّ إليه الرشيد هناك من سمّه . فأسس ابنه دولة الأدارسة .

وسيموت فى حبس الرشيد كذلك عبد الله بن الحسن « الأفطس » . قتله جعفر بن برمك وزير الرشيد . وسيموت فى حبسه محمد بن يحيى بن محمد بن عبد الله بن الحسن ، والعباس بن محمد بن عبد الله ، وكذلك الحسين بن عبد الله بن جعفر[1] .

وفى عهد المأمون وجّه إلى جماعة من آل أبى طالب . فحُملوا إليه فى مرو عاصمة خراسان وفيهم الإمام على الرضا « بن الكاظم بن الصادق » . فخاطبه فى أن يكون ولىّ عهده . فأبى . فتهدّده بقوله : « إن عمر جعل الشورى فى ستة آخرهم جدك . وقال : من خالف فاضربوا عنقه . ولابدّ من قبول ذلك » فقبل . وبايع له المأمون والعباس بن المأمون .

ثم دعاه المأمون للخطبة فأوجز ، وكأنه يتوقع وجازة أيامه . فاكتفى بعد أن حمد الله بقوله : « إن لنا عليكم حقًّا برسول الله صلى الله عليه وآله . ولكم علينا حق فإذا أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم » . لكنه مات بعد قليل فى ظروف مبهمة لا يستبعد منها دسّ السمّ كما تؤكد الشيعة ، فموت على الرضا كان حلًّا لإشكالات بنى العباس سواء من يحبون المأمون ، أو الكارهون

---

(١) وتستمر عجلات الطغيان فى الدوران . وتتوالى مقاتل الطالبيين توالى الخلفاء العباسيين – ففى بدء عهد المأمون يقتل بالعراق : الحسن بن الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع أبى السرايا . والحسن ابن إسحق بن على فى وقعة السوس مع أبى السرايا . ومحمد بن الحسن بن الحسين يقتل باليمن فى أيام أبى السرايا وعلى بن عبد الله بن محمد يقتل باليمن فى أيام أبى السرايا ومحمد بن إبراهيم بن إسماعيل « وهو ابن طباطبا » الخارج مع أبى السرايا سنة ١٩٩ مطالبين بالبيعة « للرضا من آل محمد » . وقد انهزموا بجيش هرثمة بن أعين قائد المأمون سنة ٢٠٠ . وقتلى العلويين على يد هذا الجيش كثيرون .

للرضا، أو للمأمون ذاته[2].

ولا نستطرد للسرد. فليس فى تاريخ البشرية، كلها، أسرة شرّدت وجرّدت، وذاقت العذاب والاسترهاب، مثل أهل بيت النبى ﷺ.

بدأ بهم تاريخ الإسلام مجده. واستمر فيهم بعبرته وعظمتها. قدم أبوهم للبشرية أسباب خلاصها بكتاب الله وسنة الرسول. وقدم أهل بيته أرواحهم فى سبيل القيم التى نزل بها القرآن وجاءت بها السنة. كانت مصابيحهم تتحطم لكن شعلتهم لا تنطفئ، لتخلد الجهاد والاستشهاد والإرشاد، بالمثل العالى الذى كانوه، والضوء الذى لم تمنع الموانع من انتشاره، وعلم فيه أبناء النبى أمته بعض علومه: أن الاستشهاد حياة، للمستشهدين وللأحياء جميعًا[2].

---

(١) وفى عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم .. بن على بالطالقان فقبض عليه عبد الله بن طاهر وبعث به إلى الخليفة. وحبس المعتصم عبد الله بن الحسن .. بن جعفر حتى مات فى مخبئه. فلما جاء الواثق أمن العلويون بضع سنين إذ جمعوا ثم حبسوا، عن الانطلاق خارج العاصمة سامرا، فتطامنوا واطمأنت السلطة. ثم هبّت عليهم فى أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفزع.

فلقد أزال قبر الحسين وحرثه حتى لا يزار. وشتت شمل شيعته وفرقهم فى النواحى فمنهم من حبسوا ومنهم من تواروا حتى ماتوا فى مهربهم – وتناقل الناس أشعارًا منسوبة إلى ابن السكيت عالم النحو الكبير، وكان يعلم ولدى المتوكل. وفى هذه الأشعار:

تـالله إن كـانت أميـة قـد أتت ... قتـل ابن بنت نبيهـا مـظلومـا
فـلقـد أتـاه بنـو أبيـه بمثله ... هـذا لعمـرك قبـره مهـدومـا
أسفـوا علـى ألا يكـونـوا شـاركوا ... فى قـتـله فـتـتـبـعـوه رمـيـمـا!

وربما أراد المتوكل أن يتيقن من صدور هذا الشعر أو من ولاء العالم حين سأله:

ايهما أحسن: ولداى «المؤيد والمعتز» أم الحسن والحسين؟.. ولم يرضه جوابه. فأمر بقتله فقتلوه. ولم يلبث المتوكل إلا قليلا حتى قتله ابنه «المنتصر» فى مؤامرة!

وإنما كانت فظاعة الجريمة الأخيرة قصاصًا عجلت به السماء، لمقتل عالم آثر الصدق. ولم يصلح للعلويين بال إلا أشهرًا بعد مصرع المتوكل. ليعود البطش بهم إلى عنفوانه فى أيام المستعين. فمنهم من خرج وخرج الناس معه، كيحيى بن عمر خرج فقتل. ومنهم من خرج ولم يخرج الناس معه، فحبس ليموت سنة ٢٧١. وهو الحسن بن محمد المعروف بالحرون. ومنهم محمد بن جعفر خرج وحبس حتى مات فى سامراء ليتتابع سجل الشهداء ..

(٢) نقف عن السرد، عند أبيات لابن الرومى (٢٢١ – ٢٨٤) من جيميته فى رثاء يحيى بن عمر بعد مقتله إذ خرج على بنى العباس فى القرن الرابع من جراء ظلمهم:

... ...

= أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى . مستقيم وأعوج
أكل أوان للنبى محمد ... قتيل زكى بالدماء مضرج ؟
بنى المصطفى كم يأكل الناس شلوكم ... لبلواكمو عما قليل مفرج
أبعد المسمى بالحسين شهيدكم ... تضاء مصابيح السماء فتسرج ؟
أيحى العلاء لهفى لذكراك لهفة ... يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة ... فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة ... عليك وممدود من الظل سجسج
ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلت عليكم غمة لا تفرج
نظار لكم أن يرجع الحق راجع ... إلى أهله يومًا فتشجوا كما شجوا
غررتم إذا صدقتمو أن حالة ... تدوم لكم . والدهر لونان . أخرج
أبى الله إلا أن يطيبوا وتخبثوا ... وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
لعل قلوبًا قد أطلتم غليلها ... ستظفر منكم بالشفاء فتثلج

البَابُ الثَالِث

إمام المسلمين

أنت يا جعفر فوق الـ مـدح والمـدح عنـاء
جـاز حدّ المـدح من قـد ولـدتـه الأنبيـاء

« عبد الله بن المبارك »

إمام المسلمين

قامت الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة حيث طبق الدين أكمل تطبيق . فلم تكن العاصمة المناسبة لدول ثلاثة أقامها أصحابها من أجل خلافة الدنيا لا خلافة الدين .

والمدينة هى المقرّ الأمثل لأهل بيت الرسول حيث يرتبطون بكل أثر فيها وترتبط بهم المعانى التى خلد بها الإسلام ، وانتصر المسلمون .

والسنّة هى الشجرة المباركة وفروعها. فى ثمرها اليانع رحمة ويسر ومعرفة . وفى ظلالها الوارفة مودّة وإيلاف وتواصل . ومن هذه العناصر نتج الفكر الرفيع للمجتمع العظيم ، يسقى من القرآن ويحيا به .

وبالقرآن والسنة ، والفكر الرفيع والفقه المحيط ، اعتصم أهل البيت فى المدينة . فاختصم وإياهم خلفاء الدول الثلاثة الأموية والمروانية والعباسية ، وولاتهم على المدينة . لكنها ظلت مدرسة السنّة والفقه . وتتابع فيها أئمة أهل البيت : زين العابدين ، والباقر ، والصادق .

والفصل الثانى من الباب الحالى مداره مجلس إمام المسلمين جعفر الصادق ، وأمثال لما يجرى فيه من أقوال ، ومن يشرف بالانتهاء إليه من رجال ، ليسوا كسائر الرجال . فهم أئمة الفكر الإسلامى جميعه . من سنن وفقه ، وزهد وكلام ، وعلوم تطبيقيه . منذ القرن الثانى للهجرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

الفصل الأول

فى المدينة المنورة

« اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة . وإنى أدعوك « للمدينة » بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » .

« حديث شريف »

ولى مروان بن الحكم إمرة المدينة لمعاوية سنة ٤٢ . وكان مروان طِلْبَةَ الثوار على عثمان . لو تسلموه لما قتلوا الخليفة - كما قيل - وكان مروان يبحث لنفسه فى الفتنة عن مكان . ومن أجل ذلك رمى معاوية المدينة به ، أو رماه بها ، من فور ولايته للسلطة . وهو ابن عمه وابن عم عثمان .

كان معاوية يصرفه عن الإمرة ثم يعيده . وآثر مروان وأهله الإقامة بالمدينة ، فى الحالين ، على الذهاب إلى دمشق عاصمة بنى أمية ، حيث الصدارة لغيره . وحسن صلاته بأهل المدينة . فلما وقعت مجزرة كربلاء كانت عواطفه مع أهل بلدته .

ثم أجاءته الرياح إلى حيث نصبه أهله خليفة سنة ٦٤ بعد اعتزال معاوية بن يزيد . ثم خلف مروان ابنه عبد الملك لتبقى خلافته عشرين عامًا من سنة ٦٦ إلى سنة ٨٦ . وفى عبد الملك يقول عبد الله بن عمر : إن لمروان ابنًا فقيهًا فاسألوه . لكنه بعد الخلافة صار ظلومًا عشومًا .

أدخل عليه الأسرى ذات يوم فأمر بضرب أعناقهم - دون استجواب !

فقال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه : لقد أقست الخلافة قلبك . وكنت رءوفا ! فأجاب كلاّ . ولكن أقساه الضغن بعد الضغن .

كان يستنكر ضرب جيوش يزيد بن معاوية للكعبة سنة ٦٣ فى حصار مكة ، حتى إذا ولى الخلافة ضربها الحجاج له فى سنة ٧٣ ! ولما سئل الحسن البصرى أن يقول قوله فى عبد الملك بن مروان أجاب : ماذا أقول فى رجل ، الحجاج إحدى سيئاته !!

ولم يتمهد الملك لابنه الوليد إلاّ بعد عشرين عامًا من حكم عبد الملك . فلقد بويع لابن الزبير بمكة سنة ٦٤ من أهل الحجاز والعراق ومصر ، فدارت رحى الحرب ، واستمرت بيعة العراق لابن الزبير حتى سنة ٧١ عندما قتل جند عبد الملك مصعب بن الزبير ، وهدموا قصر الخلافة الزبيرية بالكوفة . وفى العام التالى استرجع « المدينة » لعبد الملك طارق بن عمر ، وفى سنة ٧٣ قتل عبد الله بن الزبير ، واستسلم للحجاج أهل « مكة » .

وفى حياة الإمام جعفر كان على إمرة المدينة أبان بن عثمان حتى سنة ٨٢ حين عزله عبد الملك بهشام بن إسماعيل ، الذى ضرب سعيد بن المسيب سنة ٨٥ من جراء رفضه بيعة الوليد وسليمان ابنى عبد الملك ، وطاف به فى المدينة .

ثم عزل الوليد هشامًا بعمر بن عبد العزيز سنة ٨٧ . وعمر زوج أخته وهو زوج أخت عمر . والأربعة حفدة مروان .

وأمر الوليد عمر أن يوقف هشامًا للناس أمام دار مروان ، ولكل عنده مظلمة . فمرّ الناس به يلمزونه ويغمزونه . فصاحب المعروف لا يقع وإن وقع وجد متكأً . وكان هشام من كثرة ما أساء إلى علىّ بن الحسين « زين العابدن » يقول : ما أخاف إلاّ من علىّ زين العابدين – فلو أزرى به زين العابدين لحق عليه الدمار من العابدين ومن العامة – لكن زين العابدين ومواليه وخاصته مرّوا به لا يتعرضون له بكلمة . فلما مرّوا وسلم هشام ، صاح : الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وردّ عمر بن عبد العزيز لأهل البيت فدكًا . وكان النبى قد أعطاها لفاطمة

الزهراء ولم يورثها أبو بكر وعمر لها . فكان اجتهاد عمر بن عبد العزيز خلافًا فى الفقه مع أبى بكر ومع جده عمر بن الخطاب .

ومنع عمر الشعار الأموى الآثم . وهو سَب علىّ . وزاد إنصافًا فاستعاض عنه شعارًا تبدو فيه معانى التوبة النصوح والاستغفار من الذنوب ، وهو الآية الكريمة (ربنا اغفر لنا . ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) . وكان معاوية قد استحدث نظام القصص ليثنى القصاص على الخلفاء من بنى أمية ويزينوا للناس حالهم . فأمرهم عمر أن يقصروا الثناء « على المؤمنين » .

وفى عمر يقول أحمد بن حنبل « ليس أحد من التابعين قوله حجة إلّا عمر ابن عبد العزيز » ويخاطبه كُثير ، وهو من شعراء الشيعة ، بقوله :

وَليت ولم تسبب عليًّا ولم تَخف مـريبًا ولم تقبـل مقالـة مجرم
وصدقت بالقول الفعال مع الذى أتيت فأمسى راضيًا كل مسلم

وفى العام التالى لولاية عمر على المدينة حجّ الوليد ، وبدا له أن يأمر بتوسعة المسجد ، لتدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين وبيت علىّ ، الذى أذن له النبى ، فى حين ردم أبواب سائر الصحابة . فنصح الناس الخليفةأن يعود إلى مقر الملك فى دمشق ويصدر أوامره منها بتوسيع المساجد عامة فى مكة والمدينة وبيت المقدس ، وأن يبنى مسجدًا بدمشق ، وبهذا يتحقق غرضه دون أن يلومه الناس . فرجع إلى دمشق وأصدر منها أوامره .

وشق الأمر على أهل المدينة وتظاهروا عليه طالبين ترك « الحجرات » كما تركها صاحب الشريعة . فأصرّ الوليد وأنفذ ، لتنفيذ أمره ، بعثة من العمال من بلاد الروم .

قال خبيب بن عبد الله بن الزبير لعمر : « نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من آيات الله تقول : (إن الذين يُنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) . وطعن فى بنى أمية ، وبلغ خبره الوليد بدمشق فأمر بجلده . فجلد . ومضى زمن ومات خبيب . فكان عمر يقول كلما بشره بالجنة أحد : كيف . وخبيب على الطريق ! » .

وفى سنة ٩١ حجّ الوليد ، وخطب على منبر الرسول قاعدًا فى كبرياء . فنفر الفقهاء . وترضى السادات . فاستفز الفقراء .

وكان عمر يؤوى بالمدينة ، من يتهددهم بطش الحجاج فى العراق . لكن الوليد ولىّ الحجاج على الحج سنة ٩٢ ، فاستعفاه عمر من مرور الطاغية بمدينة الرسول ، فقبل .

* * *

ولم يكن عدل عمر مانعًا ، بل ربما صار مقتضيًا ، أن يعز له الوليد بعثمان بن حيان المرى سنة ٩٣ ، فأنزل الوالى الجديد النكال بالعلماء ، ومنهم ناسك المدينة محمد بن المنكدر فقيه بنى تيم قبيلة أبى بكر وأخوال جعفر الصادق ، وقذف أهل المدينة من فوق المنبر بقوله : « أيها الناس إنا وجدناكم أهل غشّ لأمير المؤمنين فى قديم الدهر وحديثه » .

وامتدت يد البطش إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصارى « وجده عمرو عامل الرسول » ، فأمر بحلق لحيته لولا أن عزل الخليفة الجديد « سليمان بن عبد الملك » عثمان بأبى بكر ذاته سنة ٩٦ . وبقى أبو بكر أميرًا على المدينة حتى سنة ١٠١ . واجتمع له القضاء والإمرة عليها فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

ولما عزله يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر ، بعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عذب الوالى الجديد أبا بكر . فلما عزل عبد الرحمن سنة ١٠٤ ، حاقت البأساء والضراء بعبد الرحمن ، حتى صار يلتمس الصدقة من سوء حاله .

وفى سنة ١٠٦ تولى ابراهيم بن هشام بن اسماعيل - وهو خال الخليفة هشام بن عبد الملك - فبقى إبراهيم واليًا إلى سنة ١١٤ . ثم عزل بخالد بن عبد الملك بن الحارث بن أبى العاص ، فبقيت له الإمرة حتى سنة ١١٨ .

وخطب خالد على منبر الرسول ، فانتقص أولاد الرسول وأباهم عليًا . فقام إليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه وقال : كذبت كذبت . حتى حيل بينهما . ثم عزل بمحمد بن هشام بن إسماعيل أخى إبراهيم وبقى حتى سنة ١٢٥ .

وكما ولى محمد وإبراهيم ابنا هشام ، لخئولتهما لهشام بن عبد الملك ، ولى الوليد بن يزيد إمرة المدينة « خاله » محمد بن يوسف الثقفى . وأمره أن يعذبهما ، وأن يقيمهما للناس ، وأن يبعث بهما إلى والى العراق ليذيقهما الهوان حتى يموتا من العذاب . ففعل . وبقى حتى سنة ١٢٦ فعزل بعبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز ليبقى ثلاث سنوات حتى سنة ١٢٩ ، فيحل محله عبد الواحد ابن سليمان بن عبد الملك .

وفى ولاية عبد الواحد كانت شمس بنى آمية فى الغروب : لقد طرد الحارث ابن سريج عاملهم نصر بن سيار من أقصى الشرق فى مرو – وأقبل أبو حمزة « الخارجى » يخرجهم من قلب الإسلام فى المدينة سنة ١٣٠ بعد وقعة قديد . وفيها قتل من أهل المدينة خلق كثير . وهرب عبد الواحد .

وسفر إلى أبى حمزة ، وهو على أبواب المدينة ، السفراء : شيخ بنى هاشم عبد الله بن الحسن ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وكان محسوباً مع بنى هاشم لما يجمعه بهم من رحم ، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر خال الإمام جعفر ، وعبد الله بن عمر بن .. عمر ، ومعهم ربيعة الرأى شيخ مالك بن أنس ، فى رجال آخرين . فعامل أبو حمزة الوفد معاملة الخوارج للصحابة : عبس وبسر فى وجه الأولين حفيدى علىّ وعثمان . وبشر فى وجه الثالث و الرابع – حفيدى الشيخين : أبى بكر وعمر . وقال لهما : والله ما جئتنا إلّا لنسير بسيرة أبويكما .

قال شيخ بنى هاشم والله ما جئناك لتفضل بين آبائنا . ولكن بعثنا إليك الأمير برسالة . وهذا ربيعة يخبرك بها ..

أقام أبو حمزة بالمدينة ثلاثة أشهر ثم خرج لقتال جند الشام فانهزم ..

* * *

ثم جاءت دولة بنى العباس . وتولى إمرة المدينة للسفاح عمه داود بن على فقام فخطب فقال : أيها الناس أغركم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال ؟ .. والسيف مشهر :

حتى يبيد قبيلة فقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
ويقمن ربات الخدور حواسرا يمسحن عرض ذوائب الأيتام

لكن الله عاجله بعد ثلاثة أشهر فلقى حتفه – وولى بعده زياد بن عبد الله ابن المدان خال السفاح .

وأحاط السفاح ببنى أمية : دعاهم ، ومنحهم الأمان ، حتى إذا اجتمعوا به أعمل رجاله السيوف فيهم . وكانوا ثمانين رجلا وَنَيِّفًا . وفى سنة ١٣٣ قتل عمّاله من أشياعهم ثلاثين ألفًا بالشام .

واستدعى عبد الله بن على ، أخو داود ، وقائد جيش الشام ، الإمام الأوزاعى إمام الشام إلى عسكره فسأله : ما تقول فى بنى أمية ؟

قال : لقد كانت بينك وبينهم عهود . وكان ينبغى أن تفوا بها .

قال : ويحك . اجعلنى وإياهم لا عهد بيننا .

يقول الأوزاعى : فأجهشت نفسى وكرهت القتل . فذكرت مقامى بين يدى الله فقلت : « دماؤهم عليك حرام : فانتفخت عيناه وأوداجه وقال : ويحك لم ؟ قلت : قال رسول الله : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بثلاث : ثيب زان ، ونفس بنفس ، وتارك دينه . قال : ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة ؟ أليس رسول الله ﷺ قد أوصى لعلىّ ؟ فسكت .. وجعلت أتوقع رأسى يسقط .. وقال : أخرجوه فخرجت » .

وروى عبد الله بن على رماحه من الدم بما لما يسمع التاريخ بمثله . حتى إذا ولى أبو جعفر المنصور (١٣٦ – ١٥٨) – عزل زياد بن عبد الله بن المدان عن المدينة بمحمد بن خالد القسرى . وأمر بحمل زياد بن عبد الله إلى العراق مكبلًا بالحديد .

ثم عزل محمد بن خالد وولى مكانه رباح بن عثمان بن حيان سنة ١٤١ . وهو ابن عم مسلم بن عقبة « الذى يسميه البعض مجرم بن عقبة – فهو قائد الجيش الذى دمّر المدينة وارتكب الفظائع فى معركة الحرة سنة ٦٣ » ففاخر

الناس بنقائصه قال : أنا الأفعى بن الأفعى أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم . فوثب عليه الناس فحصبوه بالحصى ورموه بالحجارة .

وفى إمرته اقتحم الجند منازل أهل البيت فأخرجوا منها رجالهم إلى السجون . ومرت مواكب أهل البيت فى شوارع المدينة وهم فى الأصفاد ، هزلهم العذاب والأيام الشداد ، ثم سيقوا إلى الكوفة ، ليودعوا السجن حيث حبسوا – كما يقول المسعودى فى مروج الذهب – فى سرداب تحت الأرض لا يعرفون الليل من النهار حتى مات أكثرهم ، ثم خرّ عليهم ، ليموت تحت أنقاضه الأحياء منهم ، ويدفن الذين سبقوهم إلى الموت دون أن يعنى بهم أحد .

وبقى رباح حتى خرج محمد بن عبد الله « النفس الزكية » على المنصور وقبض الخارجون على رباح وأدخلوه سجن المدينة هو وأخاه .

ولما انتهت الحرب عين المنصور على المدينة عبد الله بن الربيع الحارثى فبقى حتى سنة ١٤٧ ثم عزل . فولى مكانه جعفر بن سليمان بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس ، فبقى واليًا حتى سنة ١٤٩ . وهو الذى أمر بضرب مالك ابن أنس حتى انخلعت كتفه وطافوا به فى المدينة .

وفى ولاية جعفر بن سليمان مات الإمام الصادق .

* * *

بهذه الوجازة العجلى لأمر الولاة فى نحو قرن من الحكم الأموى والمروانى والعباسى للمدينة ، عاش فيه الإمام الصادق ، تتكشف أمور حسبنا أن ننبه على بعضها الآن :

١ – ففى حكم بنى مروان ، لم يكن لأهل البيت ، بخاصة ، مشكلة مع الدولة ، وإنما كانت المشكلة لأهل المدينة عامة مع العاصمة . أما خروج زيد بن على زين العابدين سنة ١٢١ وابنه يحيى سنة ١٢٥[1] فكان فى أوخر أيام بنى

---

(١) ادعى خالد بن عبد الله القسرى مالا قبل زيد وأبناء الصحابة . فدعاهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى العاصمة وسألهم فأنكروا مزاعمة . فأعادهم إلى واليه على العراق يوسف =

مروان . وكذلك كان خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سنة ١٢٧ ، بعد عامين من استشهاد يحيى بن زيد . ولقد سلم عبد الله نفسه لأبى مسلم الخراسانى بعد أن انهزم نصر بن سيار والى خراسان لبنى مروان فقضى أبو مسلم عليه بعد أن استسلم .

بهذا يمكن القول إن زين العابدين وابنه محمدًا عاشا أكثر من نصف قرن فى سلام مع السلطة . وبهذا السلام تَبَوَّأا الذروة من الاحترام والطمأنينة اللذين يمهدان للعلم أن ينتشر ، وللقدوة الصالحة أن يشيع هداها ، كالشعاع ينشر النور فى المدينة ويحمل الدفء إلى الأفئدة الوافدة من شتى الأقطار .

٢ - كان الأمراء على المدينة إما أقرباء للخلفاء فى دمشق والأنبار والكوفة ، وإما صنائع لهم . لكنهم كانوا - عدا عمر بن عبد العزيز - مستضعفين من الجميع ، يعزلون ، ويقامون للناس ، ليتخذوهم سخريًّا أو ينكلوا بهم .

وفى أواخر أيام بنى مروان سخر الناس منهم علانية ، واشتجروا معهم ، إذا مسّوا أمير المؤمنين عليًّا بسوء .

وكان عبد الملك قد أوصى عامله على المدينة بقوله : « جنبنى دماء بنى هاشم فإنى رأيت آل حرب لما تهجموا عليهم لم ينصروا » - وهو الباطش ، الذى تولى له بالعراق الحجاج ، وبخراسان المهلب بن أبى صفرة ، وبمصر هشام ابن إسماعيل وابنه عبد الله ، وباليمن محمد أخو الحجاج ، وبالجزيرة محمد بن مروان « أخو عبد الملك » وكل من هؤلاء ظالم فاتك .

ولما سئل عبد الله بن المبارك : أبو مسلم خير أم الحجاج ؟ أجاب

= ابن عمر ليستحلفهم . وقبل إن هشامًا لم يرد السلام على زيد فأغلظ له زيد فى الكلام . وكان زيد فى الذروة من فقهاء العصر - ولما رجعوا إلى الكوفة استحلفهم يوسف فحلفوا . لكنه أبقاهم محبوسين فى انتظار رأى هشام . فأمره بإخلاء سبيلهم فخرج زيد من الحبس قاصدًا القادسية . واجتمع إليه شيعة الكوفة وطلبوا إليه الخروج على الخليفة وتعهدوا بنصره . فخرج إليهم ، فجمعوا له أربعة آلاف رجل ثم انفضوا من حوله . فحارب حرب الأبطال حتى استشهد سنة ١٢١ . فكان منهم معه ما كان من آبائهم مع جده أى « فعلوها حسينية » كما قال .

ثم خرج ابنه يحيى فقتل سنة ١٢٥ .

« لا أقول أبو مسلم خير من أحد ، لكن الحجاج شرّ منه » .

٣ - أما فى عهد العباسيين - أبناء العمومة - فقد هبت على بنى علىّ ريح صرصر ، من الطغيان المدمر ، لتنزل بهم وبأحفاد الصحابة والتابعين الفزع الأكبر ، كهيئة ما صنع بنو أمية فى كربلاء والحرة . وطبائع الطغيان واحدة .

أهل المدينة :

غاضبت دمشق العراق والحجاز أيام صيرها معاوية حاضرة بنى أمية . وتابعته على ذلك دولة بنى مروان لكن المدينة بلدة طيبة وشعب كريم . وثب أهلها بالأمويين بعد كربلاء ثم تركوهم يجلون عنها ، على موثق من أهلها ، ألّا يدلّوا جند يزيد على عوراتها . وجلا الأمويون إلى الشام إلّا زوج مروان بن الحكم ، عائشة بنت عثمان بن عفان ، توجهت إلى الطائف فى حماية « على زين العابدين » .

والمدينة واحة فى قفر ، والرزق نزر فى الصحارى الساخنة ، إلّا ما يرد إلى الناس من تجارة أو عطاء ، متقطع كسحائب الصحراء ، يجرى ، ويجف ، حسب الشهوات ، فى دمشق . وأهل البيت تجيئهم حقوقهم فى بيت المال أو لا تجئ ، لكنهم ينفقون المال خفية وعلانية - ولو كان بهم خصاصة - فعلىّ زين العابدين مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس ، لا يعرف إلّا بعد أن يموت ، فيتفقد الناس المصدر فيعرفونه . وكذلك أبناؤه ، يتزعمهم الباقر . وهو القائل : إن استطعت ألا تقابل أحدًا إلا ولك الفضل عليه فافعل .

أما ابن عمهم عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فكان وثيق العُرَى بالخلفاء . سأله يزيد بن معاوية يومًا كم عطاؤك ؟ قال ألف ألف درهم . قال يزيد : قد أضعفناها لك . قال ابن جعفر . فداك أبى وأمى . وما قلتها لأحد قبلك . فضاعف يزيد عطاءه مرة ثانية .

ولما خرج عبد الله من المجلس ، قال جلساء يزيد : تعطى رجلًا واحدًا أربعة آلاف ألف درهم ! قال : ويحكم إنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين . فما يده فيها إلا عارية .

والحق أن الفقراء كان لهم فى أمواله حق معلوم ، فكانوا يستدينون فى انتظار ورود عطاء عبد الله بن جعفر من العاصمة .

وكان الخلفاء يحجرون على شباب قريش أن يبرحوا الحجاز إلّا بإذن فأمسى سجنًا واسعًا لمن فيه منهم . وازداد أهله انعزالاً وارتباطًا فتراحموا ، وتصاهروا ، لتصير المدينة مجتمعًا مقطوع القرين ، نرى فيه : « سكينة بنت الحسين » يبنى بها « مصعب بن الزبير » ثم يبنى بضرّة لها « عائشة بنت طلحة » .. أى أطراف يوم الجمل تجتمع فى بيت واحد .

وإليك أطرافًا أخرى فى أختها فاطمة : ولدتها أم إسحق بنت طلحة . وتزوجها عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . ويرزقان محمدًا . وله بنت من خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير تدعى حفصة . وأم عروة أسماء بنت أبى بكر . فهؤلاء : رسول الله وخمسة من العشرة المبشرين بالجنة علىّ وأبو بكر وعثمان وطلحة والزبير يجتمعون فى حفصة !

أما الإمام جعفر الصادق فآية من الآيات .

جدّه زين العابدين . وزين العابدين وسالم بن عبد الله بن عمر والقاسم بن محمد بن أبى بكر أولاد خالات ثلاثة . هن بنات كسرى يزدجرد .

وأبوه الباقر ولدته لزين العابدين بنت عمه فاطمة بنت الحسن .

وأمه أم فروة بنت « القاسم » بن محمد بن أبى بكر . وقد تزوج أمير المؤمنين عَلِىٌّ أم محمد ، أسماء بنت عميس ، بعد موت أبى بكر . فصار ربيبه ، وترعرع فى كنفه حتى شهد معه الجمل . وكان على الرجالة . وشهد معه صفين . وولاه مصر حتى قتلته جيوش معاوية فى مصر .

وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر عم القاسم وشقيق عائشة . شهد اليمامة مع خالد . وقتل محكم اليمامة فى الحصن فاقتحمه المسلمون . وبعث إليه معاوية بمائة ألف درهم فردّها وقال لا أبيع دينى بدنياى .

وعبد الرحمن هو القائل وهو يرفض البيعة ليزيد : « جعلتموها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل » .

فجعفر قد ولده النبى عليه الصلاة والسلام مرتين . وعلىّ مرتين ، والصديق مرتين ، ليدلّ بهذا المجد الذى ينفرد به فى الدنيا على أنه نسيج وحده .

ومن الناحية الأخرى ولده كسرى مرتين . ليدل الدنيا - من أعلى مواقعها - على أن الإسلام للموالى والعرب . فذلك هو الدين الذى جاء به رسول الله ﷺ . والذى دافع من أجله عن المساواة بين المسلمين ، كافة ، أمير المؤمنين علىّ .

هكذا وحّدت المدينة مجتمعها . ورفعت أبناء الصحابة إلى أعلى مقام . وأهل البيت إلى صدارة المجتمع ، يمدون أنسابهم إلى هاماته وأسبابهم إلى طبقاته .

وذات يوم أصهر الحجاج إلى عبد الله بن جعفر فى بنته أم كلثوم . فأبرد إليه الخليفة عبد الملك ليسوغ أباها المهر ويعجل طلاقها ، لأنه تجاوز قدره . وهى حجة ظاهرة ، قد تخفى حجة حقيقية ، إذ كان يخشى أن يمد الحجاج بسبب إلى أسرة قد يشمله هداها ، أو يأسره الإخلاص لها ، أو يبعده عن أن يكون - بجمعه - لعبد الملك ، وبقسوته على من عداه .

* * *

لكن العلم ظلّ الخصيصة الكبرى « للمدينة » . ففيها وضعت القواعد العامة لتطبيق المبادئ الإلهية التى بعثت بها السماء آخر رسلها لإصلاح البشر . ووضعت أسس الدولة ومبادئ الجماعة وانتشر الدين ، فى القارات الثلاثة المعروفة . لتقدم الحضارة الإسلامية ، سياسة وإدارة ، وتشريعًا ، دوليًّاومدنيًّا وجنائيًّا ، واقتصاديًّا ، وقواعد علمية ، وعلومًا تطبيقية ورياضية ، لم تشهدها القرون قبل . وستبنى عليها الحضارات جميعًا . فتكون مجازًا للبشرية من جهالات القرون الأولى ، إلى حضارات العصور الحديثة العلمية والاقتصادية والتشريعية والاجتماعية .

ولما انقضى عهد الرسالة والراشدين الأربعة ، تابعت عاصمة الإسلام ، وإن لم تعد عاصمة الدولة ، رسالتها بالفقه . وهو فى الحضارة الإسلامية كحجارة الأساس فى البنيان : أن كانت منه قواعد الفكر الإسلامى كافة ، وكانت الحرية

الفكرية لحمته وسداه ، والفضيلة الإنسانية مبدأه ومنتهاه . وفيه صلاح الناس ، والتخفيف عليهم ، وفتح أبواب الرجاء لهم ، وتمكينهم من التطور لملاحقة حاجات الأعصر ، بأداته « الديناميكية » - المحركة - نحو التقدم ، وهى اجتهاد الرأى .

وفى أهل البيت كان النبى مدينة العلم وعلىٌّ بابها ، وريحانتا الرسول من الدنيا الإمام « الحسن » والإمام « الحسين » يمثّلون الجيل الأوّل . وفى الجيل الثانى كان السَّجَّاد - من كثرة السجود - أو زين العابدين - من كمال عبادته - وابناه الإمام الباقر وزيد . وكان لزيد مذهبه .

أما الجيل الثالث من القرون المفضلة فقد تراءى فيه للمسلمين جعفر بن محمد ، الصادق ، بدر تمام ، لجيل كان ختام أجيال .

وأما من عدا أهل البيت فقد نهض عنهم الصحابة وأبناؤهم وأحفادهم بعبْ العلم نهضة جديرة بدين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . فاشتهرت بينهم أما المؤمنين عائشة وأم سلمة ، وزينب بنت أبى سلمة . والعبادلة الأربعة أبناء العباس ، وعمر ، والزبير وعمرو ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وبنته حفصة وعروة بن الزبير ابن أخت عائشة ، وابن أخيها القاسم بن محمد بن أبى بكر ، وراويتها عمرة بنت عبد الرحمن ، وهؤلاء الثلاثة أعلم الناس بحديث عائشة ، وسالم بن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيَّب وخارِجَة بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وأبو بكر بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار ، وتعلم عليهم جيل جديد : فيه محمد بن شهاب الزهرى وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، ومحمد بن المنكدر ، ومحمد وعبد الله ابنا أبى بكر بن حزم ، وربيعة الرأى ، وهؤلاء مشيخة مالك بن أنس .

ومالك يعاصر فى النصف الثانى من القرن الثانى نهاية الأجيال المفضلة . ثم هو شيخ المدرسة التى نجب فيها محمد بن إدريس الشافعى وتلميذه أحمد بن حنبل .

ولقد طالما زاحم التلاميذ أشياخهم فى العلم وإن لم يزاحموهم فى مكانتهم عند الله والناس .

* * *

ومن المدينة انطلق الفقه الإسلامى إلى العراق ، حيث أقام عبد الله بن مسعود زمانًا معلمًا ووزيرًا كما سمّاه عمر ، وتعلم عليه تلاميذه وتلاميذ علىّ ، كعبيدة ، وعلقمة ، والحارث . وعن طريق علقمة تعلمت مدرسة التخعيين يتقدمها الأسود وعبد الرحمن ، ويتوسط عقدها إبراهيم بن يزيد شيخ حماد بن أبى سليمان .

وفى حلقة حماد بالكوفة قضى أبو حنيفة عشرين عامًا يتعلم ، ليصبح علمًا على مدرسة الرأى والقياس الذى قعد قواعده الشافعى فانتشر فى كل فروع العلم الإسلامى .

وهوى أبى حنيفة مع أبناء علىّ معروف ، وصلة فكره بزعماء أهل البيت واضحة ، وإن مذهبه ليقارب المذهب الزيدى أكثر مما يقارب المذهب الحنفى غيره من مذاهب أهل السنة كما قيل .

ولقد استشهد زيد - بن زين العابدين - سنة ١٢١ . وفى ذلك العهد جلس أبو حنيفة مجلس حماد بن أبى سليمان بعد وفاته . وشرع يدون بعض مذهبه وكثيرًا من الفروع . ثم مكن أبو يوسف للمذهب بتولية زملائه القضاء ، ليلزموا الناس به ، ثم نشره محمد بن الحسن بتدوينه فى كتبه الشهيرة .

وتدوين الفقه فى كتاب « المجموع » قد سبق به زيد مدرسة أبى حنيفة . ولعلّ أبا حنيفة تعلم تدوين الفقه عليه - بل إن الجميع قد قلدوا فيه صنيع أهل البيت أنفسهم . ولديهم الكتب فيها العلم ، الأحاديث والفقه ، يتعلمونه كابرًا عن كابر .

فالحجاز والعراق قد تضامنا فى إنتاج الفقه . لتتابعها بعد ذلك شتى الحواضر ، فى الفسطاط ودمشق وقرطبة والقيروان ، وفى المغرب وفى المشرق ، وفى الأندلس ، ووسط آسيا .

وظاهر من هذا التأريخ أمور :

١ - أن المذاهب الفقهية جميعًا بما فيها المذاهب الباقية إلى اليوم لأهل السنّة ، يتصدرها فى الظهور مذهب أهل البيت على يد زيد بن علىّ زين العابدين . وكذلك يسبق « المذهب الزيدى » مذهب الإمام جعفر الصادق ، الذى تبعه الأئمة من نسله ، وصار يسمى مذهب « الإمامية » . فالصادق صار إمامًا بموت أبيه الباقر فى العقد الثانى من المائة الثانية ، ثم كانت وفاته بعد استشهاد عمه زيد سنة ١٢١ بسبعة وعشرين عامًا سنة ١٤٨ .

أما أبو حنيفة فمات فى سجن أبى جعفر المنصور سنة ١٥٠ . وأما مالك فمات بعد أبى حنيفة بتسعة وعشرين عامًا سنة ١٧٩ . والشافعى مات بعد أبى حنيفة بأربعة وخمسين عامًا سنة ٢٠٤ . ولحق بهم ابن حنبل سنة ٢٤١ . وأصحاب المذاهب الأخرى بين معاصرين لهم أو لاحقين .

٢ - ان الإمام « جعفر » كما سنرى ، ينهى عن استعمال القياس كمثل ما يرفضه فقهاء المدينة عمومًا والمحدثون خصوصًا ، وهم زعماء الفقه فى المائة الأولى .

وسنرى بعد أن نهى « الصادق » عن القياس لا يعارض الاجتهاد ، بل إنه ليأمر به ، ويبلغ بمناهجه فى الاجتهاد ما يبلغه سواه .

وسنرى أن منهاجه فى الاعتبار والاستخلاص هو منهج الفكر الإسلامى ، نقله عنه الفكر العالمى .

٣ - أن البيئة التى عاش فيها أهل البيت ستين عامًا بعد مجزرة كربلاء ، كانت منجبة ، بظهور العلم والعلماء من الرجال والنساء . فشاركت المرأة فى العلم من عهد أمهات المؤمنين . ووجدت الفقيهات فى جيل التابعين وتابعى التابعين من أهل السنة ، فتصدرت نساء أهل البيت سكينة بنت الحسين (١١٧) رضى الله عنها . وكانت بَرْزَةً ، تساجل فحول الشعراء ، بل الفقهاء .

وهى بهذه المساجلات إمام فى استعمال الحرية الشخصية والفكرية[1] تعلم المسلمين والمسلمات ، أن المرأة نصف الناس ، وأن إظهار مواهبها ، وصقلها وتنميتها ، خير للنصف الذى هو المرأة ، وخير للنصف الآخر . ومن المساواة بينهما تقررت للمرأة حقوقها كاملة ، وسلم لها بالحرية الفكرية التى قد تفهم من كلمات الإمام على بن أبى طالب يوم لقى عائشة ، فى إثر انتصاره يوم الجمل ، فقال لها : غفر الله لك . قالت : ولك .. وما استغفر لها إلا لخطأ منها فى الاجتهاد رآه .

وإذا كان النصفان يجتهدان ويجاهدان ، فالأمة كلها فى حالة تقدم ، أو محاولة تقدم – والاجتهاد فى ذاته تقدم – بالعلم أو السعى إليه . وهو بعض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وبهما وبالتقوى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

٤ – وفى الهدأة الوقور فى هذه البيئة ازدهر العلم . على النحو الذى كان حريًّا بالمدينة ، وبأهل البيت ، من حفظ لحديث الرسول وتريّث فى النظر والمناظرة ، وتلبّث فى إبداء الآراء ، لما فيها من شبهة المخاطرة ، وصدق فى خدمة حديث النبى بالعمل به وتعليم الناس إياه .

---

(١) زارها الفرزدق بالمدينة . فقالت له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : بل جرير حيث يقول .. فعاد لها فى الغداة بشعر جديد يسوغ له قصب السبق .. قالت: بل جرير حيث يقول ... وكذلك صنعت فى اليوم الثالث إذ عاد بجديد .

ووقفت يومًا على عروة بن أذينة شيخ مالك بن أنس فقالت له : أنت الذى يقال له الرجل الصالح وأنت تقول :

إذا وجــدت أوار الحب فى كبــدى ... عمـدت نحـو سقــاء القـوم أبتــرد
هبنى بــردت ببـرد المــاء ظـاهــره ... فمن لنــار عــلى الأحشــاء تتقــد

قال : نعم .

قالت : وأنت القائل :

قــالت وابثثتهــا وجــدى وبحت بـه ... قد كنت عندى تحب الستر فاستـتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لهــا ... غـطى هواك ومـا ألقى على بصـرى

قال نعم :

فالتفتت إلى جوار ، كن حولها ، وقالت : هن حرائر إذا كان خرج هذا من قلب سليم قط !

وإنما اشتعلت الثورات ، وشققت الفلسفات ، فى العراق . ففيها تعاقبت ثورات التوابين ، والخوارج ، والخارجين – كابن الزبير وابن الأشعث والآخرين – ومن غليان المراجل هنالك أحدثت المبادئ الهدامة أو الغلواء أو الخصومات آثارها ، كمثل ما نسب إلى عبد الله بن سبأ أو غيره من عقائد الغلاة الذين تبرأ منهم الشيعة ، كما تبرأ الإمام عليّ ممن ألهوه ، فحرقهم بالنار .

لكن آراء الغلاة وأعداء الإسلام لم تكن تكاد تفد على المدينة حتى تخرج منها واهنة أو محطمة .

فى جوّها النقيّ ، تفتحت أبواب بيت النبى ، وتخرّج فى علومها الأئمة .

زين العابدين

٣٨ – ٩٤

تعاظم بيت زين العابدين فى عدد أفراده يومًا بعد يوم ، وقدّم « السَّجَّاد » لنا ابنه « الباقر » ثم قدّم الباقر ابنه « الصادق » . فكانوا مُثُلًا عُليا فى العزوف عن السلطة والانصراف إلى تعليم الناس العلم الصحيح والعمل الصالح والأسوة الحسنة .

روى عن جابر بن عبد الله وابن عمر إلى جوار روايته علم أهل البيت وحديثهم عن أبيه الحسين وأم المؤمنين أم سلمة . وسمع ابن عباس . ليروى عنه فيما بعد أبناه عبد الله والباقر وخلق كثير . ورأى بعينى المريض العاجز عن الاستشهاد ، مصاير أبيه العظيم ، وإخوته وأعمامه وأولادهم يوم كربلاء .

وتجلت فيه الفضائل المنبثقة من الورع والرحمة : يصلّى لله فى اليوم والليلة ألف ركعة . ولهذا سمى « السَّجَّاد » . إذا توضأ اصفر لونه وإذا قام أرعد من الفرق . ولما سألوه قال : أتدرون من أريد أن أقف بين يديه ومن أناجى ؟

ومع تألق عبد الله بن جعفر بالمدينة ، وهو الصحابى الذى يحرص الخلفاء فى دمشق على مرضاته ، وتفريق عبد الله عطاءه الجزل فى فقراء المدينة ،

واستشهاد ابنين له يوم الحرّة ، وثالث فى كربلاء ، ومع أنه زوج زينب بنت علىّ ، عمة زين العابدين ، مع هذا كله كان زين العابدين يحتلّ مكانه فى الصدارة ، ويحمل وصفه بجدارة .

وفى ذلك نصّ يروى عن مالك بن أنس قال : « سمى زين العابدين لعبادته » .

علمته المحنة والورع الحكمة وحسن الخطاب ، كان فى باكورة حياته على علم عظيم . قال له يزيد يوم أدخل عليه – مريضًا – مع نساء أهل البيت الناجيات من كربلاء – أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما قد رأيت . قال زين العابدين (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) .

قال يزيد : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) .

قال زين العابدين : هذا فى حق من ظلم لا من ظُلم[1] .

تتابع على الكذب ولاة الشام والأمصار من عهد معاوية يشتمون عليًّا بأمر بنى أمية ، فكان يبقى من كذبهم شىء فى عقول العامة ، أو الصبية الذين لا يعلمون .

كان عبيد الله بن مسعود من فقهاء المدينة السبعة . وكان معلم عمر بن عبد العزيز وهو صبىّ أودعه أبوه أخواله – بنى عدى قوم عمر بن الخطاب – بالمدينة فسمع يومًا شتم علىّ فقال لعمر . يا بنى متى علمت أن الله غضب على أهل بدر ؟ قال الصبى : وهل كان علىّ فى بدر ؟ قال عبيد الله : وهل كانت بدر كلّها إلاّ لعلىّ !

---

(١) ولما جِىء بزين العابدين فى أسرى كربلاء أقيم على درج دمشق . فقال له رجل من أهل الشام : الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة . قال زين العابدين : قرأت القرآن ؟ قال الرجل : نعم . قال قرأت الـ .. حم ؟ قال الرجل : نعم . قال : أما قرأت : (قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى) قال الرجل : فإنكم إياهم ؟ قال نعم . ويقصد الإمام الآية ٢٣ من سورة الشورى : (ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعلموا الصالحات . قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى الفربى ومن يقترف حسنة نزد له فيهاحسنا إن الله غفور شكور) وأول آيات سورة الشورى (حم) .

فلما ولى عمر الخلافة أبطل شتم أهل البيت . وردّ إليهم حقوقهم .

قال رجل من أنصار الأمويين بالشام : دخلت المدينة فرأيت رجلاً راكبًا على بغلة لم أر أحسن وجهًا ولاثوبًا ولا سَمْتًا ولا دابة منه . فسألت فقيل هذا عليّ ابن الحسن بن عليّ . فأتيته – وقد امتلأ قلبى له بغضًا – فقلت له : أنت ابن عليّ بن أبي طالب ؟ قال : أنا ابن ابنه . فقلت : بك وبأبيك أسب عليًا . فلما انقضى كلامى قال : أحسبك غريبًا ؟ . مِل بنا إلى الدار فإن احتجت منزلاً أنزلناك . أو إلى مال واسيناك . أو إلى حاجة عاوناك على قضائها . فانصرفت من عنده ، وما على الأرض أحد أحب إلىّ منه .

ويروى أنه احترق البيت الذى هو فيه وهو قائم يصلى . فلما انصرف « من الصلاة » قيل له ما بالك لم تنصرف حين اشتعلت النار ؟ قال : اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى .

وأنه لما حج وأراد أن يلبى أرعد . وَاصفر وخَرَّ مغشيًا عليه . فلما أفاق سُئل فقال : إنى لأخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك . فيقول :

لا لبيك ولا سعديك – فشجعوه حتى لبّى . فغشى عليه حتى خرّ عن راحلته .. وكان يرحل من المدينة إلى مكة فلا يقرع راحلته مرة واحدة !

* * *

يقول الأصمعى : « لم يكن للحسين رضي الله عنه عقب إلّا من ابنه زين العابدين . ولم يكن لزين العابدين نسل إلّا من ابنة عمه الحسن ، فجميع الحسينيين من نسله » .

أما أكبر صدقته فبالليل . يقول : « صدقة الليل تطفئ غضب الرب » .

ومع عظم مكانه كان إذا دخل المسجد تخطّى الرقاب حتى يجلس فى حلقة زيد ابن أسلم ، إذا كان هنالك . فيقول له نافع بن جبير بن مطعم : أنت سيد الناس . تأتى تتخطّى خلق الله وأهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟ فيجيب: « إنما يجلس الرجل حيث ينتفع . وإن العلم يُطلَب حيث كان » .

ولقد كان يريد أن يجلس إلى سعيد بن جبير وقيل له : ماذا تصنع بلقاء سعيد ؟ فأجاب : « أريد أن أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها »[1] .

وزين العابدين لا ينسى أن النبى أَمَّرَ زيد بن حارثة - وكان مولى النبى - على جعفر بن أبى طالب وجعل له القيادة ، فإن قُتِل كانت لجعفر ، فإن قتل كانت للصحابى عبد الله بن رواحة .

وزين العابدين بهذا يضع السوابق لأهل البيت ليتعلّموا العلم المقارن من فقه المسلمين كافة . ولذلك سيجلس ابنه الباقر إلى نافع مولى ابن عمر . وسيجلس حفيده الصادق إلى عكرمة (١٠٣) مولى ابن عباس وإلى عطاء بن أبى رباح (١١٤) مولى قريش ، يجلس فى المسجد الحرام مجلس ابن عباس . كما يجلس الصادق إلى عبد الله بن أبى رافع مولى أمير المؤمنين علىّ .

فإذا جلس زين العابدين فى المسجد جلس بين القبر والمنبر ، وانعقدت حلقة كحلقة أبيه فى روضة كرياض الجنة ، يقول عنها القائل : « إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة كأن على رءوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبد الله مؤتزرًا إلى أنصاف ساقيه » .

ولقد يتحدث مع سليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة إلى ارتفاع الضحى . فإذا أرادا أن يقوما قرأ عليهما عبد الله بن أبى سلمة سورة ، فإذا فرغ عبد الله من التلاوة دعوا الله سبحانه .

ولقد يدخل ابن شهاب الزهرى (١٢٤) وصحبه فيسأله فيم كنتم ؟ فيجيبه أنهم كانوا يتذاكرون الصوم وأنهم لم يروه واجبًا إلاّ فى رمضان فيقول السَّجَّادُ :

---

(١) وهو بهذا يعلّم الجميع أن العلم شرف يسعى إليه الشرَفاء . ولو كانوا قمّة الشرف . والنبى رسالته التعليم . ومن ذلك كان تنافس أبناء الصحابة على أن يتعلموا العلم وأن يعلموه وكانت المشقة واقتحام المخاطر والفلوات لتحصيله وإنفاقه فى الناس . يستوى فى ذلك من لا مال عنده كابن حنبل ومن عنده الأموال كيحيى بن معين ، كان عنده مليون درهم أنفقها فى تحصيل الحديث . أو كابن حزم ، قال له أبو الوليد الباجى - عالم المالكية : أنا أعظم منك همة فى طلب العلم . أنت طلبته وأنت تعان عليه . تسهر بمشكاة الذهب . وأنا طلبته وأنا أسهر بقنديل السوق . وأجابه ابن حزم : أنت طلبته فى حال فاقة تريد تبديلها لمثل حالى . وأنا طلبته فى حين ما تعلمه وما ذكرته . لا أرجو إلاّ علوّ القدر فى الدنيا والآخرة .

الصوم على أربعين وجهًا . ثم يشرحها له وجهًا وجهًا . فمنها ما يجب . ومنها ما هو بالخيار أو الإباحة . إلخ .

وفى علمه يقول محمد بن سعد . صاحب الطبقات : « كان زين العابدين ثقة مأمونًا ، كثير الحديث عن رسول الله ﷺ . عالمًا . ولم يكن من أهل البيت مثله » ويقول الزهرى : « ما رأيت أفقه من زين العابدين لولا أنه قليل الحديث » ..

وهذه الشهادة بالفقه من شيخ مالك بن أنس تعلن رأى جيل التابعين .

بل إن الزهرى يعلن مكانة زين العابدين بين كل الأحياء بقوله : « ما رأيت قرشيًّا أفضل منه » . قصد إليه يومًا ، ونفسه تكاد تُبْسَلُ من ذنب أَلَمَّ به . فردّه الإمام إلى صميم الإسلام قال : « قنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شىء أعظم من ذنبك » .

والشافعى الذى يقول فى ابن شهاب الزهرى : « لولا الزهرى لذهبت السنن من المدينة » يضعُ زين العابدين فى أعلى مكان . فيعدّه أعلم أهل المدينة .

وكان كثير البكاء من يوم كربلاء . فقيل له فى ذلك فقال : « إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه من الحزن على يوسف - ولم يتحقق موت يوسف - وقد رأيت بضعة عشر رجلًا من أهلى يذبحون فى غداة واحدة » .

وربما فسّر لنا هذا المقال بعض أسباب انصرافه إلى تعليم المسلمين دينهم ، لصلاح دنياهم ، وإجماع المسلمين على إجلاله[1] .

---

(١) حج هشام بن عبد الملك فى خلافة أبيه - فرأى رجلًا ينجفل الناس إليه ، ويفسحون فى الطواف له ، فى حين لا يحفل الناس بابن الخليفة ، فسأل من هذا ؟ وسمع الفرزدق السؤال فأنشد ميميته الطويلة المشهورة فى الأدب العربى ومما جاء فيها :

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقىُّ النقىُّ الطاهر العلَم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحلُّ والحرَم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم =

وفى سنة ٩٤ ، سنة الفقهاء ، مات جمع من فقهاء المدينة ، عروة بن الزبير ، والسعيدان : ابن جبير وابن المسيبّ وأبو بكر بن عبد الرحمن . وارتفعت فيها أو فى سنة ٩٥ روح زين العابدين إلى الرفيق الأعلى . مخلفًا أربعة عشر ولدًا منهم عشرة رجال كبيرهم محمد ، أبو جعفر ، المكنى بالباقر ، وفيهم زيد بن على .

الباقر

٥٧ - ١١٤

انصرف الإمام محمد الباقر للعلم بكله . فهذا أوّل دروس أبيه له . بقر العلم أى تبحر فيه . فسُمى الباقر .

روى علم أبيه وجدّيه الحسين والحسن وجدّ أبيه - علىّ - وجادل عبد الله ابن عباس .

وعنه روى بقايا الصحابة والتابعين . وكان يقصد الحسن البصرى ونافعًا مولى ابن عمر .

سأل سائل عبد الله بن عمر فى مسجد الرسول فأشار إلى حيث يجلس الباقر وقال : « اذهب إلى هذا الغلام وسَله وأعلمنى عمّا يجيبك » فلما عاد إليه بالجواب قال : « إنهم أهل بيت مفهمون » .

= يُغضِى حياءً ويُغضى من مهابته ... فلا يُكَلَّمُ إلّا حين يبتسم
هذا ابن فاطمة إن كنْتَ جاهلهُ ... بجدِّه أنبياء الله قد ختموا
اللّه شرَّفه قدرًا وعظمه ... جرى بذاك له فى لوحه القلم
وليس قولك مَنْ هذا بضائرِه ... العرب تعرفُ مَنْ أنكرْتَ والعجم
ما قال « لا » قط إلّا فى تشهُّدِه ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم
من معشر حبهم دين . وبغضهم ... كفر . وقربهم منجى ومعتصم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

وغضب هشام وأرسل زين العابدين للفرزدق أربعة آلاف درهم ، ردّها الفرزدق قائلا : إنما مدحتك بما أنت أهله وردّها الإمام قائلا : إنّا أهل بيت إذا وهبنا شيئًا لا نستعيده .

وروى عنه الفطاحل : أخوه زيد وابنه جعفر الصادق . ثم الأوزاعى إمام الشام . وابن جريج إمام مكة . وأبو حنيفة . وعبد الله بن أبى بكر بن حزم شيخ مالك إمام المدينة . وحجاج بن أرطاه (١٤٥) ومكحول بن راشد . وعمرو بن دينار (١١٥) . ويحيى بن كثير (١٢٩) . والزهرى (١٢٤) ، وربيعة الرأى (١٣٦) شيخا مالك . والأعمش (١٤٨) والقاسم بن محمد ابن أبى بكر (١٠٦) وأبان بن تغلب (١٤١) وجابر الجعفى (١٢٨) وزرارة بن أعين (١٥٠) والثلاثة الأخيرون من كبار علماء الشيعة ورواة ابنه جعفر الصادق .

يقول محمد بن المنكدر – شيخ مالك بن أنس – فى الباقر : « ما كنت أرى أن مثل علىّ بن الحسين يدع خلفًا يقاربه فى الفضل حتى رأيت ابنه محمدًا الباقر » .

وما هو فى سجاياه إلّا خليفة « السَّجَّاد » . يطوف بالبيت فيركع ، ويسجد ، فإذا مكان سجوده قد بلله الدمع ..

يقول عنه الحسن البصرى : « ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء » .

عايش الباقر أباه زمانًا طويلًا . ولم يمتحن محنة أبيه فى كربلاء ، أو محنة أخيه زيد إذ أخرجه أهل الكوفة وخذلوه ، ولم تعتور حياته الامتحانات المتعاقبة التى اعتورت حياة ابنه – الإمام الصادق – أو خلافات بنى عمومته – أبناء الحسن – أو الإرهاب الفكرى أو الفعلى من الخليفة المنصور . فأتيح للباقر أن يبلور اتجاه أهل البيت – من نسل الحسين – إلى العلم والتعليم ، ويبرز فيه العناية بفقه العبادات والمعاملات . وكثر ترديد اسمه مصاحبًا لاسم ابنه الإمام الصادق فى كتب الفقة الشيعى . وإليه يرجع أصحاب الكلام فى العقائد الشيعية ، وكثير من الفقه المستنبط من القرآن والسنة .

روى عنه جابر الجعفى أكثر من خمسين ألف حديث وروى عنه محمد ابن مسلم ثلاثين ألفًا . وكان عبد الملك بن مروان يعرف له حقّه ، وهو فى صدر شبابه ، فى حياة أبيه .

إليك أمثالاً لفكره فى السياسة والفقه والتفسير :

– روى الكسائى : دخلت على الرشيد فقال : هل علمت أوّل من سّن الكتابة على الذهب والفضة ؟ قلت : عبد الملك بن مروان . قال ما السبب ؟
قلت : لا أعرف

قال : كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر على دينهم . وكانت تطرز « أبًا وابنًا وروحًا » وتخرج من مصر تدور فى الآفاق . فأمر عبد العزيز – وكان عامله على مصر – بإبطال ذلك . وأن تطرز بصورة التوحيد . مشهدًا الله ألا إله إلا هو .. فلما وصلت القراطيس إلى ملك الروم كتب إلى عبد الملك إن لم يرد هذا الطراز على ما كان عليه فسينقش على القراطيس شتم النبى . فاستشار عبد الملك ، فلم يجد عند أحد رأيًا ، فاستشار الباقر .

فقال له : لا يعظم عليك هذا الأمر من جهتين . الأولى : إن الله عزّ وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم . والثانية أن تتهدد من يتعامل بغير دنانيرك . فلما علم ملك الروم أن دنانيره سيبطل التعامل بها إن حوت شتمًا . كفّ عما تهدّد به .

– وفى الاحتكار ورفع الأسعار . يقول فى مسجد الرسول : قال رسول الله ﷺ وآله : « أيما رجل اشترى طعامًا فحبسه أربعين صباحًا ، يريد غلاء المسلمين ، ثم باعه فتصدق بثمنه ، لم يكن كفارة لما صنع » .

– واليمين عند الشيعة لا تنعقد إلاّ قسمًا باللّه وأسمائه الحسنى وصفاته الدالة عليه صراحة ، فمن حلف بغيرها لا يحنث إذا لم يفعل . سئل الباقر عن قوله تعالى : (والليل إذا يغشى) (والنجم إذا هوى) وما إلى ذلك فأجاب : إن لله عز وجل أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يقسموا إلاّ به .

– وسئل أبالناس حاجة إلى الإمام ؟ فأجاب : أجل . ليرفع العذاب عن أهل الأرض . وذكر قوله تعالى : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) .

تعاقب على الخلافة فى حياة الباقر أربعة من أبناء عبد الملك وزوج ابنته عمر ابن عبد العزيز – خامس الراشدين فى مدة خلافته – وكان عمر يتردد على

الإمام الباقر يستنصحه . والباقر يوصيه بالمسلمين أجمعين - فيقول له بين ما يقول : « أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولدًا . وأوسطهم أخًا . وأكبرهم أبًا . فارحم ولدك . وصل أخاك . وبرّ والدك . فإذا صنعت معروفًا فربِّه » أى تعهده .

وكان نشر التشيع لأهل البيت همّه . قال سعد الإسكافى : قلت لأبى جعفر الباقر : « إنى أجلس فأقصّ وأذكر حقّكم وفضائلكم » قال : « وددت لو أن على كل ثلاثين ذراعًا قاصًّا مثلك » .

وحجّ هشام بن عبد الملك فى أيام ملكه (١٠٥ - ١٢٥) فرأى الباقر بالمسجد يعلّم الناس فى مهابة وجلال ، تعاليم الإسلام وآدابه وفرائضه وأحكامه والناس خشع فى مجلسه . وغلبت هشامًا غريزة المعاجزة لأهل البيت . فبعث إليه من يسأله : ما طعام الناس وشرابهم يوم المحشر ؟ وأجابه الباقر بآيات الكتاب الكريم . واستطرد فى تعليمه وتعليم من أرسله .

وسمعه الحجيج - عامئذٍ - يقول للناس : « الحمد لله الذى بعث محمدًا بالحق نبياً وأكرمنا به . فنحن صفوة الناس من خلقه وخيرته من عباده وخلفائه . فالسعيد من تبعنا . والشقىّ من عادانا » .

ورجع هشام إلى عاصمته .. فأرسل فى دعوة الباقر ، وابنه الصادق ، إلى قصبة الملك فى دمشق .

يقول الصادق : « فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثًا . ثم أدخلنا فى اليوم الرابع » .. وكأنما أراد هشام أن يظهرهما على أنه إذا لم تكن له مكانة فى جوار البيت العتيق أو منسجد الرسول أو كانت الكرامة كلها ، فى الحج الأكبر ، لأهل البيت ، فإن له بيتاً فى دمشق وحجابًا ومواعيد .

* * *

والباقر ، كالأئمة من أبنائه ، يفضلون عليًّا على سائر الصحابة . لكنهم لا يبرءون من الشيخين :

يقول لجابر الجعفى : « ياجابر بلغنى أن قومًا بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا

ويتناولون أبا بكر وعمر رضى الله عنهما . ويزعمون أنى أمرتهم بذلك . فأبلغهم أنى إلى الله منهم برئ . والذى نفس محمد بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم . لانالتنى شفاعة محمد أبدًا إن لم أكن أستغفر لهما وأترحم عليهما » .

وهو لا يترحم عليها فحسب . ولكنه يأمر تلميذه بأن يتولاهما . وأن يبرأ من أعدائهما . يقول لتلميذه سالم : « ياسالم . تولهما . وابرأ من عدوّهما . فإنهما كانا إمامى هدى رضى الله عنهما » . بل إنه يتخذ عمل أبى بكر حجة فى الفقه : سئل عن حلية السيف فجوزها ، قال : « لا بأس به قد حلى أبو بكر الصديق رضى الله عنه سيفه » .

قال السائل : و تقول الصديق ؟ فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : « نعم الصديق . فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً فى الدنيا والآخرة » .

وفى سنة ١١٤ اختاره الله إلى جواره لتبدأ إمامة ابنه جعفر الصادق .

الفصل الثانى

إمام المسلمين

« إن الله أراد منا شيئًا وأراد بنا
شيئًا . فما أراده بنا طواه عنّا .
وماأراده منّا أظهره لنا . فما بالنا
نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منا » .
« الإمام الصادق »

ولد الإمام الصادق فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢ على قول ، أو غرة رجب . وفى أقوال أخرى أنه ولد سنة ٨٠ أو سنة ٨٣ . وتتابع بعده أبناء الباقر ، ولهذا يكنى الباقر أبا جعفر . أما أخوه الشقيق فعبد الله .

وأما أولاد الصادق فإسماعيل وعبد الله – وبه يكنى أبا عبد الله – وأم فروة من زوجته فاطمة بنت الحسين .. بن الحسين بن علىّ ، وموسى « الكاظم » وإسحق ومحمد . وأمهم أم ولد ، تدعى حميدة . والعباس وعلىّ وأسماء من أمهات متفرقات .

واسم جعفر فى بيت زين العابدين مذكِّر بأوّل الشهداء من بيت أبى طالب . فعلىّ هو الثانى فيه . والحسين هو الثالث .

أما الأوّل فجعفر بن أبى طالب قائد جيش مؤتة وشهيدها ، الطيار فى الجنة ، وذو الجناحين . كما وصفه رسول الله ﷺ – وكما روى البخارى ومسلم : قال له رسول الله « أنت أشبهت خلقى وخلقى » .

وهو أوّل زوج لأسماء بنت عميس[1] جدّة أم فروة أم : جعفر الصادق .

ولقد مر بنا كيف ولده رسول الله مرتين ، والصديق مرتين ، ليدلّ التاريخ على أنه نسيج وحده . وأن كسرى يزد جرد ملك الفرس قد ولده مرتين . ليدل على أن الإسلام للموالى والعرب .

فالباقر – وهو من هو – أكفأ الناس لأم فروة[2] المنحدرة من صلب أبى بكر أوّل الخلفاء الراشدين ، والقاسم بن محمد[3] الذى يرشحه للخلافة عمر ابن عبد العزيز – خامس الخلفاء الراشدين .

وكأنما سلم الباقر ابنه شعار حياته فى مقولتين صيرتاه ربانيًّا من كل وجه . الأولى : « شيعتنا من أطاع الله » . والثانية : « إن الله خبأ رضاه فى طاعته . فلا تحقرن من الطاعات شيئاً فلعلّ رضاه فيه . وخبأ سخطه فى معصيته . فلا تحقرن من معصية شيئًا فلعلّ سخطه فيه . وخبأ أولياءه فى خلقه . فلا تحقرن أحدًا فلعله ذلك الولى » .

تلقى الصادق من أبيه كل ماوعاه قلبه وقرأ كل ما حوته كتبه . واستمع إلى

---

(١) يقال عن أمها « هند » أكرم الناس أحماء : أما أسماء فزوج جعفر ولها منه عبد الله وزوج أبى بكر ولها منه محمد . وزوج علىّ ولها منه يحيى . أما أخواتها فميمونة أم المؤمنين ولبابة زوج العباس عم النبى وجدة خلفاء الدولة العباسية . وسلمى زوج حمزة بطل أحد وشهيدها وعم النبى . وأم الفضل الكبرى « أخت أسماء لأمها » أم خالد بن الوليد . وهكذا تتصل بأسماء بنت عميس أسماء هى أحرف الهجاء فى تاريخ الإسلام : النبى وعميه وابنى عمه والصديق وسيف الإسلام خالد .

(٢) حجت أم فروة متنكرة فاستلمت الحجر بيدها اليسرى فقال لها رجل لا يعرفها : ياأمة الله أخطأت السنة ! فأجابت ياهذا إنا عن علمك لأغنياء .

(٣) وللقاسم وأبيه أكبر الصلات بأم المؤمنين عائشة . إذ ضمته إليها بعد مقتل أبيه محمد ، على أيدى جند معاوية . ومحمد ربيب على . سيره معها بعد وقعة الجمل إلى المدينة فى كوكبة فى النساء فى ملابس الرجال . وكان تسيير أخيها معها كرامة يحفظ بها أخو الرسول أم المؤمنين .

وفى بيت عائشة سقى القاسم علمها الذى أراد عمر بن عبد العزيز تدوينه عن طريقه ، وعمر خليفة ، حتى لا يضيع علم المدينة . فكتب بذلك إلى قاضيه وواليه على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم .

وسنرى الإمام جعفر الصادق يروى عن خاله عبد الرحمن بن القاسم وعن عروة بن الزبير « ابن أسماء أخت عائشة » . وعروة من كبار رواتها ورواة الصحابة .

علماء العصر . وانتفع بعلوم جده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر (١٠٦) وكان مثلا عاليًا للأمة وواحدًا من الأعمدة السبعة المسمين « علماء المدينة السبعة » .[1] يعلن عمر بن عبد العزيز أنه « لولا خوف الفتنة من بني أمية لاستخلفه عل الأمة » ويوصي عمر عماله أن يكتبوا السنن من عنده . فهذا رجل له ورع عمر بن عبد العزيز ، وعنده كل علم المدينة ، وإنه ليستطيع أن يقول - من صلة على الوثقى بأبيه محمد بن أبي بكر - إنه أوثق أهل بيته صلة برسول الله ﷺ . وبأول من تبعه ، عليًا كان أو أبا بكر . بل بهما معًا .

وعندما نذكر أن القاسم بن محمد ظل مصدرًا للعلم حتى شارف الصادق ربع القرن من حياته ، وأن الصادق شهد حلقات عكرمة مولى ابن عباس ، (١٠٤) وعطاء بن أبي رباح ، بمكة حيث كان يجلس ابن عباس ، وأن أوامر الولاة في الموسم كانت « لا يفتي الناس إلّا عطاء » ، كما شهد بالمدينة حلقة عبد الله بن أبي رافع - مولى أمير المؤمنين على - الذى أملى عليّ عليه كتابه إلى معاوية ، وحلق خاله عبد الرحمن بن القاسم ، وعروة بن الزبير (٩٤) الراوية عن خالته عائشة ، ومحمد بن المنكدر (١٣٠) شيخ مالك ، فليس علينا أن نحاول البحث عما تلقاه جعفر بن محمد الصادق في صباه .

ولقد كان علم أهل البيت حسبه - فكيف إذا اجتمع إليه علوم هؤلاء ، ليملأ بالفقه الشيعي وبالفقه المقارن مدينة الرسول ، من يوم مات أبوه وهو بعد في ثلاثيناته .

والصبّي من « أهل البيت » لا ينفق صباه في « عمل لا شيء » فذلك هو اللهو . أو في « عدم عمل شيء » . فهذا هو الفراغ .. وعلى الأجيال المتعاقبة منهم تبعات في تعاقب الإمامة . لا تدع لهم محيصًا عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علم ، فوق علمهم . وماهو إلّا القرآن والسنّة والسيرة . والقرآن

---

(١) يقول فيه يحيى بن سعيد (١٤٣) تلميذ فقهاء المدينة السبعة : « ما أدركنا بالمدينة أحدا نفضله على القاسم » وابن حنبل يقول في يحيى « أثبت الناس » .

كما يقول ابن عباس « فى بيتهم نزل » . والسنّة من بيتهم صدرت . والسيرة سيرتهم .

واللغة طريق ذلك كله ، وهى بعد حصيلته ، وإنك لتدرك منزلة جعفر ابن محمد فى البيان العربى من تداوله للتفسير فى اقتدار على تخريج المعانى لا قرين له . وسنراه غدًا عمدته النصوص فى الفقه والدين ، يستخرج منها أعمق المعانى بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ، شأن أمراء البيان . ومن تكن النصوص عمدته الأولى ، فالبلاغة عدّته الكبرى .

ولئن لم يتميز الأطفال أو الصبية فى بيت زين العابدين والباقر بخصوصيات تكبر وتنمو فتبرز إذ هم شيوخ وأئمة ، إن بيت زين العابدين ذاته كان « خصوصية » فى مجتمع الإسلام . فيه المثل الأعلى من العلم المحيط والورع الكامل والتفرغ للخدمة العامة ، وتعلق القلوب به ، واتجاه الأبصار تلقاءه . علىّ هذا درج بيت زين العابدين ، مع الاستمرار والاستقرار . فلم يعكر الصفو فيه غير مصرع زيد فى سنة ١٢١ ، بعد إذ خذله أهل الكوفة فى مخرجه ، فمصرع ابنه يحيى . وحمل الصادق التبعة فى ذوى رحمه – منذ صار إمامًا بوفاة الباقر سنة ١١٤ – فكان يحنو على الأحياء من أبناء عمه زيد ، ويأسو جراحات من سقط أباؤهم فى الحرب من رجال زيد ، فبعث ألف دينار فرّقت فى ورثتهم .

* * *

وليس أحد بحاجة فى ترجمة أئمة أهل البيت ليسترسل فى وصف خصال من يرث أخلاق الأنبياء ويعلمها

فلنستحضر ، ونحن فى بيت النبى ، ما كان يصنعه النبى ، ولنتيقن أن الإمام الصادق كان يحاول أن يصنع نظيره . ولنستحضر فعال علىّ وزهراء النبى ، والحسن والحسين ، وزين العابدين ، والباقر . فهى أصول يتلقاها الخلف عن السلف ، ليعملوا بها ، ثم يعلّموا بها .

وربما أجزأ فى هذا المقام ذكر أمثال عادية من الحوادث اليومية تصور صميم « الشخصية » . وفيما نذكره دلائل على كثير لم نذكره .

فحياة الإمام مدرسة وتطبيقاتها . والعمر أيام تتكرر . والحياة جماع أعمال يدل بعضها على البعض الآخر . ومنها الجزئى الذى يستنبط منه الكلىّ . وكثيرًا ما كان العمل الواحد « ردّ فعل » عفوىّ أو فورى ، صادرًا من عدّة قواعد يجرى عليها العقل أو الشعور أو السليقة أو الطريقة - فردود الأفعال شهادات عيان بدخائل الإنسان .

١ - مات بين يدى الإمام ولد صغير . فبكى وقال : « سبحانك ربى لئن أخذت لقد أبقيت . ولئن ابتليت لقد عافيت » .

وحمله إلى النساء . وعزم عليهن ألّا يصرخن . وقال « سبحان من يقبض أولادنا ولا نزداد له إلّا حبًّا . إنا قوم نسأل الله ما نحب فيعطينا . فإذا نزل ما نكره فيمن نحب رضينا » .

فأى قلب ، فى اطمئنانه واتزانه ، كمثل ذلك الذى يفيض بالشكر ، حيث يغيض الصبر عند الغير !.

٢ - ونهى أهل بيته عن الصعود - فدخل يومًا فإذا جارية من جواريه تربى بعض ولده ، قد صعدت السلم ، والصبى معها . فلما نظرت الإمام ارتعدت لعصيانها وسقط الصبى من يدها . فمات . فخرج الصادق متغير اللون . فسئل عن ذلك فقال : « ما تغير لونى لموت الصبى . وإنما تغير لونى لما أدخلت على الجارية من الرعب » ثم قال لها بعد ذلك : « أنت حرّة لوجه الله . لا بأس عليك » .

فهذا أمر واحد عادى ، تبعته وقائع ثلاثة غير عادية ، أعقبها من الإمام تصرفات لا تصدر إلّا عن الإمام . فى كل واحدة منها أنواع فضائل . تبدأ باحترام إنسانية الإنسان . وتنتهى بعطاء ، دونه كل عطاء ، يختمه بالكلمة الطيبة - لا بأس - ويبدؤه بأعلى القيم الإنسانية . إذ يمنحها حريتها .

٣ - وذهب مرة يعزّى أحد المصابين بفقد ولده . وانقطع فى الطريق شسع نعله ، فتناوله من رجله ومشى حافيًا . فخلع ابن يعفور شسع نعله وقدمه له . فأعرض عنه كهيئة المغضب وقال : لا . فصاحب المصيبة أولى بالصبر عليها ..

فالإمام لا يلقى متاعبه على أحد دونه . بل يتحمل الأذى ليتعلم الناس وجوب العمل ، ولزوم التحمل . وليعلم الكبراء أنهم كبراء بما يضربونه من المثل . وليدرك الجميع أن الصبر على المصيبة شطر الإيمان . وأحق الناس به من أتيحت الفرصة له .

٤ - وذات يوم دعا للطعام عابر سبيل لم يقرئه السلام . فراجعه حُضّاره متسائلين بين يديه : أليست السنّة أن يسلّم الرجل أولاً ، ثم يدعى للطعام ؟ فأجاب الإمام « هذا فقه عراقى فيه بخل » .

ففقه الإمام « علوىّ » يبدأ بالعطاء . وعملىّ فيه مبادرة . واجتماعى يسعى به المعطى إلى الآخذ . وإسلامىّ ، إنسانى ، كله كرامة .

لقد ولد فى دار شعارها البدار ، بالعطاء مع الإخفاء . حتى الصدقة يقول فيها الباقر : « أعط ولا تسم . ولا تذل المؤمن » .

وفى ذلك السنّة .. وسنرى تطبيقات شتى من الإمام لهذا الفقه فى المنهج الاقتصادى ..

٥ - وصحا رجل من الحاج فلم يجد هميانه « الكمر الذى يلفه المحرم حول بطنه وفيه نفقته من النقود » فخرج فوجد الإمام الصادق يصلّى فتعلق به وهو يقول : أنت أخذت هميانى .

قال الصادق : كم كان فيه ؟ قال : ألف دينار . فأعطاه ألف دينار . ومضى الرجل فوجد هميانه فرجع يعتذر ويردّ ألف دينار . فأبى الصادق أن يأخذها وقال : شىء خرج من يدى فلا يعود .

قال الرجل لمن حوله : من هذا ؟.

قالوا : جعفر الصادق . قال : لا جرم هذا فعال مثله .

فإمام المسلمين لا ينعزل عنهم ، فلا ينماز منهم ، حتى ليخطئ الجاهلون منهم فى شخصه . فيعرض عن الجاهلين . ويخفّ ليخفّف كرب المكروب ، لا يحزنه وهمه أو اتهامه ، وإنما تحزنه همومه . فيشركه فيها بالصنيع النابه مرة إثر أخرى .

والناس أسمع للصوت الذى لا صرير له . وأبصر بالإخلاص الذى لا يتصايح صاحبه به . والأفضال أفعال تدرك آثارها الحواس الخمسة .

ولا نستطرد فى السرد . ففى كل واقعة سلفت « عدسة » صغيرة تريك العالم الكبير الذى وراءها ، من مناقب كالنجوم وإن كان أصحابها من البشر .

هذه سماء تسعى على الأرض . وهؤلاء بقية النبى عليه الصلاة والسلام ، يعيشون فى الدنيا !

مجالس العلم :

شهد الإمام الصادق انحدار الناس بعد عصر الخلفاء الراشدين ، ورأى بعين الصبى المأمول من أهل بيت الرسول ما صنعه عمر بن عبد العزيز فى خلافته بين سنتى ٩٨ ، ١٠١ إذ أعاد الدين غضًا فى نحو من ثلاثين شهرًا ، وأثبت للدنيا ، أن « المدة » كما سمى الناس خلافته ، كانت كافية لتعيد الناس إلى الإسلام الصحيح عندما يوجد خليفة صادق العزم ، يتخذ الخلافة - كما قال - سبيلًا إلى الجنة .

وكان بعض الصالحين يستعجلون عمر ليصنع كل ما صنع فى أوّل يوم ولى الخلافة . قال له ابنه عبد الملك : «يأبت ما بالك لاتنفذ الأمور ، فو الله لا أبالى فى الحق لو غلت بى القدور» لكن عمر يتأتى للأمور فى رفق وأناة وإصرار . قال : « لا تعجل يابنى إن الله تعالى ذمّ الخمر مرتين ، وحرّمها فى الثالثة . وإنى أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة ، فيدفعوه جملة ، فتكون فتنة » . وبهذا قدر على أن يردّ المظالم وأغنى الله الناس على يديه . فأصبح عمر لا يجد فقراء يوزع المال عليهم . فى المدينة أو فى القرية .

لكن الإمام « الصادق » تعلّم من حياة الخليفة الصادق العزم : أن إصلاحاته لم تؤت ثمارها بعد مماته ، إذ دمرها الخلفاء الذين جاءوا بعده ، وتتابع الباقون يدمرون .

وشهد الإمام الصادق مقدم بنى العباس وكيف ناقضوا شعارات دولتهم وحكموا حكم جاهلية .

هكذا رأى رأى العيان أن صلاح الأمر لا يكون بتولّى السلطة ، أو بمجرد إصلاحها مدّة قصيرة أو طويلة . وإنما الصلاح فى إصلاح الأمة فكيفما تكونوا يول عليكم . ولكل أمة الحكومة التى تستحقها .. واستيقنت نفسه الصواب فيما صنعه أبوه وجدّه ، وهو أن يعلّموا الأمة . فإذا تعلّمت صلحت فلم يستضعفها حكّامها . وهى عندئذ تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتشركهم تبعاتهم . فالأمة القوية لا تظلم حكامها ولا يظلمونها .

وبشعار الثقة بالله سبحانه « الله وليى وعصمتى من خلقه » وبنقش الخاتم الذى يعلن مصدر قوته « ما شاء الله . لا قوة إلا بالله . استغفر الله » . قصد إلى مجلس العلم ، فى مسجد النبى أو فى داره ، يستعمل البعد المكانى ، حيث يجلس للتعليم فى مدينة الرسول ، والبعد الزمانى ، فهو تابعى يعيش فى جيل التابعين وتابعى التابعين ، والبعد الثالث وهو ارتفاع نسبه إلى النبى وعلىّ .

أما البعد الرابع فعمق علمه وعلم أبيه وجدّه .

* * *

فى هذا المجلس المهيب بالمدينة أو بالكوفة ، يجلس رجل ربعة . ليس بالطويل ولا بالقصير . أزهر له لمعان كالسراج . يسعى نوره بين يديه . رقيق البشرة ، أسود الشعر جعده ، أشم الأنف . أنزع قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهرًا ، له إشراق . وعلى خدّه خال أسود - المسلمون أيامئذ أحوج إليه ليعلّمهم ، منهم إليه ليحكمهم .. كل ما يحيط به يوحى بالرجاء فى فضل الله . فلما طعن فى السن زاد جلالا وسناء وإحياء للأمل .

يلبس الملابس التى عناها جدّه عليه الصلاة والسلام حينما قال : « كلوا واشربوا والبسوا فى غير سرف ولا مخيلة » .

رآه سفيان الثورى وعليه جبة خز دكناء فقال : يابن رسول الله ما هذا

لباسك ! فقال : « ياثورى . لبسنا هذا لله ، ثم كشف عن جبة صوف يلبسها ، وقال : ولبسنا هذا لكم » .

كان جدّه علىّ يختار الخشن من الألبسة .. ويلح الجوع عليه فيعلل معدته بقرص شعير . يخيط نعله إن لم يكن مشغولا ، أو يتركه لمن يخيطه بأجر إذا انشغل . لكن الزمان يتغير فيغير الصادق ليظهر أثر النعمة . ويقول للناس : « إذا أنعم الله على عبده بنعمة أحبّ أن يراها عليه لأن الله جميل يحب الجمال » .

ويقول : « إن الله يحب الجمال والتجمل ، ويكره البؤس والتباؤس .. » .

والنظافة من الإيمان . فيها الكرامة والسلامة للنفس وللأسرة وللمدينة . فعلى المرء كما يقول الإمام : « أن ينظف ثوبه ويطيب ريحه ويجصص داره ويكنس أفنيته » .

وذات يوم رآه « عباد بن كثير البصرى » فى الطواف فقال له : تلبس هذه الثياب فى هذا الموضع وأنت فى المكان الذى أنت فيه من علىّ ؟ فأجاب كما يروى الإمام نفسه فقلت : فرقبى – نسبة إلى « فرقب » حيث تصنع ثياب كتان أبيض – اشتريته بدينار . وقد كان علىّ فى زمن يستقيم له ما لبس فيه . ولو لبس مثل ذلك اللباس فى زماننا لقال الناس : هذا مرائى مثل « عباد » ..

قيل له يومًا : كان أبوك وكان ... فما هذه الثياب المروية « حريرمرو »

فأجاب : ويلك فمن (حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ؟

وإنك لترى آثار النعمة على مالك وأبى حنيفة ، وإجابات مشتقة بدقة من هذه الإجابات ، فى ردود الرجلين بشأن ملابسهما وأنعم الله عليهما – وكان كلاهما لبّاسًا – فالمذموم من الثياب ما فيه خيلاء . والمحمود ما كان إظهارًا لنعمة الله على عبده . حتى تلميذه العظيم الثالث سفيان الثورى – وهو إمام الزهد والورع والحديث والفقه – قد انتفع بدروس الإمام فى الملبس فأمسى يقول : الزهد فى الدنيا هو بقصر الأمل . ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ .

ازهد فى الدنيا ثم نم . لا لك ولا عليك . إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا . وان الرجل ليكون فقيرًا وهو راغب فيها .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يلبس ماتيسّر من الصوف تارة ومن القطن تارة ومن الكتان تارة . وكانت مخدّته من أدم حشوها ليف نخل . ولما قال له رجل يارسول الله أنا أحب أن يكون ثوبى حسنا ونعلى حسنة . أفمن الكبر ذاك ؟ قال : « لا . إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

ولم يعب الصحابة بعضهم على بعض الملابس من أعلى وأدنى . لا يعيب صاحب الخزّ على صاحب الصوف ولا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخزّ .

* * *

فى هذا المجلس تتلمذ للإمام جعفر وروى عنه – كما يقول أرباب الإحصاءات – أربعة آلاف من الرواة وكتب عنه أربعمائة كاتب . كلهم يقول : قال جعفر بن محمد .

فأى مجلس كان ذلك المجلس ! تتراءى فيه أشياء من رسول الله ﷺ . بعضها مادّى يجرى فى أصلاب رجل بعد رجل . وبعضها معنوى يتراءى فى معانيه وفحوى مقولاته ، لكل هؤلاء .

ليس بالمجلس لجاجة ولا حجاج عقيم . يقول للتلامذة : « من عرف شيئا قلّ كلامه فيه . وإنما سمى البليغ بليغًا لأنه يبلغ حاجته بأدنى سعيه » .

إذا سأل سائل عن خلافات الصحابة أجاب : « علمها عند ربى فى كتاب . لا يضل ربى ولا ينسى » .

يهتدى بهديه الكبراء فى الامتناع عن الجواب فى خلاف الصحابة . يقول أحمد بن حنبل إذ يسأل عما كان بين الصحابة : كان بينهم شىء الله أعلم به . ومع ذلك يعجب ويتساءل عن طلحة والزبير : أكانا يريدان أعدل من على ؟

ولا يضيع الحق فى المجلس : سمع أن أحد الولاة نال من أمير المؤمنين علىّ ..! فوقف الصادق فقال : « ألا أنبئكم بأعلى الناس ميزانًا يوم القيامة

وأبينهم خسرانًا ؟ من باع آخرته لغيره .. وهذا هوالفاسق » .

وعرف الناس الفاسق الذى باع آخرته لمن يشتهون أن يقدح لهم فى علىّ ابن أبى طالب .

والمقياس عند صاحب المجلس هو الإخلاص لله والرسول . يقول ويروى عن آبائه عن أمير المؤمنين على : « قال رسول الله ﷺ : لا قول إلّا بعمل ولا قول ولا عمل إلّا بنية . ولا قول ولا عمل ولانية إلّا بإصابة السنّة » .

والقاعدة هى المساواة بين الناس ، مساواة فطرية – مهما اختلفت العقائد والأجناس – يقول : « الناس فى آدم مستوون » . حتى عبدة النار يقول فيهم : « سنّوابهم سنّة أهل الكتاب » .

وللنساء والبنات عنده المكانة العالية . قيامًا بوصية جدّه بالنساء فى آخر خطبه عليه الصلاة والسلام – روى الجارود بن المنذر : قال لى أبو عبد الله الصادق : « بلغنى أن لك ابنة فتسخطها . ما عليك منها ؟ ريحانة تشمها . قد كفيت رزقها . وقد كان رسول الله أبا بنات » .

وأى مثل فى الإسلام كمثل رسول الله . وأى نعمة أن يكون للمرء ريحانة أو رياحين ! وأى فضل كفضل البنات يكفى رزقهن الله ! يقول الصادق . « إن إبراهيم سأل ربه ابنة تبكيه وتندبه بعد موته » لينبّه على بقاء الوفاء فى أفئدة البنات بعد الممات .

ومن الدروس الأولية فى هذا المجلس تعليم الناس أن يسعوا لعمارة الدنيا بالعمل للرزق ، ومجانبة الخلائق الفاقرة بالتواكل، أو البطالة . وبهذا المبدأ أصبح المجتمع الشيعىَ مجتمع العاملين ، وبلغ حظّه – حيثما كان – من النماء ، والاستغناء ، والانتفاع بما منحه الله للبشر من مواهب ، وأتاح لهم من وسائل .

جاء مجلس الإمام يومًا جماعة من الزهاد يريدون منه إظهار التقشف والزهد الكامل . فقال لهم :

حدثنى أبى أن رسول الله ﷺ قال : ابدأ بمن تعول . الأدنى فالأدنى .. هذا ما نطق به الكتاب ردًّا لقولكم .. قال العزيز الحكيم : (والذين إذا أنفقوا لم

يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) .

أفلا ترون أن الله تعالى قال غير ما أراكم تدعوننى إليه ؟... فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير . فلا يعطى جميع ماعنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له . للحديث الذى جاء عن النبى : « إن أصنافًا من أمتى لا يستجاب دعاؤهم : رجل يدعو على والديه . ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه . ورجل يدعو على زوجته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده . ورجل يقعد فى بيته ويقول : رب ارزقنى ، ولا يطلب الرزق ، فيقول الله عز وجل : ياعبدى ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب ... ألم أرزقك رزقًا واسعًا ؟ فهلا اقتصدت كما أمرتك ولم تسرف فيه وقد نهيتك عن الإسراف . ورجل يدعونى فى قطيعة رحم ... » ثم علّم الله عزّ وجل كيف ينفق فقال : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا) فهذه أحاديث رسول الله يصدقها الكتاب . والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين ... وفيهم سلمان الفارسى وأبو ذر رضى الله عنهما :

فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته حتى يحضر عطاؤه من قابل . فقيل له : ياأبا عبد الله أنت فى زهدك تصنع هذا وأنت لا تدرى لعلك تموت اليوم أو غداً ؟ فكان جوابه أنه قال : ترجون لى البقاء وقد خفتم علىّ الفناء . أما علمتم أن النفس قد تلتاث على صاحبها ما لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه . فإذا أحرزت معيشتها اطمأنت .

وأما أبو ذر فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ، ويذبح منها إذا اشتهى اللحم ، أو نزل به الضيف .. ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهما رسول الله ما قال .. ولم يبلغا من الزهد أن صارا لا يملكان شيئًا البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم .. ويؤثرون على أنفسهم وعيالهم ... .

فالإمام يريد مجتمعًا عاملًا ، متواصًلا ، فيه قصد وجدّ . فبهذا يعين الله من يعين نفسه من عباده .

التلاميذ الأئمة :

كان سفيان الثورى إمام العصر فى الورع والسنن والفقه ، للعراق كافة . وكانت له فى مجابهة الخليفة مواقف لا يملّ الحديث فيها . وكان كثيرون من رواد المجلس كسفيان مكانة فى المسلمين : منهم عمرو بن عبيد الذى نشأت على يديه فرقة المعتزلة ، وأبو حنيفة ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ترب أبى حنيفة ، وإمام المدينة مالك بن أنس .

وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنّة . ومالك أكبر من تلقى عليه الشافعى علمًا . وأطولهم فى تعليمه زمانًا . والشافعى شيخ أحمد بن حنبل .

وكمثلهم كان المحدثون العظماء : يحيى بن سعيد محدّث المدينة وابن جريج وابن عيينة محدثًا مكة . وابن عيينة هو المعلّم الأوّل للشافعى فى الحديث .

فلندع للأئمة وصف مكانهم من الإمام - وفيه وصف مجالس علمه :

يقول مالك بن أنس : « كنت أرى جعفر بن محمد . وكان كثير الدعابة والتبسم . فإذا ذكر عنده النبى اخضر واصفر . ولقد اختلفت إليه زمانًا فما كنت أراه إلّا على الطهارة . ولا يتكلم فيما لا يعنيه . وكان من العلماء والعبّاد والزهاد الذين يخشون الله . وما رأيته قط إلّا ويخرج وسادة من تحته ويجعلها تحتى » .

وفى مقولة أخرى يضيف مالك : « وكان كثير الحديث ، طيب المجالسة ، كثير الفوائد ، إذا قال : « قال رسول الله » اخضرّ مرّة واصفرّ أخرى حتى ينكره من يعرفه . ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام ، كلما هم بالتلبية انقطع الصوت فى حلقه ، وكاد أن يخرّ عن راحلته . فقلت : يابن رسول الله . أولا بد لك أن تقول ؛ قال : كيف أجرؤ أن أقول لبيك وأخشى أن يقول الله عزّ وجل : لا لبيك ولا سعديك » ..

وإنا لنذكر ما كان يصنعه جدّه زين العابدين فى هذا المقام .

وأصبح مالك إذا ذكر النبى اصفر لونه . فإذا تساءل جلساؤه قال : لو رأيتم

ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون . ويذكر لهم حال ابن المنكدر[1] ثم يعقب بحال جعفر .

إنما كان مالك يجد ريح الرسول فى مجلس ابن بنته .. ويحسّ ، أو يكاد يلمس ، شيئًا ماديًا ، يتسلسل من الجد لحفيده ، وأشياء غير مادية تملك اللب والقلب : فالرؤية متعة والسماع نعمة . والجوار - مجرد الجوار - تأديب وتربيب ... وفى كل أولئك طرائق قاصدة إلى الجنة .

وصاحب المجلس طهر كله . لا يتحدث عن جدّه إلّا على الطهارة يقول : « الوضوء شطر الإيمان » ومن أجل ذلك لم يعد الوضوء عنده أو فى مذهبه ، مجرد وسيلة لغيره - أى للصلاة - بل أمسى مستحبًّا لذاته كالصلاة المستحبّة . يتهيأ به المتوضئ لدخول المساجد ، وقراءة القرآن ، بل الزوجان ليلة زفافهما ، والمسافر إلى أهله .. والقاضى ليجلس للقضاء ، والإمام الذى يفتى أو يعلِّم .

وما هو ببدع أن يشغف به مالك - وهو الأموى بهواه - فإنما هو حب الرسول وأهل بيته . فحبّهم إيمان . وما كان تعبير مالك إلّا حبًّا ، وهو - بعد - التلميذ النجيب لفقهاء بنى تيم « قبيلة أبى بكر » سواء كانوا من مواليهم - كربيعة الرأى - أو من أنفسهم كمحمد بن المنكدر ، أو أمهم منهم ، كالإمام جعفر .

وأبو بكر الصديق يقف فى قمة التاريخ العلمى لمصادر مالك باتباعه واجتهاده وأبنائه وبنى تيم ..

تعلّم مالك الكثير من السلوك على الإمام جعفر فكان إذا حدَّث لا يحدِّث إلّا على الطهارة . ويحمى مجلسه ممن يخرجونه عن قصده . كما يكرم تلامذته .

---

(١) محمد بن المنكدر (١٣٠) من معادن الصدق بالمدينة وأشياخ مالك ، من بنى تيم قبيلة أبى بكر ، وهم مشهورون بالرقة والورع . وهم أجداد الامام جعفر - كان لا يسأل ابن المنكدر أحد عن حديث إلّا بكى . ومالك يقول : « كنت إذا وجدت من نفسى قسوة آتى ابن المنكدر فأنظر إليه نظرة فأبغض نفسى أيامًا » .

وابن المنكدر يقول : « كابدت نفسى فى ذلك أربعين عامًا حتى استقامت » . وكان من بنى المنكدر إخوة ثلاثة فقهاء : محمد وأبو بكر وعمر أبناء المنكدر .

بل صار إمامًا لليسر الذى تتمثل فيه خصائص المدينة . وأمسى عنوانًا على العلم : فإذا خاصم السلطة خاصمها من أجل النزاهة العلمية فحسب . وفى منهجه الاحتفال الكامل بالواقع . وفى طريقته العمل للرزق ، حتى لا يحتاج لأحد ، مما يعبر عن اقتداء كامل بالإمام الصادق .

وكهيئة الإمام الصادق ، لم يجار فقهاء العراق فى قولهم أرأيت أرأيت . أى افتراض الفروض واستباق الحوادث وإبداء الرأى فيما لم يحدث حتى سماهم خصومهم « الأرأيتيين » .

ومن رضا الإمام عن التلميذ كان « الصادق » يشير بإتيان حلقة مالك . روى عنوان البصرى أنه كان يختلف إلى الإمام جعفر يتعلم عليه فغاب الإمام عن المدينة فاختلف إلى مالك سنتين ثم عاد الصادق فعاد عنوان إلى مجلسه . فنصحه أن يجلس إلى مالك.

ولقد يدخل الإمام المسجد – فيقدم إليه تلميذ من تلاميذه ابن أبى ليلى[1] (١٤٨) قاضى الكوفة . فيقول الإمام : أنت ابن أبى ليلى القاضى ؟

ويجيب : نعم . فينبهه الإمام على جلال خطر القضاء بقوله : « .. تأخذ مال هذا وتعطيه هذا . وتفرّق بين المرء وزوجه لا تخاف فى ذلك أحدًا ... فما تقول إذا جىء بأرض من فضّة وسماء من فضّة ثم أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدى ربك فقال : ياربى هذا قضى بغير ما قضيت ! » .

واصفر وجه ابن أبى ليلى مثل الزعفران . لكنه خرج من المسجد مزوّدًا بزاد من خشية الله زوّده به ابن رسول الله .

ولما سئل مرّة : أكنت تاركًا قولًا أو قضاءً لرأى أحد ؟ أجاب : لا .

---

(١) أوّل من تعلم عليه أبو يوسف صاحب أبى حنيفة هو محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى . وفى الخلاف بينه وبين أبى حنيفة وضع أبو يوسف كتابه الشهير اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى . وكثيرًا مارجح فيه آراءه . ومن ذلك أخذه برأيه فى قضية رفعت على الخليفة الهادى أمامه . وبهذا دفع الخليفة لصاحب الحق حقه « راجع أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح للمؤلف ص ١٠٧ طبعة دار المعارف » .

إلا لرجل واحد . هو جعفر بن محمد الصادق .

وابن أبى ليلى قاضى بنى أمية وبنى العباس . وهم أعداء الإمام .

* * *

فى هذا المجلس بالمدينة ، أو بالكوفة فى أحدى قدمات الإمام جعفر إلى العراق ، دخل أئمة الكوفة مجتمعين : أبو حنيفة وابن أبى ليلى وابن شبرمة (١٤٤) على الإمام جعفر . فجعل الصادق ينبه أبا حنيفة مكتشف أداة « القياس » ، على خطرها فى حضور العالمين الآخرين . وفى مواجهة هذين يقول الإمام الصادق لأبى حنيفة : « اتق الله ولا تقس الدين برأيك » .

ولقد يكون أبو حنيفة فى حلقته بالكوفة أو فى المدينة فيقف عليها الإمام الصادق ، ولا تقع عليه عين أبى حنيفة ، فإذا لمحته عيناه هبّ أبو حنيفة واقفا وهو فى مجلس الدرس ، فقال : « يابن رسول الله – لو شعرت بك أوّل ما وقفت ما رآنى الله أقعد وأنت قائم » ليشهد الله على دخيلة نفسه أنها لا تقبل الجلوس والإمام قائم .

وأبو حنيفة (٨٠ – ١٥٠) أكبر عمرًا من الإمام الصادق .

لكن الصادق يشدّ أزره بعبارات مشجعة . فيقول له : « اجلس ياأبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائى » يريد بذلك إعظام مجالس العلم . ووقوف الجميع . وجلوس الأستاذ .

انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام طوال عامين قضاهما بالمدينة ، وفيهما يقول : « لولا العامان لهلك النعمان » – وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلّا بقوله : « جعلت فداك يابن بنت رسول الله » .

ولقد يتحدّى الإمام الصادق فى مجلسه أبا حنيفة ليختبر رأى صاحب الرأى فيسأل : ما تقول فى محرم كسر رباعية الظبى . ويجيب أبو حنيفة : يابن رسول الله لا أعلم مافيه . فيقول له الإمام الصادق : أنت تتداهى . أو لا تعلم أن الظبى لا تكون له رباعية ! .. وإنما سكت أبو حنيفة لأنه لم يعلم كما قيل ، أو لأنه يمتنع عن أن يصحح للإمام السؤال . وما كان أعظم أدب أبى حنيفة بين

نظرائه . فما بالك به بين يدى الإمام .

فإذا جاء ابن شبرمة وحده يسأل عما لم يقع – كدأب تلاميذ أبى حنيفة ومدرسة الكوفة – لم يتردد الإمام فى دفعه . بالحسنى :

ذهب إليه ذات يوم يسأله عن القسامة فى الدم فأجابه بما صنع النبى . فقال ابن شبرمة : أرأيت لو أن النبى لم يصنع هذا ، كيف كان القول فيه ؟ فأجابه : أمّاما صنع النبى فقد أخبرتك به . وأما مالم يصنع فلا علم لى به .

والصادق عليم بالاختلاف بين آراء الفقهاء ، أى بعلم المدينة وعلم الشام وعلم الكوفة ، وهو يروى عشرات الآلاف من الأحاديث ، فى حين كانت قلة ما سلمه أهل العراق من الحديث آفة علمائه ، حتى صوّبهم الشافعى فى نهاية القرن ، بالقوّة التى لا نزاع فيها لخبر الواحد ، وبوضع قواعد القياس .

والحسن بن زياد اللؤلؤى يعلن رأى صاحبه فى إحاطة الإمام الصادق فيقول : « سمعت أبا حنيفة وقد سئل : من أفقه الناس ممن رأيت ؟ فقال : جعفر بن محمد » .

ولما استفتى أبو حنيفة فى رجل أوصى « للإمام » بإطلاق الوصف ، قال : إنها لجعفر بن محمد . فهذا إعلان لتفرّده بالإمامة فى عصره ..

ولم تكن السنتان اللتان حبى بسببهما النعمان بن ثابت « أبو حنيفة » ولم يهلك ، إلاّ تكملة لسنين سابقة كان يتدارس فيها فقه الشيعة . ومن ذلك كان يشدّ أزر زيد بن علىّ فى خروجه على هشام بن عبد الملك . وقيل مال إلى محمد وإبراهيم « ولدى عبد الله بن الحسن » فى خروجهما على المنصور . وأن قد جاءته امرأة تقول إن ابنها يريد الخروج مع هذا الرجل – فى إبان خروج إبراهيم – وأنا أمنعه . فقال لها : لا تمنعيه .

ويروى أبو الفرج الأصفهانى عن أبى إسحق الفزارى : جئت إلى أبى حنيفة فقلت له : أما اتقيت الله . أفتيت أخى بالخروج مع إبراهيم حتى قتل !! فقال : « قتل أخيك حيث قتل ، يعدل قتله لو قتل يوم بدر . وشهادته مع إبراهيم خير له من الحياة » .

ولئن كان مجدًا لمالك أن يكون أكبر أشياخ الشافعي ، أو مجدًا للشافعي أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل ، أو مجدًا للتلميذين أن يتلمذا لشيخيهما هذين ، إن التلمذة للإمام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السنّة . أما الإمام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة ولا النقصان والإمام مبلّغ للناس كافة ، علم جدّه عليه الصلاة والسلام . والإمامة مرتبته . وتلمذة أئمة السنّة له تشوّف منهم لمقاربة صاحب المرتبة .

لقد يجيء للمناظرة عمرو بن عبيد (١٤٤) زعيم المعتزلة ، الذى لم يضحك أبو حنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرة فى إبان مناظرته : يافتى تتكلم فى مسألة من مسائل العلم وتضحك ؟، والذى يبلغ من وقاره أن يراه الرائى فيحسبه أقبل من دفن والديه . فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام : « هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم فى الفضل والعلم » .

ويجيء إمام خراسان عبد الله بن المبارك ، وهو إمام فقه ، وبطل معارك ، تلمذ للإمام زمانًا ولأبى حنيفة ، فتعلّم ما جعله يخفى بطولاته فى الفتوح « لأن من صنعها لأجله – سبحانه – مطلع عليها[1] » . وفى الإمام جعفر شعره الذى ورد فيه :

أنت ياجعفر فوق الـ ـمدح . والمدح عناء
إنما الأشراف أرض وهم أنت سماء

(١) استعصى على المسلمين حصن من حصون الروم . فتصدى له فارس ملثم فاقتحمه وتتابع وراءه المسلمون واختفى الفارس فى الجند . ولما سئل ابن المبارك فيما بعد ، عن إخفاء نفسه ، قال : « لأن من صنعت ذلك لأجله – سبحانه – مطلع عليه » .

وخرج إلى الحج فمرّ بامرأة رآها تخرج غرابًا ميتًا من حيث ألقى به . فسألها فقالت إنها وزوجها لا يجدان ما يطعمانه . فقال لوكيله : كم معك من نفقة الحج ؟ قال : ألف دينار . قال : « عدّ منها عشرين تكفى للعودة إلى مرو « عاصمة خراسان » وأعطها الباقى . فهذا أفضل من حجنا هذا العام » . ورجع ولم يحج .

وكان الرشيد بالرقة يومًا وأقبل عليها ابن المبارك . فانجفل الناس خلفه ورأته أم ولد الرشيد فقالت : هذا والله الملك . لا ملك هارون الذى يجمع الناس بشرطة وأعوان .

ولما مات ابن المبارك جلس الرشيد فتقبل العزاء فيه .

جــاز حدّ المــدح من قــد ولــدتــه الأنبيــاء

فإذا كان الصادق فى مواجهة مع المنصور ، حيث القواد والعلماء يجلسون على مبعدة منه ، فإن مجلس الإمام عن يمينه . حتى ولو دعاه يخوفه . فلقد طالما انتهت اللقاءات بالموعظة يلقيها الإمام من حديث رسول الله ، ولحديث رسول الله شرف المجلس ، ولابن رسول الله شرف من رسول الله .

ولو جلس الصادق على مبعدة أو مقربة من الخليفة ، لكان الشرف حيث يجلس . وربما قرّبه الخليفة ليلتمس لنفسه القربى إلى الناس فى الدنيا ، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئًا ، وعندما تلتمس الشفاعة .

وأبو جعفر المنصور يقرّ بمكانه من العلم والتقوى مع ضيق صدره بمكانته فى الأمة . يقول : « هذا الشجى المعترض فى حلقى أعلم أهل زمانه . وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا » .

ومن نصّ الإقرار ما يدل على أن مجلس « الصادق » للعلم ، لم يكن ليسلم من مراقبة أعوان السلطان ، وصاحب المجلس شجى معترض فى حلقه . وهو قد ينبئ عن أن الفرصة متاحة للإمام ليلقى دروسه ، مع الحيطة الواجبة ، حتى لا يغصّ الخليفة بريقه مما ينقل إليه ، وإن كان المؤكد أن مجرد وجود الإمام كان فيه الشجى المعترض .

كل العلوم :

والمجلس مورد عذب كثير الزحام – لكل فيه ما يغنيه – فالإمام فى مجلسه الرفيع يروى السنّة عن آبائه . وما يقوله يجرى عند الشيعة مجرى الأصول . فإذا أبدى الرأى فى واقعة معينة جعله الشيعة مجعل السنّة والتزموها باعتبارها نصًّا عنه .

أما أهل السنّة فيأخذونه مأخذ اجتهاد الأئمة .

واللسان العربى علم العلوم . وإمام المسلمين إمام فى البلاغة العربية ، عبّر عن أسلوبه أبو عمرو بن العلاء حين قال عن أساليب العربية : « العرب تطيل

ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها » .

وعند الصادق لكل مقام مقال . يسهب ويستطرد كما ستقرأ ، بعد ، أو يوجز ليحفظ عنه ويتذوّق منه ، بحروف لها جرس فى الأذن ونغم فى الفم . كأن يقول : « لا تصلّ فيما خفّ أو شف » . وكلاهما كاشف .

ويجرى على لسانه الشعر الرفيع مثل الذى يرويه عنه سفيان الثورى :

لا اليسر يطرؤنا يومًا فيبطرنا ولا لأزمة دهر نظهر الجزعا
إن سرّنا الدهر لم نبهج لصحته أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا
مثل النجوم على مضمار أوّلنا إذا تغيب نجم ، آخر طلعا

أو مثل قوله جوابًا لسفيان إذ يسأل : يا ابن رسول الله لم اعتزلت الناس ؟ قال « يا سفيان قد فسد الزمان وتغير الإخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد » وأنشد :

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب والناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودّة والصفا وقلوبهم محشوّة بعقارب

ومثل قوله :

فلا تجزع وإن أعسرت يومًا فقد أيسرت فى زمن طويل
ولا تيْئَس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل
ولا تظنن بربك ظنّ سوء فإن الله أولى بالجميل

ومثل قوله :

لا تجزعن من المداد فإنه عطر الرجال وحلة الآداب

فإذا جاءه المناظرون من كل فجّ عميق ، أو التلاميذ الفقهاء ، يمثلون أقطار الإسلام ، ويجادلون فى الأصول أو الفروع ، فهو البحر لا تنزفه الدلاء . يروى العقول ويشفى الصدور .

فالديصانى ، زعيم فرقة ملحدة ، وصاحب الإهليلجة طبيب هندى .

وعبد الكريم بن ابى العوجاء[1] عربى ملحد . وعبد الملك مصرى يتزندق . وعمرو بن عبيد شيخ المعتزلة . وأبو حنيفة إمام الكوفة ، ومالك إمام المدينة ، وسفيان الثورى ، وغيرهم . كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب ، ولا يضيق صدرًا بجدالهم . بل يضرب الأمثال ، بمسلكه معهم واتساع صدره لهم ، على الحرية الفكرية التى يتيحها الإمام للناس فى مجلسه ، ليفهموا العلم ، أو ليؤمنوا عن فهم ، دون إكراه أو إعنات ، وعلى سعة الخلاف الفقهى لكل اتجاهات المسلمين . وعلى اليسر والرحمة فى الشريعة . فكل هذه أسباب لنشر الإسلام وخلود فقهه .

يقول ابن المقفع – وهو متهم بالمجوسية أو بالزيغ على الأقل – إذ يومئ إلى « الصادق » فى موضع الطواف « هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلّا ذلك الشيخ الجالس » .

ويذهب ابن أبى العوجاء ليناظره فتعتريه سكتة . فيسأله الإمام : ما يمنعك من الكلام ؟ فيقول : « إجلالاً لك . ومهابة منك . وما ينطق لسانى بين يديك . فإنى شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلنى من هيبة أحد منهم ما تداخلنى من هيبتك » .

رآه الإمام مرّة بالحرم فقال له : ما جاء بك ؟ قال : عادة الجسد وسنّة البلد . ولنبصر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمى الحجارة . قال الصادق : أنت بعد على عتوّك وضلالك يا عبد الكريم ؟ فذهب يتكلم . فقال الإمام : لا جدال فى الحج . ونفض رداءه من يده وقال : « إن يكن الأمر كما تقول ، وليس كما نقول ، نجونا ونجوت . وإن يكن الأمر كما نقول ، وليس كما تقول ، نجونا وهلكت » . وأىّ صبر فى حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الإمام

---

(١) عبد الكريم بن أبى العوجاء هو خال معن بن زائدة الشيبانى أحد قواد بنى مروان الذى صار من كبار الولاة لأبى جعفر . وهو الذى أنقذ أبا جعفر من الموت يوم الراوندية وأبلى – وأهله بنو شيبان أعظم البلاء فى الدفاع عن بنى العباس . ولما قدم ابن أبى العوجاء للقتل للزندقة سنة ١٦١ قال : « لن يقتلونى . لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام وحرمت الحلال » لكن علماء الجرح والتعديل فطنوا إليها جميعًا واستبعدوها .

الصادق ؟ وحيث تؤدّى المناسبك !

وإنما ترك الإمام رجلاً ملحدًا سيقتل - بعد - فى إلحاده سنة ١٦١ .

* * *

وإذا لم يأخذ الملحدين بالشدّة ، فتحًا لأبواب الهداية لهم ، فهو صارم فى صدد المغالين فى علىّ ، أو فيه . ليكفّهم عن غلوائهم . ومنهم بيان بن سمعان التميمى . كان يعتقد ألوهية علىّ والحسن والحسين ثم محمد بن الحنفية ، ثم ابنه أبى هاشم . بل زعموا أنه قال إنه - بيانا - المراد بقوله تعالى : « هذا بيان للناس » . وادعى المغيرة بن سعيد الانتماء إلى الباقر ، وصار يؤلّه عليًّا ثم جعفر الصادق ، ويكفّر أبا بكر وعمر ومن لم يوال عليًّا .

وكذلك كان بشار الشعيرى .

يقول جعفر الصادق لمرازم : « تقربوا إلى الله فإنكم فساق كفار مشركون » ويقول له : « إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيرى وقل له : يا كافر يا فاسق أنا برئ منك » .

دخل عليه بشار يومًا فصاح به : « اخرج عنى لعنك الله . والله لا يظلنى وإياك سقف أبدًا » فلما خرج قال : : « ويحه . ما صغر الله أحد تصغير هذا الفاجر . والله إنى عبد الله وابن أمته » .

ويقول عن المغيرة بن سعيد : « لعن الله المغيرة بن سعيد . لعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلّم منها الشعر والشعبذة والمخاريق . فوالله ما نحن إلّا عبيد ، خلقنا الله واصطفانا ، ما نقدر على ضرر ولا نفع إلا بقدرته .. ولعن الله من قال فينا ما لانقول فى أنفسنا » .

ويقول : « من قال إننا أنبياء فعليه لعنة الله ومن شك فى ذلك فعليه لعنة الله » .

وينبّه الأذهان على دسائس خصوم الشيعة بالاختلاق عليهم فيقول : « أنا أهل بيت صادقون لا نعدم من يكذب علينا عند الناس . يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا » .

ويقول لخيثمة : « أبلغ شيعتنا أننا لا نغنى من الله شيئًا . وأنه لا ينال ما عند الله إلاّ بالعمل . وأن أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره .. » .

وهى مقولات لا تترك مجالاً لدعاوى المغالين فى جعفر الصادق وآبائه وبنيه من الأئمة . وتنفى عنه ما ادّعوه من علم الغيب . فلا يعلم الغيب إلاّ الله . كما تجعل الأئمة مجعل البشر ، وهى آراء أبيه وجده .

سأل سائل جدّه زين العابدين : متى يبعث علىّ ؟ فأجاب : « يبعث – والله – يوم القيامة . وتهمه نفسه » أى أنه يحاسب يوم الحساب كما يحاسب غيره .

وأما تعبير الأحلام فالصادق يرى أنها « لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم أنبياء ، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة ، بل كانت فضلاً لا معنى لها . فكانت تصدق أحيانًا لينتفع بها الناس فى مصلحة يهتدى لها ، أو مضرّة يحذر منها . وتكذب كثيرًا لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد » .

فرؤى الأنبياء حقائق من هدى النبوة . أما رؤى الآخرين فأصداء أفكار تتحرك فى باطنهم . منها ما يصدقه الواقع ومنها ما يكذبه .

* * *

روى هشام بن الحكم: كان بمصر زنديق يبلغه عن أبى عبد الله «الإمام الصادق » أشياء فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه وقيل له إنه خارج بمكة . فخرج إلى مكة ، ونحن مع أبى عبد الله ، فصادفنا فى الطواف . وكان اسمه عبد الملك . وكنيته أبو عبد الله . فضرب كتفه كتف أبى عبد الله .. فقال له أبو عبد الله .. فمن هذا الملك الذى أنت عبده . من ملوك الأرض أو من ملوك السماء ؟ وأخبرنى عن ابنك عبد إلاه السماء أم عبد إلاه الأرض . قل ما شئت تخصم .. إذا فرغت من الطواف فائتنا .

فلما فرغ أتاه الزنديق فقعد بين يديه.. قال أبو عبد الله: «أيها الرجل: ليس لمن لا يعلم حجّة على من يعلم . ولا حجّة للجاهل .. يا أخا مصر إن

الذين يذهبون إليه ويظنون أنه الدهر ، إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردهم ؟ وإن كان يردّهم لم لا يذهب بهم ؟ – يا أخا مصر لم السماء مرفوعة والأرض موضوعة ؟ لم لا تنحدر السماء على الأرض ؟ لم لا تنحدر الأرض فوق طبقاتها ، ولا يتماسكان ولا يتماسك من عليها ؟» .

قال الزنديق أمسكها الله ربها وسيدهما .. فآمن الزنديق ..

فقال : اجعلنى من تلامذتك .. فقال : يا هشام بن الحكم . خذه إليك . فعلّمه هشام . فسار يعلّم أهل الشام وأهل مصر الإيمان ..

ويروى هشام : « أن زعيم الديصانية وفد على مجلس الإمام فقال له : دلّنى على معبودى ولا تسألنى عن اسمى . فإذا غلام له صغير فى كفّه بيضة يلعب بها .. فقال : يا ديصانى . هذا حصن مكنون له جلد غليظ . وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق . وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة .. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة. ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة فهى على حالها . لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها . ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها . ولا يدرى أللذكر خلقت أم للأنثى . تنفلق عن مثل ألوان الطواويس . أو لا ترى لها مدبرًا ؟

فأطرق الديصانى ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأن محمدًا عبده ورسوله . وأنك إمام وحجّة من الله على خلقه . وأنا تائب مما كنت فيه » .

* * *

قصد إليه فى مجلسه ذات يوم نفر من المعتزلة يطلبون إليه بيعة « محمد ابن عبد الله » النفس الزكية . فطلب إليهم أن يختاروا واحدًا منهم ليناظره . فاختاروا زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد . وظاهر أن تاريخ ذلك المجلس كان معاصرًا لرفض الإمام الصادق أن يبايع يوم الأبواء قبل قيام الدولة العباسية سنة ١٣٣ . فلقد كان عمرو بن عبيد من أنصارها . له صلة خاصة بالمنصور ، واشتهر عنه أنه لم يبايع محمدًا وقال إنه لم يختبر عدله ، وربما كان ذلك المجلس فى

إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ ، أو فترة الحروب الأخيرة لبنى مروان التى قامت على أثرها الدولة العباسية .

قال عمرو : قتل أهل الشام خليفتهم وضرب الله بعضهم بقلوب بعض وشتّت أمرهم ، فنظرنا فوجدنا رجلًا له دين وعقل ومروءة وهو محمد بن عبد الله بن الحسن . فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه .. وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك . فإنه لا غناء لنا عنك لفضلك .

قال الصادق : إنا نسخط إذا عصى الله . فإذا أطيع الله رضينا . أخبرنى يا عمرو : لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مئونة فقيل لك ولّها من شئت . من كنت تولى ؟

قال عمرو : كنت أجعلها شورى بين المسلمين .

قال الصادق : بين كلهم ؟ قال نعم . قال قريش وغيرهم ؟ قال عمرو : العرب والعجم .

قال الصادق : يا عمرو • أتتولى أبا بكر وعمر أو تتبرأ منهما ؟ قال : أتولاهما .

قال الصادق : يا عمرو إن كنت رجلًا تتبرأ منهما فإنه يجوز الخلاف عليهما . وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما - فقد عمد عمر إلى أبى بكر فبايعه ولم يشاور أحدًا . ثم ردّها أبو بكر عليه ولم يشاور أحدًا . ثم جعلها عمر شورى بين ستة فأخرج منها الأنصار . ثم أوصى الناس بشيء . وما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك .

قال عمرو : وما صنع ؟

قال الصادق : أمر صهيبًا أن يصلى بالناس ثلاثة أيام . وأن يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلّا ابن عمر يشاورونه وليس له من الأمر شيء . وأوصى من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت الثلاثة ولم يفرغوا ولم يبايعوا أن يضرب أعناق الستة . وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضى ثلاثة أيام

وخالف اثنان أن يضرب أعناق الاثنين . أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى فى المسلمين ؟

قال : لا .

قال الصادق : أرأيت لو بايعت صاحبك الذى تدعو إليه ثم اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف منهم رجلان . أفمضيتم إلى المشركين .

قال : نعم .

قال الصادق : فتفعلون ماذا ؟

قال عمرو : ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية .

قال الصادق : فإن كانوا مجوسًا وعبدة النار والبهائم وليسوا أهل الكتاب ؟

قال عمرو : سواء ..

وبعد محاورة فى شأن الجزية والصدقات أقبل على عمرو والناس وقال : اتق الله يا عمرو . وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله . فإن أبى حدثنى وكان خير أهل الأرض وأعلم بكتاب الله وسنّة رسول الله أن رسول الله قال : « ومن ضرب بسيفه ودعاهم إلى نفسه وفى المسلمين من هو أعلم منه فهو ضالّ متكلف » .

مع القرآن :

كان جدّه علىّ يقول : « سلونى عن كتاب الله . فوالله ما من آية إلّا أنا أعلم بليل نزلت أم بنهار ، فى سهل نزلت أم فى جبل » فلقد كان دائما إلى جوار الرسول . وهو باب مدينة العلم . والإمام جعفر يصدر من المنبع ذاته . يقول مثل جده علىّ « كان أصحاب محمد يقرأ أحدهم القرآن فى شهر أو أقلّ . إن القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلًا . وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها وأسأل الله تعالى . وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوّذ بالله من النار » .

للقرآن عنده المقام الأوّل . يسأل عمن يؤم القوم فيجيب « أن النبى ﷺ قال : يتقدم القوم أقرؤهم للقرآن . فإن كانوا فى القراءة سواء فأقدمهم

هجرة . فإن كانوا فى الهجرة سواء فأكبرهم سنًّا . وإن كانوا فى السنّ سواء فأعلمهم بالسنّة ، وأفقههم فى الدين . ولا يتقدمن أحد الرجل فى منزله . وصاحب السلطان فى سلطانه » .

ونصوص القرآن حاضرة كلما أراد أن يدلى بحجة . وهو فى قمة البلاغة العربية تسعفه اللغة . لا يلجأ إلى التأويل بديلًا من التفسير . فهو فى فهم النصوص أنفذ بصيرة . لم يعلم له تفسير نوقض فيه . والتفسير بتخريج مجازات القرآن لا يقدر عليه إلا البلغاء[1] .

ومن القرآن ينبثق فقه الإمام فى كل باب :

– يسأل سائل عن قوله تعالى : (من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا) . فيجيب : من أخرجها من هدى إلى ضلال فقد – والله – قتلها .

– ويجيئه زنديق يسأله عن تفسير قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة) وقوله تعالى فى آخر السورة : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فيفحم الإمام الزنديق فيقول : « أما قوله فإن خفتم ألّا تعدلوا فواحدة فإنما عنى النفقة . وأما قوله ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فإنما عنى المودّة . فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين فى المودّة » .

– ويقول عن الرزق الذى يحضّ الله على الإنفاق منه : (ومما رزقناهم

(١) فى القرآن مجاز كثير مثل عرض الأمانة على السموات والأرض ، يفسرها بعض العلماء أنها الطاعة . ومثل يد الله فوق أيديهم يفسرها البعض بأنها القدرة – وهؤلاء المخرجون يبدءون من أن (الله ليس كمثله شىء) والآخذون بالتأويل يبدءون من ذلك المبدأ ثم يؤولون الآيات المتشابهة على أساس الآيات المحكمة . كقوله تعالى : (إلى ربها ناظرة) يفسرونها على أساس قوله : (لا تدركه الأبصار) فيكون المقصود الرضى عنها .

وللمؤولين تفاسير كثيرة ألقى كثير منها فى غياهب الإهمال وبخاصة تفاسير المعتزلة ، بقى منها الكشاف للزمخشرى الفقيه الحنفى ، وللبلاغة العربية فيه أعظم مكان ..

ينفقون) فيفسرها « ومما علّمناهم يبثون » فالعلم رزق . وإذاعته إنفاق واجب .

– ومن تعبيره عن حجية القرآن أبدا يسأله السائل : لم صار الشعر والخطب يملّ ما أعيد منها والقرآن لا يمل ؟ فيجيب : « لأن القرآن حجّة على أهل العصر الثانى كما هو حجّة على أهل العصر الأوّل . فكل طائفة تراه عصرًا جديدًا . ولأن كل امرئ فى نفسه ، متى أعاده وفكر فيه ، تلقى منه فى كل مدة علومًا غضّة . وليس هذا كله فى الشعر والخطب »[1] .

– ويقول المفضل : قلت : أخبرنى عن قول الله عز وجل : (وجعلها باقية فى عقبه) قال : « يعنى بذلك الإمامة » جعلها فى عقب الحسين إلى يوم القيامة . فقلت : فكيف صارت الإمامة فى ولد الحسين دون ولد الحسن وهما جميعًا ولدا رسول الله – ﷺ – وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة ؟ فقال : إن موسى وهارون كانا نبيين مرسلين أخوين فجعل الله النبوّة فى صلب هارون دون صلب موسى . ولم يكن لأحد أن يقول لم فعل الله ذلك . فإن الإمامة خلافة الله عزّ وجل جعلها فى صلب الحسين دون صلب الحسن لأن الله هو الحكيم فى أفعاله . لا يسأل عن فعله وهم يسألون .

– ويعلن الإمام رأيه بوجوب الإمامة . فيسأله السائل عن منزلة الأئمة . ومن يشبهون ؟ فيقول : كصاحب موسى وذى القرنين . كانا عالمين . ولم يكونا نبيين[2] .

---

(١) يروى الشاطبى – فى كتابه الاعتصام – ما يوضح حاجة العصور كافة لهدى القرآن : رووا للأوزاعى (١٥٧) قول أحد الصحابة بعد موت رسول الله ﷺ بزمان : « لو خرج رسول الله ﷺ ما عرف شيئًا مما كان عليه هو وأصحابه إلا الصلاة » فقال الأوزاعى : فكيف لو كان اليوم ؟.. كان ذلك فى منتصف القرن الثانى للهجرة وفيه تابعو التابعين – فكيف الأمر فيما تلاه من قرون وقرون .

(٢) يحدد الصادق الإمامة بتشبيه قرآنى يفسر وجوبها ، إذ يسأل عن حديث الرسول « من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية » هل هى ميتة كفر ؟ فيجيب « ميتة ضلال » – وكذلك يحدد جدّه زين العابدين معنى العصمة بحد قرآنى إذ يسأل عن معنى المعصوم فيقول : هو من اعتصم بحبل الله المتين أى القرآن . فلا يفترق الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة فالإمام يهدى الناس إلى القرآن والقرآن يهدى الناس إلى الإمام بقوله تعالى : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ..) . =

– وفى قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يقول الإمام : « وهل يمحو الله إلّا ما كان ثابتًا . وهل يثبت الله إلّا ما لم يكن » ويقول : « لو علم الناس ما فى القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه » وإنما يقصد استجابة الله لدعاء العباد . وفى ذلك قوله : « ما عظم الله بشىء مثل البداء » .

– ويسأله عمرو بن عبيد عن الكبائر « من كتاب الله » . فيسردها ، ويضع فى جوار كل كبيرة النص عليها من الكتاب العزيز فهى :

الشرك : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) .

اليأس من روح الله : (لا ييئس من روح الله إلّا القوم الكافرون) .

عقوق الوالدين : (وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارًا شقيًا) .

قتل النفس : (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها) .

قذف المحصنات : (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة) .

أكل مال اليتيم : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون فى بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا) .

أكل الربا : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ) .

الفرار من الزحف : (ومن يولهم يومئذ دبره إلّا متحرفًا لقتال أو متحيزًا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) .

السحر : (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) .

الزنا : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا) .

اليمين الغموس : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا أولئك

= ويلاحظ أن الذى فتق الكلام فى الإمامة وفصل وأصل فيها هم تلاميذ الإمام . وربما بدأ الكلام فيها فى عهده كما يقول المستشرق رونالدسن . أما التعريفات الوافية فتنسب إلى الإمام الرضا (٢٠٢) حفيد الإمام الصادق . يقول الإمام الرضا : « الإمامة منزلة الأنبياء . ووراثة الأوصياء . الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول . والإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين » والماوردى من فقهاء أهل السنّة يحدّد غرضها فيقول : « الإمامة موضوعة لخلافة النبّوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) .

الغلول : (ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) .

منع الزكاة : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) .

كتمان الشهادة : (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

شهادة الزور : (والذين لا يشهدون الزور) .

نقض العهد وقطيعة الرحم : (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) .

كفران النعمة : (ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) .

بخس الكيل : (ويل للمطففين) .

وترك الصلاة : (....) واللواط : (....) وقول الزور : (....) وشرب الخمر : (....) والبدعة : (....) .

- ومن علم الإمام جعفر بالقرآن أخذ القراءات عليه حمزة بن حبيب التيمى . وفيها مدّ وإطالة وسكت على الساكن قبل الهمز .

* * *

- وفى صفات الله يقول الإمام لعبد الملك بن أعين : « تعالى الله الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . تعالى عما يصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه .. إن المذهب الصحيح فى التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجل فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفى ولا تشبيه .. هو الله الثابت الموجود » .

ويقول لمن سأله هل رأى رسول الله ربه : « نعم لقد رآه بقلبه - أما ربنا جلّ جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين » .

وسأله الأعمش - شيخ المحدثين - عن مكان الله فقال : « لو كان فى مكان لكان محدثا » . ولما سئل عن استوائه على العرش قال : « إنه يعنى أنه

لا شيء أقرب إليه من شيء » .

سئل عن قوله تعالى : (وسع كرسيّه السموات والأرض) فقال : « العرش فى وجه هو جملة الخلق والكرسى وعاؤه . وفى وجه آخر هو العلم الذى أطلع الله عليه أنبياءه ورسله وحججه والكرسى هو العلم الذى لم يطلع عليه أحدا من أنبيائه ورسله وحججه » .

وسئل عن قوله تعالى : (وكان عرشه على الماء) وقول البعض إن العرش كان على الماء والرب فوقه ؟ فأجاب : « كذبوا من زعم هذا فقد صيّر الله محمولاً ، ووصفه بصفة المخلوق ولزمه أن الشىء الذى يحمله أقوى منه » .

وواضح من ذلك نهى الإمام عن التجسيد والتشبيه وتصحيحه أفهام تلاميذه . كيوم جاءه يونس بن ظبيان يقول : إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً .. يزعم أن الله تعالى جسم ! قال الإمام : « ويله أما علم أن الجسم محدود متناه . فإذا احتمل الحدّ احتمل الزيادة والنقصان . فإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً ! » .

– وواضح منحى الإمام فى الاحتجاج بنظام الكون ، ونظام الجسم الإنسانى ، وبالعقل ، وهو درس من جدّه علىّ يلفت النظر إلى بديع صنع المبدع جلّ جلاله . وفى ذلك قول علىّ :

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر ؟

يجىء الإمام رجل من أهل مصر أوصى أخوه للكعبة بجارية مغنية فارهة كانت له فقيل له : ادفعها إلى بنى شيبة « وفيهم سدانة الكعبة » . واختلف الناس فى أداء الوصية. وأخيراً أشاروا عليه أن يأتى الإمام . قال الإمام : « إن الكعبة لا تأكل ولا تشرب وما أهدى إليها فهو لزوارها . فبع الجارية وناد : هل من محتاج ؟ فإذا أتوك فسل عنهم وأعطهم » .

– ويسأل عن القضاء والقدر فيجيب : « هو أمر بين أمرين : لا جبر

ولا تفويض »[1] ويحسم القضية بين الجبرية والقدرية فيقول : « ما من قبْض ولا بسْط إلاّ لله فيه مشيئة ورضاء وابتلاء » .

يسأل عن الجبر والتفويض : جعلت فداك . أجبر الله العباد عل المعاصى ؟ فيجيب : الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصى ثم يعذبهم عليها . فيقول السائل : جعلت فداك ففوض إليهم ؟ فيجيبه لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهى . فيقول السائل : جعلت فداك فبينهما منزلة ؟ فيجيب : « نعم . ما بين السماء والأرض » .

وفى مجلس آخر يسأله السائل : وما أمر بين أمرين ؟ فيجيب : « مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته . فتركته . ففعل تلك المعصية . فليس ، حيث لم يقبل منك فتركته ، كنت أنت الذى أمرته بالمعصية » .

ويقول لسائل آخر : « قال رسول الله – ﷺ – من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله . ومن زعم أن الخير والشرّ بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه . ومن زعم أن المعاصى بغير قوّة الله فقد كذب على الله . ومن كذب على الله أدخله النار » .

ويقول : « إن الله أراد منّا شيئًا . وأراد بنا شيئًا . وما أراده منّا أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا » .

---

(١) الجبر أن الإنسان مجبر على أعماله . والتفويض أن الإنسان مخير فيها . وهما نظريتان لمفكرين كانوا أحياء فى بدايات حياة الإمام – قال بالجبر الجعد بن درهم متأثرًا بقول بيان بن سمعان . وقال بالتفويض غيلان الدمشقى ومعبد الجهنى – وقد قتل الأربعة . الأوّلان قتلهما خالد بن عبد الله القسرى والى بنى أمية . والأخيران قتل الأوّل منهما هشام بن عبد الملك . أما معبد فقتله الحجاج لخروجه عليه فى فتنة ابن الأشعث . وتابع جهم بن صفوان الجعد . وقد قتله سالم بن أحوز المازنى بمرو فى أواخر أيام بنى أمية .

وفى حياة الإمام الصادق ازدهرت نظرية الإرجاء إلى الله ، حتى يكون يوم الحساب ، فيحاسب الناس على عملهم مع وجوب قيامهم بالعمل الصالح . قال بها سعيد بن جبير وحماد بن أبى سليمان شيخ أبى حنيفة . ومقاتل بن سليمان – وهو من السابقين الأوّلين فى التفسير – وهؤلاء مرجئة السنّة . أما مرجئة البدعة فيرجئون الحساب ولا يوجبون العمل الصالح .

والأوّلون يقولون : إن الله يعاقب مرتكب الكبيرة لكنه قد يغفرها ولا يكفره الناس فى الحياة الدنيا لذلك الأمل .

مع أهل الكوفة وأبى حنيفة :

ولقد يقول له قائل : إن لى جارًا يزعم أنك تبرأ من أبى بكر وعمر ! فيجيب : برئ الله من جارك . والله إنى لأرجو أن ينفعنى الله بقرابتى من أبى بكر .

أو يسأله السؤال ذاته سالم بن أبى حفصة فيجيب بما أجاب أبوه الباقر : « يا سالم تولهما وابرأ من عدوهما . فإنهما كانا إمامىْ هدى رضى الله عنهما » .

يقول سالم : قال لى جعفر : « أيسبّ الرجل جدّه ؟ أبو بكر جدّى . لا نالتنى شفاعة محمد يوم القيامة إن لم أكن أتولاّهما وأبرأ من عدوهما » .

ولقد كان لجدّه زين العابدين ابن أسماه عمر . وكان زين العابدين يترحم على أبى بكر وعمر وعثمان .

ويقول أبو حنيفة : « استأذنت عليه فحجبنى . وجاء قوم من أهل الكوفة استأذنوا لهم فدخلت معهم . فلما صرت عنده قلت :

يا ابن رسول الله لو أرسلت إلى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله - ﷺ - فإنى تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم !

فقال : لا يقبلون منى .

فقلت : ومن لا يقبل منك وأنت ابن رسول الله ؟

فقال الصادق : أنت أوّل من لا يقبل منى . دخلت بغير إذنى . وجلست بغير أمرى . وتكلمت بغير رأيى . وقد بلغنى أنك تقول بالقياس .

فقلت : نعم أقول به .

فقال : ويحك يا نعمان أوّل من قاس إبليس حين أمر بالسجود لآدم فأبى وقال : خلقتنى من نار وخلقته من طين . أيهما أكبر يا نعمان القتل أم الزنا ؟

قلت : القتل .

قال : فلم جعل الله فى القتل شاهدين وفى الزنا أربعة ؟ أيقاس لك هذا ؟ قلت : لا . قال : فأيهما أكبر البول أو المنى . قلت البول .

قال : فلماذا أمر فى البول بالوضوء وأمر فى المنى بالغسل . أيقاس لك هذا ؟

قلت : لا . قال أيهما أكبر الصلاة أم الصوم ؟

قلت : الصلاة . قال : فلم وجب على الحائض أن تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ أيقاس ذلك ؟ قلت : لا .

قال : فأيهما أضعف المرأة أم الرجل قلت : المرأة .

قال : فلم جعل الله للرجل سهمين فى الميراث وللمرأة سهمًا ؟ أيقاس ذلك ؟

قلت : لا .

قال : وقد بلغنى أنك تقرأ آية من كتاب الله : (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) : أنه الطعام الطيب والماء البارد فى اليوم الصائف .

قلت : نعم .

قال : لو دعاك رجل وأطعمك وسقاك ماء باردًا ، ثم امتن عليك . ما كنت تنسبه إليه ؟ قلت : البخل . قال : أفبخل علينا ؟ قلت : فما هو :

قال : حبنا أهل البيت »[1] .

---

(١) يلاحظ أن مدرسة المحدثين ضائقة الصدر بالقياس . ومدرسة المدينة ، وعلى رأسها مالك ، تقدح فى أهل العراق لكثرة إبداء الآراء باستعمال القياس .

ولئن كان لنا أن نلاحظ تأثر أبى حنيفة الكامل بمنهج الإمام الصادق فى الاعتبار بالآيات الدالة على الحقائق « أبو حنيفة - بطل الحرية والتسامح فى الإسلام للمؤلف صفحة ٧٨ طبعة دار المعارف » أو تأثر مالك بمنهج الإمام الصادق فى عدم المجازفة بالرأى « مالك بن أنس للمؤلف صفحة ٧٦ وما بعدها طبعة دار المعارف » إننا نقطع كذلك بأثره فى النهى عن القياس . فلقد نفع النهى القياسيين أنفسهم فضبطوا القياس وتحروا كل الدقة فيه ليتفادوا المجازفة ثم جاء الشافعى فأصله وقعده . وهو القائل : « والاجتهاد القياس » .

يقول الفخر الرازى : « العجيب أن أبا حنيفة كان تعويله على القياس وخصومه يذمونه بسبب كثرة القياسات . ولم ينقل عنه ولا عن أحد من أصحابه أنه صنف فى إثبات القياس ورقة . ولا أنه ذكر فى تقريره شبهة . فضلًا عن حجّة . ولا أنه أجاب عن دلائل خصومة فى إنكار القياس بل أوّل من قال فى هذه المسألة وأورد فيها الدلائل هو الشافعى » . فأبو حنيفة استعمل القياس والشافعى استعمله وأصله وقعد القواعد للعاملين به .

ولقد أفاد الشيعة كثرة ما آل إليهم من السنّة ونصوص الحديث فلم يلجئوا للقياس ، كما كانت قواعدهم الأخرى كافية لبلوغ غرضهم . ومن أسباب الإقبال على القياس فى العراق قلة ما سلموه من =

والمسلمون يرفعون أبا حنيفة إلى مكانته العليا بين كبار المجادلين من أهل الإسلام ، ولا يجدونه ساكتًا فى يوم من الأيام ، كهيئة ما كان فى ذلك المقام .

فأما تفسير القرآن بما ينفى البخل عن المعطى جلّ شأنه فحجّة الصادق فيه لا رادّ لها . وأما حجاجه بعدم طاعة أهل الكوفة فظاهر لأبى حنيفة ، إمام الكوفة فى الفقه والأدب الدينى والاجتماعى ، الذى دخل وجلس وتكلم ، دون أن يطيع ، ثلاث مرات .

أما أسئلته عن القياس فقد وضعت القياس موضع التهمة . ولم يحر أبو حنيفة جوابًا ، وهو المقتدر . ولو سأل الصادق أبا حنيفة عن حكمة كل حكم لأجاب .وأضاف : أن كل ذلك ليس يمنع القياس عنده . وربما كان أبو حنيفة يومذاك كهيئته يوم سكت عن الردّ بأن الظبى لا تكون له رباعية ،

= نصوص السنة . وإنما اتسع فقه أحمد بن حنبل بكثرة السنن التى جمعها واعتمد أصحابه عليها – مع تعويله على أصل الصحابة فزاد مصادر الفقه أصلاً بتمامه .

والقياس الذى يلجأ إليه المجتهدون من أهل السنّة . هو إلحاق أمر لم يرد فى حكمه نصّ أو إجماع بأمر ورد فى حكمه نصّ أو إجماع لاشتراكهما فى المعنى الذى شرع هذا الحكم من أجله فثمة أركان أربعة : الأصل وهو النصّ والفرع وهو الأمر الذى لم يرد فى حكمه نصّ .

والمعنى : الذى من أجله شرع الحكم . والمطلوب وهو الحكم .

وهم يضعون للقياس شروطًا :

١ – أن يكون حكم الأصل ثابتًا بنصّ فى الكتاب أو السنّة أو الإجماع . .

٢ – أن يكون لحكم الأصل علّة يدركها العقل . فمن الأحكام ما هو تنفيذى لا يجوز القياس فيه . كتحديد عدد الركعات . ومقدار الأنصباء فى الأموال التى تجب فيها الزكاة . وتحديد عدد الطواف حول الكعبة . فهذه مقدرات لا يقاس عليها لأن العقل لا يدرك علية مقاديرها .

وجميع الأحكام إلّا قليلًا منها ، كالتى سبق ، يمكن العقل إدراك المعانى التى شرعت الأحكام لأجلها .

٣ – أن يتساوى الفرع والأصل فى المعنى الذى شرع حكم الأصل من أجله . وإلّا كان القياس فيه مع الفارق . وأن يكون المعنى ظاهرًا ، لأنه معرف للحكم الخفى والخفى لا يعرف الخفى .

٤ – أن لا يكون فى الفرع نصّ أو إجماع يدل على حكم يخالف القياس .

٥ – أن لا يكون حكم الأصل خصوصية من الخصوصيات كاختصاص الرسول بزواج من زدن على الأربع . واختصاص خزيمة بأن تعدل شهادته رجلين وأن لا تكون العلّة قاصرة على الأصل لا يمكن تعدية حكمها إلى الفرع .

وبالقياس أمكن أهل السنة البناء على النصوص واستعمال العلل فى تحقيق مقاصد الشارع .

مخافة أن يظنّ به ظانّ أنه يريد ردًّا على الإمام ، فى حين أنه قد جاء إلى مجلسه ليتعلّم . أو إجلالاً منه لمقام الإمام وهو بين يديه . فذلك أدب الأئمة الذى جعل الشافعى وهو يصلّى عند قبر أبى حنيفة لا يرفع يديه ويقول : « أدبًا مع هذا الإمام أن أظهر خلافه بحضرته » .

طعم أبو حنيفة يومًا مع الإمام الصادق - فرفع الإمام يده حمدًا لله ثم قال : اللهم هذا منك ومن رسولك . قال أبو حنيفة : يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكًا ؟ قال الإمام إن الله يقول فى كتابه : (وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله) فقال أبو حنيفة : « لكأنى ما قرأتها قطّ فى كتاب ولا سمعتها إلاّ فى هذا الموقف » .

* * *

ولقد يدخل عليه سفيان الثورى وفيه قول القائل : « ما رأيت الغنى أذلّ منه فى مجلس الثورى ولا الفقير أعزّ منه فى مجلس الثورى » . والذين يجلون ورع الإمام أحمد بن حنبل يشبهونه فيه بسفيان الثورى . وسفيان الثورى يسمى « أمير المؤمنين فى الحديث » . وحسبه أن يكون من تلاميذه فى الحديث ابن جريج إمام مكة والأوزاعى إمام الشام ومالك بن أنس إمام المدينة ، وابن إسحق إمام المحدثين فى السيرة . وهو فوق كل ذلك إمام عامل . رمى كتاب المهدى له فى دجلة - وفيه توليته للقضاء - وهرب من السلطان فولّى شريكًا بدله .

وكان سفيان كثير المغاضبة للخلفاء - ولهذا كثر ما كان الخليفة يطلب دمه ، وكان يختفى عن عيونه .

يستأذن سفيان على الإمام. فلا يرفض الإذن بل يدخله ليعلن له أن ظهوره فى المجلس العلمى ، وهو مختف ، أمر غير سائغ . صيانة للمجلس العلمى من أن يكون مجلس المطلوبين ، وحماية للمطلوب ذاته . وحفظًا لعلاقة الإمام بالخليفة . ومع ذلك لا يضنّ الإمام عليه بالحكمة .

يقول ابن أبى حازم : « كنت عند جعفر الصادق يومًا وإذا بسفيان الثورى

بالباب فقال : إيذن لى . فدخل . فقال له جعفر : إنك رجل يطلبك السلطان فى بعض الأحيان . ونحضر عنده وأنا أتقى السلطان .فاخرج عنى غير مطرود .

قال سفيان : « حدثنى حديثًا أسمعه وأقوم » .

قال الإمام : حدثنى أبى عن جدّى عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : « من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله . ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ، ومن حزنه أمر فليقل : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله » .

طلب إليه سفيان يومًا أن يعظه . فقال : « يا سفيان لا مروءة لكذوب ولا أخ لملول . ولا راحة لحسود . ولا سؤدد لسيئ الخلق » . فقال سفيان : زدنى . قال : « يا سفيان ثق بالله تكن مؤمنًا . وارض بما قسم الله تكن غنيًّا . وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلمًا . ولا تصحب الفاجر يعلّمك فجوره . وشاور فى أمرك الذين يخشون الله عزّ وجل » . فاستزاده سفيان فقال : « من أراد عزًّا بغير عشيرة ، وغنى بغير مال ، فلينتقل من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته » .

فإذا أوصى زرارة عندما ولى القضاء ، ذكّره حساب السماء ، قال : « إنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم ولم يسألهم عما قضى عليهم » فالقضاء أمانة الله . وإذا كان القاضى يجرى عليه قضاء الله فهو مسئول عما يجرى به قضاؤه على غيره .

ويوصى الإمام ابنه موسى الكاظم فيقول :

« يا بنى . من رضى بما قسمه الله له استغنى . ومن مدّ عينه إلى ما فى يد غيره مات فقيرًا . ومن لم يرض بما قسمه الله له اتهم الله فى قضائه . ومن استصغر زلّة نفسه استعظم زلة غيره .

يابنى : من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته . ومن سلّ سيف البغى قتل به . ومن احتفر لأخيه بئرًا سقط فيها . ومن داخل السفهاء حقر . ومن خالط العلماء وقر . ومن دخل مداخل السوء اتهم .

يابنى : إياك أن تزرى بالرجال فيزرى بك . وإياك والدخول فيما لا يعنيك فتذلّ لذلك .

يا بنى قل الحق لك أو عليك .

يابنى : كن لكتاب الله تاليًا وللإسلام فاشيًا وبالمعروف آمرًا وعن المنكر ناهيًا . ولمن قطعك واصلًا . ولمن سكت عنك مبتدئًا . ولمن سألك معطيًا . وإياك والنميمة . فإنها تزرع الشحناء فى قلوب الرجال . وإياك والتعرض لعيوب الناس فمنزلة المتعرّض لعيوب الناس بمنزلة الهدف » .

وتصبح هذه الوصية تراثًا للأئمة بعده . فيعلن الإمام الثامن « على الرضا » أنه « ما ترك هذه الوصية إلى أن توفى » .

* * *

ولقد يفد على المجلس الكميت - شاعر أهل البيت - كما كان يدخل على زين العابدين[1] والإمام يعرف انبعاث الشاعر . ويخشى عليه من الخيال الصادق

(١) دخل الكميت على زين العابدين فأنشده قصيدته التى مطلعها :

من لقلب متيم مستهام ... غير ما صبوة ولا أحلام

وقال الإمام : ثوابك نعجز عنه لكن الله لا يعجز عن مكافأتك . اللهم اغفر للكميت . ثم قسط على نفسه وعلى أهله أربعمائة ألف درهم . أعطاه القسط الأول . قائلا : خذ يا أبا المستهل . قال الكميت لو وصلتنى بدانق كان شرفا لى ولكن إن أحببت أن تحسن إلى فادفع لى بعض ثيابك ، التى تلى جسمك أتبرك بها . فنزع ثيابه ودفعها إليه كلها ثم قال : اللهم إن الكميت جاد فى آل رسولك وذرية نبيك بنفسه حين ضن الناس . وأظهر ما كتمه غيره من الحق فأحيه سعيدا . وأمته شهيدا . وأره الجزاء عاجلا وأجزل له المثوبة آجلا . فإنا قد عجزنا عن مكافأته - قال الكميت فيما بعد : فما زلت أعرف بركات دعائه .

ولئن كان عطاء الشعراء جوائز تشجيع لهم ، إن تقسيط العطاء آية سخاء فى التشجيع ، وارتباط طويل بالمودة بين قرض الشعر وبين من أجازه .

وتعجيل العطاء بالاستدانة درس تعلمه زين العابدين على جده - صلى الله عليه وسلم - كان يمكث شهرا ما يستوقد نارا ، إن هو إلا التمر واللبن . ومع ذلك لا يرد أحدًا يسأله ، بل يعطيه إذا كان عنده وإلا وعده . وذات يوم جاءه رجل . فقال عليه الصلاة والسلام : « ما عندى شىء . ابتع على فإذا جاء شىء قضيناه » . قال عمر : يارسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره ما قال عمر . وقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا . فتبسم صلى الله عليه وسلم . وقال « بهذا أمرت » .

فى تصوير ظلم يعانيه أهل البيت . وشعر الكميت من أسير الشعر فى الأدب العربى – والبرد تنقل للخليفة الخبْء من أى شىء – فيستأذن الكميت الإمام قائلاً : جعلت فداك . ألا أنشدك ؟ فينبهه الإمام قائلاً : « إنها أيام عظام » .

فيقول الكميت عن القصيدة : إنها فيكم . ويقول الإمام : هات فينشده قصيدته التى مطلعها :

ألا هل عم فى رأيه متأمل   وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

إلى أن قال :

كلام النبيين الهداة كلامنا   وأفعال أهل الجاهلية تفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها   على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها   لنا جنّة مما نخاف ونعقل

فكثر البكاء وارتفعت الأصوات إلى أن قال :

كأن حسيناً والبهاليل حوله   لأسيافهم ما يختلى المتبقل
فلم أر مخذولاً أجل مصيبة   وأوجب منه نصرة حين يخذل

فرفع جعفر الصادق يديه وقال : اللهم اغفر للكميت ما قدّم وما أخر . وما أسرّ وما أعلن . وأعطه حتى يرضى . ثم أعطاه ألف دينار وكسوة .

قال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت من هى لديه ، ولكنى أحببتكم للآخرة . فأما الثياب التى أصابت أجسامكم فإنى أقبلها لبركتها . أما المال فلا أقبله .

المذهب الجعفرى

أخرج الحاكم فى تاريخه بالإسناد إلى أبى بكر عن رسول الله قال : « من كتب علىَّ علمًا أو حديثًا لم يزل يكتب له الأجر ما بقى ذلك العلم أو الحديث » .

وأجمع أبو بكر أيام خلافته على تدوين الحديث فجمع خمسمائة حديث فبات ليلته يتقلب كثيرًا . قالت عائشة : فغمنى تقلبه . فلما أصبح قال لى : « أى بنية هلمى الأحاديث التى عندك » فجئت بها فأحرقها .

وعن الزهرى عن عروة أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب رسول الله ﷺ فأشاروا عليه أن يكتبها . فطفق عمر يستخير الله فيها شهرًا ثم أصبح يومًا فقال : « إنى كنت أريد أن أكتب السنن . وإنى ذكرت قومًا قبلكم كتبوا كتبًا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله . وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدًا » .

لكن عليًّا دوّن . وخلف فى شيعته طريقة « التدوين » . فلقد كان على ثقة من طريقته . وهو الذى يقول فيه الرسول : « علىّ مع القرآن والقرآن مع علىّ ولن يفترقا حتى يردا على الحوض » وعنه قال الرسول : « يا معشر قريش . والله ليبعثن الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين قال أبو بكر : أنا هو يارسول الله ؟ قال : لا . قال عمر : أنا هو يارسول الله ؟ قال : لا . ولكن ذلك الذى يخصف النعل » .

وكان علىّ يخصف نعلاً للنبى عند ذلك .

وبالتدوين الفقهى استقرّ المذهب فى صدور الحفظة والنقلة ، من علىّ إلى بنيه ، فبنيهم ، وبخاصة زين العابدين وزيد والباقر والصادق . ثم عملت مجالس الإمام الصادق فى نشره كمثل عمل التدوين فى استقراره . وأدرك الأئمة الذين تلمذوا له وتلاميذهم أمورًا ترفع مجلس الصادق فوق المجالس ، سواء

مجالس أهل السنّة أو « أهل البيت » منها :

١ – أن الذى يلقى هذا العلم إمام موصى إليه « باسمه » من أبيه . وبهذا ينماز من عمّه زيد بن علىّ صاحب المذهب الزيدى ومن غيره من الشيعة .

٢ – أن هذا الإمام يقف بين العلماء جميعًا فى مكان خاص . فالسنّة عند الشيعة بعد موته تثبت عن طريقه – إلاّ ما ندر – فعنه يروى آلاف ، وعنهم جاءت الأحاديث المروية فى كتبهم .

٣ – أن الآراء الفقهية فى أصول الدين وأصول الفقه وفروع المعاملات والعبادات سيراها اللاحقون منسوبة إليه . وربما اقترن به أبوه الباقر ، أو أشير إلى رأى جدّه ، السجّاد ، لكن نبع العلم منه هو الأشهر والأكثر .

وإذا لم يعرف التاريخ إمامًا فى السنن من درجته أو إمامًا فى الفقه من مرتبته . فالتاريخ – كذلك – لا يعرف إمامًا اجتمعت له الإمامتان مثله .

٤ – أنه الإمام الذى يوثقه أئمة المسلمين جميعًا . ويستوى فى ذلك من أهل السنّة أئمة الرأى فهم تلاميذه ، وأئمة الحديث فهو القمّة منهم .

وروايته للحديث يوثقها واضع الأساس العلمى لقبول الحديث « الشافعى » ، وعلماء الجرح والتعديل كيحيى بن معين وأبى حاتم والذهبى وابن حنبل والآخرين ، وتتردد فى كتب الصحاح أحاديثه . كما يبايعه إمام أهل البيت الذى سبق بفرقة عظيمة وفقه خالد ، عمه زيد بن على زين العابدين ، صاحب « المذهب الزيدى » . ويضعه موضع الإمامة فيقول : « فى كل زمان رجل من أهل البيت يحتجّ به الله على خلقه وحجّة زماننا ابن أخى جعفر لا يضلّ من كان من شيعته ولا يهتدى من خالفه » .

٥ – أن هذا الإمام هو أوّل وآخر واحد من صلب آبائه وأجداده منّ الله عليه بهذه الفرصة : أواخر الدولة المروانية المشغولة عنه بتثبيت دعائمها المهتزة ، وأوائل عهد الدولة العباسية ، التى تمد إليه بسبب ، من السلام أو الخصام ، وآصرة من النسب ، تخدمانه أو تخدمانها – وهى ترفع شعار أهل البيت والدفاع عن الدين – وبهذا أتيحت له حرية الجلوس لكل الناس ،

والتدريس لكل العلوم ، وأن تسيل الأباطح بأعناق المطىّ إليه من بقاع العالم ، فى حقبة ممتازة من التاريخ العالمى والإسلامى .

٦ - أنه الإمام الذى طمأن الخلفاء « الملوك » فى الدولتين ، ومنهم سفاحون غلاظ الأكباد . فهوكما يقول الشهرستانى وأبو نعيم فى الملل والنحل وحلية الأولياء « ما تعرّض للإمامة قط ولا نازع فى الخلافة أحدًا . ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط . ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط » .

٧ - أنه الإمام الذى أتيح له على مدار ثلث قرن من الزمان بعد موت أبيه سنة ١١٤ أن يكون « الإمام » . فامتد به عصر سلام ، ضرورى لنشر العلم ، باطمئنان طالبه ، وواهبه ، والدولة التى ينتشر فى رعاياها .

* * *

هذه العناصر التى لم تجتمع لواحد من آبائه أو أبنائه جميعًا ، هى التى سوغت لمن تبع فقهه من الشيعة أن يطلقوا على مذهبه المذهب « الجعفرى » . وما هو فى صميمه إلّا « مذهب علىّ » . وإنما تحوّل السماء بركاتها لبعض الأسماء فى شكل حظوظ . وكان الإمام جعفر الصادق جديرًا بنعمة السماء قدر ما صدق وكافح فى خدمة الإسلام .

وما كان علىّ بحاجة إلى ما يخلد اسمه . فالإسلام فى أعظم أيامه يقترن باسم علىّ ، قدر ما اقترن اسم علىّ بالنبى وبيت النبى .

والمذهب يحمل اسم جعفر لأنه صاحب مدرسة سقيت منه السنّة الصحيحة ، ومصادر الفقه العظيم ، والمنهاج السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى نهجه تابعوه ، وروى ذلك كله الآلاف . وروى عنهم أمثالهم .

وفى الجدود ، بمعنى الحظوظ ، جدّ وجد ،لكنها ليست خبط عشواء : فاسم أمريكا قد خلد اسم أمريجو فسبوتشى ، لأن أمريجو فسبوتشى كان كاشفًا حقيقيا لبعض شواطئها سنة ١٤٩٩ .

ولم يغمط حظّ الكاشف الثانى حق كرستوفر كولمبس ، الكاشف الأوّل لها فى

سنة ١٤٩٣ . فاسم كولومبوس مايزال يجرى على كل لسان على أنه كاشف العالم الحديث .

والتاريخ – كله – يقدمه على ڤسپوتشى .

ولسنا فى مقام مقارنات برجال ، فعلىّ وجعفر فوق المقارنات ، بما قدموا للعالم كله – وسيطه وحديثه – من عناصر الحضارة ، التى نقلت العالم من جهالات العصور القديمة وظلمات العصور الوسطى ، إلى الحضارة المعاصرة ، على عجلات التقدم ، يحركها العلم الصحيح ، والاجتهاد الذى لا يتوقف . وكسب الأمم من علم الأئمة . كاقتران أسماء أصحاب الكشوف بكشوفهم وأرباب الابتكارات بفتوحهم ، ليس صدفة . ولا محض جزاء . وإنما هو توفيق من الله للإنسانية وللناس ، لتكريم أمم ، ورجال ، فتحوا أرض الله لعباده . أو مكنوهم من أنعم السماء ، أو سنن الأنبياء ، ليشجع الشجعان ، ويستمر ضوء الفكر الإنسانى فى إشراقه . حفزًا للعزائم وظهورًا للعلم .

ومنذ القرن الميلادى الماضى يطلق العلماء أسماء الرجال الذين يسروا للناس أسرار الطبيعة على مقاييس الطبيعة : الوات نسبة إلى Watt والفرد نسبة إلى Faraday والأمبير نسبة إلى Ampere والفولت نسبة إلى volta والأهم نسبة إلى Ohm والميجاهرتز نسبة لهرتز Hertz ورونتجن نسبة إلى Rontigen وهم إنجليزيان وفرنسى وإيطالى وثلاثة من الألمان .

وأين تجربة أو تجارب أو كشف أو كشوف من شريعة بتمامها ، وإمام فى الصدر من أئمتها ، وطّأ نصوصها ، وأصّل أصولها ، وقعد القواعد لها ، وأقام عليها دولاً باقية بقاء الزمان ، ومجتمعات خالدة بخلود الإسلام ، ينسب المذهب فيها إلى صاحبه ، فيكون المذهب « الجعفرى » أو المذهب « الإمامى » المنسوب إلى الإمام جعفر وإلى القول « بإمامة الأئمة الاثنى عشر » .

القسم الثانى

الباب الرابع : المدرسة الكبرى
الباب الخامس : المنهج العلمى
الباب السادس : إلى الرفيق الأعلى

الباب الرابع

المدرسة الكُبرى

يا أهل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكمو من عظيم القدر منزلة من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

« الشافعى »

في هذا الباب محاولة لرسم خطوط تقريبية للبنيان العظيم لفكر الشيعة الجعفرية « الاثنا عشرية أو الإمامية » الذى كان الإمام الصادق فى طليعة بُناته ، والذى يحمل اسمه ، وإن شاركت فى رفع صرحه مدرسة كاملة من السابقين عليه ، والآخذين إخذه ، من تلاميذه وتلاميذهم . بدأت بالنبى عليه الصلاة والسلام ، مدينة العلم ، وعلىّ بابها . وتتابع فيها الصحابة العظماء ، والتابعون وتابعو التابعين . وفى الأجيال الثلاثة الإمام علىّ والحسن والحسين ثم زين العابدين فالباقر فالصادق .

ثم تلمذ للإمام الصادق فريق المخضرمين ممن تعلّموا على أبيه أو أبيه وجده ، ومن الشباب الذين تعاونت قرائحهم فى تفتيق الكلام فى العقيدة ، وتشقيق المعانى فى الفقه ، ليصبحوا للذين جاءوا بعدهم ، حتى اليوم ، علامات على الطريق .

وفى مشيخة هذه المدرسة ورد الفصل الأوّل .

والفصل الثانى يتناول أمورًا أساسية فى فكر المدرسة ، دون حصر لتفاصيله أو تطرق للاختلاف عليه بينهم وبين أهل السنّة ، أو بينهم وبين فرقهم ، حتى لا نخرج من إطار الصورة التى نحاول رسمها ، وتنقيتها مما تبرأ منه الشيعة ، وتقع التبعات فيه على الغلاة المطرودين .

وقد خصصنا بالبيان فى هذا الفصل مسألتين أصوليتين ، لكلٍّ منهما أثر فى الفقه ، سواء أكان فقه معاملات أم فقه عبادات – فبدأنا « بالحديث » وشروط قبوله ، وثنّينا « بالإمامة » . وأضفنا كلمات عن مسائل خلافية بين المذهب الجعفرى وبين غيره من المذاهب التى تتقاسم أهل السنّة . تخيرناها من شتى مناحى التفكير الفقهى ، لتتم أبعاد الصورة للقارئ ، ويزداد جانبها الخلفى جلاءً : أن الدين واحد عند أهل السنة والشيعة .

الفصل الأول

المدرسة الكُبرى

ماذا لقينا من أبناء عليّ إذا أحببناهم
قُتلنا . وإذا عاديناهم دخلنا النار .
« الشعبى »

أخذ الفروع والأصول عن الإمام جعفر جمع غفير من ثقات الشيعة ، ورووا ذلك لمن بعدهم على سبيل التواتر القطعى . ورواه هؤلاء ، لمن خلفوهم قرناً بعد قرن . فالصادق يروى علم من قبله ، ويروى الأئمة من أبنائه علمه . كما يرويه تلامذته . فهو الحلقة التى تتوسط السلسلة ، أو العروة الوثقى بين كتب آبائه وبين ما كتِب بعده « الإمامية » .

المصحف الخاص أو كتاب الأصول :

آلى أمير المؤمنين على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول صلى الله عليه وآله ، ألاّ يرتدى إلاّ للصلاة أو يجمع القرآن . فجمعه مرتبًا على حسب النزول . وأشار إلى عامّه وخاصه . ومطلقه ومقيده . ومحكمه ومتشابهه . وناسخه . ومنسوخه . وعزائمه ورخصه . وسننه وآدابه . ونبّه على أسباب النزول فيه .

ومن جلال شأن هذا الكتاب قال فيه محمد بن سيرين : « لو أصبت هذا

الكتاب كان فيه العلم » . فهو كما يظهر من محتوياته مصحف خاص وكتاب أصول من صنع عليّ .

والجامعة : كتاب طوله سبعون ذراعًا من إملاء النبى وخطّ عليّ . فيه ما يحتاجه الناس من حلال وحرام وغيره ، حتى ليصل فى التفصيل إلى أرش الخدش . « التعويض عنه » . وقد وصفها بذلك الباقر والصادق . وشهدها عندهما الثقات من أصحابهما ومنهم أبو بصير . قال الصادق : « أما والله عندنا ما لانحتاج إلى أحد . والناس يحتاجون إلينا . إن عندنا الكتاب بإملاء رسول الله ﷺ وخطّ عليّ بيده . صحيفة طولها سبعون ذراعًا . فيها كلّ حلال وحرام » .

وقال : « إن الجامعة لم تدع لأحد كلامًا . فيها الحلال والحرام . إن أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدهم من الحق إلّا بعدًا . وإن دين الله لا يصاب بالقياس » .

قالوا : سميت الجامعة . والصحيفة . وكتاب عليّ . والصحيفة العتيقة .

كان أمير المؤمنين يخطب الناس فيقول : « والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلّا كتاب الله تعالى وهذه الصحيفة – وكانت معلّقة بسيفه – أخذتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله » .

ولقد دعا الخليفة أبو جعفر المنصور بكتاب عليّ هذا ، فجاء به الإمام الصادق وقرأ فيه أن النساء ليس لهن من عقار الرجل ، إذا توفى عنهن ، شيء وقال أبو جعفر : هذا والله خط عليّ وإملاء رسول الله ﷺ .

وأبو جعفر من العلماء كما قال عنه مالك إمام المدينة ، وكما أقرّ له الجاحظ كبير النقدة . فهو قد يقسم لأنه قرأ كتابة قبل ذلك لعليّ ، أو لأن لديه من العلم ما يعرفه أنها بإملاء النبى .

وكتاب الديات : وهو يغطى ما يسمى فى الفقه المعاصر « المسئولية المدنية » عن الفعل الضارّ بالجسمْ . أورد محتوياته ابن سعد فى كتابه المعروف بالجامع . وروى عنه أحمد بن حنبل فى المسند الأعظم. وذكره البخارى ومسلم. ورويا عنه .

مصحف فاطمة

ومن التراث العلمى عند الشيعة ما يسمّى مصحف فاطمة . حدثوا عن الصادق إذ سئل عنه « أن فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة وسبعين يومًا وكان قد دخلها حزن على أبيها . وكان جبريل يأتيها فيحسن عزاءها ويطيب نفسها . ويخبرها بما يكون بعدها من ذريتها . وكان علىّ يكتب ذلك . فهذا مصحف فاطمة » .

فليس هذا مصحفًا بالمعنى الخاص بكتاب الله تعالى وإنما هو أحد المدوّنات .

التدوين

يروى « الصدوق » فى الأمالى أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله قال : « المؤمن من إذا مات ترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترًا بينه وبين النار » .

وفى حياة النبى أو حياة علىّ ، اقتدت بعلىّ شيعته فى التدوين . أو قل : هديت لتنفيذ أمر الرسول .

يقول ابن شهر اشوب :

« أوّل من صنّف فى الإسلام علىّ بن أبى طالب . ثم سلمان الفارسى ثم أبو ذر » . والاثنان شيعة علىّ .

والسيوطى يروى أن عليًّا والحسن بن علىّ ممن أباحوا كتابة العلم بين الصحابة وفعلوها .

وألّف أبو رافع مولى الرسول ، وصاحب بيت مال علىّ بالكوفة ، كتاب السنن والأحكام والقضايا . يقول موسى بن عبد الله بن الحسن : سأل أبى رجل عن التشهد فقال أبى : هات كتاب أبى رافع . فأخرجه فأملاه علينا .

أما علىّ بن أبى رافع فكتب كتابًا فى فنون الفقه على مذهب أهل البيت -

أى آراء علىّ بن أبى طالب – وكانوا يعظمون شأن هذا الكتاب ويحملون شيعتهم عليه .

ومن الشيعة زيد الجهضمى . حارب مع علىّ وألّف كتابًا يحوى خطبه . ومنهم ربيعة بن سميع له كتاب فى زكاة النعم . ومنهم عبد الله بن الحر الفارسى . له لمعة فى الحديث جمعها فى عهد رسول الله .

ومنهم الأصبغ بن نباته صاحب علىّ . روى عنه عهده إلى الأشتر النخعى . ووصيته إلى ابنه محمد بن الحنفية .

ومنهم سليم بن قيس الهلالى صاحب أمير المؤمنين ، له كتاب فى الإمامة ، وله مكانة عليا فى المذهب من حيث الأصول .

وذات يوم كان الحكم بن عيينة عند الباقر يسأله فقال : يابنى قم فأحضر كتاب علىّ . فأحضر كتابًا مدرجًا عظيمًا ففتحه . وجعل ينظر حتى أخرج المسألة ، وقال : هذا خط علىّ وإملاء رسول الله . وأقبل على الحكم وقال : « اذهب أنت وسلمة والمقداد حيث شئتم يمينًا وشمالاً ، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبريل » .

ومن قبل الإمام الباقر وجدت عند الإمام زين العابدين الصحيفة المسماة الصحيفة الكاملة . وعن زين العابدين آلت إلى الشيعة رسائل عدّة منها رسالة الحقوق . ورسالة إلى ابن شهاب الزهرى[1] .

وكذلك ألفّ عمرو بن أبى المقدام جامعًا فى الفقه يرويه عن الإمام زين العابدين .

فلما صارت الإمامة للصادق حضّ على تدوين العلم أيًا كان موضوعه ، دينيًا أو دنيويًا ، فقه عبادات أو معاملات أو علومًا تطبيقية . وكان يقول : « القلب يتكل على الكتابة » .

---

(١) وفى العصر ذاته كان سعيد بن المسيب أول فقهاء المدينة السبعة يخاف أن يكتب عنه العلم . جاءه رجل فسأله عن شىء فأملاه عليه . ثم سأله عن رأيه فأجابه . وكانوا من كثرة إفتائه يسمونه سعيد ابن المسيب الجرىء . فكتب الرجل . فقال جلساء سعيد : أتكتب يا أبا محمد ؟ فقال سعيد للرجل ناولنيها . فناوله الصحيفة فخرقها .

وكان يملى على تلاميذه . ويجيئهم بالدواة والقرطاس . ويقول : « اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا » .

ويلتمس سفيان الثورى إليه أن يحدثه بحديث خطبة الرسول بمسجد الخيف .ويرجوه ليأمر له بقرطاس ودواة ليثبته ، فيأمر له ، ثم يمليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . خطبة رسول الله فى مسجد الخيف . نضّر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها . وبلّغها من لم تبلغه . يا أيها الناس : ليبلّغ الشاهد منكم الغائب . فرب حامل فقه ليس بفقيه . ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

وكتب عبد الله الحلبى كتابًا عرضه على « الصادق » فصححه واستحسنه . وسنرى حفيده الإمام العسكرى يعرض عليه يونس بن عبد الرحمن كتاب « يوم وليلة » فيصححه ويأمر بالعمل به .

ولما غاب « المهدى » فى النصف الثانى من القرن الثالث أحوجت « الغيبة » إلى الرجوع للمدونات التى تزخر بها خزائن الشيعة . إذ لم يكن لديهم إمام ظاهر يسألونه . وكثرت الكتابة عندهم فى القرن الرابع .

* * *

كان أوّل المستفيدين بالتدوين الباكر أولئك الذين يلوذون بالأئمة من أهل البيت فيتعلمون شفاهًا أو تحريرًا ، أى من فم لفم أو بالكتابة . فما تناقلته كتب الشيعة من الحديث ، هو التراث النبوى – فى صميمه – بلغ الشيعة فى يسر طوّع لعلمهم الازدهار . فى حين لم يجمع أهل السنّة هذا التراث إلّا بعد أن انكب عليه علماؤهم قرنًا ونصف قرن حتى حصلوا ما دونوه فى المدونات الأولى . ثم ظلّوا قرونًا أخرى ، يجوبون الفيافى والقفار فى كل الأمصار ، فتطابقت السنّة – فى مجموعها – عند هؤلاء وأولاء ، ألّا أمورًا لا تتصل بأصل الدين ، وخلافات فى الفروع ليست بدعًا فى الأمة .

وربما كان اختلاف مذاهب أهل السنّة فيما بينهم وبين أنفسهم أكثر ظهورًا فى بعض المسائل من خلافهم فيها مع فقهاء الشيعة .

وإذا لاحظنا أن من الرواة من قيل إنه روى عشرات الآلاف من الحديث

عن الإمام ، تجلّت كفاية التراث الموثوق به عند الشيعة لحاجات الأمة .

وإذا لاحظنا توثيق الشافعى ومالك وأبى حنيفة ويحيى بن معين وأبى حاتم والذهبى للإمام الصادق – وهم واضعو شروط المحدّثين وقواعد قبول الرواية وصحة السند – فمن الحق التقرير بأن حسبنا أن نقتصر على التفتيش عن رواة السنّة عن الإمام الصادق .

والشيعة يكفيهم أن يصلوا بالحديث إلى الإمام . لا يطلبون إسنادًا قبل الإمام جعفر . بل لا يطلبون إسنادًا قبل الأئمة عمومًا ، لأن الإمام بين أن يكون يروى عن الإمام الذى أوصى له ، وبين أن يكون قرأ الحديث فى كتب آبائه – إلى ذلك فإن ما يقوله سنّة عندهم . فهو ممحّص من كل وجه . فليست روايته للحديث مجرّد شهادة به ، بل هى إعلان لصحته .

وإذ كان ما رواه الصادق ، رواية الباقر ورواية السجّاد عن الحسين عن الحسن أو عن علىّ عن النبى ، فهذا يصحح الحديث على كل منهج فالثلاثة الأخيرون من الصحابة المقدمين . يروون عن صاحب الرسالة ، إذ يروى الحسن والحسين عن علىّ عنه .

ولا مرية كان منهج علىّ ومن تابعه فى التدوين خيرًا كبيرًا للمسلمين ، منع المساوئ المنسوبة إلى بعض الروايات ، وأقفل الباب دون افتراء الزنادقة والوضّاعين . فالسبق فى التدوين فضيلة الشيعة . ولما أجمع العلماء بعد زمان طويل على الالتجاء إليه كانوا يسلّمون بهذه الفضيلة – بالإجماع – لعلىّ وبنيه .

والسنّة شارحة للكتاب العزيز . وهو مكتوب بإملاء صاحب الرسالة . فهى كمثله حقيقة بالكتابة .

إنما كان المحدثون من أهل السنّة فى القرون الأولى مضطرين لسماع لفظ الحديث من الأشياخ ، أو عرضه عليهم ، لأن السنن لم تكن مدوّنة . فكانت الرحلة إلى أقطار العالم لتلقى الحديث على العلماء وسيلتهم الأكيدة ولم يغير ذلك النظر انتشار التدوين فى نهاية القرن الثانى ومنتصف الثالث ، وكثرة الحديث

المدون فى المسانيد والمجاميع والصحاح التى ألفت بعد تلك الفترة ، ومنها مسند أحمد بن حنبل (٢٤١) حوى ثلاثين ألفًا دون المكرر . اختارها من ثلاثة أرباع مليون جمعها من أفواه العلماء من أقصى الأرض وأدناها ، وحدث بها تلاميذه لينقلوها إلى الأجيال التالية .

وكان فى أواخر أيامه يستوثق لنفسه فيروى للناس الحديث ويطلب المسند يقرأ فيه .

ثم جاءت أجيال تأخذ الحديث فى الصحف الموثوق بصحة صدورها من صاحبها دون أن يرتحل إليه . وهذا ما أطلقوا عليه الوجادة - « لفظ مولد من « وجد » غير مسموع من العرب » يقولون : وجدنا بخط فلان . وفى القرن الرابع اعتبر ابن يونس الصفدى (٣٤٧) امامًا حافظًا للحديث وإن لم يرحل .

* * *

قلنا فى كتابنا « أحمد بن حنبل إمام أهل السنة»[1]: « والبعض من المحدثين لم يكونوا يروون عن الإمام جعفر الصادق لأنه يحدّث بما قرأه فى الكتب .. سئل أبو بكر بن عياش « وهو من أوّل أشياخ أحمد » : « لماذا لم تسمع من جعفر وقد أدركته ؟ قال : سألناه عما يحدث من الأحاديث أشيء سمعته ؟ قال : لا . لكنها رواية رويناها عن آبائنا»..» وعقبنا ذلك بقولنا :«والشافعى[2]ويحيى ابن معين[3] متفقان على توثيقه . وهو شيخ مالك وليس بعد هؤلاء أدلة على جواز

---

(١) أحمد بن حنبل امام أهل السنة - للمؤلف طبعة دار المعارف ص ٢٠٦ .

(٢) يذكر ابن النديم فى الفهرست « وكان الشافعى شديدًا فى التشيّع . ذكر له رجل يوما مسألة فأجاب فيها . فقال له : خالفت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . فقال له أثبت لى هذا عن علىّ بن أبى طالب حتى أضع خدّى على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولى إلى قوله » .

وحضر الشافعى ذات يوم مجلسًا لأحد الطالبيين فقال : « لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم . هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل » .

(٣) يقول فيه أحمد بن حنبل « كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث » وهو من آباء . علوم الحديث . ومؤلفاته مراجع فيها - وهى علوم أوصلها الحاكم النيسابورى إلى اثنين وخمسين علمًا وأوصلها النووى إلى خمسة وستين .

طريقة الإمام جعفر مع علمه الضخم فى كل باب » .

وفى كتابنا « الإمام الشافعى »[1] أجملنا الكلام عن موضع الإمام من الإسلام كله فى كلمات : « الإمام جعفر .. يمثل صميم الإسلام .. يجتمع فى نسبة النبى عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعلىّ . وهو إمام فى الدين والفقه وبحر فى العلوم الطبيعية » .

وهذا البحر ، والقطعة من الإسلام والمسلمين الثلاثة الأوّلين – بل الأربعة الأوّلين وفيهم أم المؤمنين خديجة – إمام يهتدى بهديه واجتهاده أئمة أهل السنّة كافة . أما الشيعة الإمامية ، فقول الإمام المعصوم يجرى عندهم مجرى قول النبى من كونه حجة على العباد . ولقد توسع علماؤهم فى اصطلاح السنة إلى ما يشمل « قول كل واحد من المعصومين وفعله وتقريره » . فالأئمة المعصومون ليسوا ، بهذه المثابة ، من قبيل رواة السنن ، بل هُم منصوبون من الله تعالى ، على لسان النبى ، لتبليغ الأحكام عن طريق الإلهام ، كالنبى بطريق الوحى إليه ، وهو خاص به ، أو عن طريق التلقى من المعصوم الذى يسبق .

أما فعل المعصوم فدليل على الإباحة . وأما تركه فدليل على عدم الوجوب .

وتآليف الإمام الصادق كثيرة . منها رسالة فى شرائع الدين . ووصاياه للإمام الكاظم . ورسالة فى الغنائم ووجوب الخمس ، وتوحيد المفضل ، وكتاب الأهليلجة ، وكتاب مصباح الشريعة ، وكتاب مفتاح الحقيقة ، ورسالة إلى أصحابه ، ورسالة إلى أصحاب الرأى والقياس . ورسالة لمحمد بن النعمان . وأخرى لعبد الله بن جندب . ورسالة فى وجوه المعايش للعباد ووجوه إخراج الأموال . ورسالة فى احتجاجه على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق ، ورسالة حكم قصيرة .

والرسالتان المشار إليهما عملان أساسيان فى الاقتصاد والاجتماع ، يدلّان على منهاج الإمام فى صلاح الدنيا بالعمل والعبادة معًا .

وثمة الرسائل العلمية المقترنة بجابر بن حيان .

---

(١) الإمام الشافعى ناصر السنّة وواضع الأصول – طبعة دار المعارف ص ١٣١ .

أما كتاب الجفر المنسوب إلى الإمام الصادق - فيقول عنه ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٣) (١٣٣٢ - ١٤٠٦) : « واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هرون بن سعيد البجلى - وهو رأس الزيدية - كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص . وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم . وكان مكتوبًا عند جعفر فى جلد ثور صغير فرواه عنه هرون البجلى وكتبه وسمّاه الجفر باسم الجلد الذى كتب عليه ؛ لأن الجفر فى اللغة هو الصغير . وصار هذا الاسم علمًا على الكتاب عندهم . وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى مرويّة عن جعفر الصادق . وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه . وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل . ولو صحّ السند إلى جعفر الصادق لكان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه . فهم أهل الكرامات . وقد صحّ عنه أنه كان يحذّر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصبح كما يقول » .

والروايات متضافرة على أن الجفر غير « الجامعة » . والبعض يقول : إن الجفر من مؤلفات علىّ أملاه عليه النبى[1] .

وهو جفران : الأبيض وهو وعاء من أدم فيه علوم الأنبياء والوصيين والذين مضوا من علماء بنى إسرائيل . والأحمر فيه علم الحوادث والحروب .

* * *

كان تلاميذ الصادق مدونين كبارًا ، فلقد عاشوا فى عصر نهضة علمية كبرى أعجب بها العالم ، تبارت فيها يراعات المدوِّنين . ودارت عجلات التدوين كهيئة

---

(١) يقول ابن قتيبة عن الجفر فى « أدب الكاتب » إن الإمام الصادق كتبه ، وإن فيه كل ما يحتاجونه إلى يوم القيامة .

وإلى هذا الجفر ، واحتوائه على كل شىء ، يشير أبو العلاء المعرى فى شعره :

لقد عجبوا لآل البيت لما ... أتاهم علمهم فى جلد جفر
فمرآة المنجم وهى صغرى ... تريه كل عامرة وقفر

وربما نسبوا من أجل ذلك إلى الإمام علوم كشف الغيب أو النجامة .

ما دارت عجلات الطباعة عند ظهور المطبعة . بدأها عمر بن عبد العزيز على رأس القرن إذ أمر بتدوين السنّة . وتابعها علماء الأمة من أهل السنّة .

ومن بعد وفاة الصادق فى عام ١٤٨ دوّن أربعة آلاف من التلاميذ فى كلّ علومه ، ومن جملتها ما يسمى « الأصول الأربعمائة » . وهى أربعمائة مصنّف لأربعمائة مصنف من فتاوى الصادق . وعليها مدار العلم والعمل من بعده . وخير ما جمع منها كتب أربعة هى مرجع الإمامية فى أصولهم وفروعهم إلى اليوم . وهى « الكافى » « ومن لا يحضره الفقيه » « والتهذيب » « والاستبصار » .

والكافى – للكلينى أبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى (٣٢٩) – أعظمها وأقومها ، وأحسنها وأتقنها . فيه ١٦١٩٠ حديثًا ألفّه الكلينى فى عشرين سنة ..

وأما كتاب من لا يحضره الفقيه ، فوضعه ابن بابويه القمى – محمد بن على ابن موسى بن بابويه القمى[1] الملقب « بالصدوق » – « دخل بغداد سنة ٣٥٠ ومات بالرى سنة ٣٨١ » . وفيه ٥٩٦٣ حديثًا . وهذا الكتاب أهم مؤلفاته مع أنه ألف ثلاثمائة كتاب .

وأما « التهذيب » « والاستبصار » فوضعها بعد نحو قرن محمد بن الحسن ابن على الطوسى (٤٦٠) الملقب « شيخ الطائفة » . وكان فقيهًا فى مذهبى الشيعة وأهل السنة .

وفى التهذيب ١٣٥٩٠ حديثًا وفى الاستبصار ٥٥١١ حديثًا .

دخل الطوسى بغداد سنة ٤٠٨ واستقرّ بها فى أيام الشيخ المفيد ، محمد ابن النعمان (٣٣٦ – ٤١١) صاحب شرح عقائد الصدوق وأوائل المقالات . ونحو مائتى مؤلف .

وتلمذ الطوسى بعد موت الشيخ المفيد للشريف المرتضى فنجب فى مدرسة الشرف ، وفى « دار العلم » التى أنشأها ، وكان يجرى عليه اثنى عشر دينارًا فى الشهر طوال ملازمته له حتى وفاة المرتضى . وانتفع بكتب المرتضى والكتب التى

---

(١) نسبة إلى مدينة قم فى ايران وهى أقدم المدن التى بدأ فيها الشيعة الإمامية فى ايران وقد نشأت على أيدى جماعة من الناجين من جيش ابن الأشعث (٨٣) .

حوتها مكتبته . فألّف فى كلّ علوم الإسلام . واجتهد الاجتهاد المطلق . فكان حجّة فى فقه الشيعة والسنّة .

ومن أجلّ آثاره تدريسه فى مجالسه ، وأماليه « بالنجف الأشرف » فى جوار مشهد أمير المؤمنين علىّ . وبهذا افتتح عصر العلم بالنجف الأشرف فصار صنوًا للأزهر الأغر – الذى أقامته دولة من دول الشيعة – والمعهدان هما اللذان حفظا علوم الإسلام .

فالطوسى ، والشريفان الرضى والمرتضى ، والشيخان المفيد والصدوق ، والكلينى ، قد وصلوا ما انقطع من التأليف منذ عصر الإمام الصادق حتى منتصف القرن الخامس ، ليستمر التيار فى التدفق .

والشريفان فى مدرسة جدّهما صنوان . أبوهما أبو أحمد الموسوى « نسبة إلى جدّه الإمام موسى الكاظم » . وفيه قول ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة للشريف الرضى : كان أبوه أحمد جليل القدر عظيم المنزلة فى دولة بنى العباس وبنى بويه . ولقب « بالطاهر ذى المناقب » ولقبه أبو نصر بن بويه « بالطاهر الأوحد » . ولى نقابة الطالبيين عدة دفعات . كما ولى النظر فى المظالم . وحجّ بالناس مرارًا على الموسم .

عاش أبو أحمد طوال القرن الرابع (٣٠٤ – ٤٠٠) وكان يستخلف على الحجّ ولديه « الرضى » « والمرتضى » .

والشريف الرضى (٣٥٨ – ٤٠٦) هو شاعر العربية الشهير . وجامع « نهج البلاغة » الأشهر ، من خطب أمير المؤمنين علىّ . تولى نقابة « الطالبيين » فى حياة أبيه ومن بعده . وتولى النيابة عن الخليفة العباسى .

فهذه ولاية ينفرد بها فى التاريخ ، تجمع بين نقابة الطالبيين وبين نيابة الخلافة السنية .

وللشريف الرضى تآليف عظيمة فى تفسير القرآن منها :

١ – تلخيص البيان فى معجزات القرآن .

٢ – حقائق التأويل ومتشابه التنزيل .

٣ - معانى القرآن .

كذلك له .

٤ - مجازات الآثار النبوية .

٥ - خصائص الأئمة .

أما الشريف المرتضى (٤٣٦) فيقول عنه الثعالبى فى « يتيمة الدهر » - وهما متعاصران - « انتهت الرياسة اليوم ببغداد إلى المرتضى فى المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم . وله شعر نهاية فى الحسن . ومؤلفاته كثيرة . منها أمالى المرتضى - الشافى - تنزيه الأنبياء - المسائل الموصلية الأولة - مسائل أهل الموصل الثانية - مسائل أهل الموصل الثالثة - المسائل الديلمية - المسائل الطرابلسية الأخيرة - المسائل الحلبية الأولة - المسائل الجرجانية - المسائل الصيداوية - وتآليف أخرى كبيرة فى الفقه والقياس ورفضه . وقد شرح تلميذه الطوسى أكثر من مؤلف له » .

ومن أعظم آثاره إنشاء « دار العلم » ببغداد ورصده الأموال عليها وإجراؤه العطاء على التلاميذ وإطعامهم وإسكانهم . وكان يتبع « دار العلم » هذه مكتبته التى تحوى أكثر من ثمانين ألف مجلد .

وحسبه أن يكون الطوسى من تلاميذه .

وفى آثار هذا السلف العظيم تتابع ركب العلماء والمؤلفين الفحول يخلدون فقه الإسلام .

مشيخة العلماء :

كان مع الكتب التى آلت عن علىّ ومعاصريه ، مؤلفات ، كبيرة أو صغيرة ، وضعها من جاءوا بعده ، وسير لهذا الثبت الضخم من شيعته من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين . فهذا هو التراث التاريخى للشهداء وأشياع الشهداء . لا تكف الأمة عن ترديده ، جهرةً وخفية ، يتصدّرهم الصحابة العظماء ، وإليك بعض الأسماء :

سلمان الفارسى « والذى يطلق عليه سلمان المحمدى » . وأبو ذر « أصدق

الناس لهجة » . وعمار الذى « تقتله الفئة الباغية » وهو فى التسعين يحارب مع علىّ . والعباس بن عبد المطلب . وأبو أيوب الأنصارى . والمقداد بن الأسود الكندى الذى قال لعلى يوم بيعة السقيفة : « إن أمرتنى ضربت بسيفى وإن أمرتنى كففت » ، قال : « اكفف » . وخزيمة ذو الشهادتين . وأبو التيهان . وعبد الله والفضل ابنا العباس . وبلال بن رباح . وهاشم بن عتبة المرقال . وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاص . وأبى بن كعب سيد القراء . وأنس ابن الحرث بن نبيه . وعثمان وسهل ابنا حنيف . وبريدة . وحذيفة . وقيس ابن سعد بن عبادة رئيس الأنصار . وهند بن أبى هالة – أمه أم المؤمنين خديجة – وجعد بن هبيرة المخزومى – أمه أم هانئ بنت أبى طالب – وجابر ابن عبد الله الأنصارى .

وسيجرى فى آثار الصحابة التابعون لهم وتابعو التابعين . فيضيفون إلى التراث العظيم آثار رجال عظماء منهم ، من أشياع علىّ ، الأحنف بن قيس . سويد بن غفلة . الحكم بن عيينة . سالم بن أبى الجعد . علىّ بن أبى الجعد : السعيدان . ابن جبير وابن المسيب[1] . يحيى بن نظير العدوانى .

الخليل بن أحمد الفراهيدى مؤسس علم العروض . أبو مسلم معاذ ابن مسلم الهراء مؤسس علم الصرف .

وفى مدرسة التابعين هذه برز أبو هاشم « عبد الله بن محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين » . وأبو هاشم أوّل من تكلم فى علم الكلام . ومن بعده

---

(١) سعيد بن جبير هو الشهيد الوحيد الذى قتل من الرعب قاتله ! سأله الحجاج وهو يقدمه للقتل : أى قتلة تشاء ؟ فأجابه :

« اختر أنت فالقصاص أمامك » . ذلك أن القصاص قتل بقتل . فكان الحجاج بعد استشهاد سعيد يهبّ من نومه فزعًا وهو يقول : مالى ولسعيد بن جبير !! ثم مات بعده بشهر . مات فى رمضان وسعيد فى شعبان سنة ٩٥ .

ورفض ابن المسيب أن يبايع لولدى عبد الملك بن مروان – الوليد وسليمان – وتمسك برأيه فأخذوه ليقتلوه ، ثم اكتفوا بضربه بالسياط وجردوه من ثيابه وطافوا به .

ورفض أن يزوج بنته للوليد بن عبد الملك ، وهو ولىّ عهد عبد الملك ، وآثر أن يزوجها تلميذا فقيرا من تلاميذه .

نشأت مدرسة المعتزلة يتزعمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . وبأبي هاشم تبدأ مدرسة المتكلمين من الشيعة .

ومن جيل التابعين هشام بن محمد بن السائب الكلبى وأبو مخنف الأزدى المؤرخان .

ويتوالى موكب العلم العظيم من عهد عليّ . وتتعالى أصوات الدعاة العظماء للمذهب الشيعى ، كالنابغة الجعدى : شهد صفين مع أمير المؤمنين ، وله فيها أشعاره المشهورة ، وكان معه عروة بن زيد الخيل ، ولبيد بن ربيعة ، وكعب ابن زهير صاحب قصيدة « بانت سعاد » . ومن بعدهم : الفرزدق ، وكثيّر عزّة من شعراء القرن الأوّل ، ثم الكميت ، وقيس بن ذريح ، والسيد الحميرى ، ودعبل الخزاعى ، وأبو تمام ، والبحترى ، وديك الجن ، والحسين بن الضحاك وابن الرومى ، والأشجع السلمى[1] ...

---

(١) من الطبيعى أن يكون كثرة الشعراء شيعة . فالتشيع ضمير الجماعة وصوتها الصداح . والضمير الإسلامى كله ، يثقله أو يعذبه ، أو يهيج قرائحه ، ما أصاب أهل البيت من ظلم الدول . ويخفف عنه ما يعقده حول أهل البيت من أمل . لهم وله .

وكلما أحس الشعب ظلمًا طلب الرجاء والاقتداء بأبناء النبى ﷺ - وبهذا انضاف إلى الثبت الحافل السابق ذكره : ابن هانئ الأندلسى . ومهيار الديلمى . وأبو فراس الحمدانى . والناشئ الصغير . والناشئ الكبير . وكشاجم . وأبو بكر الخوارزمى . والبديع الهمذانى . والطغرانى . والسرى الرفا . وعمارة اليمنى .

بل أصبح ثناء على الشاعر أن يقال « يترفض فى شعره » أى يتشيع ، وللمتنبى وأبى العلاء شعر شيعى .

وأما أشراف العلويين فمنهم الشريف الرضى والشريف المرتضى . وكان الشريف على الجمانى يقول : « أنا شاعر وأبى شاعر وجدّى شاعر » ومنهم الشريف الشجرى .

بل كان من الأمويين متشيعون : أبان بن سعيد بن العاص وخالد بن سعيد بن العاص وعمر ابن عبد العزيز . وعبد الرحمن أخو مروان بن الحكم . ومروان بن محمد السروجى الذى يقول :

يابنى هاشم بن عبد مناف   أنا منكمو بكل مكان
ولئن كنت من أمية إنى   لبرئ منهمو إلى الرحمن

وأبو الفرج الأصفهانى (٢٨٤ - ٣٥٦) جدّه السابع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى مروان وأبو الفرج صاحب « الأغانى » ومقاتل الطالبيين .

ومن العباسيين شيعة : المأمون ، والمعتضد . وأحمد بن الموفق . ومن الأيوبيين كان الأفضل =

وعلم أهل البيت علم كل الأمة . فأمير المؤمنين علىّ فى قمة السند عند الجميع من سنّة وشيعة . لكن الذين ينقلون عنه – من الشيعة أو أهل السنة – محل تفاوت .

فالشيعة لا يقبلون كلمة ممن حارب عليًّا أو ظلمه من الصحابة أو التابعين .

وأهل السنّة ، مع اختلافهم من ناحية شروط الرواية والراوى ، لا يقبل بعضهم مالا يصل إليه بطريقته ، ويتشكك بعضهم فى بعض ما يرويه الشيعة لأمور تتعلق بالسند أو بالمتن أو براويه من الشيعة .

وفى أسناد الشيعة فحول – بكل المقاييس – فى العدالة والنزاهة والعلم . تتردد أسماؤهم عالية فى « كتب الحديث » والصحاح ، التى يقوم عليها العلم عند أهل السنّة – والحق أن « جوهر الحديث النبوى » واحد عند هؤلاء وأولاء ، مع تعدد الطرق .

ومن هؤلاء :

– الحارث بن عبد الله الهمدانى (٦٥) صاحب أمير المؤمنين علىّ وخاصته . حديثه فى كتب السنن الأربعة : قال ابن سيرين « كان من أصحاب ابن مسعود خمسة يؤخذ عنهم أدركت أربعة منهم وفاتنى الحارث ، فلم أره . وكان يفضل عليهم وكان أحسنهم . ويختلف فى هؤلاء أيهم أفضل : علقمة ومسروق وعبيدة » .

– علقمة بن قيس النخعى (٦٢) عم الأسود وأخويه أبناء يزيد . كان من أولياء آل محمد . والشهرستانى يعده من الشيعة فهو قد شهد صفين مع أمير المؤمنين . واستشهد فيها أخوه أبى . وخضب علقمة سيفه من دماء الخوارج .

= ابن صلاح الدين . ومن الفلاسفة متشيعون : الكندى فيلسوف العرب (٢٤٦) والفارابى (٣٣٩) وابن سينا (٤٢٨) .

ومن الوزراء المشهورين : أبو سلمة الخلال – قتله السفاح – ويعقوب بن داود . حبسه المهدى وأفرج عنه الرشيد – والفضل والحسن ابنا سهل – قتل المأمون الأوّل وأصهر إلى الثانى ليستلّ سخيمته . وبنو طاهر الخزاعى . ووزراء المأمون . وأبو دلف العجلى والصاحب بن عباد إلخ .

ولم يزل عدوًّا لمعاوية حتى مات . ومكانة علقمة عند أهل السنّة،من المسلمات : كان عنده كل علم ابن مسعود .

وفى بيت علقمة نشأت مدرسة النخعيين . وفيها نجب إبراهيم بن يزيد واسطة العقد فى فقه العراق .

– ظالم بن عمرو قاضى البصرة لعلىّ « أبو الأسود الدؤلى » (٦٩) . احتج به أصحاب الصحاح الستة . وهو واضع علم النحو . ومكان النحو من اللغة ، ومكانة اللغة من القرآن والسنّة وكل علوم الأمة ، يضعان أبا الأسود فى أعلى مكان .

– عبد الله بن شداد بن الهاد (٨١) . أمه سلمى بنت عميس أخت أسماء أم عبد الله بن جعفر ومحمد بن أبى بكر ويحيى بن على .

وهو أخو عمارة بن حمزة لأمه . وحمزة بطل أحد وشهيدها .

روى عن علىّ وأم المؤمنين عائشة وميمونة .

خرج مع القراء أيام ثورة ابن الأشعث فقتل يوم دجيل .

احتج بحديثه أصحاب الصحاح وسائر الأئمة أصحاب المسانيد .

– سليمان بن صرد الخزاعى (٦٥) كبير الشيعة فى عصره . وبطل من أبطال صفين . يحتج به المحدثون . وحديثه عن رسول الله بلا واسطة ، أو بواسطة الصحابى جبير بن مطعم ، موجود فى صحيحى البخارى ومسلم . وحديثه فى غيرهما كثير .

وهو أمير التوابين الخارجين للثأر لدم الحسين . وكانوا أربعة آلاف ساروا إلى عبيد الله بن زياد وهو فى سبعين ألفًا ، فتلاقوا فى موضع يقال له « عين الوردة » حيث استشهد سليمان عن ثلاثة وتسعين عامًا وهو يحارب جيش عبيد الله بن زياد .

أما عبيد الله بن زياد فقتله إبراهيم بن الأشتر النخعى بيده .

– صعصعة بن صوحان العبدى : أسلم فى عهد النبى ولم يره . وهو من مشاهير خطباء العربية الذين خلدت بلاغتهم ، فهو تلميذ فى مدرسة

أمير المؤمنين . شهد معه « الجمل » ومعه أخواه زيد وسيحان . وكانت الراية بيد سيحان يوم ذاك ، فقتل ، فأخذها زيد فقتل ، فأخذها صعصعة وانتصر . ثم شهد صفين مع أمير المؤمنين .

روى عن عليّ وابن عباس . ونفاه المغيرة بن شعبة والى العراق بأمر معاوية ، إلى الجزيرة فى البحرين فمات - احتج به النسائى .

- عمرو بن وائلة - أبو الطفيل - (١١٠) كان صاحب راية المختار ابن عبيد الثقفى . وهو آخر الصحابة موتًا . قدم على معاوية يومًا فقال له :

كيف وجْدك على خليلك أبى الحسن ؟ « يقصد أمير المؤمنين عليًا »

فأجاب : كوجْد أم موسى على موسى . وأشكو إلى الله التقصير .

قال معاوية : كنت فيمن حصر عثمان ؟ قال : لا ولكن فيمن حضره .

قال معاوية : فما منعك من نصره .

قال : فما منعك أنت من نصر عثمان ؟ كنت فى أهل الشام وكلهم تابع لك فيما تريد .

قال معاوية : أو ما ترى طلبى لدمه نصرة له ؟

قال : إنك لكما قال أبو جعف :

لألفينـك بعـد المـوت تـطلبنى وفى حيـــاتى مـــا زودتنى زادا

وحديثه فى صحيح مسلم . روى عن رسول الله وعن عليّ وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن سعد وابن عباس وعمر ومعاذ .

- إبراهيم بن يزيد النخعى (٩٥) أبوه يزيد بن عمرو بن الأسود النخعى . وأخواله الأسود وإبراهيم وعبد الرحمن أبناء يزيد بن قيس . يؤلفون - مع علقمة بن قيس - مدرسة النخعيين . وابن قتيبة يعتبر إبراهيم من الشيعة .

وروايته فى الصحيحين . وعنه يروى حماد بن أبى سليمان . وعن حماد يروى أبو حنيفة .

ومن فحول القرن الثانى كثيرون نختار منهم بعض الأسماء :

– عطية العوفى (١١١) كان أبوه من أصحاب علىّ . وعلىّ هو الذى أعطاه اسمه . ضربه الحجاج ٤٠٠ سوطا لامتناعه عن سبّ علىّ « وحدّ الجلد مائة ! » له ذرية نبلاء من الشيعة . منهم الحسين بن الحسن بن عطية الذى ولى القضاء .

يحتج به أبو داود والترمذى .

– جابر بن يزيد الجعفى (١٢٧) قالوا إنه كان يؤمن بالرجعة . وأحاديثه فى مسلم . وروى عنه النسائى والترمذى وأبو داود وأخذ عنه شعبة . ومن أجل قولهم عنه ووثاقته يروى ابن عبد الحكم عن الشافعى : « أن سفيان (ابن عيينة) قال لشعبة : لئن تكلمت فى جابر لأتكلمن فيك » .

– شعبة بن الحجاج (١٦٠) أوّل من فتش بالعراق عن أمر المحدثين .

– عبد الرزاق بن همام (٢١٠) شيخ أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحق بن راهويه . سئل يحيى ، وهو أستاذ الجرح و التعديل ، عن الرواية عن عبد الرزاق مع تشيّعه . قال : لو ارتد عن الإسلام ما تركنا حديثه .

وكان عبد الرزاق يتكلم فى عثمان . وذكر أمامه معاوية مرة فقال : لا تقذروا مجالسنا بذكر ولد أبى سفيان[1] .

– الأعمش – سليمان بن مهران الأسدى الكوفى – (١٤٨) . يحتج به أصحاب الصحاح الستة . ويروى عنه شعبة وجرير والسفيانان « الثورى إمام الكوفة وابن عيينة إمام المدينة » . بعث إليه هشام بن عبدالملك ليكتب له مناقب عثمان ومساوئ علىّ . فأخذ القرطاس وأدخلها فى فم شاة وقال

---

(١) سأل الترمذى أحمد بن حنبل عن عائشة والزبير وطلحة فأجاب : « من أنا حتى أقول فى أصحاب رسول الله ﷺ ! كان بينهم شىء الله أعلم به » . فأحمد لا يسيغ قدحًا فى الصحابة لورعه . وهم بأعمالهم وآرائهم أصل فى أصوله .. حتى إنه ليبعث إلى يحيى بن معين يقول له : هو ذا تكثر الحديث عن عبد الله بن موسى العبسى وقد سمعته تناول معاوية . وقد أكثر الحديث عنه . فقال يحيى للرسول « اقرأ على أبى عبد الله أحمد بن حنبل السلام وقل له : أنا وأنت سمعنا عبد الرزاق « بن همام » يتناول عثمان ابن عفان . فاترك الحديث عنه . فإن عثمان أفضل من معاوية » .

ولم يترك أحمد حديث عبد الرزاق .

للرسول : قل له : هذا جوابه . قال الرسول : لقد أقسم أن يقتلنى إن لم آت بجوابك . فكتب : « أما بعد ، فلو كان لعثمان مناقب أهل الأرض ما نفعتك ، ولو كان لعلّى مساوئ أهل الأرض ماضرّتك . فعليك بخويصة نفسك والسلام » .

– ابن لهيعة (١٧٤) قاضى مصر . يقول عنه سفيان « عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع » .

– شريك بن عبد الله النخعى القاضى (١٧٧) . كان يقول : « علىّ خير البشر فمن أبى فقد كفر » . سأله الخليفة المهدى يومًا ماذا تقول فى علىّ ابن أبى طالب ؟ قال : ما قال فيه جداك العباس وعبد الله . قال : ما قالا ؟ قال شريك : أما العباس فمات وعلىّ عنده أفضل الصحابة . وكان يرى المسلمين يسألونه عما ينزل من النوازل . وما احتاج هو إلى أحد حتى لحق بالله . وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين . وكان فى حروبه سيفًا منيعًا وقائدًا مطاعًا . فلو كانت إمامته على جور كان أوّل من يقعد عنها أبوك لعلمه وفقهه فى أحكام الله . ولم يمض طويل وقت حتى عزل شريك[1] .

---

(١) ربما كان فى هذه الفترة الحرجة ما قيل من أنه دخل يومًا على المهدى . فقال المهدى : علىّ بالسيف والنطع . قال شريك : ولم ياأمير المؤمنين ؟ قال المهدى : رأيتك فى منامى كأنك تطأ بساطى وأنت معرض عنى . فقصصت رؤياى على من عبرها فقال لى : يظهر لك طاعته ويضمر معصيته . قال شريك : والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل . ولا معبرك بيوسف عليه السلام . أفبا لأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين ؟ فاستحى المهدى وقال : اخرج عنى وأبعده .

وكان الحقد على أمير المؤمنين علىّ غذاءً يوميا على موائد بنى العباس . لا تخلو منه واحدة حتى ولو كانت مائدة لخليفة يتشيع هو المأمون . أنباه عمه إبراهيم بن المهدى – وكان شديد الانحراف عن علىّ – أنه رأى فى المنام عليًّا فمشيا حتى جاءا قنطرة فتقدم لعبورها فأمسكه إبراهيم وقال :

أنت تدعى هذا الأمر بامرأة « يقصد أمر الخلافة وفاطمة الزهراء وأن عليًّا يتقدم بزواجه منها » فما رأيت له بلاغة فى الجواب .. مازادنى على أن قال : سلامًا سلاما .

فنهره المأمون على ما افتضح من عقله الباطن فى صورة حلم . قال :

لقد أجابك أبلغ الجواب . عرف أنك جاهل لا يجاب مثلك . قال الله تعالى : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) .

ولقد نهره أحمد بن دؤاد مرة أخرى إذ لم يتوقر فى مجلس القضاء فقال له : « ياإبراهيم إذا نازعت =

- خالد بن مخلد القطوانى (٢١٣) شيخ البخارى . قال عنه أبو داود . صدوق ولكن يتشيع !
- هشيم بن بشير أوّل أشياخ أحمد بن حنبل المحدثين (١٦٣) .
- عبد الله بن موسى العبسى (٢٦٣) من مشايخ البخارى .
- معروف الكرخى (٢٠٠) زعيم الصوفية .

وصف ابن حنبل معروفًا لابنه عبد الله بن حنبل عندما سأله : هل عنده علم ؟ فقال : كان عنده رأس الأمر كله . تقوى الله .

التلاميذ من الشيعة :

صنّف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتابًا جمع فيه رجال الصادق ورواة حديثه وأنهاهم إلى أربعة آلاف . وكتب من أجوبته أربعمائة مصنف .

وإنما أمكنه من ذلك انقطاعه المخلص للتعليم عامة وتعليم السنن والفقه والتفسير خاصة ، للشيعة ولغيرهم .

كان الرواة من تلامذته ومن غيرهم - كما يقول اليعقوبى - يروون عنه فيقولون : قال « العالم » .

وكثيرًا ما جلس فى مجلس الإمام المخضرمون إلى جوار الجيل الجديد من المتفقهة ، ومن الأوّلين قيس الماصر ، وأبان بن تغلب . ومؤمن الطاق .

وكثيرًا ما درب التلاميذ بين يديه ليصنعوا على عينيه : يفد على المدينة وافد من الشام فيغدو إلى المجلس يناقشهم فى « وجوب تنصيب الإمام » فيتجارون فى جداله حتى يسلم لهم . ثم يعلق الإمام الصادق على طريقتهم أو قدرتهم . فيقول لحمران بن أعين : « تجرى الكلام على الأثر فتصيب » . ثم يلتفت لهشام

= فى مجلس الحكم بحضرتنا امرءًا فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتًا ولا أشرت بيد . وليكن قصدك أمما . وريحك ساكنة . وكلامك معتدلاً ووفّ مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم » .

وكان مغنيًا يعربد . نصبه أهله خليفة لمدة عامين فى ثورة على المأمون . ثم عفا عنه المأمون بعد أن ضبطوه يحاول الفرار فى ثياب امرأة .

ابن سالم فيقول له : « تريد الأثر ولا تعرفه » . ويلتفت إلى الأحول « الطاقى » ويقول : « قيّاس روّاغ تكسر باطلًا بباطل . لكن باطلك أظهر » .

ويقول لقيس الماصر « تتكلم وأقرب ما تكون إلى الخبر عن رسول الله . أنت والأحول قفازان حاذقان » .. وأخيرًا يقول لهشام بن الحكم : « ياهشام : لا تكاد تقع . تلوى رجليك . إذا هممت بالأرض طرت . مثلك يكلم الناس . فاتق الزلة .. » .

ولقد يلاحظ المرء من ذلك تعدّد طرقهم وتفاوت علمهم ونفاذ بصر الإمام إلى خصائصهم ، ودوره فى تصويب وتدريب كل منهم . وهو لا يتركهم دون تشجيع : يشير إلى زرارة بن أعين وبريد العجلى وأبى بصير المرادى ومحمد ابن مسلم فيقول : « لولا هؤلاء لانقطعت آثار النبّوة واندرست » . وكان فى أسرة زرارة الحفّاظ المدقّقون يتصدّرهم تلميذا الإمام ، الحسن والحسين ابنا زرارة . والإمام يهب الأسرة جلال الذكرى فى التاريخ فيقول : « لولا أسرة زرارة ونظرائه لانقطعت أحاديث أبى » .

وهو إذ يثنى على أسرة زرارة ، يشجع النظراء ، وربما لا يتركهم الإمام دون تضييف :

فالمستشرق رونلدسن يصوّر بعض مجالس الإمام مع تلاميذه فيقول ما تعريبه : « ومن الوصف الذى نقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه فى بستانه الجميل فى المدينة ، واستقباله الناس على اختلاف مذاهبهم ، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية . وقد ساهم تلاميذه مساهمة عظمى فى تقدّم علمي الفقه والكلام . وصاراثنان من تلامذته وهما « أبو حنيفة ومالك » فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية . وأفتوا بالمدينة أن اليمين التى أعطيت فى بيعة المنصور لا تعتبر ، مادامت أعطيت بالإكراه . ويروى أن تلميذًا آخر من تلامذته وهو « واصل بن عطاء » رئيس المعتزلة جاء بنظريات فى الجدل مما أدى إلى إخراجه من حلقة تدريس الإمام جعفر وكان « جابر بن حيان » الكيماوى الشهير من تلامذته أيضا » .

إليك بعض الأسماء :

« أبان بن تغلب » (١٤١) تلميذ زين العابدين والباقر والصادق .

قال له الباقر : « اجلس فى المسجد وأفت الناس . فأنا أحب أن يرى فى شيعتى مثلك » وقال له الصادق : « ناظر أهل المدينة فأنا أحب أن يكون مثلك من رواتى ورجالى » .

كان إذا دخل على الصادق عانقه وأمر بوسادة تثنى له ، وأقبل عليه بكله ، ولما مات قال : أما والله لقد أوجع قلبى موت أبان .

روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث . وهو - بهذه المثابة - شاهد على التعاقب والاستمرار والشمول فى علم أهل البيت . يعرف الشيعة بأنهم « الذين إذا اختلف الناس أخذوا بقول علىّ وإذا اختلف الناس عن علىّ أخذوا بقول جعفر بن محمد » فهو القائل فى جعفر بن محمد « ماسألته عن شىء إلاّ قال : قال رسول الله » .

وكان إذا جلس بالمسجد تفوضت إليه الحلق . وأخليت له سارية النبى . فيجيئه الناس يسألونه فيجيئهم بمختلف الأقوال . ثم يذكر قول أهل البيت ويورد حججه . ومن أجل هذا المنهج فى التدريس كان الصادق يوصى التلاميذ بأن يعبّوا من منابعه ، يقول لأبان بن عثمان : إيت أبان فإنه سمع عنى ثلاثين ألف حديث فاروها عنه . فهو لا يتردد فى تفضيله حتى ليجعله طبقة بينه وبين سميّه فى الرواية عنه .

وقد احتج بحديثه مسلم بن الحجاج فى صحيحه وأصحاب السنن الأربعة . وروى عنه سفيان بن عيينة شيخ الشافعى . وله كتب شتى منها كتاب فى الأصول .

- ثابت بن دينار (١٥٠) - أبو حمزة الثمالى - تلميذ الصادق والسدى المفسر . يقول فيه الرضا حفيد الصادق : أبو حمزة فى زمانه كلقمان فى زمانه .

استشهد بنوه الثلاثة حمزة ونوح ومنصور فى خروجهم مع زيد بن على - روى عنه الترمذى .

- « مؤمن الطاق » - كما يسميه الشيعة - نسبة إلى « طاق المحامل » حيث كان متجره . أو « شيطان الطاق » كما يسميه فقهاء السنة :

هو محمد بن على بن النعمان الأحول . ويقال إن أبا حنيفة هو الذى لقّبه بشيطان الطاق لمناظرة جرت بين الخوارج وبينه أمام أبى حنيفة . والراجح أن خصومه سمّوه كذلك لعبقريته . أما الإمام الصادق فيناديه بعبارة بارعة يرضاها الجميع « ياطاقى » أو يقول : « صاحب الطاق » .

كان مناظرًا لا يشق له غبار . رآه تلميذ آخر يناظر ، وأهل المدينة يضيقون بمناظرته حتى قطعوا آراءه ، وهو لا ينكف عن الجدل . فنبهه على أن الإمام ينهاهم عن الكلام . فالتفت إليه وقال : أو أمرك أن تقول لى ؟ قال : لا . ولكنه أمرنى أن لا أكلم أحدًا . قال : اذهب فأطعه فيما أمرك .

وسمع الصادق بالواقعة ، من التلميذ ، فتبسم . بل هو قال له : إن صاحب الطاق يكلم الناس فيطير . أما أنت إن قصوك لن تطير .

ويروى أنه ناظر زيد بن علىّ فى إمامة الإمام الصادق .

كان أبو حنيفة يتهمه بالرجعة . وهو يتهم أبا حنيفة بالقول بالتناسخ . تلاقيا بالسوق يومًا ومع صاحب الطاق ثوب يبيعه . قال أبو حنيفة أتبيعه إلى حين رجعة ؟ قال : إن أعطيتنى كفيلاً أن لا تمسخ قردا .

ولما مات الإمام الصادق قال له أبو حنيفة : مات إمامك . فأجابه : لكن إمامك لا يموت إلا يوم القيامة . إمامك إبليس !

وله كتاب فى مناظراته لأبى حنيفة .

- أبان بن عثمان بن أحمر البجلى . يروى عن الصادق ثم عن الكاظم ، وله مؤلفات شتى ، وذكره ابن حيان فى الثقات .

وهو على رأس الستة الذين أجمع الشيعة على تصحيح ما يصح عنهم والإقرار بالفقه لهم . وهم : أبان . وجميل بن دراج . وعبد الله بن مسكان . وعبد الله ابن بكير . وحماد بن عيسى . وحماد بن عثمان .

- هشام بن الحكم : (١٧٩) نشأ بالكوفة ودخل بغداد للتجارة واستقر

بها . ولزم الإمام الصادق ثم صار خصيصًا بالإمام الكاظم يقول عنه ابن النديم : هو من جلّة أصحاب جعفر . وهو من متكلمى الشيعة ممن فتقوا الكلام فى « الإمامة » .

عمل مدة من الزمان قيما بمجالس الكلام عند يحيى بن برمك وزير الرشيد .

وكان أوّل أمره من أصحابْ جهم بن صفوان ثم انتقل إلى القول بالإمامة فى شبابه . فكان الصادق يدعو له : « لا تزال مؤيدًا بروح القدس ما نصرتنا بلسانك » .

ونفذ هشام إلى المعتزلة من خلال « النظام » . وظلّ أثره قويًّا فى غير المعتزلة حتى ظهر المذهب الأشعرى .

وهشام هو الذى يقول : ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا إلى من ولّاه الله من سمائه فعزلوه وإلى من عزله الله من سمائه فولّوه « يقصد تبليغ علىّ سورة براءة بدلاً من أبى بكر . وقول جبريل للرسول : لا يؤديها عنك إلا أنتِ أو رجل منك » .

كان إذا قصد إفحام معارضيه لم يثبت أمامه رجل . سمعه الرشيد فى بعض مجالس يحيى بن برمك وكان يحضرها من وراء ستر فقال : « إن لسان هشام أوقع فى نفوس الناس من ألف سيف » .

ولما فتك الرشيد بالبرامكة طلب هشامًا فاختفى . فأخذ به خلقًا كثيرًا ثم أطلقهم بعد أن مات هشام مستترًا .

ولم تكن مجالس المناظرات خالية من الخطر . يسأل هشامًا سائل ذات يوم : « أما علمت أن عليًّا نازع العباس « جدّ الرشيد » – إلى أبى بكر ؟ فأيهما كان الظالم لصاحبه ؟– قال هشام فيما بعد : « قلت فى نفسى : إن قلت العباس بلغ ذلك الرشيد ، وإن قلت عليًّا ناقضت نفسى » – قال هشام : لم يكن فيهما ظالم . قال السائل أفيختصم اثنان .. وهما محقان !! قال هشام : نعم اختصم الملكان إلى داود ، وليس فيهما ظالم . وإنما أرادا أن ينبهاه . كذلك اختصم هذان

إلى أبى بكر ليعلماه ظلمه » . فهو ينجو من المزالق ، ويكرم الرجلين ، ويفضل عليًّا على أبى بكر .

ومن وصية الإمام الصادق له قوله : « ياهشام من أراد الغنى بلا مال ، وراحة القلب من الحسد ، والسلامة فى الدين ، فليفزع إلى الله فى مسألته إن كان له عقل . فمن عقل قنع بما يكفيه . ومن قنع استغنى . ومن لم يقنع لم يدرك الغنى أبدًا .. ياهشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا .. العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه . إن الزرع ينبت فى السهل .. من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه » .

وكان يحذّره من التشبيه والتجسيم ، فلقد كانت تبلغه عنه زلّات فى هذا الشأن . ومع ذلك لا يكفّ عن تشجيعه . فيستعيده رواية ما وقع منه مع عمرو ابن عبيد زعيم المعتزلة . ويستحى هشام . فيقول له الإمام : « إذا أمرتكم بشىء فافعلوا » . فيقول هشام :

« بلغنى ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه فى مسجد البصرة . فعظم ذلك على . فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة وأتيت المسجد ، وإذا بحلقة عظيمة فيها عمرو .. والناس يسألونه .. فقعدت فى آخر القوم على ركبتى . ثم قلت : أيها العالم . إنى رجل غريب . تأذن لى فى مسألة .. قلت : ألك عين ؟ قال : نعم فقلت : ألك أنف ؟ .. ألك لسان ؟ .. ألك أذن ؟ قال : نعم . قلت : ألك قلب ؟ قال : نعم . قلت : فما تصنع به ؟ قال : أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح والحواس . قلت : أو ليس فى هذه الجوارح غنى عن القلب . قال : لا . قلت : لابد من القلب وإلّا لم تستيقن الجوارح ؟ قال : نعم . فقلت : ياأبا مروان . والله تعالى لم يزل جوارحك حتى جعل لها إمامًا يصحح لها الصحيح وتتيقن به مما شكت فيه . ويترك هذا الخلق كلهم فى حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إمامًا يردّون إليه شكّهم وحيرتهم . ويقيم لك إمامًا لجوارحك تردّ إليه شكك وحيرتك ؟.. فسكت . ثم التفت إلىّ وقال : أنت هشام ابن الحكم » ..

فضحك الإمام وقال : من علّمك هذا ؟ قال : شيء أخذته منك .. قال : « هذا والله مكتوب فى صحف إبراهيم وموسى » .

وظاهر أن طريقته كانت طريقة الإمام فى استعمال المحسوسات والاعتبار بها فى الإثبات واستعمال العقل بنزاهة في الاستدلال . وسنعرض لها فيما بعد .

بلغت مؤلفات هشام سبعة عشر مؤلفًا منها كتاب « الإمامة » . كتاب الوصية والردّ على من يطلبها . وكتاب الحكمين .

« جابر بن حيان » – أوّل من استحق فى التاريخ لقب كيميائى ، كما تسميه أوربة المعاصرة . وهو الذى يشير إليه الرازى (٢٤٠ – ٣٢٠) – جالينوس العرب – فيقول : « أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان » . والمؤرخون – إلّا بعضًا من غير المسلمين – متفقون على تلمذته للإمام . وعلى صلته أو تأثره به فى العلم والعقيدة . وأكثرهم على أنه صار بعد موت الإمام من الشيعة الإسماعيلية . يقول فى كتابه الحاصل : (ليس فى العالم شيء إلّا وفيه من جميع الأشياء . والله لقد وبخنى سيدى « يقصد الإمام الصادق » على عملى فقال : والله ياجابر لولا أنى أعلم أن هذا العلم لا يأخذه عنك إلا من يستأهله وأعلم علمًا يقينًا أنه مثلك ، لأمرتك بإبطال هذه الكتب من العلم) .

وكانت كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدتها . . قيل إنه أخذ علمه عن خالد بن يزيد ثم أخذ عن الإمام جعفر ،

وهو يشير إلى الإمام دائمًا بقوله : « سيدى » ويحلف به . ويعتبره مصدر الإلهام له .

يقول فى مقدمة كتابه الأحجار : « وحق سيدى لولا أن هذه الكتب باسم سيدى – صلوات الله عليه – لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد » .

ذكر له المستشرق كراوس Kraus ناشر كتبه فى العصر الحديث أربعين مؤلفًا . وأضاف ابن النديم فى القرن الرابع للهجرة عشرين كتابًا أخرى . وينقل ابن النديم قوله : « ألفت ثلاثمائة كتاب فى الفلسفة وألفا وثلاثمائة رسالة فى صنائع مجموعة ، وآلات الحرب ، ثم ألّفت فى الطّب كتابًا عظيمًا ثم ألّفت كتبًا صغارًا

وكبارًا ، وألّفت فى الطب نحو خمسمائة كتاب . ثم ألّفت فى المنطق على رأى أرسطاليس . ثم ألّفت كتاب الزيج أيضًا نحو ثلاثمائة ورقة . ثم ألفت كتابًا فى الزهد والمواعظ . وألّفت كتبًا فى العزايم كثيرة حسنة وألفت فى الأشياء التى يعمل بخواصها كتبًا كثيرة . ثم ألفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضًا على الفلاسفة . ثم ألفت كتابًا فى الصنعة يعرف بكتب الملك . وكتابًا يعرف بالرياض » .

* * *

وتلاميذ الصادق ، المشهورون ، فيما عدا من سلف ذكرهم ، من كبار أهل السّنة أشياخ للفقهاء فى جميع المذاهب منهم : سفيان بن عيينة . وسعيد بن سالم القداح . وإبراهيم بن محمد بن أبى يحيى . وعبد العزيز الدراوردى . وقد روى الشافعى عن كل هؤلاء . وجرير بن عبد الحميد ، وإبراهيم بن طهمان ، وعاصم بن عمر . . بن عمر بن الخطاب . . وأبو عاصم النبيل (٢١٢) شيخ أحمد بن حنبل . وأبو عاصم آخر تلاميذ الصادق وفاة ، وقد روى عنه كتابًا . والكسائى عالم اللغة ، وعبد العزيز بن عبد الله الماجشون زميل مالك فى الفتيا فى موسم الحج ، وعبد العزيز بن عمران . . بن عبد الرحمن بن عوف . وابن جريح إمام مكة . والفضيل بن عياض . والقاسم بن معن . وحفص بن غياث والثلاثة أصحاب أبى حنيفة ، ومنصور بن المعتمر . ومسلم بن خالد الزنجى شيخ الشافعى بمكة . ويحيى بن سعيد القطان .

وإنما أحدثت السياسة الخلافات بين فقهاء السنة والشيعة فأنتجت وجوهًا لخلافات فقهية وحديثية . فوجدنا للشيعة رواةً ليسوا من رواة الكتب التى يتداولها أهل السنة ومنها الصحاح الستة المشهورة . فالشيعة لايقبلون أحاديث من حاربوا عليًّا أو أخطئوا فى حقه .

ومن الناحية الأخرى وجدنا فى بعض كتب الحديث لأهل السنة ، أوصافا للرواة من الشيعة ، تتضح منها جذور هذه الخلافات .

وإليك بعض أمثال :

- كان الشعبى - شيخ المحدثين بالكوفة على رأس المائة الأولى - يكذب الحارث الهمدانى ، صاحب على ، فيسلط الله على الشعبى ثقات أثباتًا من الرواة يستخفون به .

- وأبان بن تغلب نجبة مدرسة السجاد والباقر والصادق . يقول فيه الحافظ السعدى : زائغ مجاهر . ويقول فيه الجوزجانى : زائغ مذموم المذهب . ويقول عنه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال : « شيعى جلد . ولكنه صدوق . فلنأخذ صدقه وعليه بدعته » .

- وعلى هذا النحو تجد خالد بن مخلد القطوانى (٢١٣) ، وهو من مشايخ البخارى ، يقول عنه ابن سعد إنه كان مفرطًا فى التشيّع . ويقول عنه أبو داود : « صدوق » لكنه يتشيع .

- وتجد تليد بن سليمان . يقول فيه أبو داود - تلميذ أحمد - رافضى يشتم أبا بكر وعمر . فلنا « صدقه » وعليه « بدعته » . لكن ابن حنبل يأخذ عنه . وحسب الرجل شهادة ابن حنبل .

- وجعفر بن سليمان يقول فيه ابن عدى : « أرجو أنه لابأس به » ، فى حين أن أحمد بن حنبل عندما يقال له إن سليمان بن حرب يقول لاتكتبوا حديث جعفر بن سليمان ، يرد أحمد : « لم يكن ينهى عنه إنما كان جعفر يتشيع » فيبين سبب ظلم سليمان له .

- ولقد تجد الراوية يقول بالرجعة ، فيضعفه يحيى بن معين ، أستاذ الجرح والتعديل وزميل أحمد بن حنبل ، لكنك تجد عبد الرازق بن همام يقول بالرجعة ومع ذلك يروى عنه الأعمش وسفيان وشعبة وابن حنبل ويحيى نفسه وسفيان بن عيينة شيخ المحدثين بمكة وأستاذ الشافعى . وأحمد بن حنبل صاحب المسند الأعظم .

- أو تجد زبيد بن الحارث ، يقول فيه الجوزجانى : « كان ممن لايحمد الناس مذاهبهم » . ويضيف : « احتملهم الناس لصدق ألسنتهم فى الحديث » .

لذلك يحتج به أصحاب الصحاح وأرباب السنن ، وكمثلهم الشعبى وإبراهيم ابن يزيد النخعى .

والحافظ بن حجر فى تهذيب التهذيب يقول فى الجوزجانى : « وأما الجوزجانى فلا عبرة بحطه على الكوفيين فالتشيّع فى عرف الأقدمين هو . . أن عليًّا كان مصيبًا فى حروبه وأن مخالفه مخطئ . مع عدم تقديم الشيخين . وربما اعتقد بعضهم أن عليًّا أفضل الخلق بعد رسول الله . وإذا كان معتقد ذلك ورعًا دينًا ، صادقًا ، مجتهدًا ، فلا تردّ روايته » .

وهذا هو الذى جعل روايات الرواة الذين ذكرناهم ، وأمثالهم ، تتردد فى كتب الصحاح والسنن .

هكذا كان انقسام الأمة نقمة على العلم . وكان الوقوف على أبواب السلاطين نقمة أخرى . والوسائل طيعة ، من ترهيب وترغيب وبث للعيون والأرصاد ، وبخاصة على الشيعة . مما أورث هؤلاء العمل بالتقية . والتقية أو الحذر يوجبان الانطواء أو التباعد .

وفى عصر الخلافة العباسية كان « مذهب السلطان » مذهب أبى حنيفة فى المشرق ، ومذهب مالك بإفريقية فى المغرب ، فى حين كانت المعتزلة تتزعم التجديد وتلتصق بالخلفاء . وكان – الشافعية – كإمامهم – أساتيذ جدل ، وكمثلهم كان أهل الظاهر أتباع داود ، وقد بدأ شافعيًّا . وأما المحدثون فقد كانوا يمثلون السلف والدفاع عن السنّة ، ومثلهم المالكية .

وكانت خلافات المتفقهة سمة العصر .

وفى القرن الرابع الهجرى جاب المقدسى (٣٨٠) العالم الإسلامى ، فذكر أن أهل الأندلس كانوا إذا وقعوا على معتزلىّ أو شيعىّ قتلوه ، ثم وصف تناحر الوسط العلمى فى عصره بعبارات حادّة ، قال : « قلما رأيت فى بغداد من فقهاء أبى حنيفة إلّا رأيت أربعًا : الرياسة ، مع لباقة فيها ، والحفظ ، والخشية ، والورع . وفى أصحاب مالك أربعًا : النقل والبلادة والديانة والسنّة . وفى أصحاب الشافعى : النظر والشغب والمروءة والحمق – وفى أصحاب داود :

الكبر والحدّة والكلام واليسار : وفى الشيعة : البغضة ، والفتنة ، واليسار ، والصيت » .

أماالصفتان الأوليان اللتان يصف بهما الشيعة فمردّهما إلى التمسك بمقدساتهم وعلومهم فى مواجهة المتعصّبين الذين لا يكفّون عن التناوش معهم من قريب أو بعيد . وأما الصيت ، فأىّ صيت فى الأمة أبعد من صيت أهل البيت أو محببهم ! وأما اليسار فمردّه إلى فتوح الله عليهم ، بالعلم الذى طالما علّمهم الإمام جعفر الصادق ، فى « منهج كامل فى الاقتصاد » ، سنعرض له فيما بعد .

الفصل الثانى

الدرس الكبير

« لكل نبى وصىّ ووارث . وإن وصيّى ووارثى علىّ بن أبى طالب »

« حديث شريف »

أحدث انقسام الأمة بفعل بنى أمية أثره فى الفقه . وليس كلام بعض المسلمين فى أفراد من الصحابة إلّا أثر من آثار هذا الانقسام . ومن الطبيعى ألّا تمتنع الألسنة عما لم تمتنع عنه الأسلحة . وأن تستمر معارك الكلام وإن توقفت رحى الحرب .

شق أهل الشام عصا الطاعة لأمير المؤمنين منذ استخلف . وانتهت يوم « وقعة الجمل » فتنة عمياء فيومئذ قال محمد بن الحنفية وهو يحمل الراية : هذه والله الفتنة الكاملة العمياء . وناداه أمير المؤمنين : « هل عندك فى جيش ، مقدمه أبوك ، شىء ! » .

ونفر البطل للقاء أهل الشام فى صفين . ورفع جيش معاوية المصاحف . ثم كانت خدعة التحكيم وخروج الخوارج وهزيمتهم . لكنهم ظلوا يمثلون التعصب العميق لفكر لم يتمرس بالسياسة وتبعات القيادة وحقن الدماء : فلاموا عليًّا لقبوله التحكيم مع معاوية[1] . ومنذئذ لم يوالوا عليًّا ولا من والاه – لكن الدولة

---

(١) كفّروا عليًّا لقبوله التحكيم ورأوا أن الخلافة لابدّ لها من بيعة الجمهور . وأنها لا تنحصر فى بيت معين وبرئوا من علىّ وعثمان ومعاوية . الأوّل لقبوله التحكيم والثانى لمخالفة سياسة الشيخين =

لم تؤل إليهم ، ولهذا قلّ أثرهم فى الاتجاه العام للأمة .

وإنما الذى أحدث أثره العظيم فى الأمة خلاف معاوية . إذ ولى الحكم وألزم ولاته بالطعن فى علىّ . والتنكيل بمن والاه . ونظرت العامة إلى مصلحتها العاجلة فى توقى الشرور من السلطة . ونظر المتفقهون – ومعهم جمهور الأمة – بفقه طابعه الشمول ، أنزل الخلفاء الراشدين الأربعة منازلهم . وسبحت ثلة منهم بزوارق السلطة خوفًا أو طمعًا . ورأى البعض إرجاء إبداء الآراء . وبطش بنو أمية جبارين . فقلّ عدد الشيعة أو توارى بعضهم تقية ، كما قلّ اتصال أهل البيت بالعامة وفقهاء الجمهور . واستمسك الشيعة بفقههم وروايات الأحاديث من أئمتهم أو عن أئمتهم .

ولما قتل معاوية حجر بن عدى ، لغضب الصحابى الجليل من القدح فى اهل البيت ، كان معاوية يقتل استقلال الآراء عن السلطة . ثم كانت البطشة الكبرى بأهل البيت فى كربلاء (سنة ٦١) متابعة من يزيد لأبيه فى حماية « العرش » الأموى بغير حساب . ثم صفّت وقعة الحرة (٦٣) جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار .

وفصلت حروب المختار بن عبيد بيّن أشياع السلطة وبين علىّ من جديد – ولم تكن حرب ابن الزبير مع أهل الكوفة ، ولا حربهم لبنى مروان ، إلّا أسبابًا جديدة لانكماش الشيعة . والحجاج – والى عبد الملك بن مروان – مصلت سيفه . وكمثله الولاة بعده .

فى أخريات هذا العهدكان زين العابدين قد ملأ الأفق بورعه وعلمه وسخائه ، حتى مات . وبزغ نجم الباقر فى سماء المدينة ، وأعقبه الصادق ، ليبدأ إمامةً مهّد لها أبوه . ومكن لهم أن ينشروا العلم ، الانصراف عن السياسة

= أبى بكر وعمر والثالث لاستيلائه على الأمر بالقوة .. يأخذون بظاهر العبارة من القرآن . ولا يأخذون من السنّة إلّا ما يرويه من يتولونهم . وعمدتهم فى ذلك الأحاديث المروية على عهد الشيخين . وكل من تعدى حدود الله عندهم فاسق ، ولذلك عدّوا أشياع معاوية والذين لم يتبرءوا من علىّ وعثمان – وهؤلاء جمهور الأمة – خارجين على الإسلام واستحلوا ما لهم وقتلهم ، وبهذا نفر الناس منهم .

أو المطالبة بالحكم ، فأشرق الفجر الجديد .

لكن خروج زيد بن على ، ثم هجوم الخوارج على المدينة ، ثم هزيمتهم ، ثم هزيمة بنى مروان أمام العباسيين ، ثم فتكات العباسيين بأبناء علىّ ، وقد تضاءلت بالنسبة لها صعقات الأمويين ، كل أولئك زاد القطيعة بين أصحاب السلطة وبين أهل البيت ، والانطواء من الشيعة على أنفسهم ، والانفصال بين معظم الرواة من أهل السنة وبينهم :

فرأينا عامر بن شراحبيل الشعبى (١٠٤) شيخ المحدثين فى العراق وقاضى بنى مروان يقول : « ماذا لقينا من آل علىّ إذا أحببناهم قتلنا وإن عاديناهم دخلنا النار » .

ومن كثرة ما عمل للخلفاء ، صار دربًا على معاملة الأمراء : سأله الحجاج : كم عطاءك قال : ألفين . فاستدرك الحجاج وقال : ويحك كم عطاؤك ؟ قال : ألفان . قال : لم لحنت ؟ قال : لما لحن الأمير لحنت . ولما أعرب أعربت ..

وسمعنا الحسن البصرى (١١٠) الجسور ، إذ يروى عن علىّ ، يقول : « قال أبو زينب » – ولما سأله ابن عياش : « ما هذا الذى يقال عنك إنك قلته فى علىّ ؟ » أجاب : « ياابن أخى . احقن دمى من هؤلاء الجبابرة . لولا ذلك لسالت بى أعشب » .

ولما تقطعت بين الشيعة وغيرهم الأسباب ، اضمحلت ، أو قلّت ، المشاركة العلمية . وصار هنالك عالمان فقهيان متقاطعان .

* * *

ولم يكن غريبًا فى هذه القطيعة أن تقلّ رواية أهل السنة عن أهل البيت . أو أن نرى مالك بن أنس – فى المدينة ذاتها – يُسأل عن سبب ندرة الرواية منه عن علىّ وابن عباس فيجيب : لم يكونا ببلدى . (يقصد أن عليًّا كان بالكوفة وابن عباس بمكة) . أو نراه يقتصر ، فيما يرويه عن الإمام الصادق ، على

أحاديث قليلة جدًّا فى الموطأ ، وفيه نحو من ألف حديث[1] .

ولما قال البخارى بعد أكثر من مائة عام من قيام الدولة العباسية – عن صحيحه « ما وضعت فيه إلا الصحيح . وما تركت من الصحاح أكثر » كان فى هذا القول دلالة على الاحتياط العلمى ، وعلى أن أحاديث صحاحًا قد أغفلت . وأنها أكثر مما تضمنه كتابه من الصحيح . ولعله بهذا يقصد ، فيما يقصد ،

(١) من أدلة وحدة العلم أو التقارب فيه حديث ، من هذه القلة ، هو حديث اليمين مع الشاهد . وهى مسألة أريق فيها مداد كثير لفقهاء أهل السنّة . جاء فى الموطأ رواية محمد بن الحسن : « أخبرنا مالك أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه أن النبى ﷺ قضى باليمين مع الشاهد » .

قال محمد بن الحسن – ذكر ذلك ابن أبى ذئب عن ابن شهاب قال : سألته عن اليمين مع الشاهد فقال : بدعة . وأوّل من قضى فيها معاوية . وابن شهاب أعلم عند أهل المدينة بالحديث من غيره .

وكذلك ذكر ابن جريج عن عطاء بن أبى رباح قال : « كان القضاء الأوّل لا يقبل إلاّ شاهدين وأول من قضى باليمين مع الشاهد عبد الملك بن مروان .. » .

وهذا الحديث وارد فى سنن الترمذى وابن ماجه ورواه عن ابن عباس مسلم وأبو داود والنسائى ومسند أحمد . والصحاح الخمسة تذكره موصولاً – وتعمل به المدينة ومكة ، وقد ذكر ابن الجوزى أن رواة الحديث يزيدون عن عشرين صحابيا .

والمذاهب الثلاثة تعمل به . وأبو حنيفة لا يعمل به .

والشافعى يرى زين العابدين أعلم أهل المدينة ، يقول فى دفاعه العلمى المجيد عن حجية خبر الواحد فى الرسالة : « وفى تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفى بعض هذا منها ... ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم إلى من شاهدنا هذا السبيل .. ووجدنا على بن حسين « يقصد زين العابدين » يقول : أخبرنا عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أن النبى قال : « لا يرث المسلم الكافر » فثبتها سنة ويثبتها الناس بخبره سنة .

ووجدنا كذلك محمد بن على بن حسين « يقصد الباقر » يخبر عن جابر عن النبى وعن عبد الله ابن أبى رافع عن أبى هريرة فينبت كل ذلك سنة .

ووجدنا محمد بن جبير بن مطعم . ونافع بن جبير بن مطعم ، ويزيد بن طلحة بن ركانة ، ومحمد بن طلحة بن ركانة . ونافع بن هجير بن عبد يزيد ، وأبا سلمة بن عبد الرحمن ، وحميد بن عبد الرحمن ، وطلحة إن عبد الله بن عوف ، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وخارجة بن زيد بن ثابت . وعبد الرحمن بن كعب بن مالك . وعبد الله بن أبى قتادة . وسليمان بن يسار . وعطاء بن يسار ، وغيرهم من محدثى أهل المدينة ، كلهم يقول حدثنى فلان لرجل من أصحاب النبى عن النبى أو من التابعين عن رجل من أصحاب النبى ، فيثبت ذلك سنة » .

وإنك لتلاحظ أن الشافعى يستند إلى رواية زين العابدين والباقر فيضع زين العابدين فى مقام خاص به . هو الأوّل . ويضع ابنه الباقر فى المقام التالى لأبيه . ثم يجىء بالأبناء العلماء ، للصحابة العظماء ، وراء هذين المقامين ، ويجىء بهم مجموعين . ثم يجىء بفضلاء التابعين بعد هؤلاء جماعات .

أحاديث « علىّ » وأهل البيت فيما تركه من صحاح . فهو لم يرو أحاديث أهل البيت ، فى حين احتجّ بها الجميع وورد الكثير منها فى سائر الصحاح والمسانيد[1] .

ومع أن الحرب الكلامية والافتراءات الموجهة للرواة كانت ضروسًا فقد وثق الأئمة الفقهاء والمحدثون - أعظم التوثيق - الإمام جعفر الصادق . وشرفوا بالرواية عنه . ووقفت المذاهب الأربعة موقف الإجلال له . فكان ذلك إعلانًا من أهل العلم أن أئمة أهل البيت للجميع لا للشيعة وحدهم . وأن الحديث متى ثبت عنهم هو حديث جدّهم ﷺ :

وكان يوسف بن أبى يوسف يروى عن أبيه عن أبى حنيفة عن « جعفر ابن محمد » عن سعيد بن جبير عن ابن عمر حديث رسول الله . وفى الوقت ذاته يروى عن أبيه عن أبى حنيفة عن إسحاق بن ثابت عن أبيه عن علىّ ابن الحسين حديث رسول الله، مع أن علىّ بن الحسين «زين العابدين» لم ير جدّه - واللقاء من شروط البخارى - ويروى يوسف عن أبيه عن أبى حنيفة عن « جعفر بن محمد » حديث رسول الله - مع أن الصادق حفيد زين العابدين - فهذا أبو حنيفة ومن روى عنهم - كمثل مالك وغيره - يروون عن أئمة أهل البيت ، ويأخذون بحديثهم عن رسول الله ، مع أنهم لم يلقوه أو لم يكن بينهم وبين الرسول صحابى .

والكتب التى يقوم عليها الفقه الشيعى تروى كلها عن الإمام جعفر الصادق

---

(١) روى أحمد بن حنبل أحاديث أهل البيت فى مسنده الأعظم . وروى كذلك مسلم بن الحجاج (٢٦١) وسليمان بن الأشعث السجستانى « أبو داود - ٢٧٥ » ومحمد بن عيسى الترمذى (٢٧٩) ومحمد بن يزيد بن ماجه (٢٧٩) والنسائى أحمد بن على بن شعيب (٣٠٣) بقية أصحاب الصحاح كما يسميها أهل السنة .

والنسائى من شهداء الوفاء لعلىّ : خرج من مصر إلى الشام فسألوه عن فضائل معاوية - إذ كان قد ألف فى فضائل علىّ - وقيل إنه أجاب : ألا ترضى رأسا برأس حتى تفضل ؟ أو قال : لا أعلم له فضيلة . فما زالوا يدفعونه فى خصيته حتى أخرجوه من المسجد وقد أشرف على الموت فقال : احملونى إلى مكة فحمل إليها حيث توفى .

أو الأئمة المعصومين . يستوى فى ذلك الكتب الأربعة الشهيرة وغيرها .

فى هذه الأضواء نستطيع أن نفهم انقسام العلم بانقسام مصادره . وانحسار هذاالبحر من بحاره عن الجمهور ، باقتصاره على الشيعة . ولا جرم كانت فيه كفاية لإنتاج دق الفقه وجله ، بما فيه من غزارة ، وباعتماده على النقل والعقل معًا . وبإقبال الشيعة – شأن الأقليات جميعها – على تعميق علومها ، وتقوية شعوبها . وساعدهم انفتاح الفكر واجتهاد الرأى فى تطهير وسطهم العلمى والاجتماعى ممن ينتسبون ، أو ينسبهم الخصوم ، إليهم ، من الغلاة فى علىّ ابن أبى طالب[1] . ثم تمييز علمهم من علم المخالفين الذين يتولون غير الإمام

---

(١) كان وجود غلاة فى الشيعة فرصة للمغرضين ، إذ نسبوا عمل الغلاة إلى الشيعة كلهم . فأحدثوا بذلك أثرًا كاذبًا فى أفهام الآخرين ، بدعاوى هم منها براء ، مثل أن الإمام هو الله ظهورًا واتحادًا . وهو غلوّ يبلغ الكفر . وأكثر المنسوبين غلوًّا أتباع ابن سبأ وأبى الخطاب الأسدى الذين يؤلهون عليًّا والأئمة . وهؤلاء ليسوا مسلمين .

ولقد حرق على بالنار من ألهوه وتبرأ الصادق من أبى الخطاب الأسدى . وقتله جند أبى جعفر وكان ابن سبأ يهوديا من صنعاء أسلم وانطلق إلى الحجاز والبصرة والشام ومصر . والمؤرخون الأولون كالطبرى (٣١٠) والمؤرخان الشيعيان أبو خلف القمى (٣٠١) والنوبختى (٣١٠) يؤكدون وجوده ، فى حين يشكك فى وجوده آخرون ممن جاءوا بعد ذلك .

كان ابن سبأ يحرض أبناء العشائر ضد عثمان . قائلا إن لعلىّ مكانًا فوق الصحابة بل فوق سائر الخلق . ولما قتل علىّ قال إنه سيرجع . وقد نفاه علىّ إلى المدائن إذ كان يقول له : « أنت أنت » ثم صار يقول : « عجبا من الذين يكذبون رجوع محمد فى حين يقولون إن عيسى يرجع » ويقول : إن محمدًا خاتم النبيين وعليًّا خاتم الأوصياء . ويقول : إن عثمان ولى الخلافة بغير حق .

وقال البعض : إن ابن سبأ دفع أبا ذرّ ليقول ما قال لعثمان . ولا شك أن ابن سبأ أقل من أن يرتفع إلى مستوى تحريض أبى ذر . وأن نسبة آثار ضخمة جدًا لأراجيف ابن سبأ فى محيط صغير جدًا وزمان قصير جدًا – ليس إلاّ وجه من تعليق الأوزار ، التى ارتكبتها أجيال أفرخت فيها الفتن ، على عاتق رجل لا قيمة له . والكثيرون من المؤرخين على أن ابن سبأ لم يلق أبا ذر .

وتعليق الأوزار هروب . وهو عيب قديم فى المجتمعات التى تفقد صدق الرؤية ، فتبرئ نفسها – ظلما – من عيوبها ، فتلقيها على الآخرين . وهو أيًّا كانت الحال غلوّ فى تضخيم شأن ابن سبأ وأشباهه لتبغيض الشيعة إلى الآخرين . ولقد طالما أحدث هذا التبغيض من قوم لا يعلمون الحقائق آثاره فى نفس قوم مخلصين . . وفى ظلمات هذه الجهالات يتوارث المسلمون فرقة يفرضها عليهم من يفيدون لأنفسهم ومن يجهلون .

جعفر وغير أبيه كالزيدية[1] .

أو من علم الذين يتولون غيره وغير أبيه وجدّه[2] كالكيسانية .

---

(١) الزيدية : أتباع زيد بن علىّ زين العابدين – أخى الباقر – قالوا أنه فوّض فى الإمامة قبل أن يستشهد إلى محمد بن عبد الله بن الحسن « النفس الزكية » .

وكان زيد يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون ، لهذا أجاز خلافة أبى بكر وعمر . فرفضه شيعة العراق فسموا رافضة . ومنذئذ أطلق على الشيعة الإمامية اسم الرافضة . وقيل : سموا الرافضة لرفضهم إمامة أبى بكر وعمر . والأوّل رأى الشهرستانى والأخير رأى أبى الحسن الأشعرى . والشهرستانى من الشيعة والأشعرى من أهل السنّة .

وزيد يقول : إن الأدلة اقتضت تعيين علىّ إمامًا « بالوصف » لا بالشخص . ويقول : إن الشيوخ يختارون « الأفضل » من أولاد علىّ من فاطمة ، عمومًا ، « بالاجتهاد » .

ومن شروط الزيدية أن يجتهد أئمتهم . ولذلك كثر فيهم الأئمة المجتهدون . ومن شروطهم أن يخرج الإمام داعيا لنفسه . وعلى هذا الشرط جادل الباقر أخاه زيدًا بقوله : « على قضية مذهبك والدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج » . ومن الزيدية اليعقوبية يقولون بولاية أبى بكر وعمر ويتبرءون ممن يبرأ منهما وينكرون رجعة الأموات . وبقية الزيدية تتوقف فى أمر الرجعة لا يقولون بها ولا ينكرونها .

وظهرت فى المذهب الزيدى مذاهب منها الهادوى والقاسمى والناصرى والهارونى التى تخالف الأصل فى فروع يسيرة وتسير عليه فى جملة الفروع وتلتقى بمذاهب أهل السنّة ، وبخاصة المذهب الهادوى الذى أسسه إمام اليمن الإمام الهادى « يحيى بن الحسن بن إبراهيم بن القاسم » صاحب صعدة (٢٨٠ – ٢٨٩) وكان أئمة المذهب الهادوى من عظم اتفاقهم مع المذهب الحنفى يرون الأخذ بالمذهب الحنفى إذا لم يجدوا عن الإمام الهادى نصًا فى المسألة . بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فيأخذون بأرجح ما فى المذاهب الأخرى .

والزيدية ترى أن كل من دعا لنفسه من أولاد علىّ من فاطمة الزهراء ، وكان مستكمل الصفات وجب اتباعه .

وقد كتب لهم النجاح فى اليمن وطبرستان إلى الجنوب من بحر قزوين . والعرب تسمى بحر قزوين بحر طبرستان . وقد ملك طبرستان الحسن بن زيد ... بن الحسن بن على سنة ٢٥٠ حتى سنة ٢٧٠ . وكانت ثورة ابن طباطبا فى بغداد فى أيام المأمون زيدية .

(٢) الكيسانية يقولون بإمامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه . وإن الحسن والحسين إنما خرجا بإذنه . ومن الكيسانية أشياع المختار بن عبيد الله الثقفى (٦٧) .

ومنهم الهاشمية . الذين يقولون : إن محمدًا أفضى إلى ابنه أبى هاشم بالأسرار التى أفضى إليه بها أبوه . ولما مات أبو هاشم انقسمت فرقته فرقًا . واحدة تقول إنه أوصى لأخيه علىّ . وإن الوصية لا تخرج عنهم حتى « يرجع » محمد بن الحنفية . وواحدة تنقسم إلى فرق . منها فرقة تقول : إنه أوصى إلى معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب « وقد قتله أبو مسلم الخراسانى » وفرقة تقول : إنه =

يقول الشيخ المفيد فى غلاة الشيعة : « وهم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام إلى الألوهية والنبّوة ، ووصفوهم فى الدين والدنيا بما تجاوزوا فيه الحدّ وخرجوا عن القصد . فهم ضلّال وكفّار » .

والإمامية لا يجيزون القدح فى الصحابة . فإذا وجد قادحون منهم فآراؤهم فردية ، فى أفراد ، من الصحابة ، يبديها المتطرفون . وأشباههم موجودون فى أهل السنّة ، ممن قدحوا فى بطل الإسلام « علىّ » ، وريحانتى النبى « الحسن » و « الحسين » .

والقدح « معصية » لا تخرج من الإسلام .

ولا يعتبر معصية اجتهاد « مجتهد » تأوّل فأخطأ . وقد نظر علماء السنّة هذا النظر الأخير إلى خلافات المعتركين من الصحابة فى الجمل وصفين . فاعتبروها اجتهادات فيها الخطأ والصواب .

والإمام علىّ معلّم أوّل للأصول والفقه وأدب الدنيا والدين : يقول عن الخوارج الذين كفروه ا وطلبوا إليه التوبة : « إخوانُنا بغوا علينا »[1] .

والإمامية يقولون : إن رسول الله - ﷺ - أوصى إلى اثنى عشر إمامًا بأسمائهم . كل منهم يبين خلفه باسمه . إذ يكشفه الله له . أوّلهم علىّ الذى

= أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . وهاتان فرقتان تخرجان الإمامة إلى غير أبناء علىّ . وتفسران أهل البيت تفسيرا يسع غير أبناء علىّ .

(١) ويقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة : « وكل من عاداه أو حاربه وأبغضه فإنه عدوّ لله سبحانه وتعالى وخالد فى النار مع الكفار والمنافقين إلّا من ثبتت توبته ومات على توليه وحبه . فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله .. رأيناه رضى إمامتهم وبايعهم وصلّى خلفهم وأنكحهم وأكل فيئهم .. ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئنا منه . ولما لعنه لعنّاه . ولما حكم بضلال أهل الشام من كان بينهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه حكمنا أيضًا بضلالهم .. والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبى إلّا رتبة النبوّة . وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه . ولم نطعن فى أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم » .

وقول ابن أبى الحديد منطقىّ فى اتباع علىّ . ومن المنطق كذلك ترتيب الآثار على بيعة الجمهور خليفة جديد ، هو أمير المؤمنين الحسن بن على ، ثم انعقاد الصلح بينه وبين معاوية فى السنة الحادية والأربعين فلا تسوغ معاملة أشياع معاوية معاملة المحاربين أو الخارجين على الإسلام . فلقد أصلح الله بالحسن بين هاتين الفئتين من المسلمين .

أوصى للحسن . وأوصى الحسن للحسين . وتتابعت لزين العابدين ومنه للباقر الذى أوصى للصادق . وتتابعت الوصية من الصادق إلى ابنه موسى الكاظم (١٨٣) فابن الكاظم على الرضا ، (٢٠٣) فابن الرضا محمد الجواد (٢٢٠) فابن الجواد على الهادى (٢٥٤) فابن الهادى الحسن العسكرى (٢٦٠) فابن العسكرى محمد المهدى المولود بسامرا سنة ٢٥٦ ، والمختفى بعد عام ٢٦٠ والمنتظر ظهوره ليملأ الدنيا عدلاً .

السنّة :

يروى الحارث الأعور : قلت : ياأمير المؤمنين إذا كنّا عندك سمعنا منك ما يشدّ ديننا وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة ولا ندرى ما هى ؟ قال : أو فعلتموها ؟.. سمعت رسول الله ﷺ وعلى آله يقول : « أتانى جبريل فقال : يامحمد ستكون فى أمتك فتن . قلت : فما المخرج منها ؟ فقال : كتاب الله » .

وإذا كان فى الكتاب حلّ لكل مشكلة ، فالسنن موضحة ومنفذة لأحكامه . والسنن إذ تروى عن جعفر بن محمد الصادق أو عنه عن آبائه أو تروى عن الأئمة عامة لا يوجد فيها صحابى يختلف الشيعة معه . وعلى أساس هذه الأحاديث قام فقه الشيعة الإمامية . مرويًّا عن الإمام فلا يناقشونه . فكلامه نصوصّ . أى هو سنّة . فى غنى عن الإسناد ، تغنى عن الاجتهاد . وفى كتبهم كما قيل ما يكفى الأمة حتى أرش الخدش .

وقد دوّن علم الأئمة وفقههم فى كتبهم . ومنه علم لدنّى عن الإمام المعصوم . ومنه تفسيرهم للقرآن[1] . والأئمة - عندهم - قد اختصّوا بعلم ما لم ينصّ عليه وما لم يعلنه النبى - ﷺ .

---

(١) والشيعة تنفى قول القائلين بالصرفة وهو ما يزعمه بعض المعتزلة « النظام » من أن الله صرف المشركين عن أن يحاولوا الإتيان بمثله . فهذا القول مصيره نفى الإعجاز . والإعجاز آية الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأقوال الأئمة حجّة تلى الكتاب والسنّة . والفقهاء الشيعة لا يتجهون إلى الأدلة إلّا فى غيبة الإمام أو حديث الإمام .

والسنّة أساسها القرآن . يقول الإمام الصادق : « إذا رويت لكم حديثًا فسلونى : أين أصله من القرآن ؟ » . روى يومًا نهى النبى « عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال » فقيل له : أين هذا من كتاب الله ؟ فأجاب : إن الله تعالى يقول : (لا خير فى كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) ، وقال تعالى : (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) .

وقال تعالى : (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) .

فهذه أصول قرآنية ثلاثة لحديث واحد فى السلوك . وهو عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى .

وإذا لم يكشف الإجماع عن رأى الإمام المعصوم فباب الاجتهاد مفتوح لطلب الحكم الشرعى فيما ليس فيه نص . والعقل – مع الضوابط التى يضعونها من قواعد وأصول – قدير على أن يبلغ المجتهد طلبه .

* * *

روى هشام بن سالم قول الصادق : « إنما علينا أن نلقى إليكم الأصول وعليكم أن تفرعوا » – وفى نهج البلاغة جملة من الأصول التى نبّه عليها أمير المؤمنين علىّ ، وتكلم فيها الأئمة الباقر والصادق والرضا : كالكلام عن الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنوافل والفرائض والرخصة والعزيمة والمطلق والمقيّد والمحكم والمتشابه والواجب وغير ذلك . ومما ردّده الأئمة الثلاثة قواعد الجمع بين الحديثين المتعارضين ، والترجيح بينهما ، والتخيير ، وأحكام النسخ ، ولزوم ردّ المتشابه إلى المحكم ، وجواز الأخذ بخبر الواحد ، والعمل بالظاهر ، ومنع القياس أو تفسير القرآن بالرأى ، والعمل بالاستصحاب ، وأصالة الحلّ والإباحة ، والطهارة والبراءة والصحة . وقواعد الفراغ واليد والقرعة .

وكلام الإمام الصادق فى هذه الأبواب كثير . ولهشام بن الحكم كتاب فى

مباحث الألفاظ وفى الأصول . وكذلك ليونس بن عبد الرحمن كتاب فى الأصول .

والسنّة المتواترة هى التى يتكاثر رواتها ويتفرقون إلى حدٍّ لا يمكن معه اتفاقهم على الكذب . وبهذا يتحصل علم قاطع بأنهم لم يجمعهم جامع على الكذب . والتواتر عن الرسول كالتواتر عن الإمام المعصوم .

والإمام الصادق يقول : « حديثى حديث أبى وحديث أبى حديث جدى . وحديث جدى حديث الحسين وحديث الحسين حديث الحسن وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين . وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله . وحديث رسول الله قوله تعالى » .

والتعبير بأن حديث الرسول هو قوله تعالى يعدل القول بأن السنّة هى الحكمة التى ذكر القرآن أن الرسول يعلّمها للمسلمين .

وخبر الواحد مقبول لدى جمهور الفقهاء عندهم . وحجّتهم فى ذلك - على الجملة - كحجج أهل السنة[1] .

والصادق لا يرى بأسًا فى رواية الحديث بالمعنى . سأله تلميذه : أسمع منك الحديث فأزيد وأنقص ؟ فأجاب : « أن تريد معانيه فلا بأس » .

ولا يضيقون صدرًا بالإرسال من الثقات ، بغير معارض ، فلقد تقرأ « صحيح فلان عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام »[2] .

ويمكن القول إجمالاً إن الحديث عندهم صحيح وحسن وموثق وضعيف .

---

(١) أما الرواة عمومًا فيشترط أن يكونوا من الإمامية الاثنا عشرية يروون عن « إمام » عن النبى . وثمة من يقبل رواية غير الإمامى مادام موثقا أى أمينًا عند الإمامية . قالوا : « لو كان بعض رجال السند غير إمامى مصرحا بالتوثيق أو مصرحا بالمدح لابدّ من كون الباقى إماميا موثقا » .

(٢) والإرسال لا يمنع قبول الحديث عند أهل السنة .

كان إبراهيم النخعى يروى الحديث مرسلاً . فيقول له الأعمش : إذا رويت لى حديثًا فأسنده فيجيب : إذا قلت : حدثنى فلان عن ابن مسعود فهو الذى رواه . وإذا قلت : قال عبد الله فغير واحد . والحسن البصرى يقول : « إذا قلت لكم حدثنى فلان فهو حديثه ومتى قلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن سبعين » .

فالحديث الصحيح هو الذى ينقله العدل الضابط عن مثله فى جميع الطبقات حتى الإمام المعصوم .

والحديث الحسن هو المتصل السند بالإمام المعصوم . فإن انقطع السند لم يعد حسناً . ويشترط أن يكون الراوى ممدوحا من غير معارضة ذمّ وإن لم تثبت العدالة . فلو ثبتت لكان صحيحًا .

ولا يمكن أن تصل رواية غير الإمامى إلى إحدى هاتين الدرجتين مهما كانت منزلته من التقى والفقه .

والحديث الموثق هو ما دخل فى طريقه غير إمامى إذا كان الأصحاب الإمامية يوثقونه . وهنا لا يشترط الاتصال بالإمام المعصوم . وهناك من يشترط أن يتوسط غير الإمامى إماميين . وهناك من يرفضه .

والحديث الضعيف غير هذه الأقسام الثلاثة :

وما لا يبلغ حدّ التواتر يسمى خبر الواحد . فوصف الواحد يراد به عدم التواتر ، وقد يكون عن متعددين . فالخبر المستفيض والمشهور نوع من خبر الواحد . المستفيض مارواه أكثر من اثنين . والمشهور ما اشتهر على الألسن وفى الكتب ، وإن كان رواية واحد[1] .

---

(١) الخبر الذى يحصل العلم بصدوره من قرائن داخلية أو غيرها مطابقة لظاهر القرآن أو معانيه أو لأدلة العقل ، حجّة معتبرة ، لا للشهرة أو الاستفاضة أو التواتر أو أى شىء آخر ، بل للعلم بصدوره الذى هو حجة بنفسه - فالخبر المتواتر أو المعلوم بصدوره لا حاجة لشروط فى روايته وإنما الشروط فى خبر الواحد .

وقد يعملون بالضعيف إذا اشتهر العمل به بين الأقدمين - أما علامات وضع الحديث فهى كمثلها عند أهل السنّة تقريبا .

وليس عجيبًا أن تكون السنّة التى يتمسك بها الشيعة فى مجموعها هى السنّة التى يتمسك بها أهل السنّة فخلافات الروايات وإسنادها أو إضافة مصدر الأئمة ، لم تدخل فى التراث النبوى العظيم ما يغيره .

ومشايخ الإمامية يوثقون المخطئين فى الاعتقاد . والإمام الصادق إذ يقول : « خذوا مارووا . وذروا ما رأوا » يقصد آراءهم .

ولقد طالما رفض مجتهدوهم أحاديث ذكرت فى كتبهم ، وأخذوا بما جاء فى صحيح البخارى ومسلم لتفحصهم أحوال رجالها .

أما الشهادة فيقول فيها الإمام جعفر : « لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلاّ شهادة الأنبياء ، والأوصياء . فمن لم تره بعينيك يرتكب ذنبًا ولم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر . وشهادته مقبولة وإن كان فى نفسه مذنبًا » .

وإذا كان فى بعض المذاهب من لا يقبل شهادة أصحاب الصنائع التى يسمونها « دنيئة » ، فالإمامية يرون قبول شهادتهم . والله يقول : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فليس فى الصناعات شريف ومشروف ، وإنما الصناع فيهم من هؤلاء وهؤلاء .

والشيعة – مع هذا – ضائق صدرهم بالطفيليين والمستجْدين . فهؤلاء متساهلون فى عزّة النفس التى أمر الله بها المسلمين .

* * *

والصادق يقول : « إن الإجماع لا ريب فيه » . وهو عند الإمامية « اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأى المعصوم » فلا يخلو عصر من وجود الإمام ظاهرًا أو خافيًا . وإذ كان اتفاق جماعة من الإمامية فيخرج غيرهم . ومن أجل ذلك عرفت آراء الصادق من خلال اتفاق تلاميذه .

وليست الحجّة للإجماع . بل هى لرأى الإمام المعصوم الذى يكشف عنه الإجماع .

والإجماع يثبت بالتواتر والمشاهدة وبخبر الواحد . وليس اجتماع الرجال شرطًا عندهم . والإجماع من عصر أو عصرين لا يجعل الحكم ضرورة دينية أو مذهبية . بل يكون اجتهاديًا يقبل الجدال . أما إجماع الأمة فى كل عصر ومصر ، من عهد الرسول للآن ، فيجعل الحكم من ضرورات الدين . والإجماع من الصحابة يدخل فيه علىّ بن أبى طالب . فهو الإمام المعصوم .

* * *

والعقل يكشف عن نظر الإمام إن لم يوجد نصّ أو إجماع .

فالاجتهاد[1] مفتوح أبدًا فى الظنيات التى ليس فيها دليل من الشرع يفيد اليقين ، وليس للعقل فيها حكم واجب حتم . كخلاف الصحابة فى العول فى المواريث وعدّة الحامل المتوفى عنها زوجها . وكالمعاملات . أما القطعيات فلا اجتهاد فيها كالعقائد الواجبة ، وما ثبت من الأحكام العملية بالتواتر . والعقائد كاتصاف الله بالكمال وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والبعث والحساب . والأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج .

وليس من وسائل اجتهاد الشيعة القياس . فالإمام الصادق يقول : « إن السنّة إذا قيست محق الدين » ، ولما قيل له أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها ؟ قال : « ما أجبتك فيه من شىء فهو عن رسول الله ﷺ . لسنا من أرأيت فى شىء » لكن وسائل استعمال العقل مباحة للمجتهد .

والإمام الصادق يقول : « ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل فى كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال » .

وآيات الأحكام قليلة ، وكمثلها قلّة ، أحاديث أصول الأحكام ،[2] فوجب الاجتهاد .

---

(١) يشترط الشيعة فى المجتهد :

١ - العلم باللغة .

٢ - بالكلام .

٣ - بكتاب الله والسنة .

٤ - بطرق الاستنباط .

٥ - المسائل المجمع عليها حتى لا يخالفها اجتهاد .

٦ - الفطنة وإدراك الحقائق .

٧ - العلم بمواطن الخلاف . كل ذلك .

٨ - وهو إمامى .

(٢) آيات الكتاب (٦٢٣٦) آية على طريقة عدّ الكوفيين كما ورد فى التعليق على المصحف المتداول بمصر من سنة ١٣٣٧ هجرية أحصى بعض فقهاء أهل السنّة نحو (١٤٠) فى العبادات ، و (٧٠) فى المعاملات ، و (٧٠) فى الأحوال الشخصية والمواريث ، (٢٠) فى الجنايات ، و (١٣) فى المرافعات ، و (٢٠) فى القضاء والشهادة ، (١٠) فى الاقتصاديات و (١٠) فى المسائل الدستورية ، (٢٥) فى المسائل الدولية - وأحاديث أصول الأحكام عندهم نحو (٤٥٠) بين آلاف الأحاديث أكثرها بيان لمجمل أو تفصيل موجز أو تشريع ما سكت عنه .

ونحن مأمورون باستعمال العقل . وحِكَم السماء تظهر للعقول بالتدريج .

كان أصحاب النبى يجتهدون فى وجوده وازدادت حاجتهم للاجتهاد بعد موته . والدنيا أطوار تحتاج للفقه الذى يطبق عليها حكم الشريعة لتبقى الحياة محكومة بالدين ، وتتطور فى حدود مقاصد الشارع .

وحكم الله فى كل مسألة معين ، نصب الله دليلاً عليه . فمن المجتهدين من يصل إليه ويصيبه . ومنهم من لا يصل إليه ويظنّ غيره . فهو مخطئ معذور . مغفور له خطؤه مادام قد بذل جهده دون هوى . وللمصيب أجران لصوابه واجتهاده وللمخطئ أجر واحد على اجتهاده .

فذلك حكمه ﷺ[1] . ومن أجله كانت السماحة التى اتّصف بها الصحابة إذ يختلفون .

والمنصفون من كل المذاهب يعلنون أن فى المذاهب الفقهية المعتبرة خطأ وصوابا . وليس منها مذهب واحد كله خطأ أو كله صواب . لذلك كان التعصب المطلق آفة تئوف الفقهاء . لقد كثرت مخالفات علىّ لعمر ، ونزول عمر عند رأى علىّ .

وعلىّ هو القائل بأنه ترك لعمر تنفيذ رأيه « فى بيع أمهات الأولاد » فى حياة عمر ، ولما آل إليه الأمر أنفذ رأيه . فعلمنا أمورًا : منها :

١ – أن المذهب الشيعى وهو يدور حول آراء علىّ ، إنما هو مذهب حىّ فى حياة الخلفاء الراشدين أنفسهم . فلما آل إليه الأمر وأتيحت له الفرصة التى أتيحت لغيره لتطبيق اجتهاداته أنفذها – ولكن المكان والزمان ضاقا عليه لتوزّع جهده فى الحروب ، وانحصار سلطانه على الأرض ، ومعاجلته بيد الخوارج .

٢ – حق الخليفة فى إنفاذ رأيه . ومن ثمة أنفذ عمر رأيه فى أمور شتى كما أنفذ أبو بكر رأيه من قبل . والرأى اجتهاد .

---

(١) يقول عليه الصلاة والسلام لمن سأله اجتهد وأنت حاضر ؟ نعم . إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر .

٣ – مشروعية الخلاف . وهو درس تعلّمه الصحابة من صاحبهم ﷺ . مطلوب من الجميع أن يتعلموه . وأن يعلّموا الناس أنه وسيلة التقدم .

روى النسائى أن رجلًا أجنب فلم يصلّ . فذكر ذلك للنبى فقال : أصبت . وأجنب رجل فتيمم وصلّى ، فذكر ذلك للنبى فقال ؛ أصبت . وروى البخارى عن عمران بن حصين أنه قال للرجل الذى اعتزل فلم يصلّ فى القوم : « فما يمنعك أن تصلّى » فقال : أصابتنى جنابة ولا ماء .

قال : « عليك بالصعيد . فإنه يكفيك » .

ورأى عمرو بن العاص فيما فهم من قوله تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) جواز التيمم للجنب إذا خاف على نفسه البرد .

والآثار فى الخلاف بين الصحابة كثيرة جدًّا[1] .

والخلاف بين المجتهدين أجلّ من أن يحصر . وفيه ثراء للفكر ، وسعة فى الدنيا . ورحمة بالأمة .

كان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الفصد والحجامة والرعاف .

فقيل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلى خلفه ؟

فقال : كيف لا أصلى خلف « مالك » وسعيد بن المسيب » ؟

وكان مالك يفتى الرشيد أنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم . فصلّى يومًا بعد الحجامة وصلّى خلفه « أبو يوسف » صاحب « أبى حنيفة » « وهو يرى الوضوء من الحجامة » .

واغتسل أبو يوسف فى الحمام ، وأخبر بعد صلاة الجمعة أنه كان فى بئر الحمام فأرة ميتة فلم يعد صلاته وقال : « نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة : إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثًا » .

فهؤلاء أئمة المذاهب لا يتسامحون فى خلافاتهم فحسب . بل يتجاوزون الخلاف العلمى إلى التطبيق العملى .

---

(١) راجع نحو تقنين جدد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى « من مطبوعات لجنة تجلية مبادئ الشريعة الإسلامية » – عبد الحليم الجندى – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فقرات ٤٢ إلى ٤٨ .

من أجل ذلك يقول أحمد لتلميذه إسحق بن بهلول إذ ألف كتابًا يريد أن يسميه « كتاب الاختلاف » : « سمه كتاب السعة » .

ويقول عمر بن عبد العزيز « ما سرنى باختلافهم حمر النعم » .

الإمامة :

الإسلام دين ودولة . فالدولة تكفل لمبادئ الإسلام التطبيق ، والانتشار ، وانتفاع الجماعة والأفراد به . وبالدين عزّة الفرد والجماعة ، ورسوخ أركان الدولة . والدين للدولة روح للجسد . وهو للفرد دم نقى يجرى فى عروقه أو هواء صحى يتنفسه . ولا حياة إلّا بالدم والتنفس . وكان من آيات الإعجاز الإسلامى أن يبلغ المسلمون الذروة أفرادًا أو دولًا أو مجتمعات فى عصر ، أو فى أشهر ، بل فى ساعات ، بمجرد إخلاصهم فى التمسك بالإسلام .

لقد بلغوا ما يدعو إليه الإسلام فى « خلافة » أبى بكر وعمر ، والسنين الستة الأولى من « خلافة » عثمان ، وفى أقل من ثلاثين شهرًا فى « خلافة » عمر بن عبد العزيز . والخلافة الراشدة قيادة مسدّدة .

ولقد بلغ المحاربون مبالغهم ، فى يوم واحد ، هو العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ ، إذ كانوا يقتحمون حصون إسرائيل وهم يتنادون : الله أكبر : الله أكبر.

والإمامة – أو الخلافة – قد تكون خلافة عن النبى فى تبليغ الأمور الدينية او فى الولاية السياسية أو فيهما جميعًا . وهى عند الشيعة دينية وسياسية محصورة فى أهل البيت . لكنها عند جمهور أهل السنّة تجوز لأىّ قرشى عادل ، يختاره المسلمون بشورى صحيحة ، وبيعة عامة .

ولا تبقى الخلافة إلّا ما بقى الخليفة قائمًا بالعدل ، فإذا انحرف لم تبق خلافة نبوية بل استحالت سلطة دنيوية أى ملكًا .

والشافعية والمالكية والحنابلة يرون القرشى العادل إذا تغلب ، فبايعه

المسلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين ، تكون البيعة له صحيحة ، وإن تأخرت عن الولاية التى نالها بالغلبة . أما الحنفية فيشترطون سبق البيعة ضمانًا للحرية وكفالة للمشورة .

والشيعة الإمامية يرون الإمامة ثابتةلاثنى عشر إمامًا بذواتهم لا بالبيعة لهم ، ولكن بالوصية إليهم . وهم علىّ وبقية الاثنى عشرة ، والله يعلن الإمامة لمن قبله فيوصى السلف للخلف . وليست بيعة الجماعة لهم إلاّ إعلان رضا المسلمين بهم ، لا ترشيحهم أو اختيارهم .

والشيعة الإمامية يرون « واجبًا على الله تعالى » أن ينصب إمامًا للناس لطفًا منه بعباده . وأهل السنّة يرون نصب الإمام « واجبًا على الناس » .

أما الخوارج فلا يرون واجبًا نصب الإمام ، بل يرونه « جائزًا » ، إلاّ إذا قامت الحاجة إليه فيجب . وهم كالمعتزلة يرون أن الخلافة يصلح لها أصلح رجل فى الأمة عربيًّا أو غير عربى ، ويرون أنها تكون بانتخاب حرّ . ويؤثرون أن ينتخب غير قرشى ، لييسر نزعه إن أخطأ .

يقول الإمام الصادق : « لا يموت الإمام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصى له » ، ويقول : « أترون الموصى منّا يوصى إلى من يريد ؟ لا والله . ولكن عهد من الله ورسوله لرجل فرجل ، حتى ينتهى الأمر إلى صاحبه » .

ويقول لتلميذ له : « ياأبا محمد إن الله افترض على أمة محمد ﷺ خمس فرائض . الصلاة والزكاة والصيام والحج وولايتنا . فرخص لهم فى أشياء من الفرائض الأربعة . ولم يرخص لأحد من المسلمين فى ترك ولايتنا . لا والله ما فيها رخصة . وقال النبى عليه الصلاة والسلام : « من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية » . عليكم الطاعة فقد رأيتم أصحاب علىّ » .

ومن توفيق الإمام جعفر ، وأبنائه ، أنهم لم يطلبوا لأنفسهم خلافة دنيوية . وبهذا يتميز تاريخ الشيعة الإمامية من الشيعة الإسماعيلية ، التى ستظهر بعد موت الإمام بوقت طويل . والتى كان من أهدافها ولاية السلطة ، وإقامة الدول .

قال سليمان بن خالد للإمام الصادق : إن الزيدية قوم عرفوا وخرجوا وشهدهم الناس ، وما على الأرض محمدى أحبّ إليهم منك . فإن أردت أن تدنيهم وتقرّبهم منك فافعل . فأجاب : « إن كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدّونا عن عملنا إلى جهلهم ، فلا مرحبًا بهم ، وإن كانوا يسمعون قولنا وينظرون أمرنا ، فلا بأس » .

ومع أن « مؤمن الطاق » – تلميذ الإمام الصادق – ثبّط زيدًا عن الخروج ، « فالصدوق » يروى عن الإمام « الكاظم » قول أبيه : « رحم الله عمى زيدًا . إنه دعا إلى الرضا من آل محمد . ولو ظفر لوفى » . فزيد لم يدع لنفسه ، لأن الإمامة كانت للباقر . وإنما كان خروجه تجديدًا للاستشهاد عندما تدعو دواعيه .

يقول الصادق : « مضى والله عمى زيد وأصحابه شهداء على مثل مامضى عليه الحسين بن علىّ بن أبى طالب وأصحابه » . بل هو يعلن الاستعداد للاستشهاد ، ويراه واجبًا من واجبات أهل البيت عامة ، والأئمة خاصة . وأبو بصير يروى عنه قوله : « إن الله تعالى أعفى نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها . جعل ذلك علينا » .

والشيعة مجمعون أن عليًّا أولى بالخلافة – دينية أو دنيوية – من الصديق ومن عمر ومن عثمان – لكن عليًّا سما عن أن يترك فى الأمة صدعًا يوم بايع لأبى بكر ، وقبل استخلاف أبى بكر لعمر ، وبايع لعثمان مع المسلمين .

وتسبيب البيعة بأنها كانت لرأب الصدع فيه تسليم بأن ولاية شئون الدولة يمكن أن تنفصل عن الخلافة الدينية . فلو كانت غير ذلك لما سلّم علىّ فى أمر يخالف الدين . ولقد طالما عالن الخلفاء الثلاثة برأيه الشجاع . وأجمعوا دائمًا على تقديره ، ونزلوا عنده – وسيبقى له فى ضمير التاريخ وصحفه أنه دخل فى إجماع المسلمين . فذلك درس لهم – من دروسه التى لا تكاد تحصى – ليعتصموا بحبل الله جميعًا ولا يتفرقوا .

والذين يقولون – من أى فريق – إن عليًّا بايع « مرغمًا » يتأوّلون . فعلىّ

أعلى صوتًا ومكانًا من أن يرغم ، أولا يعلن رأيه ، مواجهة ، ولما بايع عمر لأبى بكر يوم السقيفة ، كان يومئذ - كعلىّ يوم بايع - يرأب الصدع بين المهاجرين والأنصار ، وهم بين أظهرهم . ولما جعل عمر الخلافة شورى فى الستّة بعده ، كان مسئولاً عن المسلمين ، كما كان أبو بكر يوم استخلفه .

وعلىّ فى طليعة المسئولين ، وكمثله الأئمة بعده .

والذين ينسبون إلى الشيعة ما صنعه أو فهمه الدهماء منهم من قدح فى أبى بكر أو فى عمر ظالمون . ومن الشيعة مفكرون يعلنون أن من تعود البعض من الشيعة أن يلعنوه فى احتفالات مآتم عاشوراء - وقد ظهرت بعد موت الإمام جعفر الصادق بقرن فى عهد دولة بنى بويه - هو عمر بن سعد قائد الجيش الذى قتل الحسين .

جاء فى كتاب الأستاذ أحمد مغنية عن الإمام جعفر الصادق : « وقد حورب المذهب الجعفرى فى عهد العثمانيين والأتراك .. كما أن المفرقين أنفسهم وجدوا فى اتفاق الاسمين : عمر بن الخطاب وعمر بن سعد قاتل الحسين ، ميدانًا واسعا يتسابقون فيه فى تشويه الحقائق .. يعرف الناس جميعهم أن الشيعة يعنون عناية تامة فى المآتم الحسينية التى تقام أيام عاشوراء وغير عاشوراء من أيام السنة .. والحسين هو موضوع تلك المآتم .. وكان طبيعيًّا أن يكون لعنة اللعنات عمر بن سعد . ومَن مِن المسلمين وغير المسلمين لا يلعن عمر بن سعد قاتل ابن بنت رسول الله ؟.. لا أنكر وجود أفراد - بالأمس - من سواد الشيعة وبسطائهم لا يفرقون بين هذين الاسمين بل لا يعرفون أن فى دنيا التاريخ الإسلامى عمرين تقيًّا وشقيًّا .. وساعد على بعد الشقة وتوسيع نطاق الفتنة شيوخ جهلة مرتزقة أئمة من كلتا الطائفتين السنّية والشيعة ... » .

وأيًّا كانت الجهالة أو العصبية فهى بلاء ابتليت به الأمة يتفجر بذاء وخصومات فى المناسبات - وفيما كان يقع بين مذاهب أهل السنّة مشابه منها - والمؤكد أن أئمة المذاهب منها براء . وأن الجيل الذى تعلم عليهم برئ من

التعصب أو الافتراء . وأن العلماء الصدق بعيدون عن متابعة السواد والبسطاء[1] .

* * *

وفقه المذهب غزير فى الإمامة مذ فتق الكلام فيها التلاميذ فى حياة الإمام وبعد مماته . مستندين إلى أحاديث للنبى ، ﷺ وعلى آله ، وردت فى كتبهم وفى كتب أهل السنّة ذاتها - ويرتبون عليها نظرية الإمامة . أما أهل السنّة فلهم فى شأن هذه الأحاديث وجهات نظر أخرى حول السند وحول المعنى اللازم .

إليك « بعض » الأحاديث :

يقول عليه الصلاة والسلام : « ياأيها الناس . إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا . كتاب الله وعترتى ، أهل بيتى »[2] ويقول : « إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله حبل ممدود من السماء وعترتى أهل بيتى . ولن يفترقا حتى يردا على الحوض . فاظروا كيف تخلفونى فيهما »[3] ويقول : « إنى تارك فيكم خليفتين كتاب الله .. وعترتى أهل بيتى »[4].

ويقول : « إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجل وعترتى .. فانظروا كيف تخلفونى فيهما »[5] أو « إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتى وإنهما لن يفترقا .. »[6] - ذلك أنه لما رجع عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع نزل

---

(١) يذكر الراغب الأصفهانى فى المحاضرات من قرون مضت : سئل رجل كان يشهد بالكفر على آخر عند جعفر بن سليمان فقال : إنه رجل معتزلى ، ناصبى . حرورى . جبرى . رافضى . يشتم علىّ ابن الخطاب . وعمر بن أبى قحافة . وعثمان بن أبى طالب . وأبا بكر بن عثمان . ويشتم الحجاج الذى هدم الكوفة على أبى سفيان . وحارب الحسين بن معاوية يوم القطائف فقال جعفر : « قاتلك الله . ما أدرى على أى شيء أحسدك . أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقالات » .

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى عن جابر .

(٣) أخرجه الترمذى عن زيد بن أرقم .

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل بطريقين صحيحين وأخرجه الطبرانى .

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل وآخرون .

(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك وآخرون ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

بغدير خم يوم ١٨ ذى الحجة فى السنة العاشرة - والشيعة تعتبره عيدًا يسمى عيد الغدير - كان قد نزل عليه الوحى « ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك . وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . والله يعصمك من الناس » ، فأمر بدوحات فقممن فقال : « كأنى دعيت فأجبت .. إنى قد تركت فيكم الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله تعالى وعترتى . فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض .. ثم قال : إن الله عزّ وجل مولاى . وأنا مولى كل مؤمن . ثم أخذ بيد علىّ وقال ؛ اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه »[1] .

وابن حجر فى صواعقه يقرر أن لهذا الحديث طرقًا كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابيًّا مع اختلاف فى المكان أهو غدير خم أم الطائف أم المدينة . أما طرقه عن أهل البيت فنحو ثمانين طريقًا .

وفى علىّ قوله ﷺ : « من أحب أن يحيا حياتى ويموت ميتتى ويدخل الجنة التى وعدنى ربى فليوال عليًّا وذريته من بعده . فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم فى باب ضلالة »[2] .

وفى أهل البيت قوله ﷺ : « ألا إن مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح . من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق . وإنما مثل أهل بيتى فيكم مثل باب حطة فى بنى إسرائيل . من دخله غفر له »[3] ، وقوله : « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتى أمان لأهل الأرض من الاختلاف »[4] .

والشيعة مؤمنون بأنه لا ينقض حجة هذه الأحاديث على منزلة أهل البيت

---

(١) أخرجه الحاكم من طريقين عن زيد بن أرقم . وأخرجه مسلم فى صحيحه حتى كلمة الحوض مع خلاف فى بعض الكلمات .

(٢) مسند أحمد بن حنبل - ابن حجر - كنز العمال - وبهذا المعنى فى المستدرك .

(٣) الصواعق لابن حجر .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس .

وفى مسند أحمد أن عمر كان أول المهنئين لعلى يوم الغدير . كما هنأه الصحابة الحاضرون .

ومكانة علىّ ، تأويلها من بعض أهل السنّة أو التشكيك فيها من البعض الآخر .

وآخرون يرونها سندًا صحيحا فى تكريم علىّ ولا يرونها سندًا فى الإمامة بالمعنى الذى يريده الشيعة .

* * *

ولقد كان الصحابة يجلون عليًّا كلّ الإجلال . والكثرة منهم لا تسلم له بأولوية الخلافة على سابقيه من الخلفاء . ثم جاء جيل جديد أصبح فيه إنكار هذه الأولوية وسيلة للسلطة لتثبيت شرعيتها ، بل طريقًا إلى أصحاب السلطة ، يسلكه من يلتمسون المصلحة أو الجاه أو الراحة .

لكن الأمة بقيت على حبّ علىّ وأبنائه . وكثرتها ككثرة الصحابة فى إجلاله .

فالشافعى – أكبر عقلى علمى – يضع حب أهل البيت بين فرائض الدين ويذكر المسلمين بأن الصلاة على أهل البيت جزء من الصلاة لله . يقول :

يا أهل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله فى القرآن أنزله
كفاكمو من عظيم القدر أنكمو من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

والإمام أحمد يقول : « ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ماجاء لعلىّ» وتشيّع أبى حنيفة محل إقرار أو إنكار . وهو القائل : «لولا السنتان لهلك النعمان » قاصدًا مدة دراسته على الإمام الصادق . ومالك ابن أنس من أنبه تلاميذ الإمام جعفر ذكرًا . والأربعة أئمة أهل السنّة .

أخرج أحمد بن حنبل عن عائشة : جاء رجل فوقع فى علىّ وعمار عند عائشة . فقالت : أما علىّ فلست قائلة لك فيه شيئًا وأما عمار فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه : « لا يخيّر بين أمرين إلا اختار أرشدهما » .

ولقد كان عمار من أوّل حياته فى الإسلام ، حيث كان فى آخر يوم فى حياته فى الدنيا ، مع علىّ . وفى جنده مات فى صفين وهو فى التسعين . قتلته الفئة

الباغية عليه وعلى علىّ معه .

ولقد أوصى[1] النبى لعلىّ أن يغسله ﷺ ويجهزه ويدفنه ويفى دينه وينجز وعده ، ويبرئ ذمته ويبين للناس ما اختلفوا فيه . وما ذلك إلّا لأن عليًّا منه ومن أهل بيته حيث هو .

من هذه المكانة لعلىّ كان معه فى صفين ثمانون من الصحابة الأحياء كلهم بدرىّ ، وهؤلاء من أهل الجنة .

أما معاوية فمعه الواهمون أو أهل الدنيا الذين يعدهم ويمنيهم ، لتصير الأمور إلى ما انتهت إليه فى أيامه وما بعد أيامه .

وأما الأمة فجعلت مكان معاوية من علىّ ، مثلًا سائرًا فى اللسان العربى . « وأين معاوية من علىّ » .

يقول الأحنف بن قيس : دخلت على معاوية فقدّم إلىّ الحارّ والبارد والحلو والحامض مما كثر تعجبى منه . ثم قدّم لونًا لم أعرف ماهو . فقلت : ما هذا ؟ قال : هذا مصارين البط محشوة بالمخ .. قد قلى بدهن الفستق . وذر عليه بالطبر زد ! فبكيت . فقال : مايبكيك؟ قلت : ذكرت عليًّا ...بينما أنا عنده وحضر وقت الطعام وإفطاره « إذ كان صائمًا » وسألنى المقام . فجىء له بجراب مختوم . فقلت : ما فى الجراب ؟

قال : سويق شعير . قلت : خفت عليه أن يؤخذ أو بخلت به ؟

قال : لا . ولا أحدهما . ولكنى خفت أن يلته الحسن والحسين بسمن أو زيت . فقلت : محرم هو ياأمير المؤمنين ؟

---

(١) ومن نصوص وصية النبى الصريحة بالإمامة لعلىّ : عن محمد بن حميد الرازى – وقد وثقه الأئمة : أحمد ، ويحيى ، وابن جرير الطبرى ، والبغوى – عن أبى بريدة « لكل نبىّ وصىّ ووارث وإن وصيى ووراثى علىّ بن أبى طالب » ومثله – بالمعنى مروى عن سلمان الفارسى . وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة : « يا فاطمة . أما ترضين أن الله عزّ وجل اطلع إلى أهل الأرض فاختار اثنين أحدهما أبوك والآخر بعلك » وعن ابن عباس أن الرسول قال لها : « أما ترضين انى زوجّتك أوّل المسلمين إسلامًا وأعلمهم علما وأنك سيدة نساء أمتى كما سادت مريم نساء قومها ؟ أما ترضين يا فاطمة أن الله اطلع إلى أهل الأرض فاختار رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك ؟ » .

ومنها أن النبى يقول عن الحسين : « ابنى هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تاسعهم قائمهم » .

قال : لا . ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدّوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغى الفقير فقره .

فقال معاوية : ذكرت من لا ينكر فضله .

***

يرى الشيعة أهل البيت ثانى الثقلين وأوّلها القرآن ، والثقل كل خطير نفيس . وهم عدل القرآن فى الأمة ، وخلفاء الرسول فى الحفاظ على الشريعة . فللأئمة جميع ماله من المناصب ماعدا رتبة النبوة . ولديهم الكتب التى دوّن فيها علم النبوة ، وفيهم ينحدر الهدى النبوى ، وتنحصر الإمامة .

وأن الله سبحانه وتعالى يختار للنبوة من يشاء ويختار للإمامة من يشاء . ويأمر نبيّه بالنصّ عليه وتنصيبه للناس بعده للقيام بوظائفه ، إلّا أن الإمام لا يوحى إليه بل يتلقى الأحكام عن النبى مع تسديد السماء له ، فهو مبلّغ عن النبى ، فى حين أن النبى مبلغ عن الله جلّ شأنه .

والإمامية يرون الإمام إنسانًا من البشر . لكنه أفضل أهل زمانه . ولا تجوز عبادته فهذا عمل من خداع إبليس . وأن من هذا شأنه يجب أن يكون معصومًا من الخطأ . فالناقص لا يكمل غيره . ووجه الحاجة إلى العصمة فيه وفى النبى واحد[1] . وهو حفظ الأحكام عن الخطأ . وإذ كان ذلك كذلك ، فما يرد عن الإمام سنّة . سواء أكان رواية عن النبى أم كان رأيه لأنه نصّ . أما ما لا يرد عن الإمام فهو محل للاجتهاد وفق القرآن والسنّة والإجماع والدليل العقلى .

أما ولاية الحكم ، فقد رأينا الإمام الصادق وآباءه لم يطلبوها كما لم يطلبها الأئمة بعده .

يقول الكاظم لهشام : « كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا » . فما أحراهم أن يتركوا للملوك ما يتناحرون عليه .

---

(١) يقول الشريف المرتضى فى كتابه « تنزيه الأنبياء » : « قالت الشيعة الإمامية : لا يجوز عليهم « الأنبياء » شىء من المعاصى والذنوب . كبيرًا كان أو صغيرًا لا قبل النبوّة ولا بعدها . ويقولون الأئمة مثل ذلك » .

ويعتبر الشيعة الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثنى عشر من أصول الدين عندهم وأنها « رديفة » التوحيد والنبوة ، وفى حين لا يوافق أهل السنّة على ذلك ، لا تكفر الشيعة أهل السنّة فى إنكارها هذا الأصل . ولا يكفّر أهل السنّة الشيعة باعتقادها فى الإمامة .

وإنما يشتدّ الخلاف من جراء الغلوّ فى الأئمة ونسبة أشياء إليهم يختلف فى بعضها أهل السنّة أنفسهم ، كالرجعة ، أو القدح فى بعض الصحابة ، كعمرو ومعاوية والمغيرة . أو يختلف فيها الشيعة أنفسهم كولاية المفضول ، والنصّ على الإمام بالاسم لا بالوصف . مما حدا بالأضداد والأشياع إلى تبادل أزمة الثقة . أما الفاقهون فأدخلوا خلافاتهم فى إطار ما يختلف فيه المجتهدون . وأما المتعصبون ، من كل ملّة ، فيتقاطعون .. وما يتقاطعون إلّا للمصلحة أو للغلواء أو لضيق الأفق[1] .

---

(١) دخل إبراهيم بن هرمه على المنصور فتهدّده لأنه يمدح أهل البيت . ولما خرج إبراهيم لقى علويًّا سلم عليه فصاح به : لا تشط بدمى .

وفى سنة ٣٥٠ استعانت الجماهير بالجند ضد الشيعة . وفى سنة ٣٦٣ قتل الكثيرون من أجل إقامة الشيعة لشعائرهم . وفى سنة ٤٠٣ صدر مرسوم بلعن العلويين خلفاء مصر وإنكار نسبهم . وكانت موقعة الكرخ فتكًا بأموال الشيعة وأرواحهم وأطفالهم . وفى سنة ٤٣٩ كبست دار الطوسى ببغداد . وفى سنة ٤٤٨ و ٤٤٩ أحرقت مكتبة الطوسى فترك بغداد إلى النجف .

وعدوان المالكية على الشافعى فى جامع عمرو مشهور . وطرد المالكية والحنفية من أجل الشغب فى جامع عمرو بعد ذلك بأمر القاضى الحارث بن مسكين معروف . وكذلك فتنة الحنابلة فى مجلس الطبرى (٣١٠) وفى عهد البربهارى وفيما بعده وقد طالما أرهجت بغداد .

ومن الإزراء بالتعصب المذهبى تتردد على الألسن سخرية الزمخشرى ، وهو حنفى :

إذا سألوا عن مذهبى لم أبح به	وأكتمه .. كتمانه لى أسلم
فإن حنفيا قلت ، قالوا بأننى	أبيح الطلى وهو الشراب المحرم
وإن شافعيا قلت ، قالوا بأننى	أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن مالكيا قلت ، قالوا بأننى	أبيح لهم أكل الكلاب وهم هم

ولقد طالما كفرت جماعة جماعة أخرى : بغيًا عليها أو تحاملًا منها فى التعبير عن الخلاف معها . كان نظام الملك (٣٨٥) وزيرًا عظيمًا : ينشر العلم وينشئ المدارس ، ويعمل للوحدة ، ويحاول أن يجمع الخلافتين العباسية والفاطمية ، أى أهل السنّة والشيعة الإسماعيلية ، وكان يجتمع لديه علماء الفرق ، فدخل عليه عبد السلام بن محمد القزوينى شيخ المعتزلة وعنده أبو محمد التميمى ورجل آخر أشعرى ، فقال له :

=

ومردّ عدم التكفير[1] بين الشيعة وأهل السنّة مع الخلاف فى الاعتقاد بالإمامة ، إلى أن الأصول - كما يقول الشيعة - ثلاثة : التوحيد ، والنبّوة ، والبعث - ويكفى من التوحيد الإيمان بوحدانية الله تعالى .. ويكفى من النبوة الإيمان بأن محمدًا ﷺ رسول الله صادق فيما أخبر به معصوم .. ويكفى من المعاد

= أيها الصدر . لقد اجتمع عندك رءوس أهل النار . أنا معتزلى وذلك أشعرى وهذا مشبه وبعضنا يكفر بعضا !!

وفى سنة ٤١٢ صدر مرسوم فى بغداد كفر به الخليفة القادر المعتزلة وأمر باستتابتهم ، وقد سبق منهم العمل عند الخلفاء لقهر المحدثين والفقهاء فى عصر المأمون والمعتصم والواثق .

وفى حياة الفيروزابادى الشافعى قامت الفتنة على الشافعية سنة ٤٧٩ . وفى سنة ٥٠٧ قال قاضى الحنفية بدمشق : لو كان لى من الأمر شىء لوضعت الجزية على الشافعية . وفى سنة ٥٦٧ قال أبو حامد الطوسى المقال نفسه فى الحنابلة ! وفى سنة ٥٥٤ حرقت الأسواق فى أصفهان لنزاع الحنفية والشافعية . وفى سنة ٤٦٩ هاج الحنابلة فى بغداد إذ ولى القشيرى الوعظ بالمدرسة النظامية ومن قبل ذلك بعام سنة ٤٦٨ انتقل السمعانى من مذهب أبى حنيفة إلى مذهب الشافعى فثار الحنفية بمدينة مرو فى خراسان فنفاه سلطانها حقنًا لدمه . وفى العصر ذاته أمر ابن تاشفين بإحراق كتب الغزالى فى احتفال رسمى بمسجد قرطبة !

وذات يوم رأى الوالى الحنفى فى بلاد ما وراء النهر فى مخرجه للصلاة فى الصباح مسجدًا للشافعية فقال : أما آن لهذه الكنيسة أن تغلق ؟ وفى جيلان كان القوم حنابلة إذا قدم عليهم حنفى قتلوه ! وجعلوا ما له فيئًا للمسلمين ! وأما أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفى أو الشافعى أو الحنبلى إذا وفد عليها . فإن كان معتزليا فربما قتلوه ..

ومن سدّ الذريعة أفتى البعض بتعزيز من يترك مذهبًا لمذهب .

وفى القرن الثامن من الهجرة فصل من التدريس بمصر أبو العباس الحنبلى (٧١٦) لأنه ذكر أن عمر منع تدوين الحديث ، وأن ذلك كان سبب تعارض النصوص فى الحديث وخلاف العلماء .

وفى القرن العاشر علقت على باب زويلة رأس المولى ظهير المدين الأردبيلى لأنه قال : إن مدح الصحابة ليس بفرض !

وفى تركيا قتل فى عهد السلطان سليم الأوّل (٩٢٦) نحو أربعين ألفا من الشيعة .

وهكذا تدور رحى البطش فى كل اتجاه ، لكن لها قانونًا لا يتخلف هو أن الباطشين اليوم مبطوش بهم غدًا .

(١) أهل السنّة لا يكفّرون إلّا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل . يقول الغزالى : « اعلم أن شرح ما يكفر به ولا يكفر به يستدعى تفصيلًا طويلا . فاقنع الآن بوصية وقانون أماالوصية فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ، ما أمكنك ، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان . قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع . وأصول الإيمان ثلاثة : الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع . واعلم أنه لا تكفير فى الفروع أصلًا . إلّا فى مسألة واحدة . وهى أن ينكر أصلًا دينيًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتواتر . لكن فى بعضها تخطئة كما فى الفقهيات .. » .

الاعتقاد بأن كل مكلف يحاسب بعد الموت .. أما الفروع التى هى من ضرورات الدين فهى كل حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة ، من غير فرق بين مذهب ومذهب كوجوب الصلاة .. فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة وتكذيب لما ثبت فى دين الإسلام بالضرورة ..

وضرورات « المذهب الشيعى » نوعان .. نوع يعود للأصول وهو الإمامة . فيجب أن يعتقد كلّ « شيعىّ » إمامة الاثنى عشر إمامًا .. والنوع الثانى يرجع إلى الفروع كنفى العول ونفى التعصيب .. فمن أنكر فرعًا منها كان غير شيعى وإن كان مسلما .

والإيمان والإسلام عند الشيعة مترادفان . يثبتان لمن آمن بالتوحيد والنبوة والبعث . ويطلقان على معنى أخص هو هذه الأركان ومعها ركن العمل بدعائم الإسلام - وهى الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد - ويزيدون ركنًا خامسًا هو الاعتقاد بالإمامة ، وأنها منصب إلهى كالنبوة ، منصوص على من يليها . وأن الإمام أفضل أهل زمانه . ومعصوم . فمن اقتصر على الأركان الأربعة الأولى مسلم مؤمن . وإنما الاعتقاد بالإمامة له أثر فى منازل القرب والكرامة يوم القيامة .

يقول الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء : نعم يظهر أثر التدين « بالإمامة » فى منازل القرب والكرامة يوم القيامة - أما فى الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء . وبعضهم لبعض أكفاء . وأما فى الآخرة فلا شك أن المسلمين تتفاوت درجاتهم ومنازلهم حسب نياتهم وأعمالهم . وأمر ذلك وعلمه عند الله سبحانه . ولا مساغ للبتّ به لأحد من الخلق . والغرض أن أهم ما امتازت به الشيعة عن سائر فرق المسلمين هو القول بإمامة الأئمة الاثنى عشر . وبه سميت هذه الطائفة الإمامية . إذ ليس كل الشيعة تقول بذلك .. والقول بالاثنى عشر ليس بغريب عن أصول الإسلام وصحاح كتب المسلمين . فقد روى البخارى وغيره فى صحاحه حديث الاثنى عشر خليفة بطرق متعددة ، فيها بسنده عن النبى ﷺ : « أن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم اثنا عشر

خليفة .. »[1] .

---

(١) فى النصف الأول من القرن الحالى جرت « المراجعات » بين شيخ للأزهر وهو الشيخ سليم البشرى وبين الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوى (١٢٩٠ - ١٣٧٧) مدة إقامةالأخير بمصر ، وهى مراجعات أطراها الطرفان وثبت منها التزام المسلمين جميعا أصول الإسلام ، وسعة الفقه للخلاف حول الفروع .

ومن اتساع الفقه للخلاف وجدنا المأمون ، المعتزلى الفكر ، السنى الفقه ، يولى عهده عليًّاالرضا إمام الشيعة .ووجدنا الصاحب بن عباد الذى وزر للدولة البويهية ثمانية عشر عامًا من ٣٦٧ إلى ٣٨٥ وزيرًا معتزلى الفكر لدولة زيدية العقيدة ، تحكم دولة الخلافة السنية . ووجدنا الشريف الرضى نائبا للخليفة العباسى . كما وجدنا الدولة الإدريسية دولة سنّية يحكمها الادارسة وهم شيعة من نسل الحسن بن علىّ لكنهم لا يظهرون التشيع . وابن تومرت يقول إنه - كالأدارسة - من نسل الحسن بن علىّ ومع ذلك لا يقسر الدولة على التشيع . وكذلك بنى حمود من نسل الحسن بن علىّ يحكمون دولة سنّية ولا يقسرونها على التشيع .. بل سنجد فقهاء عظماء - كالطوسى - حجة فى المذهب الإمامى وفى مذاهب أهل السنة .

وفى سنة ٥٢٥ عين الخليفة الفاطمى بمصر قضاة أربعة : ثلاثة من مذاهب السنّة ورابعًا شيعيًّا لأن الشعب كان سنيًّا والدولة شيعية . وكان الحافظ السلفى (٤٧٨ - ٥٧٦) يلقى دروس الشافعية فى مدرسة بناها له ابن السلام الوزير الفاطمى .

وفى النصف الأخير من القرن الحالى أفتى المرحوم الشيخ محمود شلتوت : « أن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعًا كسائر مذاهب أهل السنّة . فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك . وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب ، أو مقصورة على مذهب . فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلًا للنظر والاجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم . ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات » .

وقال الشيخ شلتوت عن فتواه بعد .. « ثم تهيأ لى بعد ذلك - وقد عهد إلى بمنصب مشيخة الأزهر - أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر المتبعة لسبيل المؤمنين ومنها مذهب الشيعة الإمامية « الاثنا عشرية » .. وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ ، مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة ، فيقرر دراسة هذه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان وفلان كما أنه اهتم فى تكوين مجمع البحوث الإسلامية بأن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية » ..

والشيخ عبد المجيد سليم شيخ أسبق للأزهر يقول تحت عنوان « القطعيات والظنيات » : « قد علمنا من استقراء المذاهب الفقهية وآراء الفرق الكلامية أن فى كل منها خطأً وصوابا . ولم نعلم مذهبا من المذاهب الإسلامية المعتبرة خطأً كله أو صوابا كله . وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغى أن تطغى العصبية المذهبية على المسلمين . ولا ينبغى أن يكون همّ الحنفى مثلًا هو الانتصار لكل ما جاء فى مذهب الحنفية . ولا أن يكون همّ الإمامىّ أو الزيدى هو الانتصار والتعصب لكل ما جاء به الإمامية والزيدية . وهكذا .

بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه وأن يكون قصاراهم الرغبة الصادقة فى الوصول إلى الحق دون أن يقيموا وزنًا لما سوى الحق . بذلك يصبحون فعلًا أمة واحدة » .

والشيعة يعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجّة على العباد من نبّى أو وصىّ ، ظاهر أو مستور . فالإمام « المهدىّ » الثانى عشر « غائب » منتظر .

والإمامة منصب دينى لا يجوز التنازل عنه لأنه من الله .

ولما تنازل علىّ للخلفاء السابقين عليه كان التنازل عن الخلافة الدنيوية ، وحدها ، وبناء على أسباب .

أمور خلافية فى الفقه

يظهر من استعراض كبريات مسائل الخلاف بين الشيعة وبين مذاهب أهل السنّة ، فى الفقه ، أنها لا تمس أصل الدين . وأنها تحتمل الاجتهاد ، وتتسع للخلاف عليها . كما اتسعت أمور أمثالها للخلاف بين مذاهب أهل السنّة ذاتها – إلاّ زواج المتعة . فالخلاف فيه يتميز مما عداه :

أما الفرائض الدينية فواحدة عندهم وعند أهل السنّة .

فى « الصلاة » : الفروض واحدة لدى أهل السنّة ولديهم . وعدد الركعات فيها واحد . أما المندوب عندهم فلا حصر له . وأفضله عندهم « الرواتب » ، وعددها « على المشهور » ثمانية للظهر وثمانية للعصر قبل الفريضة وأربع للمغرب بعد الفريضة وللعشاء ركعتان جالسًا ويجوز قائمًا وثمانى ركعات صلاة الليل وركعتا الشفع وركعة الوتر وركعتا الصبح قبل الفريضة .. فالرواتب عندهم كثيرة .. ويشترطون القراءة فى الصلاة باللغة العربية . ولا يجيزون الترجمة . ويشترطون الجهر بالبسملة .

وفى « الزكاة » ، ووجوه البر ، لا يختلفون عن جمهور المسلمين . بل هم يضيفون إليها « خمس » الدخل ، الذى يجبى للإمام ، لإنفاقه فى مصارفه الدينية .

وفى « الصوم » : يرون الكذب على الرسول يفطر الصائم .

وفى « الحج » : جهاد لا يسقط بالموت بل يؤديه الوارث عن مورثه . وللغير

أن يؤديه عنه من مال للمورث قبل أن تقسم التركة .

ويكثرون من مظاهر « الروح الإسلامى » فى العقود . فيستحبون البدء بالبسملة فى كل معاملة ، ويحرصون على الصيغة العربية . ويكرهون معاملة تارك الصلاة والمستهتر . ويحرمون الاتجار بما يترتب عليه فساد المجتمع .

وفيمايلى أنواع خلاف بينهم وبين أهل السنّة ، لعلها تبين الإطار العام أو المعالم المهمة ، للوفاق وللخلاف بين الفريقين .

١ - الجمع بين الصلاتين :

المسلمون مجمعون على جواز الجمع فى الحج فى جبل عرفة بين الظهر والعصر وفى المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج خاصة - أما غير ذلك فمحلّ خلاف .

فالشيعة يجيزون الجمع مطلقًا جمع تقديم وتأخير . لعذر وغير عذر . فى السفر والحضر . وإن كان التفريق عندهم أفضل - إلّا إذا حدث حرج .

وحجّة الشيعة مشتقّة من صحاحهم ومن تفسير الإمام الصادق لقوله تعالى : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) .

فالغسق هو تراكم الليل واشتداد الظلمة . وبهذا تكون أوقات الصلاة الأربعة ممتدة من الزوال إلى نصف الليل . فالظهر والعصر ينتهيان فى الغروب . والمغرب والعشاء إلى نصف الليل . أما الصبح فقد اختصّها الله بقوله : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) .

٢ - الأذان :

كان بلال - مؤذن الرسول - يؤذن لصلاة الصبح فيقول بعد « حى على الفلاح » « الصلاة خير من النوم » . وأقره الرسول على ذلك .

والشيعة يقولون إن الأذان كان فيه « حى على خير العمل » حتى عهد عمر - كما قال الإمام الباقر. وسبب رفعها من الأذان أن المؤذن وجد عمر نائما

عند أذان الصبح فأضاف « الصلاة خير من النوم » - كما أورد الزرقانى فى تعليقه على الموطأ - فاستحسنها عمر فأمر أن تضاف إلى أذان الصبح . وأخرج ذلك ابن أبى شيبة[1] .

وعلماء الشيعة متفقون على أن قولى : « أشهد أن عليًّا ولىّ الله » ليس من فصول الأذان وأجزائه . وأن من يأتى به بنيّة أنه من الأذان فقد أبدع فى الدين ، أى أدخل فيه ما هو خارج عنه .

ويقول الشيعة : إن إسقاط « حى على خير العمل » . كان بأمر من أولى الأمر فى عهد عمر ، حرصًا منهم على أن تفهم العامة أن الجهاد فى سبيل الله هو خير العمل ، وأن النداء على الصلاة بخير العمل مقدمة لفرائضها الخمسة ينافى التحريض المطلوب للجهاد . فخطب عمر فنهى عنه[2] .

---

(١) الشيعة يستدلون على أن الاذان كان فيه عبارة « حى على خير العمل » بما هو ثابت بالسند الصحيح عن الإمام جعفر « لما هبط جبرائيل على رسول الله بالأذان أذن جبرائيل وأقام وعندها أمر رسول الله عليًّا أن يدعو بلالاً فدعاه فعلمه رسول الله الأذان وأمره به » وكان أذان الإمام جعفر هكذا :

الله أكبر الله أكبر الله أكبر
أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله
حى على الصلاة . حى على الصلاة
حى على الفلاح . حى على الفلاح
حى على خير العمل . حى على خير العمل
الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله

(٢) وقد تعاقبت التصرفات فى صدد الأذان من المسلمين . كان عليه الصلاة والسلام يأمر فى فجر رمضان بأذانين أولها يوقظ الغافلين ليتسحروا . والثانى للصلاة . وكان أذان الجمعة فى عهده يبدأ عندما يجلس على المنبر . وهو الأذان الوحيد الذى يؤدى من مكان مرتفع بالمسجد أو القرية كسقفه ومنارته . فلما كثر الناس فى عهد عثمان استحدث نداء آخر على الزوراء وبقى النداء الأول كما كان - وفى عهد هشام ابن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) اكتفى بأذان المنارة . ونقل الأذان الثانى وجعله بين يدى الخطيب .
هذا وليس الكلام القليل بين يدى الخطيب ، ولا عند الأذان ، ليبطله .

٣ - المسح على الرجلين :

يختلف الناس فى أن مسح القدمين هو الفرض أو الغسل هو الفرض ، لأن رسول الله - ﷺ - توضأ ومسح على قدميه . والشيعة تستدل بمسح الرسول على قدميه على أن المسح هو الفرض - ومروى عن ابن عباس أنه قال : ما صحّ عن رسول الله إلاّ غسلتين ومسحتين . ويفسرون الآية (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم) بما يسعفهم فى المسح .

٤ - الزواج والطلاق :

فى الزواج :

- المهر لا يقدر قلة ولا كثرة : إلاّ أن يقصر عن التقويم كأن يقول حبة قمح ؛ أما الكثرة ففيها قول الله : (وآتيتم إحداهن قنطارا) ، وإن كان يكره تجاوز مهر السنة الذى أصدقه النبى زوجاته وهو خمسمائة درهم .

- ويجوز النظر إلى وجه المطلوب زواجها دون استئذان ومع الوجه الكفين . وينظرها قائمة وماشية . وللمرأة أن تنظر إلى الرجل - ولا يجوز العزل عن المرأة إلاّ بإذنها .

- وللمرأة - بكرًا أو ثيبًا - أن تزوج نفسها ممن تريد إذا بلغت رشدها . وإن كان من المستحسن أن تستأذن وليّها فى ذلك .

فى الطلاق :

- أما الطلاق الثلاث بفم واحد : فجعله عمر ثلاثًا زجرًا للناس . وبقى الأمر كذلك ثلاثة عشر قرنًا ظهر فيها ما أحوج إلى العودة إلى الأمر الأوّل .

والشيعة لم يقبلوا عمل عمر من بادئ الأمر . فالطلاق الثلاث فى مجلس واحد يقع مرة واحدة .

ولا حلف عندهم بالطلاق على عمل . وهذان إصلاحان أحدثتهما مصر فى سنة ١٩٢٩ .

- وهم يوجبون حضور شاهدين للطلاق ، فى حين لا يوجبون حضور شاهدين للزواج . فالزوجية تنشأ دون شهود . لكن الطلاق واجب له الشهود . والمتفقهة الآن من أهل السنّة فى مصر يستحسنون إيجاب حضور شاهدين للطلاق ، بل هذا تعديل مطلوب فى مشروع قانون للأحوال الشخصية .

- وهم يمنعون طلاق المغضب . والمهيج والمنزعج . ويقررون أن الطلاق الذى أمر به الله ورسوله هو الذى يقع إذا حاضت المرأة وطهرت من حيضتها ، فأشهد الرجل شاهدين عدلين قبل أن يجامعها على تطليقة . ثم هو أحق برجعتها ما لم تحض ثلاثاً . فإن مضت ثلاثة قروء قبل أن يراجعها فهى أملك لنفسها فإن أراد أن يخطبها مع الخطاب خطبها . فإن تزوّجها كانت عنده .

- وليس للمريض أن يطلق . وله أن يتزوج . فإن تزوج ودخل بها فجائز . وإن لم يدخل ومات بطل الزواج . ولا مهر ولا ميراث للزوجة .

فلنلاحظ اليسر فى الزواج عندهم . والتشدّد فى الطلاق . ورعاية المرأة فى كل حال والحرص على الأسرة .

٥ - زواج المتعة : « إلى أجل معين » :

والشيعة يسمونه الزواج المؤقت . ويرجعونه إلى قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) . والمفسرون متفقون على أن جماعة من الصحابة العظماء أفتوا بإباحتها منهم ابن مسعود وأبى بن كعب وابن عباس وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين . بل كانوا وهم يتلون الآية ينطقون بتفسيرها فيقرءون (فما استمتعتم به منهن) ، (إلى أجل مسمى) . فالمشروعية ثابتة والعمل بها ثابت .

وإنما يجزم أهل السنّة بأنها أبيحت لدواعيها ثم نسخت بأحاديث جازمة . والشيعة لا يرونها أحاديث ثابتة . ويقولون إن الحلال القطعى الثبوت لا ينفيه تحريم غير قطعى .

وهم يقولون : إن المتعة سائغة فى السفر لطلب العلم والتجارة والجهاد ، فلقد

كانت مشروعيتها للسفر والجهاد . وإنها زواج عادى ، لولا أنه إلى أجل . فالزوجة فى زواج المتعة تعتدّ إذا انتهى الأجل ، ككل طلاق . ولا بدّ من المهر .. والابن من الزواج هو ابن عادى ، وله الميراث والنفقة . أما الزوجة فلا نفقة ولا ميراث لها ، إلّا إذا اشترطت . وليست النفقة من لوازم الزوجية ، فالناشز زوجة ولكنها بلا نفقة . ومن النساء من ترث وليست زوجة . كمن طلقت فى مرض الموت ومات زوجها قبل مضى سنة .

والثابت أن عمر أعلن تحريم المتعة إذ خطب الناس فقال : « متعتان كانتا على عهد رسول الله - ﷺ - وعلى عهد أبى بكر ، رضى الله عنه ، وأنا أنهى عنهما .. » وأنه حرمها وهو بصدد قضية لعمرو بن حريث ثم أطلق النهى .

وأهل السنّة يقررون أن نهى عمر عنها كان إعلانًا لتحريم ثابت قبل ذلك .

ولم تقبل الشيعة نهى عمر من بادئ الأمر بل قال علىّ : « لولا نهى عمر عن المتعة ما زنى إلّا شفا « قليل أو مشف على الهلكة » أو سفىّ » .

وثبت عن الإمام الصادق قوله : ثلاث لا أتقى فيهن أحدا متعة الحج ومتعة النساء والمسح على الخفين .

ومن نوادر يحى بن أكثم قاضى المأمون أنه سأل شيخًا من أهل البصرة بمن اقتديت فى جواز المتعة ؟ قال : بعمر . قال : كيف وكان من أشدّ الناس فيها ؟ قال : إنه صعد المنبر فقال : أيها الناس . متعتان أحلهما الله ورسوله لكم . وأنا أحرمهما عليكم وأعاقب عليهما . فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه[1] .

---

(١) كان يحيى مع المأمون عندما رأى - وهو على رأس جيشه لمحاربة الروم - جواز المتعة ، فهى أول ما شرعت شرعت فى الحرب ، فأمر فنودى بتحليلها للمحاربين . قال يحيى لصاحبين كانا معه فى سفر المأمون : بكرا إليه غدا فإن رأيتما للقول وجها فقولا . وإلا فأمسكا حتى أدخل . فدخلا عليه فسمعاه مغتاظا يقول متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبى بكر وأنا أنهى عنهما . ومن أنت .. حتى تنهى عما فعله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه ؟ « يقصد عمر بكلامه » - فأومأ أحد الرجلين لصاحبه وقال : رجل يقول فى عمر بن الخطاب .. نكلمه نحن ! وأمسكا حتى جاء يحيى .. فقال المأمون ليحيى : مالى أراك متغيرًا ؟ قال : هو غمّ يا أمير المؤمنين لما حدث فى الإسلام .

قال المأمون : وما حدث فى الإسلام ؟

قال : النداء بتحليل الزنا .

=

الميراث :

للشيعة تفسير فى المواريث فى صالح البنات ، لذواتهن ، ولمن يتوسل للميراث بهن .

= قال المأمون الزنا !

قال نعم المتعة زنا – قال تعالى : (والذين هم لفروجهم حافظون إلّا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أزوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا . قال : فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث ... ولها شرائطها ؟ قال : لا . قال يحيى : فقد صار متجاوز هذين من العادين . وهذا الزهرى روى عن عبد الله والحسن ابنى محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علىّ بن أبى طالب قال : أمرنى رسول الله ﷺ أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها .

وقال المأمون : محفوظ هذا من حديث الزهرى ؟

قال يحيى : رواه جماعة منهم مالك . قال : استغفر الله نادوا بتحريم المتعة .

ولا غرابة فى أن يعدل المأمون . فلقد طالما جلس هو وأخوه الأمين وأبوهما – الرشيد – فى حلقة مالك .

ولى يحيى القضاء فى البصرة وعمره نحو عشرين سنة . فاستصغره أهل البصرة : قال لهم : أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذى وجه به النبى قاضيًا على مكة يوم الفتح . وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى قاضيًا على مكة يوم الفتح . وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذى وجه به النبى قاضيًا على اليمن . وأنا أكبر من كعب بن أبى الذى وجه به عمر قاضيا على البصرة .

وكان يحيى حسن التأتى للأمور ومنها سياسة القضاء والخلفاء : دخل على المأمون رجل يشكو وكيلًا للمأمون أن اشترى منه جواهر بثلاثين ألف دينار . فقال المأمون : لعل الوكيل اشترى لنفسه أو سلم الشاكى المال .. قال الشاكى : فإذن أدعوك إلى القاضى الذى نصبته لرعيتك . وجيء بيحيى بن أكثم . فقال للمأمون : إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء : قال : قد فعلت : قال : فإنى أبدأ بالعامة أولا يصلح المجلس للقضاء ... ففتح الباب – وقعد فى ناحية من الباب وأذن العامة . ثم دعى بالرجل . فقال له يحيى ما تقول ؟ قال : أقول : أن تدعو بخصمى أمير المؤمنين .

فنادى المنادى فإذا المأمون قد خرج ومعه غلام يحمل مصلّى حتى وقف على يحيى وهو جالس . فطرح المصلى ليقعد عليها فقال له يحيى : ياأمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس .. فطرح للرجل مصلى آخر ، ثم نظر فى دعوى الرجل ..وطالب الرجل المأمون باليمين فحلفها المأمون .

ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه . قال المأمون : ما أقامك ؟ قال إنى كنت فى حق الله جلّ وعزّ حتى أخذته منك . وليس الآن من حقّى أن أتصدر عليك ..

فأمر المأمون أن يحضر ما أدعى الرجل من المال فقال له : خذه إليك والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلّا خوفًا من هذه الرغبة لعلّها ترى أنى تناولتك من وجه القدرة وإنها لتعلم الآن أنى ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال .

يقول تعالى : (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت . فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك . وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين) - وهم يرون البنت ولدًا فى اللغة والعرف ، ولذلك يعطون البنت دائمًا . ولا يعطون الأخت أو الأخ إن كان هناك بنت أو ابن فكلاهما ولد . وهم يسقطون الوصية مادام هناك ولد « ابن أو بنت » .

وللشيعة قاعدة : أن كل فريضة لم يهبطها الله إلّا إلى فريضة ، تكون مقدمة عند « العول » . وكل فريضة ، إذا زالت عن فرضها ، لم يكن لها إلّا ما بقى ، تكون مؤخرة .

مثال ذلك للزوج النصف فإن هبط له الربع . فإن دخل عليه فى التقسيم ما يزيد عن السهام رجع إلى الربع المفروض . ولا يزيله عن الفرض شىء . ومثله الزوجة والأم . أما البنات والأخوات فلهن النصف والثلثان . فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لهن إلّا ما بقى . فإذا اجتمع ما قدم الله وما أخرّ بدئ بما قدم الله فأعطى حقه كاملاً . فإن بقى شىء كان لما أخر . وهو تطبيق لحديث ثابت عندهم . أورده الشهيد الثانى - وأورده الحاكم فى المستدرك وقال إنه صحيح على شرط مسلم - ويستشهد أهل السنّة بآيات ويستشهد الشيعة بآيات .

وهم ينفردون بما يسمى « الحبوة » للولد الأكبر : ملابس أبيه وثيابه ومصحفه وخاتمه زيادة على حصته فى الميراث - كما ينفردون بعدم توريث الزوجة من عقار الزوج ورقبة الأرض عيناً وقيمة ، لأخبار وردت عن الأئمة مروية عن النبى .

٧ - متعة الحج :

ينشئ الحاج إحرامه من ميقاته « أماكن القصد إلى البيت الحرام » والمتمتع يأتى مكة ويطوف بالبيت . ثم يقصر ويحلّ من إحرامه ويقيم بعد ذلك حلالاً . ثم

يفيض إلى المشعر الحرام . ثم يأتى بأفعال الحج بإحرام جديد . وهذان التقصير والإحلال تيسير بإباحة محظورات الإحرام فى المدة المتخللة بين الإحرامين . وهذا ما كرهه عمر وحرمه قائلاً : هى سنّة رسول الله لكنى أخشى أن يعرسوا بهن – نسائهم – تحت الأراك ثم يروحون بهن حجاجًا . فخطب ونهى عن هذه المتعة مع متعة الزواج .

ومع ذلك فابن عمر يقول عن عمل أبيه : أرأيت إن نهى عنها أبى وصنعها رسول الله أأمر أبى أتبع أم أمر رسول الله ؟ وابن عباس كعلىّ لا يحرمان ما حرّمه عمر .

ولما قدم علىّ من اليمن وجد فاطمة الزهراء قد حلّت ولبست صبيغًا ، واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمرنى بهذا . فذهب إلى رسول الله فقال : صدقت صدقت .

والشيعة لهذا يرون متعة الحج .

٨ – التفسير بالتأويل :

يروى الشيعة عن النبى أنه قال : « إن للقرآن ظاهرًا وباطنًا ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن » . ويروون عن علىّ أنه قال : « ما من آية قرآنية . إلاّ ولها ظاهر وباطن . وحدّ ومطلع » ويروى هذا البيان عن « سهل التسترى » ، من المفسرين الصوفيين . وأنه أضاف : فالظاهر التلاوة . والباطن الفهم . والحدّ حلالها وحرامها . والمطلع إشراف القلب على المراد به فقهًا عن الله عزّ وجل .. قيل له : ما الباطن ؟ قال : فهمه .

ويروون عن الإمام الصادق أنه قال : « إن فى كتاب الله أمورًا أربعة . العبارات والإشارات ، والحقائق واللطائف . فالعبارات للعوام . والإشارات للخواص . واللطائف للأولياء . والحقائق لأنبياء الله » .

والمتتبع لتفسيرات الإمام الصادق وأجوبته على المسائل يجدها تنبع من بحر عميق فى فهم القرآن واللسان العربى، أمكنه أن يكشف للناس بين الفينة والفينة

ما فيه من شمول وما بينه وبين السنّة من صلة الأصل بفرعه . وبذلك قدر الإمام أن يفسر القرآن بالقرآن - ففى بيته نزل - وأن يجد للحديث الواحد أصولا عدّة ، فى آيات متفرقة ، بمجرد أن يدلى إليه سائل بسؤال ! وهو منهج سيتتابع عليه عظماء الأئمة من أهل السنّة . وفى طليعتهم أحمد بن حنبل .

ولا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الصادق من أضرب التفسير بالرأى أو بالمأثور أو بهما - وهى مصنفة بين عقلى ونقلى وصوفى ورمزى وقصصى .. إلخ - وفى البعض منها تأويل باطنى .

وابن عطية من كبار مفسرى أهل السنّة ينفى صحة نسبة تفسير باطنى أو رمزى إلى الإمام الصادق ، ويقول : « .. وهذا قول جار على طريقة الرموز . ولا يصحّ عن جعفر بن محمد - رضى الله عنه - ولا ينبغى أن يلتفت إليه » .

وإليك مثلاً - بين نظائر تجلّ عن الحصر - لاستعمال اللسان العربى فى التفسير : يقول زرارة للإمام الصادق - من أين علمت أن المسح ببعض الرأس ؟ ويجيب الإمام : لمكان الباء فى قوله تعالى : (وامسحوا برءوسكم) . يقصد أن الباء للبعضية .

ولقد تتابع على هذا التفسير الأئمة فى اللغة والفقه . جاء فى المصباح المنير فى مادة « بعض » أن الباء فى قوله تعالى : (وامسحوا برءوسكم) للتبعيض .. ونصّ على مجيئها للبعض ابن قتيبة .. وأبو على الفارسى وابن جنى . وذهب إلى مجىء الباء بمعنى البعض الشافعى وهو من أئمة اللسان . وقال بمقتضاه أحمد وأبو حنيفة .

ومن استعمال ظاهر اللسان العربى تفسير « الكوثر » بأنه الذرية الكثيرة . فى قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر) . فهى صيغة مبالغة من الكثرة «فوعل» يؤيد ذلك الآية التى تجىء فيها بعد (إن شانئك هو الأبتر) والأبتر من لا عقب له . وبهذا ساغ تفسير الشيعة بأن الكوثر هو الذرية . وقد رزق الله النبى الذرية الكثيرة من فاطمة . فهى الكوثر المقصود . والآخرون يقولون : إن الكوثر نهرٌ فى الجنة . وغيرهم يؤولونه بأنه النبوّة .

ولقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الإمام ، كالخوف من عدم العدل بين النساء ، والإنفاق من رزق الله ، ورؤية الله جلّ شأنه ، وقتل النفس بإخراجها من الهدى إلى الضلال ، والتفسيرات التى جعلت أبا حنيفة يقول عن آية : (وما نقموا إلّا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) لكأنى ما قرأتها قط فى كتاب الله ولا سمعتها إلّا فى هذا الموقف . وهى جميعًا صادرة عن فهم دقيق للسان العربى الذى نزل به القرآن .

والتفسير بالظاهر ممن يفهم البلاغة العربية ، ومجازاتها المتعددة ، والاستعارة ، والإيجاز اللفظى ، وهو بعض خصائص الإعجاز البيانى فى القرآن ، لا ينفى استعمال العقل ، بل فيه مجال واسع له . ولا ينفى القيمة العظيمة لتفسير الزمخشرى المعتزلى ، وهو حجّة فى اللغة ، وحجّة فى الجمع بين الظاهر وبين وجوه « الرأى » ، بالمعانى الدقيقة وأسرار البلاغة[1] .

وممن أثارهم الإعجاب به الإمام يحيى بن حمزة العلوى (٧٤٩) صاحب كتاب الطراز .

وما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل البيت إلّا تلقته العقول بالقبول ؛ لأنه لا يغاير النصّ من القرآن والسنّة . وإنما يشرحهما فى نورانية باهرة[2] ، فى حين

---

(١) يؤوّل المعتزلة الألفاظ ليفسروا معانى الآيات طبقًا لأصولهم . وعلى ذلك أولوا الآيات التى قد تنم عن التشبيه والجهة الجسمية .

والتفسير بالرأى يقوم على قاعدة كصمام الأمان للذين ينهجونه . فبالكتاب آيات محكمات وأخر متشابهات والمحكمة آيات لا يتمارى فى معناها أحد . فإذا وردت آية متشابهة فسرت على أساس الآية المحكمة . مثل قوله تعالى : (إلى ربها ناظرة) تفسّر على أساس قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) فيكون معناها الرضى عنها وتوقع النعمة من الله . ومثل قوله : (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) تفسّر على أساس قوله : (إن الله لا يأمر بالفحشاء) . وأكثر المؤوّلين يلجئون للمجاز . وفى القرآن كثير منه مثل قوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم) فمعناها القدرة – وهم ككل المفسرين – يبدءون من أن الله تعالى ليس كمثله شىء . أما التفسير بالمأثور فتتصدره مدرسة الإمام الطبرى : يجمع الأقوال والآثار ويختار منها .

(٢) إليك مثلًا تفسير « الإمام العسكرى » للحروف المقطعة مثل (ا . ل . م ..) فى فواتح =

أن المعتزلة يؤولون ليخضعوا المعنى لأصولهم الخمسة[1] . وهذا خلاف عظيم بين المؤولين وبين الإمام جعفر والشيعة الإمامية .

أما الإسماعيلية - فلهم بعض التأويلات الباطنية التى تهمل المعنى الظاهر وتحمّل الألفاظ ما لا تحمله .

والإسماعيلية فرقة شيعية لم تظهر إلّا بعد موت الإمام جعفر بقرن أو أكثر .

٩ - البداء : ومفهومه الشائع : الظهور بعد الخفاء :

نسب إلى الشيعة القول بأن الله يبدو له فيغير ما قرره لظهور طارئ . وأطلقوا على ذلك لفظ البداء . والشيعة الإمامية لا تقول شيئًا بهذا المعنى - بل تعتقد أن الله عالم بكل شىء ... وعلمه أزلى بما كان وما يكون . يقول الإمام الصادق : « ما بدا لله فى شىء إلّا كان فى علمه قبل أن يبدو له » وسأله منصور ابن حازم .. هل يكون اليوم شىء لم يكن فى علم الله بالأمس ؟ قال : « لا .. من قال هذا فقد أخزاه الله » قال منصور : ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس فى علم الله ؟ قال : « بلى قبل أن يخلق الخلق » ويروى عنه قوله : « إن الله لم يبد له عن جهل » .

= السور يراها تنبيهًا على أن هذا الكتاب الذى أنزله الله هو هذه الحروف المقطعة . وأنه بلغتكم وهجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين . وما يزال هذا التفسير فى طليعة تفسير الحروف المقطعة فى أوائل السور .

(١) أصول المعتزلة الخمسة :

١ - التوحيد الذى ينفى عن الذات صفات الأجسام والمكان . وأهل السنّة يرون صفات الله خاصه به وأنه تعالى « كما وصف نفسه » . فليس فى ذلك تشبيه لله بخلقه .

٢ - العدل وفحواه أن الله لا يأمر إلا بالحسن ولا ينهى إلا عن القبيح وما يفعله الناس عمل من أعمالهم ولذلك يثابون ويعاقبون . وأهل السنّة يقولون : إن الله خالق العمل والعبد كاسب له .

٣ - الوعد والوعيد أو الثواب والعقاب ملازمان للفعل وأهل السنّة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة .

٤ - المنزلة بين المنزلتين . فمرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر بل فاسق وإن كان عقابه أقل من الكافر .

٥ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع اشتدادهم فى ذلك عندما كانت السلطة فى أيديهم .

فجميع الكائنات الممكنة ، قبل أن تخلق ، قدرها الله تعالى وكتبها بمشيئته وإرادته فى اللوح المحفوظ . والله تعالى يقول : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) وكل ما يتعلق به القضاء ، والتقدير ، لابدّ له من تعلق الإرادة والمشيئة به . وما لا يكون قضاؤه وتقديره حتميًّا مما هو مورد المحو والإثبات تتعلق المشيئة بمحوه وإثباته . وقد يكون وجوده ، وتكوينه بإرادة الله تعالى ، منوطًا أى مشروطًا ، بتحقق أمر آخر . فيكون قد جرى فى علمه تعالى أن يوجد إذا حصل ما اقتضت المصلحة ، التى يعلمها الله ، أن تكون شرطًا .

والله تعالى يقول : (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا) ويقول : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

وروى أحمد فى المسند إن النبى قال : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه . ولا يردّ القدر إلّا الدعاء . ولا يزيد فى العمر إلّا البرّ » .

وعن أبى سعيد أن النبى قال : « ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه إحدى ثلاث : إما أن يستجيب لدعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها . قالوا : يا رسول الله إذن نكثر . قال : الله أكثر » .

ومن القضاء علم مخزون لا يطلع الله عليه أحدًا . فلا بداء فيه . وقضاء أخبر به ملائكته ورسله . فهذا أيضًا لا بداء فيه . وقضاء معبر عنه بلوح المحو والإثبات . وفى هذا القسم يرد قول الشيعة بالبداء (يمحو الله ما يشاء ويثبت) .

والشهرستانى ينفى عن الإمام جعفر ما ينسب إليه من أقوال فى الغيبة والبداء بمعنى تغيير إرادة الله .

١٠ - الرجعة :

القول « برجعة » « المهدى » المنتظر ليس مجمعًا عليه فى الفكر الشيعى .

فمنهم من لا يعتبرها عقيدة . ومنهم من يأخذ بها ، كما أخذ بعض أهل السنّة ، ببعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل وأشراط الساعة . مثل نزول عيسى من السماء ، وظهور الدجال الذى يظهر قبل الإمام بقليل فيقتله الإمام ، وخروج السفيانى - الذى يخرج من الوادى اليابس حتى ينزل بدمشق ، فذلك اختراع لحساب بنى أمية فى الأندلس . وثمة سفيانى قيل إن خالد بن يزيد اخترعه لحساب بنى أمية ضدّ بنى مروان . ومن قبلهم وجد « القحطانى » المنتظر - رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه - بل ادعى عبد الرحمن بن الأشعث أنه القحطانى المنتظر .

بل إن سعيد بن المسيب علّامة التابعين يعتبر عمر بن عبد العزيز المهدى المنتظر « للمدينة » . وقد سمى العباسيون لهم مهديا « الخليفة المهدى بن المنصور » .

وأبو جعفر المنصور يقول عن محمد النفس الزكية : « هذا مهدينا أهل البيت » . ولقد سمى الكثيرون من يتولونهم بالمهدى .

فأتباع محمد بن الحنفية لقّبوه بالمهدى . وابن صرد يلقب الحسين بالمهدى . وأشياع المختار الثقفى لقّبوه بالمهدى .. بل إن كثرة الزيدية يقولون إن كل واحد من الأئمة مهدى . فزيد مهدى . وابنه يحيى مهدى . ومحمد بن عبد الله ابن الحسن « النفس الزكية » مهدى . وكل فاطمى شجاع عالم زاهد يدعو إلى الحق بالجهاد فهو لدى الزيدية إمام « مهدى »[1] .

---

(١) يقول الإمام محمد آل كاشف الغطاء من أئمة الشيعة « الإمامية » المعاصرين : « وليس التدين بالرجعة فى مذهب الشيعة بلازم . ولا إنكارها بضار وإن كانت ضرورية عندهم ولكن لا يناط التشيع بها وجودًا أو عدمًا » .

ويقول : « وحديث الطعن بالرجعة كان هجيرى علماء السنّة .. فكان علماء الجرح والتعديل إذا ذكر بعض العظماء من رواة الشيعة ومحدثيهم ولم يجدوا مجالًا للطعن فيه لوثاقته وورعه وأمانته نبذوه بأنه يقول بالرجعة فكأنهم يقولون يعبد صنما أو يجعل لله شريكا . ونادرة مؤمن الطاق مع أبى حنيفة معروفة . وأنا لا أريد أن أثبت فى مقامى هذا ولا غيره صحة القول بالرجعة وليس لها عندى من الاهتمام قدر قلامة ظفر .. » .

ومن الناس من ينتظر عودة من يسمونهم كذلك .

وفى مسند أحمد بن حنبل : سمعت عليًّا يقول : قال رسول الله : « لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم بعث الله عزّ وجل رجلاً منّا يملؤها عدلاً كما ملئت جورًا » .

ويقول بعض الشيعة : إن عقيدة البعث أصل مجمع عليه ، وإنه عندما يؤخذ القول بالرجعة على أنها بعث فلا وجه لنفى العدالة عمن يفهمها كذلك[1] .

ولقد رددت كتب السنن الكلام فى المهدى وظهوره . ومنها سنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . ولم يرد ذكره فى صحيحى البخارى ومسلم . وتكلم البعض فى إسناد الأحاديث المروية فى السنن . وفى الوقت ذاته نجد السيوطى فى كتابه « العرف الوردى فى أخبار المهدى » وابن حجر فى كتابه : القول المختصر فى أخبار المهدى المنتظر « وهما من فحول علماء أهل السنّة » ، وآخرين غيرهم . يكتبون عن المهدى ، ويروون أحاديث فى ظهوره .

وفى تفسير الأحاديث إذا صحت تتغاير الأنظار[2] .

---

(١) يقول الشيخ محمد رضا المظفر فى كتابه « عقائد الشيعة » : من يستغرب الرجعة يكون بمثابة من يستغرب البعث فيقول : « من يحيى العظام وهى رميم » فيقول : (قل يحييها الذى أنشأها أوّل مرة وهو بكل خلق عليم) ، وينهى بحثه فى هذا الصدد بقوله : على كل حال . فالرجعة ليست من الأصول التى يجب الاعتقاد بها . وإنما اعتقادنا بها كان تبعًا للآثار الصحيحة والواردة عن آل البيت الذين ندين بعصمتهم من الكذب . وهى من الأمور الغيبية التى أخبروا بها ولا يمتنع وقوعها .

(٢) فى كتب أهل السنّة أقاويل شتى : يتكلم الشعرانى عن الولاية أنها « مواهب مخصوصة للأوتاد والأبدال والأئمة من أصحاب الدوائر والأعداد وأصحاب النوب والأفراد » ثم يقول : « وقد اجتمعت هذه المراتب كلها فى خاتم الولاية المحمدية وهو المهدى أخو عيسى عليهما السلام ، فى الختمية ، لقوله فى حقه يقفو أثرى ولا يخطئ . كما جمع له مرتبة الدعوة إلى الله تعالى بالسيف وإقامة الحجة وهذه مرتبة العصمة التى لا يتصف بها إلاّ نبىّ أو خليفة الله تعالى .. ثم اعلم أن العلوم الحاصلة عن طريق الكسب والوهب من علوم التوحيد يجب سترها عن الناس لما فيها من الغرابة والتبرى من المعقول والمنقول . وقد اقتفت الكمل من الأولياء هذه الآثار عن الصحابة والتابعين شفقة على ضعفة الناس الجاهلين بهذه الطريقة اتباعًا لقوله ﷺ : « حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله » .

ومن الآخذين بسبيل التصوف قائلون بعلم الباطن وما فيه . وفى قواميسهم شطحات ومقولات =

وابن الجوزى الحنبلى يسمى القائلين بالرجعة فى كتابه « تلبيس إبليس » « الرجعية » . ولقد أسلفنا تضعيف بعض محدثى أهل السنّة للقائلين بالرجعة .

= كثيرًا ما تتجه اتجاهات غريبة عن الإسلام كمقولات « وحدة الوجود ، والفناء ، والمحو والحلول » وما قول الحلاج من أقوالهم ببعيد « أنا الحق وما فى جيبى إلا الحق » !!

ولقد ازدهرت فى القرنين السادس والسابع الهجرى أفكار فلسفية غريبة على تصوّف أهل السنّة . وهو متمثل فى زهد الصحابة وحده .

ومن هذه الأفكار فكرة تطهير الروح بالارتياض والخلاص من مطالب الجسد . يصل بها الإشراقيون إلى القول بأن الرياضة الروحية وتهذيب النفس هما الوسيلة الوحيدة للمعرفة . أما الغلاة فيعذبون الجسد تعذيب البراهمة والبوذيين الهنود . وآخرون يأخذون من الهنود وفكرة الوحدة الثابتة الجامعة لكل ما فى الوجود . فالكل واحد .

والحلاج (٣٠٩) ومن ذهب مذاهبه يقولون بالحلول الإلهى فى بعض المخلوقين .

ومن المسلمين من أصبحت « الوحدة » أنشودة على لسانه مثل محى الدين بن عربى . ومنهم من وصل الذات الإنسانية الفانية بذات الله الخالدة ، وصلًا سبيله المحبة التى تبلغ درجة السكر والغيبوبة عن الحسّ ، مثل ابن الفارض (٦٣٨) وابن عطاء السكندرى . وعند بعضهم كلام جيد يفهمه البعض فهمًا ضارًا - وقد ترتب على هذه الأفكار نشوء أفكار أخرى كالإيمان بالخوارق !! وكرامات الأولياء !! وأصبح الولىّ عند البعض مكشوفًا عنه الحجاب مادام يفنى فى ذات الله ويخرج عن المألوف !!

الباب الخامس

المنهج العلمى

إن العلم هو علم محمد ﷺ ، فى
ميراث محمد ﷺ .

« ابن تيمية »

فى الباب الحالى فصول ثلاثة تحاول تصوير منهج الإمام الصادق « العلمى » ، و « الحضارى » « السياسى والاقتصادى » ، كما رسم خطوطه بالفعل وبالقول ، وكما اقتفى آثاره وبنى عليه علماء الإسلام ، الفقهاء منهم والرياضيون والتطبيقيون ، مستمتعين بحرية الفكر والبحث التى وردت بها نصوص الكتاب العزيز وأمرت بها السنّة . وكان الإمام الصادق من الأوائل فى تعليمها للمسلمين ، ممن انتسبوا إليه وممن أخذوا عنهم . يستوى فى ذلك الشيعة وفقهاء أهل السنّة .

وعلى هؤلاء الفقهاء والعلماء تعلّم أهل أوربة منهج النزاهة العلمية والواقعية الذى تبلور فى طريقة « التجربة والاستخلاص » والذى أعلنه جابر بن حيان ، أوّل من استحق فى العالم لقب كيميائى كما يعبّر عنه الأوربيون .

ومن المنهج الحضارى : المنهج السياسى والاقتصادى الذى يستهدف عمارة الدنيا بالعدل فى الناس ، والعمل للحياة ، والتكافل بين أعضاء الجماعة ، والسعى لاستثمار طاقات الناس وأموالهم – وهى قواعد بلغ بها الفقه الشيعى غايته ، ابتداءً من منهج أمير المؤمنين علىّ ، معمولاً به فى حياته أو خلافته ، أو منصوصًا فى عهده للأشتر النخعى ، وكله سياسة واجتماع واقتصاد ، إلى رسالة حفيده زين العابدين فى الحقوق ، وهى تجرى فى آثاره ، إلى برنامج حفيده جعفر الصادق العلمى والحضارى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، يدلى به للناس ، ويطبقه بنفسه . ويضع به الأسس لدول أو مجتمعات ، أو جماعات ، أو جمعيات ، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوْجَها به .

وهذه خصيصة لا يجارى الصادق فيها عالم من العلماء فى التاريخ .

وحسبنا فى هذا المقام كلمات ، كالإشارات ، تضمنتها الفصول الثلاثة التى حواها هذا الباب .

الفصل الأول

التجربة والاستخلاص

أما إذ خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك ، فإنى أرجو أن تخرج إلى المعرفة .

« جعفر الصادق »

لو أتيح لى الأمر لحرقت كتب أرسطو كلها ، لأن دراستها يمكن أن تؤدّى إلى ضياع الوقت وإحداث الخطأ ونشر الجهالة .

روجير بيكون « ١٢٩٤ ميلادية »

لم يكن روجير بيكون فى الحقيقة إلّا واحدًا من رسل العلم الإسلامى والمنهج الإسلامى إلى أوربة المسيحية .

« روبر بريفو »

أتيحت للإمام الصادق حقبة طويلة للتعليم يتلقاه أو يلقيه . فلم يحبس كمثل ما حبس الكثيرون من أهل بيته ، أو يقتل كما قتل عظماؤهم .

ولم يصطدم مذهبه الفقهى بمذهب فقهى للسلطان . فبنو أمية وبنو العباس ، حتى عهده ، لم يكن لهم مذهب فقهى - أن لم تظهر المذاهب « رسميًّا » إلّا فى أخريات القرن الثانى للهجرة ، عندما صيّر أبو يوسف مذهب أبى حنيفة مذهب السلطان . واستعصمت المدينة بفقهها ، ثم ظهر الشافعى فى أواخر القرن الثانى .

ولم يصطدم الإمام بمذهب سياسى للخليفة - أن لم يظهر اعتناق الدولة للاعتزال إلّا فى عصر المأمون فى فاتحة القرن الثالث .

وكان الجهميون والقدريون مستضعفين . ولم يكن لمناقشات أصحاب الملل والنحل شأن يستلفت النظر .

بهذا أتيح للإمام فى مجلسه العلمى ، واقتداره الذى يسلّم به الجميع ، أن يرسى فى أمنة واطمئنان ، قواعد « منهج علمى » مايزال يعبر القرون باعتباره فتحًا من الفتوح التى فتحها الله على البشر .

وفحوى المنهج أن العلم « مشاهدة » و « نزاهة فكرية » فى « استخلاص » النتائج لا يقبل الله سواها من عالم أو متعلم .

فى هذا الفحوى قول الإمام : « اطلبوا العلم . فإنه السبب بينكم وبين الله » .

- والسبب إلى الله لا يقوى إلّا بقلب خاشع . ومن ثم وجب إخلاص النية فيه ، وصدق الهمة فى تلقّيه ، وقبول حقائقه دون تلويثها بشوائب الهوى أو الغرض أو المقررات السابقة ، أو العوامل الخارجية .

وبهذه الخصائص تصبح « النزاهة العلمية » سمتًا للعبادة وشأوًا للسيادة - يقول الإمام : « الملوك حكام على الناس والعلم حاكم عليهم .. حسبك من العلم أن تخشى الله . وحسبك من الجهل أن تعجب بعلمك » .

ولتحقيق ذلك يأمر الإمام طالب العلم - من بدء أمره - بالتحلّى بخصال . وينهاه عن نقيضها .

يقول : « لا تطلب العلم لثلاث : لترائى به ولا لتباهى به ولا لتمارى به . ولا تدعه لثلاث : رغبة فى الجهل وزهادة فى العلم واستحياء من الناس » . وما المراء أو الإصرار على عدم المعرفة أو تحقير العلم أو خوف النقد إلّا خروق واسعة تتساقط منها كنوز العلماء ، ومواهب المتعلمين ، وواجب الفرد فى أن يتعلم ، فى أمة فرض رسولها العلم على كل مسلم ومسلمة . فالعلم فى الإسلام طريق للبقاء والتقدم .

يقول لمحمد بن النعمان « مؤمن الطاق » . وهو المناضل الجدل : « يابن النعمان : إياك والمراء فإنه يحبط عملك . وإياك والجدل فإنه يوبقك . وإياك وكثرة الخصومات فإنها تبعدك من الله . وإن من قبلكم كانوا يتعلمون . وأنتم تتعلمون الكلام .. إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء ..

إن أبغضكم إلىّ المترئسون ، والمشّاءون بالنمائم ، والحسدة لإخوانهم . وإنما أوليائى الذين سلموا لأمرنا واتبعوا آثارنا .

وليست البلاغة بحدّة اللسان ولا بكثرة الهذيان . ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة » . ويضيف .

« يابن النعمان . إن أردت أن يصفو لك ودّ أخيك فلا تمازحنّه ولا تجارينّه ولا تباهينه . ولا تطلع صديقك من سرّك إلّا على مالو اطلع عليه عدوّك لم يضرك . فإن الصديق قد يكون عدوّك يومًا .. » .

– ومن أدوات المنهج طمأنينة المعلم والمتعلم ، بالاستغناء عن الناس . فالإمام يحثّ تلاميذه على العمل للرزق ، ويمدّهم بالمال ، ليتّجروا ، ويستغنوا عن الناس ليستمع إليهم الناس . وليقدروا على الاستمرار فى التلقى وفى الإلقاء .

– ومن أدواته التعمق والتخصص فالعلم لا يعطيك بعضه إلّا أن تعطيه كلك ، كما يقول أبو يوسف :

فأبان بن تغلب وزرارة بن أعين متخصصان للفقه . يفتيان الناس فى مسجد الرسول .

وحمران بن أعين حجّة فى علوم القرآن .

ومؤمن الطاق للكلام – علم التوحيد .

وهشام بن الحكم للكلام فى العقائد وفى الإمامة .

وأبان بن عثمان للكلام فى الاستطاعة وما إليها .

– والمنهج شامل : يسأل الإمام عن قوله تعالى : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا) ، فيقول : « الحكمة هى المعرفة والتفقه فى الدين » .

ولما جمع للحكمة المعرفة والتفقه فى الدين كان يعلم الناس أن الفقه وحده ليس الحكمة وإنما هو درجة فيها . وهو القائل : « تفقهوا فى الدين فإن من لم يتفقه منكم فهو أعرابى » .

ولما جعل مطلق المعرفة بعض الحكمة فتح الباب لكل أنواع العلوم فليست المعرفة قاصرة على العلم الدينى . فهذا ينفيه نصّه على التفقه فى الدين معها .

وإنما قصد الإمام العلم عمومًا . ومنه العلوم التطبيقية والفلسفات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى كان لها فى مجالس الإمام الصادق مكان ، هو أول مكان تلقاه فى حلقة إمام للدين فى مدارس الإسلام . كمكان جابر بن حيان . وهذه التفرقة بين ألوان المعرفة يوجبها المنهج العلمى على الدارسين .

وهذا الجمع لشتى العلوم إيذان بتطبيق المنهج الإسلامى فى فنون العلم العالمى كما سنرى بعد .

– وللمنهج – بعد – شعار من حبّ رسول الله ، وتقدير أصحابه « محمد رسول الله والذين معه » . فلا يقبَل العلم من رجل ، أو يقبِل العلم على رجل ، قصر إيمانه عن صيانتهم .

يقول الإمام لجابر الجعفى :« أبلغ أهل الكوفة أنى برىء ممن يتبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وأرضاهما » .

فهذا العلم دين . والمجلس العلمى كمجالس العابدين . والشيخان ، وإن خالفتها نظريات الشيعة ، محل إجلال المسلمين .

وكمثل الشيخين فى حفظ الكرامة . عثمان بن عفان . وهم جميعًا – كعلىّ بن أبى طالب – أصحاب بل أصهار لصاحب الشريعة . وتعليم الشريعة أوّل أعمال الإمام . والإمام سيد عصره . لا تسقط من حضّار مجلسه كلمة نابية .

بهذه النزاهة الفعلية والفكرية ، وبالإخلاص للمعرفة ، والتزام قيم الإسلام ، استعمل الإمام الصادق « العقل » أصلًا من الأصول ، إلى جوار القرآن والسنّة والإجماع .

* * *

والنصّ على العقل واستعماله مستمدّ من القرآن الذى طالما خاطب فطرة البشر « لتعتبر » بما تدركه الحواس من آيات الله ، وتتدبرها ، وتستصحبها ، لترى آلاءه على عباده ، وتشهد تقديره وتدبيره ، فتنفعهم بوجوده ووحدانيته وقدرته ، فتصبح الدليل ما بعده دليل[1]

وكما استعمل « الصادق » العقل ، استعمل الحرية ، التى منحها القرآن للإنسان : لا يكره الناس على أن يكونوا مؤمنين ، ولا يستعمل فى جدالهم إلّا التى هى أحسن . ولا فى وعظهم إلّا الموعظة الحسنة . حتى ثبوت الألوهية لا يرضاه الله بإكراه .

والعقل لا يعمل إلّا حرًّا . وإذا أكره تعطل أو انحرف . والجدال بعنف تعسف . وللعقل كرامة . والكرامة هى الحرية .

والاعتبار بالآثار والأشياء المحيطة بالناس ، بالمشاهدة والاستخلاص ، ثم الحرية والأمانة فى التفكير والتقدير ، أى النزاهة الفكرية ، هما صميم المنهج .

وهو لا يتجلّى قدر ما يتجلّى فى الدلالة على الله جلّ ثناؤه .

إليك مثلًا من زنديق تحدّاه بقوله : كيف يُعبد الله الخلق ولم يروه ؟ – قال الصادق : « رأته القلوب بنور الإيمان . وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان . وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف . ثم الرسل وآياتها ، والكتب ومحكماتها ، واقتصر العلماء على ما رأوا من عظمته دون رؤيته » .

فلنلاحظ أنه يبدأ بآثار الله التى يراها الناس فى نور الإيمان ، ويثبتها العقل والبصر . ثم يثنى بالرسل اللافتين أنظار الناس إلى آيات الله ، وبالنصوص المحكمة التى جاءوا بها . وأخيرًا يذكر ما يحصله العلم المحدود بما يراه العلماء من آثار ذلك .

لكن الزنديق يستمر : أليس هو قادرًا أن يظهر لهم . فيعرفوه فيعبد على يقين ؟ قال الصادق : « ليس للمحال جواب » . قال الزنديق : فمن أين أثبت

---

(١) القرآن والمنهج العلمى المعاصر – للمؤلف – طبعة دار المعارف ص ٣٠ وما بعدها .

أنبياء ورسلا ؟ قال الصادق : « إنا لمّا أثبتنا أن لنا خالقًا صانعًا متعاليا عن جميع ما خلق ، وكان ذلك الصانع حكيمًا ، لم يجزْ أن يشاهده خلقه أو يلامسوه ... ثبت أن له سفراء فى خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم .. » .

ومثلًا مما يروى محمد بن سنان « حدثنى المفضل بن عمر قال : كنت ذات يوم بين القبر والمنبر – قبر الرسول بالمدينة – وأنا أفكر فيما خصّ به الله تعالى سيدنا محمدًا ﷺ ... إذ جاء ابن أبى العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه .. فخرجت من المجلس محزونًا متفكرًا فيما بلى به الإسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها . فدخلت على مولاى ، عليه السلام ، منكسرًا فقال : مالك ؟ فأخبرته . فقال : بكر على غدا .. فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لى فجلست وقمت بين يديه فقال :

« إن الشكاك جهلوا الأسباب والمعانى فى الخلقة ، وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة ، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود .. فهم فى ضلالهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا دارًا قد بنيت أتقن بناء وفرشت بأحسن الفرش .. ووضع كل شيء من ذلك موضعه .. فجعلوا يترددّون فيها يمينًا وشمالاً .. محجوبة أبصارهم عنها .. والإنسان كالمالك لهذا البيت .. ففى هذا دلالة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة ، وأن الخالق له واحد .. » .

وهو هنا يدلل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود ما لا تلمسه . فهو يستعمل العقل والواقع معًا .

ويروى ابن بابويه القمى (٣٨١) : « كان ابن أبى العوجاء وابن المقفع يلاحظان الجمع الذى كان يطوف بالكعبة فقال ابن المقفع لأصحابه : لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلّا هذا الشيخ الجالس – وأشار إلى جعفر بن محمد – فقام ابن العوجاء إلى الشيخ ، وتحدث معه ثم رجع إلى صاحبه وقال : ما هذا ببشر . إن كان فى الدنيا روحانى يتجسد إذا شاء ظاهرًا ، أو يتروّح إذا شاء باطنًا ، فهو هذا .. ظلّ يحصى لى قدرة الله التى فى نفسى ، والتى لم أستطع رفضها ، حتى ظننت أن الله قد نزل بينى وبينه » .

ونزول الله بين الإمام وبين ملحد ، باعتراف الملحد ، آية باقتدار المنهج على بلوغ غرضه ، وقدرة مجادل جمع الآيات الربانية حججًا بين يدى منكر أخذته حجّة الأمر الواقع فأبلس .

فإذا تصدّى الإمام لأصحاب الأغلوطات أزرى بالسفسطات . وبدههم - كدأبه - « بالواقع » فبهتتهم - كأن لم يشهدوها قبل - حقائق الأمر الواقع .

طلب واحد من تلاميذه بيانًا عن قول أبى شاكر الديصانى - رئيس الطائفة الديصانية - وهى طائفة ملحدة تنعم بحرية العقيدة فى بلدان الإسلام - إن فى القرآن ما يدلّ على أن الإله ليس واحدًا . ففيه (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) فأجاب الإمام بقوله : قل له : ما اسمك فى الكوفة ؟ فيقول : فلان . فقل له : ما اسمك فى البصرة ؟ فيقول : فلان . فقل له : فكذلك ربنا فى السماء إله وفى الأرض إله وفى البحار إله وفى كل مكان إله .

* * *

وفى كتاب الإهليلجة المروى عن طريق المفضل بن عمر يستعمل الجدل العلمى ، فى تنبيه الشكاك على أنهم فى بداية الطريق نحو المعرفة يقول : « .. أخبرنى هل رقيت إلى الجهات كلها وبلغت منتهاها ؟ .. فهل رقيت إلى السماء التى ترى أو انحدرت إلى الأرض السفلى فجلت فى أقطارها .. فما يدريك لعل الذى أنكره قلبك هو بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك .. أما إذ خرجت من الإنكار إلى منزلة الشك فإنى أرجو أن تخرج إلى المعرفة » .

فلنلاحظ أنه يجادل الرجل بأن يرتفع من الإدراك المادى إلى حيث يفكر ، وأنه يرفع المفكر إلى حيث يستيقن ، فيطالب الشاك بمزيد من التجربة المحسوبة الملموسة ، ليصل من الشك إلى المعرفة ، وهى مراحل العلم الذى يصل إليه الناس بوسائل مأمونة ومجربة .

وهذا المنهج « الواقعى » القائم على النزاهة الفكرية والحرية العقلية هو الآن

منهج عالمى ، يدين به الجميع للقرآن وأصول الفكر الإسلامى على ما سنرى بعد[1] .

ففى حين استخلص علماء العالم القديم من اليونان « نظريات » عمموها ليخضعوا لها نتائج الاستنباط ، وفرضت سيادة الفكر الارسطاليسى على العقل فى أوربة منطق النظريات والعمومات ، وقاومت الكنيسة فى تاريخها القديم حرية التفكير . نرى القرآن ينبه « العقل » على الاعتبار بالمحسوس الذى يتمثل فى « الواقع » وأن يرفض الاستسلام للعمومات التى تحكم مقدمًا أىّ أمر واقع . ويرشد الإنسان إلى استعمال فكره « بحرية » من أى قيد .

بل نرى الإمام الصادق يعتبر « التقليد » مذلّة عقلية « واستعبادًا للنفس » ، ويحاجج فى ذلك حجاج القرآن ، ويفسره تفسيره الرائع .

عن أبى بصير عن أبى عبد الله الصادق فى معنى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله) قال: « أما والله مادعوهم إلى عبادة ، ولو دعوهم ما أجابوهم . ولكن أحلّوا لهم حرامًا وحرموا عليهم حلالاً . فعبدوهم من حيث لا يشعرون » . وفى تعبير آخر يقول : عن أبى بصير عن أبى عبد الله الصادق : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله قال : « والله ما صاموا لهم ولا صلّوا . لكن أحلّوا لهم حرامًا وحرموا عليهم حلالاً فاتبعوهم » . فالاتباع دون فهم ، فى الحلال والحرام ، أو غيرهما ، ترك لزمام النفس فى قبضة

---

(١) والارتباط بين فروع المعرفة أحد « الأساسيات » العلمية ، وهى جميعًا تستعمل الطريقة التجريبية وتلتزم حقائق الحياة الواقعية وقوانين الكون التى لا تتخلف ولا تدع مجالاً للفراغ أو المجازفة أو الصدفة . كل شىء بمقدار . وكل أمر موزون – فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد . وفيما بينها . وفى العلوم الطبيعية والرياضية وفى العلوم الاجتماعية والإنسانية . والعلميون يستعملون مقولات : الوحدة والتفاضل والتكامل . واطراد العلل والنتائج . والآخرون يستعملون مقولات الوحدة ، والتناسب والتناسق ، والتزاوج والانسجام ، فى الأشياء والأشكال والألوان والأحجام . ويستوى فى ذلك الذين يلتزمون بالدين أو الذين يلتزمون بإنكاره .

ومن الموضوعية « سلطان الإرادة » الإنسانية فى التعاقد ، أى حريتها ، مع تقيدها بالقانون الذى يجتمع عليه الناس . وهذا مظهر الحرية الشخصية والفكرية التى أتاحها الله لعباده وأمرهم أن يستعملوها لأنها وسيلة للحياة الكريمة وللتقدم . وهو معلم من معالم السبق التشريعى الإسلامى .

الغير . وإهدار لحريتها وقدرتها ، وتلك عبادة لغير الله . وليس بعد ذلك كفر .
وليس أبلغ من هذه العبارات فى الدعوة للحرية الفكرية والحثّ على الاجتهاد واستعمال العقل .

* * *

يقول الشافعى عن مكانة علىّ فى علوم الإسلام : « كان علىّ كرّم الله وجهه قد خصّ بعلم القرآن و الفقه لأن النبى ﷺ دعا له وأمره أن يقضى بين الناس . وكانت قضاياه ترفع إلى النبى ﷺ فيمضيها » .

ولقد آلى على نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول ﷺ وعلى آله ألاّ يرتدى إلاّ للصلاة أو يجمع القرآن - كما أسلفنا - فجمعه مهتما بأمور « أصولية » فى الشريعة وفقهها تتعلق بالمحكم والمتشابه ، أى بما لا يحتمل الاجتهاد وما يحتمله ، وبالنصوص التى نسخت والتى هى واجبة التطبيق ، وبالمطلق منها والذى يحتمل التخصيص ، والعزائم والرخص ، وبالفروض والمندوبات ، وفيها المحرم والمكروه ، وما هو تهذيب للأمة من فضائل وآداب[1] . وفى نهج البلاغة طائفة من أصول الفقه التى ينبه عليها أمير المؤمنين رضى الله عنه وهذه وتلك أساسيات فى أصول الفقه .

---

(١) بهذا كان علىّ إمام المفسرين .

قال سعيد بن جبير : قلت لابن عباس : ألمن قتل مؤمنًا متعمدًا توبة ؟ قال : لا . فتلوت عليه الآية التى فى « الفرقان » . قال : هذه مكية نسختها آية مدنية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا) .

ورووا أن ابن عباس ناظر عليًا فى الآية . فقال على : من أين لك أنها محكمة ؟ قال : « تكاثف الوعيد » . قال علىّ : إن الله نسخها بآيتين آية قبلها وآية بعدها فى النظم . الأولى قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) وأما التى بعدها فى النظم فهى قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) والمفسرون يضيفون إلى الآيات قوله تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق) إلى قوله تعالى : (ويخلد فيه مهانا) ثم استثنى : بقوله (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) ..

لكم صدق ابن عباس حينما سئل عن علمه وعلم ابن عمه « علىّ » فأجاب : كالقطرة إلى جوار البحر المحيط .

والأصول أدلة فى طريق أو نهج . ولا إمامة إلا بمنهج .

والفقه السنى يعتبر الشافعى أوّل من اتجه إلى تجلية أصول الفقه فى كتابه « الرسالة » وقد وضعه ، والناس يتحلقون حوله ، فى جوار الكعبة بعد سنة ١٨٤ .

وليس غريبًا أن نجد النبوغ الشافعى يتلاقى وأمورًا أساسية أهمّت من بادئ الأمر علىّ بن أبى طالب . أو نجد أفكارًا « علوية » أو آراء « شيعية » تظهر بقوّة فى مذهب الشافعى وآرائه . والشافعى من أبناء عمومة النبى وعلىّ ، يُباهى بحب أهل البيت ويتحدّى به . وهو إمام فى اللسان العربى . له لغة خاصة تعلنها قواميس اللغة . طوّعت له إمامته فيها أن يفهم القرآن فهم الذين نزل فيهم .

واتصال اللغة والبلاغة بالفقه فى الإسلام أساسى ، لأن الفقه فهم للقرآن والقرآن عربى . فالشافعى فى استنباطه للأصول من القرآن كان موجهًا بفهم عربى عميق للكتاب الكريم ، الذى صنعت على أسسه العقلية الإسلامية .

يقول أحمد بن حنبل - وهو الإمام الرابع لأهل السنّة فى الفقه ، فوق أنه إمام فى اللغة - « الشافعى فيلسوف فى أربعة أشياء : فى اللغة . واختلاف الناس . والمعانى . والفقه » . وهذه هى الأمور الأساسية فى كل فقه .

وسواء أنبثقت الأصول من اهتمامات علىّ ، فى جوار قبر النبى بالمدينة غداة صعود روح النبى إلى الرفيق الأعلى ، أو ممن نحوا ذلك النحو من الشيعة ، أم انبثقت من « رسالة الشافعى » فى جوار البيت الحرام بمكة . وسواء أطّلع الشافعى على كتب لأهل البيت أو على آرائهم ، أم لم يطلع ، فالأصول قرآنية المبدأ والمنتهى . مشتقة من نصوص القرآن والسّنة ومنهاجها وأسلوبها . ومن ذلك شرفها فى الفكر الدينى والعلمى .

وحرية التفكير توجب « الاجتهاد » على أساس العلم كما يقرر الشافعى فى « رسالته » ، مع النزاهة الفكرية الكاملة ، غير مقيدة إلّا بما تثق بوجوده ، وتحقيق المناط وتنقيحه ، والتدقيق فى الفرع وفى الأصل ، والسند ، فيما ليس قطعىّ الورود فى السنّة أو قطعىّ الدلالة فيها أو فى الكتاب العزيز ، ومع اتخاذ

الأهبة والدربة . وهذه كلها أمور يوجبها القرآن والسنّة .

والحضارة العالمية مدينة بهذا المنهج للإسلام بما طوّر من فكر الأمم التى دانت به ، فى أربعة عشر قرنًا ، ومن أساليبها ، ووسائلها العلمية ، حتى صبغ فكرها ، فى شكله وموضوعه ، صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة !

وكما ارتفع العرب درجات بالإسلام انتفع به كل الأمم ممن أسلموا ، وممن لم يسلموا ومن ثمة كان الإسلام خيرًا كله للعالم كله . فتلك خصائص رسالته : العالمية . والأبدية . والسمو . والطريق إليه مفتوحة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وما تقدم الإنسانية إلا حاصل دفع الله الناس بعضهم ببعض . وأخذ بعضهم بيد البعض – ومن أجل ذلك اختصّ الفقه الإسلامى بخصيصة القدرة على إحداث التطوّر ومواكبته ، مع اليسر وحفظ الدين ، « بالاجتهاد » الذى أمر به الله على أصول القرآن والسنة[1] .

* * *

أعلن « علىّ » تمسّكه « بالاجتهاد » . إذا تولّى إمارة المؤمنين بعد عمر ابن الخطاب . ومن أجل ذلك وحده . لم يبايع له عبد الرحمن بن عوف وأعلن عثمان التزامه بأن « يتبع » عمل السابقين فجعل عبد الرحمن يبايع له .

« فالاجتهاد » شعار من شعارات « علىّ » من بادئ الأمر . وشعارات الشيعة من بعده . ومن ذلك لم يصخ عظماؤهم إلى ذلك الصوت البغيض الذى أعلن إقفال باب الاجتهاد فى القرن الرابع الهجرى . لتتفتح أبواب التقليد ، وتخبو شعلة الفكر . بل شهد الشيعة فى القرن الرابع ذاته نهضة شاملة تتراءى فى أعمال عظمائهم فاستعمال العقل أصل . والأصل لا يتعطل .

وما الاجتهاد إلّا الحرية الفكرية فى استخلاص النتائج ، والنزاهة العلمية أو الاعتبار « بالواقع والصحيح » . وهاتان العجلتان اللتان تحملان موكب

---

(١) كتاب نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى : للمؤلف « طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٤ الفقرات ٣ إلى ٧٣ والفقرات ٩٣ إلى ١٢٧ » .

الفكر الإنسانى المنجب . هما شعار مجالس الإمام الصادق كما سلف البيان . بل هما أساس ما استخلصه تلميذه جابر بن حيان . من تجاربه العلمية . وعنه انتقل إلى أوربة المنهج التجريبى : أو منهج « التجربة والاستخلاص » كما يسمى فى العصور الحديثة .

ومن نزاهة المنهج فى الفقه . كان الإقرار بضعف الإنسان . فليس الاجتهاد مقابلاً للحقيقة ، وإنما هو أحسن أداة يمكن أن يصل بها المرء إليها . يقول أبو حنيفة : « علمنا هذا رأى فمن جاءنا بأحسن منه كان أولى بالصواب منا » .

ولما قال الشافعى : « الاجتهاد القياس » ، وإنهما اسمان لمعنى واحد ، واستطرد فقعّد له القواعد . ليجرى علماء أهل السنّة فى مضماره . صلّى الأصوليون من أهل السنّة بعده فى حلبة الفكر العالمى . منذ القرن الثانى للهجرة ، والتاسع للميلاد فوضعوا القواعد التى لم يبدأ فى تعرفها الأوربيون إلا بعد ثمانية قرون تحت عناوين اطراد العلة . وأنها إذا توفرت ثبت الحكم . أو قانون اطراد الحوادث ، لوجود « نظام » فى الكون . أو تناسق . تخضع له الأشياء . طردًا وعكسًا ، باطراد أسبابها وملابساتها فيها . وهذا ما قرره الأصوليون المسلمون عند تماثل العلل لاستنباط الأحكام .

غير أن الأصوليين المسلمين فاقوا فى تمحيصهم « جون ستيوارت مل » فى أبحاثه . إذ تعمقوا فى مسالك العلة . ودققوا فى الاستقراء والاستنباط مع الورع الكامل والنزاهة الفكرية المثلى . فكان عندهم لكل ركن من أركان « القياس » أبحاثه ، وضمانات صحته . باتساع الاختبار وامتحان الاستخلاص وإيجاب أن تجمع الأصل « المقيس عليه » « والفرع » « المقيس » « علّة » ، لتنتج ثمرة القياس وهى « الحكم » .

وأولى الأصوليون العلّة وتخريجها اهتمامًا مقطوع النظير . فشرطوا لها مسالك نقلية من نصّ أو إجماع . أو عقلية من تحقيق المناط بوجود العلة ، وتنقيح المناط بحذف ما لا يدخل فى الاعتبار . وبطرائق السبر والتقسيم لحصر

الأوصاف التى تصلح للعلّية ، واستبعاد مالا يصلح منها ، ومقاربة الأوصاف للحكم ، ودوران العلّة مع المعلول وجودًا وعدمًا إلخ .. مع تكامل اختبار الوقائع وسلامة النتائج ثم قبولها .

كل أولئك دون دخل لمقررات أو نظريات سابقة . ومع التقرير بأن مايصل إليه المجتهد ليس الحقيقة وإنما هو الراجح بغلبة الظن . فإن اجتهادًا آخر قد يغيره والاجتهاد مفتوح . وقانونه الحرية . فإذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر .

وعلى هذا التحديد أخذ المنهج التجريبى فى الوجود : تمحيص الواقعة والاستخلاص بحرية ونزاهة .

* * *

والقرآن يحوى جميع صور الاستدلالات العقلية ومنها قياس الأولى . وفى هذه الصور تبرز طريقة الاعتبار بآيات الله المادية الواقعية المحيطة بالناس والتى تحسّها حواسّهم . وكذلك كانت طريقة الأنبياء فى الاستدلال على الله بلفت النظر إلى آياته أو بقياس الأولى . وهو ما يكون الحكم المطلوب فيه أولى بالثبوت من الصورة المذكورة فى الدليل الدال عليه - وكان أحمد بن حنبل يستعمل هذا القياس . وهو القائل إنه لا يصار إلى القياس إلّا عند الضرورة .

وابن تيمية يجعل للفطرة مكانها فى الميزان الذى تعرف به الأحكام ، ويروى أن معرفة الاختلاف والتماثل أمر فطرى . واستعماله ضرورى . والميزان عنده هو العدل . وما يعرف به العدل . وأنه هو القياس العقلى القرآنى[1] .

---

(١) يقول : « فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر ، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ، ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيما للعلوم النبوية ، وهذا خطأ . إن العلم هو علم محمد ﷺ . وعلم فى ميراث محمد ﷺ . وغير هذا العلم لا يكون علما . لقد بين ﷺ - مختتما دورة الرسالة العظمى - العلوم العقلية التى يتم بها دين الناس علما وعملا . وضرب الأمثال فكانت الفطرة بما ينبهها عليه .. ولذلك أتى الخبر من السماء .. القرآن والحديث - بهذا . يبين الحقائق لا بطريقة خبرية فقط بل « بالمقاييس العقلية » . فبين طريقة التسوية بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين » .

ويضرب ابن تيمية أمثالاً من الآيات للتسوية بين متماثلين والتفرقة بين مختلفين . ويقول : « وكذلك =

والوزير الصنعانى (٨٤٠) صاحب كتاب ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان ، يذكر أن أئمة أهل البيت لم يعرفوا المنطق « اليونانى والأرسطاليسى » ولم يصوغوا أدلتهم على التوحيد فى صور منطقية .. وإنما فى « منهج قرآنى أساسه الاعتبار » . وأن الإمام عليًّا لم يعرفه فى خطبه ومواعظه وأن الأئمة قدموا أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطق ولا تقاسيم المتكلمين . ويقرر الوزير الصنعانى أن أسلوب المسلمين أرجح وأحجى من أسلوب المناطقة فهذا أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف فى النظر . وخالفهم بعض المتكلمين وأنواع المتبدعة فتكلفوا وتعمقوا وعبروا عن المعانى الجلية بالعبارات الخفية .

والذين ينكرون القياس ، من أهل السنّة . كداود (٢٧٠) إمام أهل الظاهر وابن حزم (٤٥٦) . أو من المعتزلة كالنظام « إبراهيم بن سيار شيخ الجاحظ » ، يعتمدون على النص وحده - وقد أسعفتهم النصوص فى إقامة مذهب بتمامه . ولم تخذ لهم قدرتهم الفقهية فى استخراج الفقه باستعمال كليات الشريعة فى الاجتهاد .

فدل هؤلاء على أن نصوص الكتاب والسنة تجعل كليات الشرع وقواعده كافية « للعقل » ليبلغ بالفقه الإسلامى مبالغه ، فيحقق أن الله تعالى ما فرّط فى الكتاب من شيء . فلكل واقعة حكم . وعلى المجتهد طلبه بالعقل والنقل معًا .

والشافعى من حرصه على العمل بهما معًا ، يندّد « بالاستحسان » . ويسميه تلذذًا . مع أن الاستحسان فى جملة أمره استعمال لنصّ خاص أو قاعدة متعلقة

= أنزل الله سبحانه الميزان فى القلوب .. لما بينت الرسل العدل ومايوزن به عرفت القلوب ذلك . فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من الآلات الحسية ما يحتاج له فى ذلك . كما وضعت موازين النقد وغير ذلك .. قال الله تعالى : (والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) فالميزان هو العدل وهو ما يعرف به العدل . وهو القياس القرآنى المنزل ، ليتعرف به صحيح الفكر من باطله . بالإضافة إلى أن نزن الأمور عامة حسية أو عقلية » .

« بالواقعة » المطلوب لها الحكم[1] .

وأهل القياس مجمعون على أن المنهى عنه هو الاجتهاد مع النص القطعى ، أو إطلاق العنان لاستخراج الأحكام دون تقيد بالنصوص الخاصة أو العامة . وهم يجمعون على قياس العلة ويختلفون فيما عداه .

* * *

ومن المعانى الجامعة التى تتردد فى أبواب الاجتهاد أن أحكام الشريعة جميعًا – حتى فى الأعمال غير التعبّدية – فيها معنى تعبّدى . أى حق لله ، يطاع فيه الله ويعبد . فمن أحسن بيعه وشراءه وإجارته وإعارته ، أو قضاءه أو فتواه .... إلخ . فهو يطيع الله ويستحق ثوابه . ومن ساءت معاملته فهو خاسر فى أمرين ، قضاء الناس ضدّه ، وغضب الله عليه . لأنه يعصى الله فيما عمل من عمل غير صالح . ومن ثمة تأثير الجانب الروحى أو الوازع الدينى فى الحياة الواقعة ، وفى الدراسة العلمية ، وفى طلب الأحكام الفقهية ، فى المجتمع الإسلامى . وهو امتياز لا تبلغه الأمم الأخرى أو مجتمعاتها .

وفى منهج الاعتبار بالواقع أو بالآثار الدالة على المطلوب « واقعية » أدنى إلى التصديق من مجازفات الفكر . وفى الواقع المادى ضمان أن لا يبعد الاستخلاص من الملموس والمحسوس بالحواس الخمس . وهذه الواقعية أو النزاهة الفكرية ، تسبق واقعية « أوجست كومت »[2] بقرون عشرة ، وعقلانية « ديكارت » بقرون تسعة ، كما تسبق « جون سيتوارت مل[3] » بقرون عشرة ، فى نظرية اطراد العلل وبهذه القرون يقاس سبق الحضارة الإسلامية .

---

(١) كان داود « بن خلف الأصفهانى » صاحب المذهب الظاهرى شافعى المذهب ثم صار ظاهريًا ينكر القياس ويعتمد على النص وحده . قالوا : إنه سئل لم تركت مذهب الشافعى قال : قرأت كتاب إبطال الاستحسان للشافعى فوجدت كل الأدلة التى يبطل بها الاستحسان يبطل بها القياس .

(٢) أوجست كومت Auguste Comte ١٧٩٨ – ١٨٥٧ صاحب الفلسفة الواقعية فى القرن الماضى . انتفع بمؤلفات لبنتز وديكارت وفرنسيس بيكون والقديس توماس الأكوينى وروجير بيكون والأخيران من أكبر من نشروا العلم الإسلامى وتأثروا به . وكثير من كتاباتها تستعمل تعبيرات إسلامية .

(٣) جون ستيوارت مل ١٨٠٦ – ١٨٧٣ .

وإلى جوار المشاهدة الواقعية والتحقيق النزيه والاستخلاص الصادق ، يضيف الفقه الإسلامى ضمانًا جديدًا هو اعتبار الاجتهاد سعيًا لبلوغ الحق لابلوغًا له . فثمة عوامل أخرى قد تكون موجودة أو قد يدركها عقل آخر فتجعله أدنى إلى السداد ، أو تجعله يصل إلى السداد . وهذا الاحتمال الذى يلازم الاجتهاد يحتمل تداخل العناصر . فالنتائج نسبية حتى تقطع التجربة بأنها لا تتخلف أبدًا .. وهى فى الفقه تبقى نسبية حتى تبلغ الحكم الذى شرعه الشارع – فشرع الله هو الثابت ، الذى يقصد المجتهدون قصده .

* * *

وربما كان الكلام المنقول عن « جابر بن حيان » أوضح كلام فى الدلالة على المنهج التجريبى الذى تعلمه فى مجلس الإمام أو من كتب الإمام .

يخاطب جابر الإمام فى مقدمة كتابه الأحجار بقوله : « وحق سيدى – لولا أن هذه الكتب باسم سيدى – صلوات الله عليه – لما وصلت إلى حرف من ذلك إلى الأبد » .

ويقول جابر فى كتابه الخواص عن طريقته : « اتعب أوّلاً تعبًا واحدًا . واعلم . ثم اعمل . فإنك لا تصل أوّلاً . ثم تصل إلى ما تريد » .

وفى كتابة السبعين يقول : « من كان دربًا « مجربًّا » كان عالما حقًّا . ومن لم يكن دربًا لم يكن عالما . وحسبك بالدربة فى جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل » .

ويحصل جابر طريقته فى عبارته المأثورة : « عملته بيدى . وبعقلى . وبحثته حتى صحّ . وامتحنته فما كذب » وفى هذا المقام يقول أستاذ الفلسفة الإسلامية المعاصر فى جامعة القاهرة . د . زكى نجيب محمود : « ..فلو شئت تلخيصًا للمنهج الديكارتى[1] كله لم تجد خيرًا من هذا النص الذى أسلفناه عن جابر » .

ويرى الصيدلى المعاصر د . محمد يحيى الهاشمى أن « الواقعية » هى التى سوغت لجابر أن يقسم القياس أو الاستدلال والاستنباط إلى ثلاثة أقسام –

---

(١) ديكارت Renc´ Descartes ١٥٩٦ – ١٦٥٠ .

المجانسة ومجرى العادة وبالآثار – ومن دلالة المجانسة دلالة الأنموذج كمن يريك بعض الشيء دلالة على كله . وهو استدلال غير قاطع ، إذ الأنموذج لا يوجب وجود شيء من جنسه يساويه تمامًا في الطبيعة والجوهر . وكذلك دلالة مجرى العادة فإنه كما يقول جابر : « ليس فيه علم يقين واجب اضطراري برهاني أصلاً . بل علم إقناعي يبلغ أن يكون : أحرى وأولى وأجدر لا غير . لكن استعمال الناس له وتقبلهم فيه واستدلالهم به والعمل في أمورهم عليه أكثر كثيرًا جدًّا .. وليس في هذا الباب علم يقين واجب . وإنما وقع منه تعلق واستشهاد الشاهد على الغائب . لما في النفس من الظن والحسبان فإن الأمور « ينبغي أن تجرى على نظام ومشابهة ومماثلة فإنك تجد أكثر الناس يجرون أمورهم على هذا الحسبان والظن » .

يقول جابر : « .. وبالجملة فليس لأحد أن يدعى أنه ليس في الغائب إلّا مثل ما شاهد .. إنما ينبغي له أن يتوقف حتى يشهد البرهان بوجوده من عدمه .. » . فهو ينقد القياس من الناحية المنطقية أو الرياضية ليترك المجال مفتوحًا للحقائق القاطعة التي تثبت بالتجارب .

وحسبك دليلاً على دقة طريقة التدليل بآثار الأشياء ، أن تجدها إحدى المسلمات في المعامل والجامعات ، في القارات جميعًا . منذ بدأ الأخذ بطريقة التجربة والاستخلاص حتى اليوم . وستبقى أبدًا .

وعندما توضع أقوال جابر[1] في القرن الثاني للهجرة إلى جوار أقوال

---

(١) يقول جابر : « وكذلك ينبغي إذا ذهب الدهرى « القائلون : إنما يخلقنا ويهلكنا الدهر – لا الله » يمنع أن يكون العالم مكونا مصنوعا ؛ لأنه لم يشاهد ، ولا واحد من الناس ، بدء تكوينه ، أن يقال له : ما ينكر أن يكون وجود الناس بعد وجود العالم بوقت طويل .. وتذكر كون مدينة أو قصر ولا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه ؟ فسلم أن يثبت قدم ذلك بالعلة التي أثبت بها قدم العالم . وإذا قال : إنما علمت أن المدينة والقصر التي لم نشاهد ، ولا من توفى ، ابتداء بنائها ، أنها مبنية من قبل ، أني رأيت مثلها بني ، ولم أرَ مثل العالم مبنيا – قيل له إن هذا بعينه ما نقول . وندفع كونه في طريق الاستدلال – فمن أين قلت إن كل عالم تشاهده ، وليس له شبيه ولا مثيل ، موجود ، وأن كل ما لم تشاهده وليس له شبيه ولا مثيل فليس بموجود ! إذ قد بان تقصيرك وتقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات فأمكن أن يكون أكثر الموجودات مما لم تشاهده » .

« الحسن بن الهيثم » (٣٥٤ - ٤٣٠) بعد أكثر من قرنين . وقد عمل فى خدمة الدولة الفاطمية ، وهى دولة من دول الشيعة ، وله ٤٧ كتابًا فى الرياضيات و ٥٨ كتابًا فى الهندسة ، تتأكد لنا طريقة التجربة والاستخلاص التى سلكها الإمام الصادق وأتقن العمل بها ووصفها جابر والحسن . وقد أحسن الحسن التعبير عنها بمنهج علمى واضح الفحوى محدد العبارات[1] .

ويشهد بها من أهل أوربة درابير فى كتابه « النزاع بين العلم والدين » فيقول : « كان الأسلوب الذى توخّاه المسلمون سبب تفوّقهم فى العلم . فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظرى لا يؤدّى إلى التقدم . وأن الأمل فى معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم فى أبحاثهم هو « الأسلوب التجريبى » . وهذا الأسلوب هو الذى أرشدهم إلى اكتشاف علم

---

(١) راجع مقدمة كتاب الدكتور مصطفى نظيف . مدير جامعة عين شمس - بالقاهرة - عن الحسن ابن الحسن الهيثم البصرى أكبر عالم فى الرياضيات والطبيعة فى العصور الوسطى . وفد الحسن من العراق إلى القاهرة ليعمل مهندسًا فى خدمة الدولة الفاطمية فى عصر الحاكم بأمر الله . وكان من رأيه جواز إقامة آلات على النيل يحركها تيار مياهه . والدكتور نظيف يقول إنه ينبغى لنا أن نستبدل بأسماء روجير بيكون ومور ليكوس ودافنشى وكبلر ودلابورتا ، اسم الحسن بن الهيثم . فعلى يد الحسن أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الإسلامى وهو « استقراء الموجودات . وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات وما يخص البصر فى حال الإبصار . وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس . ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدرج والترتيب ، مع انتقاد المقدمات والتحفظ فى النتائج . ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقرئه ونتصفحه إستعمال العدل لا اتباع الهوى . ونتحرى فى سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، فلعلنا ننتهى بهذا الطريق إلى الحق الذى يثلج الصدور ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التى عندها يقع اليقين . ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات » . فهذا جمع للاستقراء والقياس ..

وما هو إلا منهج علماء الرياضيات و الطبيعة المسلمين تابعهم فيه ابن الهيثم ونقله علماء أوربة ابتداء من الكندى (٢٥٢) عالم الطبيعة فيلسوف العرب . والرازى (٣٢٠) جالينوس العرب أو الطبيب الفيلسوف الذى يتخذ الإحساسات بالجزئيات أساسًا لكل عمله ويدلل بالكائنات الحية على وجود الخالق . وابن سينا (٤٢٨) الرئيس . أو الفيلسوف الطبيب الذى يمثل فكرة المثل الأعلى فى العصور الوسطى كما يقول سارتون . وللأخيرين صورتان معلقتان على جدران جامعة باريس ، الآن ، مع جراح العظام ابن زهر .. راجع الإمام الشافعى للمؤلف - طبعة دار المعارف ٢٥٥ ومابعدها .

يراجع كذلك « القرآن والمنهج العلمى المعاصر » للمؤلف - طبعة دار المعارف ص ١٦٩ وما بعدها .

الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة . وإننا لندهش حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر » .

* * *

والقارئ يلاحظ فى هذا المقام أمورًا . منها :

الأول : أن جابرًا يقرر إذ يقسم بالإمام ، أنه استرشد فى طريقته هذه به . وأن علمه منه هو سبب توفيقه . ولو كان قد تلقى الطريقة عنه دون لقاء له لما نقص الفضل . فذلك شأن العلماء فى كل زمان .

الثانى : أن ممارسة جابر لطريقته مع إقرار الإمام له ، قد ضبطتها مدارسة أبى حنيفة للإمام . إذ أنبهت القياسيين على وجوب ضبط طريقة القياس بوضع حدود له واستبعاد ما ليس منه[1] .

وظاهر من قبول أبى حنيفة لنهى الإمام عن القياس وعدم مجادلته للإمام بكلمة ، أن أبا حنيفة أدرك أن النهى عن القياس نهى عن القول فى الدين بالرأى . وليس مقصودًا به النهى عن الاجتهاد واستعمال العقل .

وظاهر أن الإمام بلغ مراده من أبى حنيفة وممن تابعوه فى القياس . فلم يقل أحد منهم فى الدين برأيه . والتزم القائلون بالقياس كل الدقة . بعد إذ جاء الشافعى وفصّل شروطه تفصيلاً .

الثالث : أنه يظهر من محاورة الإمام لأبى حنيفة يوم استأذن عليه فحجبه فدخل مع أهل الكوفة التى سلف ذكرها أمران :

١ - أن الأحكام التى ذكرها الإمام لأبى حنيفة . وارد فيها نصوص . مما يجعل لتحريم القول فى الدين بالرأى أو مطلق القياس حجة مسلمة .

٢ - أن الإمام ذكر أبا حنيفة بقياس إبليس . إذ أعلن إبليس أنه يخرج عن

---

(١) يقول أحمد بن حنبل : « أنا أذهب إلى كل حديث جاء ولا أقيس عليه » و « سألت الشافعى عن القياس فقال : إنما يصار إليه عند الضرورة » ، وفى حالة الضرورة هذه أباح أحمد « أن يقاس الشىء إذا كان مثله فى كل أحواله . فأما إذا أشبهه فى حال وخالفه فى حال فأردت أن تقيس عليه فهذا .. خطأ . فإذا كان مثله فى كل أحواله فما أقبلت به وأدبرت به فليس فى نفسى شىء منه » .

طاعة الله برأيه . فكان رأيه عصيانًا صريحًا ، لأمر صريح ، وخروجًا على نصّ وارد على سبيل الجزم .

وليس عجيبًا وإنما هو التواتر على استعمال العقل ، أن يقرر أئمة أهل السنة جميعًا أن باب الاجتهاد مفتوح إذا لم يكن ثمة نصّ . وأن يجمع علماؤهم أن أحدًا لا يقول الكلمة الأخيرة فيه . وأن يكون هذا منهج الفقه الشيعى الذى دأب عليه علماؤه .

يقول ابن إدريس (٥٩٨) من فقهاء الشيعة المتقدمين : « إذا فقدت الثلاثة - الكتاب والسنّة والإجماع - فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل العقل » .

ومن فحولهم المحقق نجم الدين الحلى (٦٧٦) يقسم الدليل العقلى قسمين الأول يتعلق بالخطاب - فحواه ولحنه ودليله - والثانى ماينفرد العقل بالدلالة عليه لحسنه أو قبحه .

والشهيد الأوّل محمد بن مكى (٧٨٦) يوسع فى القسم الأوّل ويفصل فى القسم الثانى فيزيد البراءة الأصلية . وما لا دليل عليه . والأخذ بالأقل عند التردد بين الأكثر والأقل . والاستصحاب .

وربما أجمل التفصيل قول بعض المتأخرين[1] من الأصوليين عن الدليل العقلى : إنه كل حكم للعقل بوجب القطع بالحكم الشرعى . فالدليل العقلى يوجب القطع . وليس بعد القطع حجة .

بالعقل أدرك الإنسان وجود ربه . ودان بالرسالات . وأدرك المعانى والعلل . وقدر على تمييز القبيح والحسن بفطرة البشر .

فالقبح مفسدة والحسن مصلحة[2] . وما يدركه العقل منها هو حكم عقلى

---

(١) الشيخ محمد رضا المظفر .

(٢) الحسن والقبيح قضية يمسك بطرفيها الأشاعرة فيقولون : إن الشرع وحده هو الذى يعطى الفعل وصفه . والشيعة ، ويتبعهم فى ذلك المعتزلة ، يقررون أنهما وصفان ذاتيان يستقل العقل بإدراكهما . فالصدق والمروءة أمران حسنان . والكذب وانعدام المروءة أمران قبيحان .

يستقل الإنسان بتقريره . وما يستقل العقل بتقريره من مصلحة أو مفسدة هو مصلحة أو مفسدة شرعية . وعلى كليهما تدور الأحكام . فالشرع هادٍ للبشر والبشر مفطورون على استعمال نعمة الشارع . ولا يمنع هذا التأييد الشرعى للعقل أو التأييد العقلى للشرع ، أن توجد بعض مصالح يراها الشرع ولا يفطن لها العقل العادى فيتردد أمامها بظنه .

وإذا كان أصل استعمال العقل يسع كل وسائل النظر ، فالفقيه ملزم بالاحتياط – وهو أوّل ما تستوجبه النزاهة العقلية – لوجود احتمال التزاحم والتعارض . فلا تجوز المجازفة بالتحليل والتحريم مع وجود هذا الاحتمال .. وإنما يلجأ الفقيه لاستخراج الحكم ، عند عدم ظهور النصّ ، إلى استعمال العقل ، وبقواعد يمليها العقل والنقل ، مثل وجوب دفع الضرر المحتمل ومثل عدم العقاب بلا بيان .

والعقل إذ يقرر قبح العقاب بلا بيان . يسوغ للمكلف أن يصنع ما يراه عند عدم البيان . وبتعبير آخر تصبح الإباحة هى الأصل . والحرية هى الأصل ، حتى تتقيد بنصّ .

يقول الإمام الصادق : « كل شىء لك حلال حتى تعلم أنه حرام بعينه » ومن هنا اتسع مجال النشاط الإنسانى . فلا حرام إلّا ما حرم الله .

والنصّ نقطة الثبات ، أو حجر الزاوية فى الفقه . فلا اجتهاد مع وروده . والتزام فحواه أو التزام مقاصد الشارع التى ينطق النصّ بها ، أو يدلّ على معناه مجموع النصوص ، لا يدخل بالمصلحة أو بالقياس شيئًا على الشرع ليس منه .

* * *

والإمام الصادق يفتح أبواب رحمة الله ويرفع الحرج ويبيح الرخص . يقول : « الوضوء نصف الإيمان » ويقول : « إنه توبة من غير استغفار » ومع هذا سئل عن رجل يكون معه الماء فى السفر ويخاف قلّته ؟ فقال : « يتيمم بالصعيد ويستبقى الماء » .

ويقول : « من خاف عطشًا فلا يهريق قطرة . وليتيمم بالصعيد . فالصعيد أحب إلى » .

سئل عن رجل ليس معه ماء والماء عن يمين الطريق ويساره غلوتين أو نحو ذلك « الغلوة مسافة مرمى السهم » ؟ فقال : « لا آمره أن يغرر بنفسه فيعرض له لصّ أو سبع » .

وسئل عن رجل يمرّ بالركية « البئر » وليس معه دلو . قال : « ليس عليه أن يدخل الركية ، لأن ربّ الماء هو ربّ الأرض . فليتيمم . إن الله جعل التراب طهورًا كما جعل الماء طهورًا » .

ويقول : إن أبا ذر قال : يارسول الله هلكت . جامعت أهلى على غير ماء . فقال صلى الله عليه وسلم : « ياأبا ذر يكفيك الصعيد عشر سنين » .

وسئل عن رجل به القروح والجراحات فيجنب ؟ قال : لا بأس بأن يتيمم ولا يغتسل .

والفقهاء يقولون : إن نفى الحرج فى الشريعة من باب الرخصة لأن تحمل الألم والمشقة غير منهى عنه . ونفى الضرر من باب العزيمة لأن الضرر منهى عنه . يقول تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) .

يقول الصادق : « لا صلاة إلّا إلى القبلة » فقيل له : أين حدّ القبلة ؟ قال : « ما بين المشرق والمغرب كله قبلة » ويشرح ذلك قوله : « يجزى التحرى أبدًا إذا لم يعلم وجه القبلة » .

والفقهاء يصرحون بالإذن لمن يشكّ فى الدليل بأن يستعمل قواعد الشرع من أصول الحلّ والطهارة والتخيير واستصحاب الحال – ومعناه استدامة ما كان ثابتًا ، ونفى ما كان منفيا – فمن شك فى قيامه بالوضوء قبل أن يصلى فعليه أن يتوضأ ، لأن الوضوء شرط واجب قبل الصلاة ، والحال قبل الوضوء للصلاة حال تقتضى الوضوء . ومن توضأ ثم شك فى نقض الوضوء فهو على وضوء ومن شك فى أنه توضأ بعد أن دخل فى الصلاة قطعها وتوضأ ، ليحرز شرط الصلاة ، فإن شك بعد إتمام الصلاة فليس عليه أن يعيدها . فقد فرغ منها . لكن

عليه أن يتوضأ لصلاة تالية لأنه لم يبدأها ولم ينته منها . أى لم يتجاوز الشيء الذى شك فيه إلى غيره .

سئل الإمام الصادق عن رجل شك فى الأذان وقد دخل فى الإقامة ؟

قال : يمضى . قيل له : شك فى الإقامة وقد كبر .؟ قال : يمضى .. وفى التكبير وقد قرأ ؟ قال : يمضى .. وفى القراءة وقد ركع ؟ قال : يمضى .. وفى الركوع وقد سجد ؟ قال : يمضى .. إلى أن قال : « إذا خرجت من شيء ثم دخلت فى غيره فشكك ليس بشيء » .

ويقول : « إذا شككت فى شيء من الوضوء وقد دخلت فى غيره فليس شكك بشيء . إنما الشك إذا كنت فى شيء لم تجزه » .

وسئل عن رجل يشك كثيرًا فى صلاته . فقال فيما قال : « إن الشيطان خبيث معتاد لما عود . فليمض أحدكم فى الوهم » ، أى لا يحفل به .. وبنى الفقهاء على ذلك قاعدة : لاشك لكثير الشك .

يقول الإمام الصادق : « من كان على يقين ثم شك فلا ينقض اليقين بالشك » .

وهذا إعلان عن دليل استصحاب الحال ، واعتماد الواقع والظاهر كمن استأجر أرضًا وشاع أمره فى الناس يعامل معاملة المستأجر . ولا يقبل منه ادعاء الملك إلّا بدليل . وتتعاون مع هذا الأصل أصول أخرى مثل أصل البراءة والإباحة حتى يرد منع الشارع .

ويستثنى الفقهاء الشيعة من المنع من القياس حالتين :

١ – حالة العلّة المنصوصة . وكثير ما هى فى الكتاب والسنّة .

٢ – حالة مفهوم الأولوية ، كقول أف للوالدين إذ نهى الله عنهما ، فمن باب أولى ما هو أشدّ .

ويفرعون على العمومات والمبادئ الكلية الواردة فى النصوص والإجماع . كمثل قواعد الوفاء بالعقود ودرء الحدود بالشبهات وجواز كل شرط إلا أن يحل حرامًا أو يحرم حلالاً .

وعلى هذه الكليات مدار الفقه . والاجتهاد بها واجب . وبالاجتهاد بلغ الفقه الشيعى ما بلغه فقد أهل السنّة . كل على شاكلته .

* * *

ندب الرسول عليًّا إلى اليمن . فسأله الإمام : أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى مالا يرى الغائب ؟- أى اجتهد رأيى فيما بين يدى مما ليس بين يديك - قال عليه الصلاة والسلام : « بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب » .

فهو يأذن له أن يجتهد أو يأمره أن يجتهد .

ويقول ابن مسعود للقضاة والمفتين والمجتهدين : « من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله . فإن لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضى به نبيّه صلى الله عليه وسلم . فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به نبيّه فليقض بما قضى به الصالحون - فإن جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه . فإن لم يحسن فليقم ولا يستحى » .

والشيعة فى اجتهادهم يعملون بأصل الاحتياط الواجب ، مع العلم بالتكليف الملزم : وأصل التخيير إذا تردد الفعل بين الوجوب والحرمة . ويرون الحسن والقبح أمرين « عقليين » ثابتين بالعقل . وما أمر الشارع ونهيه فى صددهما إلّا لأن العقل يأمر بهما . فلا حاجة إذن لسؤال الشرع ابتداء . بل يسأل العقل . فعدم العلم بالنهى كاف للحلّ . ولا تحتاج الإباحة لدليل ، وإنما يحتاج ادعاء عكسها إلى دليله . فالاختراعات الحديثة مباحة استنادًا إلى ما ثبت شرعًا من أن كل شىء مطلق حتى يرد فيه نهى .

والجواز فى التصرف مطلق لا يقيده إلا التثبت من حق الغير .

فالمعاملات ، أية كانت ، صحيحة مالم تزاحم حقًّا عامًّا أو خاصا أو يوجد نصّ أو معنى يحرمها .

وفى كثير من الأحيان ، يكون عمل الفقيه مجرد تحكيم النصوص بعضها على بعض . مثل قوله تعالى : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) وقول الرسول : « لا ضرر ولا ضرار » وقاعدة « الضرورات تبيح المحظورات »

وقاعدة (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وهذه أمثال للأدلة الحاكمة على أدلة سواها .

فالعمل بها ليس تخصيصًا للنصّ بالمصلحة ، وإنما هو حكومة نصّ على نصّ أى رفع اليد عن الكتاب والسنّة بدليل منها - أيضًا - مجعول فى ظرف خاص يزاحم الدليل الآخر أو يحكم عليه .

والشيعة إذ يبنون فهمهم على أن الله يأمر بالفعل لمصلحة ، وينهى عن الفعل لمفسدة ، لا يعتبرون مخالفًا للأمر والنهى من يوجد فى حالة اضطرار ، وإنما يشترطون أن تكون المخالفة على قدر الضرورة ، وارتفاع المسوغ حالة انتهاء الاضطرار ، أو عند تجاوز المقدار . يقول تعالى : (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) و (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) و (يريد الله أن يخفف عنكم) .

وبالانتفاع بهذه الرخص يظهر أن الاضطرار نسبى . بل يظهر أنه ليس إلّا خيار ، وفيه إرادة .

والإجبار هو ما يعدم الاختيار بما يزيل من القدرة - وهى شرط التكليف .

فالمضطر فى الواقع « يختار » الفعل لعامل خارجى أو داخلى « نفسى » . كمن لا يملك إلّا ثوبًا واحدًا يلبسه ليستره « ويختار » أن يبيعه ليأكل ، إذ يؤثر العرى على الجوع إذا لم يقدر أن يواجه جوعه بطريق آخر .

* * *

ولا عجب أن تتآمر كثرة الأوربيين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقولة من نهج المسلمين ، كدأبهم فى تنكير صلة آباء العلوم الرياضية والهندسية بالمهد الذى نشأت فيه . فذلك استمرار للحرب الصليبية ، وإخضاع للحقائق العلمية للتعصّب الدينى المتأصل فى الحضارة الأوروبية . فهم لا يذكرون أن فيثاغورث وأرشميدس وإقليدس آباء الرياضيات ألقوا الدروس وتلقوها فى مدرسة الإسكندرية بمصر - ولا يذكرون أنهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمى « الأساسيات » أو « العناصر » إلّا عن نسخة عربية . ولا يذكرون أن أوروبة

المعاصرة أخذت عن العلم الإسلامى المنهج العلمى المعاصر ، أى منهج التجربة والاستخلاص .

يقول الشاعر محمد إقبال[1] : إن دبرنج Dubring يقول : « إن آراء روبخير بيكون أصدق وأوضح من آراء سلفه .. ومن أين استمد روجير بيكون دراسته العلمية ؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس » .

ويقول بريفو[2] Robert Briffault : إنه لا ينسب إلى روجير بيكون (١٢٩٤)[3] ولا إلى سميّه الآخر فرنسيس بيكون (١٦٢٦) أى فضل فى .

---

(١) فى كتابه إعادة تكوين الفكر الدينى فى الإسلام .

The REconstruction of Religious Thinkibg

(٢) فى كتابه صنع الإنسانية Making of Humanity

(٣) مات روجير بيكون سنة ١٢٩٤ واستمرت الجامعات العربية والعرب فى الأندلس قرنين بعد ذلك ، إلى جوار المعاهد التى أنشئت لترجمة علومهم فى فرنسا والأندلس وإيطاليا وألمانيا .

وكان يجيد اللغة العربية والعبرية ، ويمارس التجارب العلمية فى الطبيعة والكيمياء ، وقاومه معاصروه لكن البابا شدّ أزره . وكان جزاؤه السجن فى باريس من أجل كتاباته . وهى تعتبر طلائع لكشوف علمية حديثة « كالعدسات والسيارات ذات المحرك البدائى والطائرات » وهو القائل : « الفلسفة مستمدّة من العربية .. فاللاتينى – على هذا – لا يستطيع فهم الكتب المقدسة والفلسفة إلّا إذا عرف اللغة التى نقلت عنها » . ومن قبل ذلك بقرون – وعلى التحديد فى سنة ٩٢٠ طلب ملك الصقالبة إلى الخليفة أن يبعث إليه معلمين وفقهاء فصنع . وكان الجغرافيون العرب فى أرمينية منذ القرن التاسع للميلاد .

كذلك تلقى البابا سلفستر (٩٩٩ – ١٠٠٣) علومه بجامع قرطبة ، وكان اسمه الراهب جلبير ، قبل أن يصير رئيسًا لدير رافنا . وهو ناقل العلوم العربية والأرقام العربية إلى أوربة . وقد أنشأ مدرسة فى إيطاليا وأخرى فى ريمس بألمانيا لنقل العلوم العربية . وثابت أن مدرسة الوعاظ فى طليطلة أنشأت مدرسة لتدريس اللغة العربية سنة ١٢٥٠ م ثم أمر مجلس فينا سنة ١٣١١ م بتدريس العلوم العربية فى باريس وسلامنكا وغيرها .

وفى سنة ١٢٠٧ أنشأت جنوه جامعة لنقل الكتب العربية ، وفى سنة ١٢٠٩ ، ١٢١٥ قرر المجمع المقدس منع تدريس كتب ابن رشد وابن سينا لما فيها من حرية فكرية .

وفى سنة ١٢٩٦ قرر المجمع اللاهوتى تحريم تدريس الفلسفة العربية وحرمان « كل من يعتقد أن العقل الإنسانى واحد فى كل الناس » .. وكان الإمبراطور فردريك الثانى قد أنشأ جامعة نابولى لنقل العلوم العربية فوق ما تنقله مدرسة سالرنو المجاورة . وأنشأ العرب المطرودون من أسبانيا مدرسة مونبليه فى بروفانس بجنوب فرنسا .

والشريف الإدريسى هو معلم روجار ملك صقلية . صنع له كرة من فضة ، ككرة الأرض ، سنة ١١٥٣ ، قبل أن تعرف أوربة أن الأرض كروية .

اكتشاف المنهج التجريبي فى أوروبا . ولم يكن روجير بيكون فى الحقيقة إلّا واحدًا من رسل العلم الإسلامى والمنهج الإسلامى إلى أوربة المسيحية . ولم يكفّ بيكون عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة .. ولقد انتشر منهج العرب التجريبى فى عصر بيكون وتعلّمه الناس فى

= ومن الثابت أن فيبرو تاتشى Fibronacci أوّل عالم اشتغل بعلم الجبر قد رحل إلى مصر وسورية فى عصر الملك فردريك الثانى ملك صقلية وأن أدلارد الباثى Adilard of Bath درس على العرب علمى الفلك والهندسة . وما هؤلاء إلّا طلائع للعصر الذى عاشوا فيه .

وفى العصر ذاته كانت مدرسة صقلية وكمثلها مدرسة سالرنو فى جنوب إيطاليا وجامعة نابولى التى أنشأها الإمبراطور فردريك الثانى تذيع العلوم العربية واحتل العرب جزر البحر الأبيض ابتداء من كريت سنة ٢١٢ إلى صقلية سنة ٢١٦ أى فى النصف الأول من القرن التاسع للميلاد كما استولوا على بارى وبرنديزى فى وسط إيطاليا وتوطدت سيطرتهم على مقاطعتى كامبينا وأبروزى وأقاموا فيها إمارات عربية . وامتد سلطان عرب الأندلس إلى جنوب فرنسا فى مقاطعة بروفانس . وحاصروا روما .

وكانت ملابس البابا موشاة بالأحرف العربية . وتأثر دانتى بالثقافة العربية واضح فى الكوميديا الإلهية . وهو يذكر صلاح الدين الأيوبى والدوق جود فرى « الملك جود فرى ملك بيت المقدس فى حرب الصليبيين » فى كتابه . وكانت السفارات بين الملوك والأمراء الفرنجة والسلاطين تمدّ إلى أوربة أسباب الحضارة . وكانت كتب ابن رشد والغزالى أيامئذ تقدم الغذاء العلمى للفكر الأوربى . وكتابات القديس توماس الأكوينى « القديس توما » ناطقة بالتأثر الظاهر أو بالنقل الكامل .

وأوّل مرصد فلكى أقيم فى أوربة أقامه العرب بأشبيلية وأوّل مدرسة طبية فى أوربة هى التى أقاموها فى ساليرنو . ومنذ سنة ٩٧٠ كان فى غرناطة بأسبانيا ١٢٠ مدرسة منها ١٧ مدرسة كبيرة و ٢٧ مدرسة مجانية يتعلم فيها نبلاء أوربة علومًا عربية .

ولما سقطت طليطلة فى سنة ١٠٨٥ فى أيدى الأسبان أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربية فيها ولم يتوقف النقل بل أتيحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ ثم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ .

وكان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغا بالثقافة العربية . بل هو أعلن نفسه إمبراطور العقيدتين . المسلمة والمسيحية . وكان الفونسو الخامس الملقب بالحكيم ملك قشتالة من سنة ١٢٥٢ إلى ١٢٨٤ أكبر دعاة الثقافة العربية . وقد جمع له اليهود كتب العرب .

وفى سنة ١٢٥٠ أنشأت جماعة الوعاظ فى طليطلة – مدرسة لتدريس اللغة العربية والعبرية بقصد تنصير المسلمين كما ألفت الكتب للدفاع عن المسيحية ضد المسلمين . وكان الأسقف ستيفن فى باريس يناقش كتب ابن رشد . وفى آخر أيام المسلمين بالأندلس أنشئت محاكم التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة اللذين خيف انتشارهما من كتب المسلمين .

وفى بحر ثمانية عشر عاما من (١٤٨١ – ١٤٩٩) أحرقت هذه المحاكم ١٠٢٢٠ رجلا أحياء . وشنقت ٦٨٦٠ . وعاقبت بعقوبات أخرى سبعة وتسعين ألفا . وفى سنة ١٥٠٢ قرر مجمع لاترانا لعن من ينظر فى فلسفة ابن رشد ، لأنه يقول بحرية العقل . يراجع الفصل الثانى وعنوانه « قوة الحضارة العلمية » من الباب الأوّل فى كتابنا « توحيد الأمة العربية . فقرات ١٤ – ١٨ مطابع البلاغ » .

أوربة يحدوهم إلى هذا رغبة ملحة » .

ويضيف : « إنه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربى لم يكن للثقافة الإسلامية عليها تأثير أساسى . وإن أهم أثر للثقافة الإسلامية هو تأثيرها فى العلم الطبيعى والروح العلمى وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث » .

ثم يضيف :

« إن ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدموه لنا من اكتشاف نظريات مبتكرة غير ساكنة . إن العلم مدين للثقافة الإسلامية بأكثر من هذا . فقد أبدع اليونان المذاهب وعمموا الأحكام . لكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة والبحث التجريبى كانت كلها غريبة عن المزاج اليونانى .. إن ماندعوه بالعلم ظهر فى أوربة نتيجة لروح جديد فى البحث . ولطرقَ جديدة فى الاستقصاء . طريقة التجربة والملاحظة والقياس . ولتطور الرياضيات ، صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » .

أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس : « إن أوربة القرون الوسطى تحمل ديْنًا مزدوجًا لمعاصريها العرب . وهم الواسطة التى انتقل بها إلى أوربة جزء كبير من ذلك التراث الثمين . كما تعلمت أوربة من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة . وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى والإيذان بعصر النهضة » .

وروجير بيكون يعلن تأثره بالمنهج العربى ورفضه للمنهج الأرسطى الذى سيطر على الفكر الأوربى من جراء الفساد فى استنتاجاته فى العلوم الطبيعية فيقول :

If I had my way, Ishould burn all books of Aristotle, for the study of them can lead to a loss of time, produce error, increase jgnorance .

وتعريبه : « لو أتيح لى الأمر لأحرقت كل كتب أرسطو ، لأن دراستها يمكن أن تؤدى إلى ضياع الوقت والوقوع فى الخطأ ونشر الجهالة » .

وكما قال جوستاف لوبون بعد ست قرون من وفاة بيكون : « أدرك العرب بعد لأى أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب ، ولذلك سبقوا أوربة إلى هذه الحقيقة . فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة فى العلوم » .

الفصل الثانى

فى السياسة والاجتماع

« وإنما عماد الدين وجماع المسلمين
والعدة للأعداء العامة من الأمة .
فليكن صغوك لهم . وميلك معهم »

« على بن أبى طالب »

لم تكن خلافة أمير المؤمنين علىّ هادئة أو هانئة . ولو هدأت لحمل الناس على الجادة بعلمه وعدله ، وشجاعةرأيه وزهده . والزهد آية على صدق الولاة . وسبيل معبّدة لهم إلى أنفس الرعية . فالشجاعة تروعها . أما الزهادة فتقنعها .

وعلىّ رضى الله عنه إمام الزاهدين والمتقشفين من الصحابة . أجمع عليه العلماء والفقهاء والبلغاء وأبطال الحروب والحكماء وكل محب لأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

والصوفية يمدّون إليه بالأسباب ، فيضعونه فى قمتهم . كما يصرح بذلك : الشبلى . والجنيد . وسرى السقطى . وأبو يزيد البسطامى . ومعروف الكرخى . وهم يسندون إليه الخرقة التى يتخذونها شعارا لزهدهم .

وأحمد بن حنبل – والصوفية يعتبرونه من أئمتهم – يقول إنه « ما اجتمعت لأحد من الفضائل بالأسانيد الصحاح ما اجتمع لعلىّ » ، يقابله الجاحظ زعيم المعتزلة . أى فى الطرف الأقصى فى الخصومة لأحمد . ومع ذلك يتلاقى الطرفان فى « علىّ » حيث يقول الجاحظ : « لا يعلم رجل من أهل الأرض : متى ذكر

السبق فى الإسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكرت النخوة والذبّ عن الإسلام ، ومتى ذكر الفقه فى الدين ، ومتى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناحر الناس عليها ، كان مذكورًا فى هذه الخلال كلها ، إلاّ علىّ » .

والمعتزلة يمدّون إليه أسبابهم الفكرية عن طريق حفيده أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية .

وفى مكان بعيد جدًّا من المعتزلة يقف محيى الدين بن عربى ، من فلاسفة المتصوفة ، ليقول : « على من أصحاب العلم وممن يعلمون من الله ما لا يعلمه غيره » ويقول السراج الطوسى : « لأمير المؤمنين علىّ - رضى الله عنه - من بين جميع أصحاب رسول الله « خصوصية » بمعانٍ جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارات ومعان للتوحيد والمعرفة والإيمان والعلم ، وغير ذلك ، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية » .

ولقد طالما افتتن بشخصيته الناس ومنهم المستشرقون الذين يتحدثون عنه ، على طريقتهم فى الإيضاح عن آرائهم ، مثل كارادى فو . حيث يتصوره « ذلك البطل المتوجع المتألم . والفارس الصوفى . والإمام ذو الروح العميق القرار ، التى يكمن فى مكامنها سرّ العذاب الإلهى » .

وإذا ذكرت كلمة « الإمام » مطلقة ، انصرفت إلى علىّ بن أبى طالب دون سائر الصحابة .

ولم يكن النهج العلمى الذى أوجزنا الإشارة إليه ، قبل ، إلاّ استعمالاً لأصول تهدى إلى معرفة حكم الشرع ودليله ، لبلوغ « السعادة فى الدنيا والآخرة » . وكان طبيعيا ، وقد تضافرت فى رسم حدود هذه السعادة ، وضوابطها ، والعلاقات الهادية إليها نصوص القرآن والسنّة . أن يجلى الإمام على فى هذا المجال . وأن يتخلف لنا من حياته وسنوات حكمه على قصرها ، وانحسار سلطته فيها ، مواقف معلّمه ، ونصوص شارحة ، وأن يتتابع فى نسقها أعمال الأئمة من بنيه ليتشكل منها « مذهب سياسى واجتماعى واقتصادى » متكامل :

فنرى الحسن يضرب مثلًا فى العطاء وحقن الدماء . ونرى الحسين يضرب مثلًا للجهاد فى حروب الأمة وللاستشهاد فى سبيل الحق . ونرى الأئمة الثلاثة بعدهما يفصلون القواعد للمجتمع العظيم ، والدولة المثلى ، والأسرة الفاضلة ، والإنسان الذى يتغيّا الكمال .

وكان لزامًا ، أن تكون بين تعاليمهم تعاليم دستورية واقتصادية واجتماعية . فالإمام علىّ ، والأئمة من عقبه ، بناة دول ، وحماة مجتمعات . ازدهرت فيها الأسرة وصلح بها الرجل والمرأة . واستغنى الناس فيها بكدّهم وكدحهم .

فى الدولة وقواعدها

لم يكد أمير المؤمنين يتلقى البيعة حتى أطلق كلماته كالصواعق رجومًا للمنحرفين . أو كالبوارق المتألقة بآمال المصلحين . فى منهاجه السياسى والاجتماعى والاقتصادى الجامع .

المساواة أساس الدولة :

لقد خطب فى اليوم التالى لمبايعته فقال : « أما بعد .. ألا لا يقولن رجال منكم غدا قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الرقيقة وصار ذلك عليهم عارا وشنارا ، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون ، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا » .

فلما كان الغد غدا الناس لقبض حقوقهم . فأمر كاتبه عبيد الله بن أبى رافع أن يبدأ بالمهاجرين . وأعطى كل من حضر منهم ثلاثة دنانير . ثم ثنى بالأنصار ثم سائر الناس كلهم . سوى بينهم الأحمر فيهم والأسود . فقال له سهل ابن حنيف : هذا غلامى أعتقته بالأمس . قال : نعطيه كما نعطيك ثلاثة دنانير .

وتخلف عن هذه القسمة طلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الله ابن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم .

وقال عليّ : « ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود فى بيت المال ، فإن الحق قديم لا يبطله شىء ، ولو وجدته قد تزوّج به النساء وفرقه فى البلدان لرددته إلى حاله . فإن فى العدل سعة . ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه أضيق » .

ولما جاءته امرأتان فسوى بينها ، قالت إحداهما : إنى امرأة من العرب . وهذه أعجمية ! قال : « إنى لا أرى لبنى إسماعيل فى هذا الغنى فضلاً على بنى إسحق » .

وغضب البعض مما يصنع أمير المؤمنين . وكتب عمرو بن العاص إلى معاوية يقول : « ما كنت صانعًا فاصنع .. » .

ودعى البعض فى السرّ إلى رفض عليّ لمساواته بينهم وبين الأعاجم . ولما بلغه ذلك صعد المنبر متقلدًا سيفه وقال : « .. ليس لأحد عندنا فضل إلّا بطاعة الله وطاعة الرسول .. قال الله تعالى : (ياأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

ثم صاح بأعلى صوته : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين » ..

فى هذه الأيام الأولى وضح منهاجه الدستورى : المساواة فى الحقوق والعدل بين الناس . ومنهاجه الاقتصادى : المساواة فى العطاء بين فئات الشعب . ومنهاجه الاجتماعى : ليس فى الإسلام شريف ومشروف . ولا أحمر وأسود . ولا عربى وأعجمى ، وإنما أكرم الناس أتقاهم .

وكان عدله مع الذين حاربوه أو كفروه أو قتلوه دروسًا فى الفقه :

روى الغزالى فى المستصفى أن قضاته استشاروه فى شهادة الخوارج بالبصرة فأمر بقبولها كما كانت تقبل قبل خروجهم عليه . لأنهم إنما حاربوا على تأويل . وفى ردّ شهادتهم تعصّب وإثارة خلاف ..

حتى قاتله عبد الرحمن بن ملجم نهى عن المثلة به .

وبالمساواة التى هى خصيصة الإسلام الأولى ، بعد التوحيد ، أهرع أبناء

البلاد المفتوحة - من غير العرب - إلى اعتناق الإسلام . ثم اختار كثير منهم الانضمام تحت لواء الشيعة .

ولما سادت الدعوة لأهل البيت فى خراسان أقبلت جيوشها تقيم دولة الدين على أنقاض بنى أمية وبنى مروان . وكانت تولية « الرضا » من « أهل البيت » والتسوية بين « الموالى والعرب » شعار الدولة التى أقامها أبو مسلم الخراسانى والتى سرقها بنو العباس من بنى علىّ ، كما أوضحنا قبل[1] .

---

(١) كان بنو أمية يجعلون للعرب درجة على الموالى - وسمى العرب الموالى بالعلوج . بل قال جرير :

قـالـوا نبيعكـه بيعـا فـقلت لهـم بيعـوا الموالى واستغنـوا عن العـرب

والمبرد يقول : « وتزعم الرواة أن الذى أنفت منه جلة الموالى هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم » .

وتزوّج أعجمى من عربية من بنى سليم فشكاهما محتسب إلى والى المدينة » إبراهيم بن هشام صهر الخليفة عبد الملك بن مروان « ففرق بينهما لعدم الكفاءة وعزر الزوج لأنه ارتكب جريمة ! بأن ضربه مائتى جلدة ثم حلق لحيته وشاربه

فقالوا عن الوالى :

قـضيـت بـسنـة وحـكـمـت عـدلا ولم تـرث الحـكـومـة من بـعيـد

وإبراهيم بن هشام خال الخليفة هشام بن عبد الملك .

وسأل هشام جليسه فى فاتحة القرن الثانى للهجرة عن فقهاء الأمصار . قال : مَن فقيه المدينة ؟ قال : نافع مولى ابن عمر . قال : فمن فقيه أهل مكة ؟

قال : عطاء بن أبى رباح . قال : مولى أم عربى ؟

قال : مولى . قال : فمن فقيه اليمن ؟

قال : طاوس بن كيسان قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى .

قال : فمن فقيه أهل اليمامة ؟

قال : يحيى بن أبى كثير . قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى .

قال : فمن فقيه أهل الشام ؟

قال : مكحول قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى .

قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟

قال : ميمون بن مهران . قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى .

قال : فمن فقيه أهل الجزيرة ؟

قال : الضحاك بن مزاحم . قال : مولى أم عربى ؟ قال : مولى .

قال : فمن فقيه أهل البصرة ؟

قال : الحسن وابن سيرين . قال : موليان أم عربيان ؟ قال : موليان .

ولقد وهم الذين نسبوا أسباب التشيّع فى خراسان إلى ما زعموه من تشابه تتابع الخلافة النبوية والدينية فى بيت الرسول ، وتوارث الملك عند الفرس فى الدولة الكسروية ، وحكم كسرى « بالحق الإلهى » .

فلقد ترك الفرس دين كسرى بتمامه إلى الإسلام وقواعده .

إنما كانت تفرقة الولاة والحكام بين العجم وبين العرب سببًا لتصبح المساواة صيحة التجمع منهم على أمير المؤمنين علىّ وبنيه . وكان أهل البيت مضطهدين ، تهوى إليهم الأفئدة . وكانوا شجعانًا يستشهدون . فاجتمع على إيجاب الانضمام إليهم الدين والعقل والمصلحة . وهى دوافع كافية للجهاد ضدّ بنى أمية .

أما زعم الزاعمين أن إصهار الحسين إلى الفرس فى أم زين العابدين كان سببًا لتشيعهم ، فينقضه أن ابنى عمر وأبى بكر أصهرا إليهم فى أختين لها ، ومع

= قال : فمن فقيه أهل الكوفة ؟

قال : ابراهيم النخعى . قال : مولى أم عربى ؟

قال : عربى .

قال : كادت نفسى تزهق ولا تقول واحد عربى !

ومن هذا التعصب للعرق وتمييز العرب ثار من عدا العرب فى خراسان « ما وراء العراق حتى وسط آسيا » وأجاء أهل خراسان بنى العباس إلى الخلافة بشعارين يكمل كل منهما الآخر :

(١) إعادة حكم الدين وتولية أهل البيت .

(٢) مساواة الموالى والعرب . وانطبعت الدولة العباسية فى أغلب أمرها . بطابع غير عربى .

يقول الجاحظ عن المائة الأولى من عمرها : « دولتهم أعجمية خراسانية . ودولة بنى أمية عربية أعرابية » .

وكان مؤسسو الدولة العباسية يشيرون إلى خراسان على أنها « باب الدولة » .

وفى خواتيم المائة الأولى حاول الرشيد أن يستعيد مقاليد الأمور من الفرس فكانت مصارع البرامكة .

فلم يلبث الفرس إلّا سنين حتى قتلت جيوشهم الأمين - العربى الأب والأم - وجاءوا بالمأمون إلى عرش الخلافة وأمه خراسانية .

وشهدت المائة الثانية من عمر الدولة دولاً قادمة من خراسان تستقل بممالكها أو تحكم الدولة العباسية كلها : بنى سامان (٢٦١ - ٣٨٩) يحكمون فى الشرق من خراسان من عهد المستعين (٢٤٨) والدوله الصفارية فى عهد المعتز (٢٥٢) ثم بنى بويه (٣٢٤ - ٤٢٣) يحكمون فارس والرى وأصفهان والجبل . ولم تنشأ دولة عربية إلّا فى الموصل وديار بكر وربيعة وهى دولة بنى حمدان (٣١٧ - ٣٥٨) .

ذلك لم يتعصب الفرس لأبويها .

لامراء كان طلب المساواة هو الباعث على التشيّع لعليّ ، من قوم سلبت حقوقهم فى المساواة . وهم فى قمة المجتمع العلمى والدينى يحملون مسئوليات الدين الجديد مع العرب[1] .

والدول العظيمة ، والحروب الدامية ، وتغيير التاريخ ، لا يحدثها الغضب من أجل النسب . وإنما تحدثها المبادئ الخالدة والبطولات الرائعة وابتغاء مستقبل أفضل . وتفسير التاريخ على أساس النسب تفسير أوربى يدفع المستشرقين إليه سوابق « الزواج السياسى » بين ملوكهم و« حروب الوراثة » بين دولهم .

العدل - ونزاهة الحكم :

فى حياة عليّ ومبادئه ، وخطبه وأقضيته ، عن هذين ، مالا نظير له فى أى عصر ، والمقام يضيق عن الاستقصاء . فحسبنا أن نقف قليلا عند فقرات من عهده لمالك بن الحارث « الأشتر النخعى » فهذا عهد مقطوع القرين فى شكله وموضوعه ، فى التراث العالمى والإسلامى ، وبخاصة فى السياسة الإسلامية ، والحكم الصالح ، سواء فى صياغته أو محتوياته .

وهذا العهد يضع اسم عليّ فى ذروة المؤسسين للدول « واضعى الدساتير » حيث يتكلم عما يسمى فى الدساتير العصرية بالمقومات الأساسية ، وواجبات الولاة نحو الأمة ، وطريقة قيامهم بحقوق الجماعة ، بالتفصيل اللازم . والتنبيه على ملء الفراغ ، فيما سكت عنه ، بالرجوع إلى أصل الشريعة : القرآن والسنة .

ولقد تتابعت على هذا العهد شروح الأئمة من بعد ، فرأينا لزين العابدين فى

---

(١) ومن المستشرقين من يلقى القول على عواهنه : « فلهوزن » مثلا يخلط بين أشياع عليّ وأتباع ابن سبأ الذى يبرأ الشيعة منه . يقول إن بعض العقيدة الشيعية نبع من اليهودية ، أكثر مما نبع من الفارسية . « ودوزى » يرى أن الأصل فى التشيع فارسى ، لأن الفرس يدينون بالملك والوراثة فيه والحق الإلهى . « وفان فلوتن » يرى أن التشيع كان مباءة للعقائد الآسيوية .

ومن المؤرخين من تابعوا المستشرقين .

رسالة الحقوق تفصيلات جديدة يقتضيها الزمان ، وشهدنا الإمام جعفر الصادق يضيف التطبيق ، والتفصيل الدقيق ، لما تضمنته رسالة زين العابدين وعهد علىّ - فيجعل من تنفيذهما وشروحه لهما ، عهدًا جديدًا للمسلمين وللشيعة ، تبلغ به مجتمعاتهم أو دولهم مبالغها كلما التزموهما أو قاربوا الالتزام بهما .

يبدأ « عهد علىّ » بتحديد مهمة الوالى « حين ولاه مصر ، جباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها » فهو قد جمع له ولاية الخراج وولاية الحكم وقال :

« واعلم أن الرعية طبقات . لا يصلح بعضها إلاّ ببعض . ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله . ومنها كتاب العامة . ومنها قضاة العدل[1] . ومنها عمال الإنصاف والرفق . ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس . ومنها التجار وأهل الصناعات . ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة . وكلا قد سمى الله سهمه » .

فالجنود بإذن الله حصون الرعية . وزين الولاة . وعز الدين . وسبيل الأمن . وليس تقوم الرعية إلاّ بهم . ثم لا قوام للجنود إلاّ بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج ... ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب . لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها .

ولا قوام لهم جميعًا إلاّ بالتجار وذوى الصناعات .. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم . وفى الله لكل سعة . وعلى الوالى حق بقدر ما يصلحه .. » .

أما ولاية الإدرة عامة ، والعمال والكتاب خاصة . فيقول عنها : « فول من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ورسوله ولإمامك .. وأطهرهم جيبا وأفضلهم

---

(١) يراجع شرح القسم القضائى من هذا العهد فى كتابنا « القرآن والمنهج العلمى المعاصر » طبعة دار المعارف الباب السادس .

حلما .. ثم الصق بذوى المروءات .. ثم تفقّد من أمورهم ما يتفقّده الوالدان من ولدهما .. ولا تحقرن لطفا تتعاهدهم به وإن قل .. وليكن آثر جندك عندك من واساهم فى معونته .. وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد بظهور مودة الرعية ... » .

وأما عن العدالة ، وقوامها القضاء ، فيبدأ المشترع العظيم - فى التعبير الأوربى - الكلام فيها عن القانون الواجب التطبيق فيقول :

« واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور . فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) - فالرد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه والردّ إلى الرسول الأخذ الجامعة غير المفرقة » .

ويقرن القانون الإلهى بالقاضى كما يتطلبه الإسلام فيعقب على ما سبق بفون عن صميم القضاء : « ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور . ولا تمحكه الخصوم . ولايتمادى فى الزلة . ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه : أوقفهم فى الشبهات . وآخذهم بالحجج . وأقلّهم تبرمًا بمراجعة الخصم . وأصبرهم على تكشيف الأمور . وأصرمهم عند اتضاح الحكم ... ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء . وأولئك قليل .

ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيح علّته وتقلّ حاجته إلى الناس . وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك . ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك » .

ولئن كانت رسالة عمر إلى أبى موسى الأشعرى قد جمعت جمل الأحكام فى كلمات مختصرة ، لا يجد محقّ عنها معدلا ، إن عهد علىّ للأشتر كان فى زمان مختلف ، فجاء جامعًا ، بل مضيفًا - فى الموضوع الذى وردت فيه رسالة عمر - أمورًا شتى يحتاجها زمان علىّ وكلّ زمان بعده .

وورود القانون ، والدعوى ، واختيار القاضى ، وسلوكه ، وطريقة القضاء ،

واستقلال القضاء ، فى فقرتين بين فقرات ذلك العهد ، مظهر من مظاهر شموله واتساع نطاقه ، وأسباب خلوده .

* * *

أما الادارة العامة – عمال الوالى – ففيهم يقول أمير المؤمنين :

« انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختيارًا ولا تولهم محاباة وأثرة ... وتوخّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام . فإنهم أكرم أخلاقًا وأصحّ أغراضا .. ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإنّ ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم . وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم . وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك ... ثم تفقد أعمالهم .. » .

وأما الكتّاب ففيهم قوله : « ثم انظر فى حال كتّابك . فولّ على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك وأسرارك ، بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ، ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملأ .. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستقامتك وحسن الظن منك .. ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم فى العامة أثرًا ... » .

ثم يقول عن الضعفة :

« وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه ... واجعل لذوى الحاجات منك مجلسًا عامًّا .. فلا تكونن منفرًا ولا مضيعًا . فإن فى الناس من به العلّة وله الحاجة . وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهنى إلى اليمن كيف أصلى بهم فقال : « صلّ بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما » .

الشورى والعناية بالعامة :

فى بداية العهد إلى الأشتر أمران : الأوّل خاص بالأشتر . والثانى خاص بالعامة والخاصة .

والأمران عصريان فى كل عصر . ومطلوبان فى كل مكان . ومن كل الحكام :

أما الأوّل : ففيه قوله له : « إن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك . ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم . وإنما يستدل علي الصالحين بما يجرى على ألسنة عباده .. فاملك هواك . وشحّ بنفسك عما لا يحلّ لك .. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم . فإنهم صنفان :

إما أخ لك فى الدين وإما نظير لك فى الخلق . يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل . ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ . فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب وترضى أن يعطيك الله ... »[1] .

وقوله : « وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك .. فإن الله يذلّ كل جبّار ويهين كل مختال . أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك وممن لك فيه هوى . وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم .... » .

ويقول عن الشورى : « ولا تدخلن فى مشورتك من يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر . ولا جبانًا يضعفك عن الأمور ولا حريصًا يزين لك الشر ، بالجور ، فإن البخل والجبن غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله ... والصق بأهل الورع والصدق ... ثم رضهم على أن لا يطروك ... ولا تنقض سنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة .. » .

وأما الثانى : ففيه قوله : « وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق . وأعمها فى العدل . وأجمعها لرضى الرعية . فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة . وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة . وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤنة فى الرخاء ، وأقل معونة فى البلاء ، وأكره للإنصاف ، وأسأل

---

(١) ولما عهد لمحمد بن أبى بكر كان مما جاء فى عهده له قوله : « اعلم يا محمد بن أبى بكر أنى قد وليتك أعظم أجنادى فى نفسى ، أهل مصر ، وأنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم وسركم علانيتكم . ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم » .

بالإلحاف ، وأقل شكرًا عند الإعطاء ، وأبطأ عذرًا عند المنع ، وأخف صبًرا عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة .

وإنما عماد الدين وجماع المسلمين ، والعدّة للأعداء ، العامة من الأمة . فليكن صغوك لهم وميلك معهم » .

* * *

بأبى أنت وأمى ياأمير المؤمنين ! إن رسول الله يقول : « اطلعت فى الجنة فوجدت أكثر أهلها الفقراء » وأنت فى طليعة أهل الجنة . تحب أكثر أهلها عددًا فى الحياة الدنيا . ومن أجل ذلك تكرم العامة ، وهم كثرة الأمة . وتؤثر منها الفقراء .

ولقد كنت دائمًا قدوة . وأردت الخاصة على أن تكون قدوة . وحذرتها من مطامعها ومزالقها . ولو حذرت ، للزمت الجادة ، وصلح أمر هذه الأمة .

إن من يضع دستورًا فى العصر الحديث خليق بأن يرتوى من عهدك ، ويروى الأمة من ينابيعك ، فى تطبيق الشريعة ، وسيادة القانون ، واستقلال القضاء ، وأمانة الولاة ، ونزاهة الإدارة ، واحترام العامة ، وإلزام الخاصة أن تكون قدوة فى الأمة .

* * *

يقول ابن المقفع فى شأن الخاصة بعد مائه عام ، فى كتابه لأبى جعفر : « وقد علمنا علما لا يخالطه الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها . ولم يأتها الصلاح إلّا من قبل إمامها ... وحاجة الخواص إلى الإمام الذى يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك » .

ويتصدى الإمام زين العابدين فى « رسالة الحقوق » بالشرح الشامل ، والتفصيل الطويل ، لسلوك الجماعات والأفراد وما يجب لها شرحًا وتفصيلًا تقتضيها حالة الناس وظروف الزمان فى النصف الثانى من القرن ، عصر كربلاء والحرة وضرب الكعبة والدولة الهرقلية وتغير الناس .

واستقصاء السجّاد فيها للأحكام مظهر لتحمله مسئولية تعليم المسلمين أمور

دينهم وشئون دنياهم : فهى تبدأ بحقوق الله عز وجل . وأكبرها ما أوجبه الله تعالى من حقه . فجعل للجوارح حقوقًا ولأفعالها حقوقًا « ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوى الحقوق الواجبة عليك وأوجبها عليك حق أئمتك ثم حقوق رعيتك ثم حقوق رحمك . فهذه حقوق يتشعب منها حقوق . فحقوق أئمتك ثلاثة .. وحقوق رعيتك ثلاثة .. وحقوق رحمك كثيرة متصلة .. فأوجبها عليك حق أمك ثم حق أبيك .. ثم حق مولاك المنعم عليك ثم ... »[1] .

وتطرقت رسالة الحقوق للعلاقات الحكومية والقضائية والاجتماعية التى تنظم الجماعة الإسلامية . فنظمت آدابها والتزاماتها الخلقية والقانونية بالتفصيل .

وربما أجزأ فى تقريب منهاجها إلى الألباب مثل ننقله منها عن معاملة السلاطين حيث يقول : « وأما حق سائسك بالسلطان فأنت تعلم أنك جعلت له فتنة . وأنه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان . فعليك أن تخلص له فى النصيحة . ولا تماحكه وقد بسطت يده عليك . فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه ... وتلطف لعطائه ما يكفه عنك دون أن يضر بدينه . وتستعين عليه فى

---

(١) فأما حق الله الأكبر عليك فأن تعبده ولا تشرك به شيئا . فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة .. وأما حق نفسك عليك .. وأما حق اللسان .. وأما حق السمع .. وأما حق بصرك .. وأما حق رجليك .. وأما حق يدك .. وأما حق بطنك .. وأما حق فرجك ..

ثم حقوق الأفعال : وحق الصلاة .. وأما حق الصوم .. وأما حق الصدقة .. وأما حق الهدى - ثم حق الأئمة .. فأما حق سائسك بالسلطان .. وأما حق سائسك بالعلم .. وأما حق سائسك بالمال ..

ثم حقوق الرعية .. فأما حقوق رعيتك بالسلطان .. والعلم .. بملك النكاح .. بملك اليمين..

وأما حق الرحم .. وأما حق أمتك .. وأما حق ولدك .. وأما حق أخيك .. وأما حق المنعم عليك .. وأما حق مولاك الجارية نعمته عليك .. وأما حق ذى المعروف عليك .. وأما حق المؤذن .. وأما حق إمامك فى صلواتك .. وأما حق الجليس .. وأما حق الجار .. وأما حق الصاحب . وأما حق الشريك . .وأما حق المال .. وأما حق الغريم المطالب لك .. وأما حق الخليط .. وأما حق الخصم المدعى عليك .. وأما حق الخصم المدعى عليه . وأما حق المستشير وأما حق المشير عليك .. وأما حق المستنصح .. وأما حق الناصح .. وأما حق الكبير .. وأما حق الصغير .. وأما حق السائل .. وأما حق المسئول .. وأما حق من سرك الله به وعلى يديه .. وأما حق من ساءك القضاء عليه .. وأما حق أهل ملتك عامة .. وأما حق .. وأما حق ..

ذلك با لله فلا تعانده .. فإنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك وعرضتها للمكروه » .

الحكام :

تابع الإمام الصادق عمل آبائه فى التنبيه على قواعد الحكم الصالح ومنها حقوق العامة - وهى جسم الجماعة - بنصوص دستورية يوجزها . لتحفظ عنه وتنقل منه .. وإليك أمثالاً :

يقول : « أفضل الملوك من أعطى ثلاث خصال : الرحمة ، والجود ، والبذل » .

ويقول : « ليس للملوك أن يفرطوا فى ثلاثة : حفظ الثغور ، وتفقد المظالم ، واختيار الصالحين لأعمالهم » .

وما هى إلا أركان الدولة الثلاثة : الجيش ، والقضاء ، والإدارة .

أو مبادئ الحكم الثلاثة : المنعة فى الخارج بالجيش . والعزة فى الداخل بالعدل . والحكم الصالح بالإدارة الحسنة . والرسول يقول : « من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » ، وهو مقال موجّه للعامة والخاصّة فى أمة خصيصتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأوّل المسئولين عنها الولاة والعلماء والقادرون .

والصادق يقول لكل هؤلاء : « خير الناس أكثرهم خدمة للناس » .

يقول للحكام : « كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان » ، ويقول : « المستبدّ برأيه موقوف على مداحض الزلل » « العثرات » وهى مقولة تنطق بها سجلات الطغيان . حيثما كان ، وفى جميع الحقب . فالزلة الواحدة تزعزع قوام الطاغية أو المتعصب أو المتحكم . فهو كالواقف على قدم واحدة .

وتعاليم الصادق فى العدل والرفق بالرعية مقولات دستورية فى الأمة .

يقول : « ما أوسع العدل وإن قلّ » ويقول : « أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم » .

ويقول لوالى المنصور على الأهواز إذ استنصحه :

« .. فاعلم أن خلاصك ونجاتك فى حقن الدماء وكفّ الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية . والثانى حسن المعاشرة مع لين فى غير ضعف . وشدة فى غير عنف .. وإياك والسعاة وأهل النمائم .. ولا تستصغرن من حلو وفضل طعام فى بطون خالية .. إياك ياعبد الله أن تخيف مؤمناً » .

تلك دروس جدّه صلى الله عيه وسلم . وهو القائل : « سبعة يظلهم الله يوم القيامة . إمام عادل .. » فبدأ بالعدل .

بل يقول عليه الصلاة والسلام : « عدل السلطان يومًا يعدل عبادة سبعين سنة.. » .

والدنيا قد تدوم ، والدولة قد تقوم ، مع العدل والكفر . لكنها لا تبقى مع الظلم ، وإن كان الظلم ، واقعًا على غير مسلم . والله تعالى يقول فى محكم كتابه : (كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط . ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى)[1].

يقول الإمام الصادق : « من نكد العيش السلطان الجائر والجار السوء والمرأة البذيئة » . فالسلطان الجائر أذى دائم ، ومنكر مستمر ، تضيق الدنيا به ، وإن رحبت . كما يضيق المكان - على رحبه - بالجار السوء ، وتضيق الحياة - وإن طالت أو اتسعت - مع المرأة الطويلة اللسان .

والإمام يبدأ بالسلطان الجائر لأن أذاه يفسد الدنيا وإن صلحت ، والأسرة وإن هنؤت . وإذا عمّ العدل احتمل الناس همومهم حيث هم .

ومن فساد السلطان أن يتولى سدّته المتكبرون . والمتعالون فى دخيلتهم منحطون . يقول الصادق : « ما من أحد يتيه إلّا من ذلّة وجدها فى نفسه » .

ومن ذلك ينحّى عن الرياسات من يجرّون أزرهم خيلاء ، فهؤلاء لا ينتفعون بتجربة من أنفسهم ، وإلّا لما تكبّروا على الناس . أو من غيرهم ، وإلّا لما

---

(١) لما فتح هولاكو بغداد استفتى العلماء : أيهما أفضل . السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر ؟ فجمعوا لذلك بالمدرسة المستنصرية . وكان على بن طاوس حاضرا . وهو المقدم المحترم . فتناول الفتيا ووضع خطه عليها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر . ووضع العلماء خطوطهم على ذلك .

غرّهم الغرور . يقول : « لا يطمع القليل التجربة المعجب برأيه فى الرياسة » ويقول : « من طلب الرياسة هلك » .

فإذا ولى الحاكم فليخش الله فى الناس . وليعلم أن فيهم ضعفًا ، وأنه مطالب بالعفو والصفح الجميل . يقول الإمام : « أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . وأنقص الناس عقلاً من ظلم من دونه . ولم يصفح عمن اعتذر إليه » .

والناس مطالبون بأن يمحضوا النصح بإخلاص . وليس الإخلاص مجرد النية الحسنة أو البدار بالكلام . وإنما هو الفكر الجاد ، وتقليب الأمور على وجوهها . والاستماع إلى المخالفين . فالإمام يقول : « لا تكن أوّل مشير . وإياك والرأى الفطير » .

وكثيرًا ما تأذى الناصح بنصحه ، وركبت المنصوح شياطين غلوائه . وقد يستفيد الظنة المتنصح .

وينبه الإمام الأمة على ألّا تشترى الراحة بالرياء إذ « المؤمن يدارى ولا يمارى » كما يقول . وينبه الناس – ومنهم الحكام – على أن يسارعوا إلى الخيرات بإصلاح عيوبهم ، وإعلانها دون تأثم أو تحرج .

والناس يمدّون أيديهم إلى من يصارحهم بمصاعبه ، فيشركونه فى متاعبه . يقول : « أنفع الأشياء للمرء سبقه الناس إلى عيب نفسه وأشدّها مئونة إخفاء الفاقة .... » .

وكما يقول : « من لم يتفقد النقص فى نفسه دام نقصه . ومن دام نقصه فالموت خير له .. » .

ولعل أنفع الناس للمرء ، من يهدى إليه عيوبه : بأن ينبهه عليها .

المجتمع الجعفرى

الإمام مبلّغ عن النبى صلى الله عليه وسلم علمه . وهذا العلم أجناس وأنواع ، نشير فى هذا المقام إلى بعض منها فى السياسة والاجتماع ، وهو حسب

أي مجتمع ليقيم دولة راسخة الأركان ، وأمة تعمل كخلية النحل ، لا مجرد جمعية للإصلاح أو جماعة متطلعة للتقدم ، كالجمعيات والجماعات التى تزخر بها المجتمعات فى العصور الحديثة ، بقصد إصلاح جزئى أو الدعوة لمبادئ معينة .

وكثير من المبادئ التى تحدثنا عنها قبل ، والتى سنتحدث عنها بعد ، شذرات من دروس . متداولة عن الإمام ، لو حاولنا جمعها كنّا كمن يجمع مصابيح السماء . وقد يكفى فى هذا المقام ذكر بعض توجيهات الإمام « لشيعتنا » كما يقول . أو « للجعفرى » الجدير بالانتساب للإمام . كما يسمى تابعيه .

وإذ كانت هذه التوجيهات إشارات إلى مؤهلات الانتساب إليه فهى تقطع بأنه كان يعد « دعاة » يدعون لمجتمع يدين بمبادئه .

وهذه المبادئ مضافة إلى الفقة المدنى والجزائى ونظرية الإمامة ، كافية لإقامة مذهب متكامل تقوم على قواعده « دولة » تكفل الجزاء والثواب ، فالقاعدة القانونية ، مع العقيدة الدينية والنظريات الخلقية ، كالماء الذى يسقى البذور الصالحة التى تنتظر الزمن لتشق الأرض وتظهر ، فى حماية الدولة .

ولقد كلل الله بالنجاح سعيه . وظهرت دول ومجتمعات ازدهرت فى العالم ، مع اصطناع التغيرات التى تستدعيها حاجات السلطان والزمان والمكان ، أو الدعاية للدولة ، كما كان الشأن فى الدول والمجتمعات الإسماعيلية كالفاطميين المنتسبين إلى اسماعيل بن الإمام جعفر .

وأحدثت هذه المبادئ آثارا منجحة فى المجتمعات الشيعية ، فى أمم إسلامية أو غير إسلامية ، أنمت التمسك الدينى بفضائل الإسلام . وأمكنت من الدفاع عنه بقوّة وإيمان . وأبدعت عبقريتها الاقتصادية التى طالما حضت عليها تعاليم الإمام .

فالتعاليم الصادرة عن الإمام الصادق ليست مجرد أصول فقهية أو فروع علمية كما هو دأب الأئمة من أهل السنّة . بل هى تتعدّى ذلك المجال إلى كل مجال للناس فيه نشاط سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى ..

ومن أجل ذلك العموم فى رسالة الإمام ومقامه فى الإسلام ، كان شعور أبى

حنيفة ومالك وسفيان الثورى وعمرو بن عبيد ونظرائهم أو المقاربين لهم أنهم فى مجلسه تلامذة . واعتبار الأمة أنهم هنالك كذلك وإن كانوا أئمة .

ومن نفاذ البصيرة . وعظمة الطريقة ، وجلال السمت ، واتساع العلم ، كان اعتراف خصوم المسلمين أنفسهم بأنه - بين الحجيج جميعًا - الفرد العلم .

* * *

أما المبادئ الفقهية ومبادئ العقيدة والسياسية فقد تكلمنا عنها وتبقى كلمات ، كالإشارات ، عن المبادئ الخلقية والاجتماعية التى انتخبنا بعضها ، لتدلّ عل اتجاهه بها نحو تكوين مجتمع قوى وإعداد الدعاة له ..

أوصى الإمام المفضل بن عمر بخصال يبلغهن من وراءه من « شيعة أهل البيت » .

« أن تؤدى الأمانة إلى من أئتمنك . وأن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك . واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب . وأن للأمور بغتات فكن منها على حذر . وإياك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعرًا » .

وأوصاهم :

« صلو عشائركم . واشهدوا جنائزهم . وعودوا مرضاكم . وأدّوا حقوقهم . فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل « هذا جعفرى » ويسرنى ذلك .

وإذا كان غير ذلك دخل علىّ بلاؤه وعاره . وقيل هذا أدب « جعفر » ! فو الله إن الرجل كان يكون فى القبيلة من « شيعة علىّ» فيكون زينها . آداهم للأمانة . وأقضاهم للحقوق . وأصدقهم . يحمل إليه وصاياهم وودائعهم . تسأل العشيرة عنه ويقال : « من مثل فلان ؟ » .

وأوصاهم :

« أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصية . وأداء الأمانة لمن ائتمنكم . وحسن الصحابة لمن صحبتموه . وأن تكونوا لنا دعاة صامتين » .

فهو بهذا يربط إحسان العمل بالانتساب لأهل البيت ويضع القواعد المثلى للتجمع .

دخل عليه المفضل بن قيس ذات يوم يسأله الدعاء . وكما قال : « فشكوت إليه بعض حالى وسألته الدعاء فقال : ياجارية هاتى الكيس ..

فقال : « هذا كيس فيه أربعمائة دينار فاستعن بها » . قلت : ما أردت هذا الكيس . ولكن أردت الدعاء لى . قال : « ولا أدع الدعاء لك . ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم » .

هكذا تتابع منه العطاء غير المطلوب ، والدعاء المطلوب . والنصح الواجب . فهو معلم فى المقام الأوّل . أعطى فأغنى . ثم نصح ، ليقبل النصح منه .

والأعمال أعلى صوتًا من الأقوال .

وهو يزيد العلاقة بين أصحابه وثاقة :

قال يومًا لبعض أصحابه : ما بال أخيك يشكوك ؟ قال : يشكونى إذ استقصيت عليه حقى. فقال مغضبًا: «كأنك إذا استقصيت حقك لم تسىء؟

أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب ؟ أخافوا أن يجور عليهم ؟

ولكن خافوا الاستقصاء . سماه الله سوء الحساب . فمن استقصى فقد أساء » .

أرأيت - إلى مدى ما يستنبط الإمام من النصّ ؟ وإلى مقدار ما يدخل فى أنفس أمته من الإحساس الرقيق بمتاعب بعضهم . كالجسم تتداعى أعضاؤه بإدراك مرهف وتكافل كامل ؟ ذلك أدب جده صلى الله عليه وعلى آله .

والإمام يعلّمهم أن تكون لهم اليد العليا بالابتداء بالعطاء .

وفى السؤال رهق . والصلة تفقد رونقها ، وربما قيمتها ، إن لم تكن فيها مبادرة :

دخل عليه رجل من خراسان قال : لقد قلّ ذات يدى ولا أقدر على التوجه

إلى أهلى إلاّ أن تعينونى .. فنظر الإمام للجالسين وقال . أما تسمعون ما يقول أخوكم ؟.. إنما المعروف ابتداء فأما ما أعطيت بعد ما سأل فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه .. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة وبعثنى بالحق نبيًّا لما يتجشم أحدكم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك .. » فجمعوا له خمسمائة درهم . وبهذا اشترك الجميع فى أداء الواجب .

وهو القائل : « أغنى الغنى ألا تكون للحرص أسيًرا » .

والتنبيه على الإرهاق فى الاستقصاء ، وعلى انعدام فضل المسئول على السائل ، خصيصتان إسلاميتان ترفعان قدر الجماعة - بما فيهما من مؤالفة وتكافل .

والتعبيرات العالية عنهما تعبيرات إمام :

قال مصادف : « كنت عند أبى عبد الله فدخل رجل فسأله الإمام : كيف خلفت إخوانك ؟ فأحسن الثناء عليهم . فسأله : كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم ؟ قال الرجل : قليلة . قال الإمام : كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال قليلة: قال الإمام؟ فكيف يزعم هؤلاء أنهم «شيعتنا»؟».

الجهاد :

يقول أبو الدرداء : « من رأى أن الغدوة إلى العلم ليست بجهاد فقد نقص فى عقله ودينه » والصادق لا يكتفى بالتعليم بل يحضّ على الجهاد بالنفس والمال ويقول للمسلمين : « الجهاد واجب مع إمام عادل . ومن قتل دون ماله فهو شهيد » .

ويرى الانحياز إلى الظالمين تمكينًا لهم . والجهاد مع العادلين تثبيتًا للإسلام . سأل يومًا عبد الملك بن عمرو : « لم لا تخرج إلى هذه الديار التى يخرج إليها أهل بلادك ؟- أى تجاهد مع الولاة - قال عبد الملك : أنتظر أمركم والاقتداء بكم . قال الإمام : أى والله لو كان خيرًا ما سبقونا إليه . قال عبد الملك : إن

الزيدية يقولون ليس بيننا وبين جعفر خلاف إلاّ أنه لا يرى الجهاد . قال الإمام : أنا لا أرى الجهاد ؟...؟ بلى والله . إنى أراه . لكنى أكره أن أدع حلمى إلى جهلهم » .

ولقد كان عظيمًا جهاد جدّه الحسين فى جيوش معاوية ، بل جهاد الحسين ضدّ معاوية نفسه ، إذ يخاطبه بقوله : « ثم سلطته « زيادا » على العراقيين يقطع أيدى المسلمين وأرجلهم ويصلبهم على جذوع النخل .. فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علىّ . فقتلهم ومثل بهم بأمرك ... » .

أما كربلاء فملحمة فى الإسلام .

فإذا كان الجهاد للدفاع عن الإسلام إذا ما تهدده العدو ، أو حين يغزو أرض المسلمين عدو ، فذلك فرض عين على كل فرد . ولو كان تحت إمرة أمير جائر .

سئل الإمام الرضا عن الرجل يرابط تجاه العدو .. كيف يصنع ؟

قال : يقاتل عن بيضة الإسلام لا عن هؤلاء . يقصد الحكام الظلمة .

والمرابطة فى الثغور إن كانت للاستطلاع فلها مدة . وهى مستحبة . وإذا كانت لملاقاة العدو فهى واجبة. والرجل المسلم كفء لرجلين عند اللقاء. يقول الإمام الصادق : « من فرّ من رجلين فقد فرّ ومن فرّ من ثلاثة فلم يفر » .

والجهاد لغير الدفاع ، أى لمجرد الغزو ، فرض كفائى ، قال الصادق : « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنى راغب فى الجهاد نشيط . قال له صلى الله عليه وسلم : « فجاهد فى سبيل الله » قال الرجل : إن لى والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بى ويكرهان خروجى .

قال النبى : « أقم مع والديك . والذى نفسى بيده لأنسك بهما يومًا وليلة خير من جهاد سنة » .

والإمام بهذا يعلّم الناس إيثار الوالدين بالرعاية . فهما النواة التى تزدوج لتصنع الأسرة . وهى بدورها نواة الأمة . والتمكين لهذه تكوين لتلك . أما إذا احتيج للرجل لكفاءة خاصة فيه فالجهاد فرض عين عليه .

والصادق يعلّم المسلمين قوانين الإسلام فى الحروب فيقول : « إذا أخذت أسيرًا فعجز عن المشى ولم يكن معك محمل فأرسله ولا تقتله » ويعلن أن « إطعام الأسير حقّ على من أسره . وإن كان يراد من الغد قتله . فإنه ينبغى أن يطعم ويسقى ويرفق به ، كافرًا كان أو غيره » .

ويعلّم المسلمين « أن رسول الله كان إذا بعث سرية دعا أميرها فأجلسه إلى جنبه وأجلس أصحابه بين يديه ثم قال : سيروا باسم الله وعلى سبيل الله ولا تغدروا . ولا تغلوا . ولا تمثلوا . ولا تقطعوا شجرة إلّا أن تضطروا إليها . ولا تقتلوا شيخًا فانيًا . ولا صبيًّا . ولا امرأة » .

وينهى الصادق عن قتل الرسل . أو قتل الرهن . أو استعمال السم . حتى - فى حرب المشركين . فإذا كانت حرب فلتكن حربًا نظيفة . أى إسلامية .

ولنتذكر فى هذا المقام قول « علىّ » وهو يسير الجند للقتال : « لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة . وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى عليهم . فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مديرًا ولا تجهزوا على جريح . ولا تهيجوا النساء بأذى .. إن كنا لنؤمر بالكفّ عنهن وهن مشركات .. » .

وقول الصادق : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى السم فى جهاد المشركين .. وعن قتل النساء والولدان فى دار الحرب . وعن الأعمى . والشيخ العانى .. وما بيت عدوًّا قط فى ليل ... » .

وقول الصادق لإحسان معاملة أهل الذمة : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الجزية من أهل الذمة على ألا يأكلوا الربا ولا لحم الخنزير ، ولا ينكحوا الأخوات وبنات الأخ وبنات الأخت . فمن فعل ذلك منهم فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله .

فعلى المسلمين ألّا يتعرضوا لأهل الذمة بسوء . بل إن عليهم أن يدافعوا عنهم ، ماداموا لا ينشرون الدعوة ضدّ الإسلام . ولا يتظاهرون بارتكاب المنكرات ، ولا يؤوون إليهم أعداء الإسلام .

وكل من له كتاب كاليهودى والنصرانى ، أو شبه كتاب ، كالمجوس ، فهو ذمّى ، إذا قبل شروط الذمة والتزم بها . فإذا لم يلتزم فحكمه حكم الحربى ..

فى المجتمع ودعائمه

الأسرة :

إذا رتبت تعاليم الإمام تصدّر تعاليمه للناس قوله : « أصل الرجل دينه وتقواه . الناس فى آدم مستوون » وهذه المساواة الفطرية تسبقها البنوة لآدم ، ثم يبلغها أغراضها حدب القوىّ على الضعيف . والعالم على الجاهل ، والذى أتيحت له الفرصة على من لم تتح له .

ولما سأل الإمام رجلًا : من سيّد هذه القبيلة فأجاب : أنا . قال الإمام : لو كنت سيدهم ما قلت أنا .

ولما فصّل المكرمات المطلوبة من الناس قال : « المكارم عشر : صدق الناس ، وصدق اللسان ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وقرى الضيف ، وإطعام السائل ، والمكافأة على الصنائع ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، ورأسهن الحياء » .

فهو يبدأ بالصدق وأداء الأمانة . ثم يتبعها صلة الرحم ولها عنده أعلى مقام . فبها قيام الأسرة – وهى نواة المجتمع الإسلامى – بتنظيمها القانونى الذى لا ضريب له فى أمم غير أمة الإسلام .

يقول : « خمسة لا يعطوا شيئًا من الزكاة . الأب والأم والولد والزوجة والمملوك . لأنهم عياله ولازمون له » فالإنفاق على هؤلاء فرض . والصدقات مع وجوبها وتعميمها والحث عليها ، لا تستحق للناس إلّا أن يكتفى ذوو الأرحام . يقول الإمام : « لا صدقة وذو رحم محتاج » .

ولو ظن واصل الرحم أنه يضع المعروف فى غير موضعه – وللمعروف دائمًا موضع – فالإمام يقول له : « لا تقطع رحمك وإن قطعك » .

وقع كلام بينه وبين عبد الله بن الحسن «.وربما كان ذلك من جراء يوم

الأبواء ، وسلف القول فيه » وكان عبد الله أعلى أهل البيت سنًّا ، فأغلظ عبد الله القول . فلم يرد الصادق . ثم افترقا ثم تلاقيا على باب المسجد . فابتدره الصادق يقول : « كيف أمسيت ياأبا محمد » ؟ « فهو أبو محمد المهدي – النفس الزكية – وإبراهيم والباقين ، من بنى عبد الله بن الحسن » . وقال عبد الله كالمغضب : بخير .

قال الصادق : ياأبا محمد . أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب ؟ ثم تلا قوله تعالى : (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) فقال عبد الله : فلا ترانى بعدها قاطعًا رحمًا .

يقول الصادق إن رجلاً أتى النبى فقال : يارسول الله إنى لى أهلا قد كنت أصلهم وهم يؤذوننى وقد أردت رفضهم . فقال له رسول الله : « إن الله يرفضكم جميعًا » قال الرجل : كيف أصنع ؟ قال : « تعطى من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك . فإذا فعلت ذلك كان الله عز وجل لك عليهم ظهيرا » .

وكان الإمام يصلى عن ولده فى كل ليلة ركعتين وعن والده فى كل يوم ركعتين ..

يقول فى صدد الصلاة عن الميت إنه ليكون فى ضيق فيوسع عليه ذلك الضيق ، ثم يؤتى فيقال له خفف الله عنك ذلك الضيق لصلاة فلان أخيك عنك .

* * *

وربما أجمل منهاج الصادق فى القول والعمل للناس عامة ، كلمات له يتناقلها الناس فى كل مكان : « خير من الصدق قائله وخير من الخير فاعله » .

فهنا فضائل كثيرة مجتمعة . هى الخير . وصنعه . وإمكان الاقتداء بصانعه . وإعلان لرأى الإمام بأن الإيمان عقيدة وعمل . وأن العمل الصالح يحول الفكر المجرد ، إلى فعل نافع أو أمر واقع . والعمل هو الوسيلة المنجحة إذا جرى

مجرى الأصول . والصادق يروى عن علىّ : « سمعت رسول الله يقول : عليكم بسنّتى : فعمل قليل فى سنّة خير من كثير فى بدعة » .

والإمام يرى أن « رأس الحزم التواضع » وأن التواضع هو « الرضى بأن تجلس من المجلس بدون شرفك وأن تسلم على من لقيت . وأن تترك المراء وإن كنت محقا » . ويقول : « من أكرمك فأكرمه ومن لم يكرمك فأكرم نفسك عنه » .

ويضيف إلى ذلك : « إنك لن تمنع الناس من عرضك إلاّ بما تنشره عليهم من فضلك » . وهذا الفضل بعض المعروف . أما عن تمام المعروف فيقول : « المعروف لا يتم إلاّ بثلاثة : تعجيله ، وتصغيره ، وستره » .

يقول : « العافية نعمة يعجز عنها الشكر » بل يقول : « المعروف زكاة النعم » .

والله تعالى يقول : (وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها) . فما أكثر ما يستحق الناس من المعروف عند المسلم الصادق .

والسخاء سموّ ، ولو من الجاهل . يقول الإمام : « جاهل سخىّ أفضل من ناسك بخيل » .

فلتتصور مجتمعًا يسود فيه السخاء . ويعمّ العطاء ، ويتواتر المعروف ، ليتعاون الناس فى دنياهم . وتستوثق القربى فيهم ، فتزداد لحمة الأسرة وثاقة ، ثم تلتزم الجماعة والأفراد بالمكارم العشرة التى نصّ عليها الإمام ! إنه المجتمع الإسلامى !

لنقرأ وصية الإمام لعبد الله بن جندب ، لنلمس مواقع الجمال والكمال فى هذا المجتمع :

« لا تكن بطرًا فى الغنى ولا جزعًا فى الفقر ، ولا تكن فظًّا غليظًا يكره الناس قربك . ولا تكن واهنًا يجفوك من عرفك . ولا تشار من فوقك . ولا تسخر ممن دونك ولا تنازع الأمر أهله . يابن جندب : لا تتصدقن على

أعين الناس يزكوك . فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك . ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك . فإن الذى تتصدق له سرًّا يجزيك علانية . فقد علم ما تريد » .

الأخوّة

كان طبيعيًّا أن تمتد هذه المبادئ السياسية والاجتماعية ، الموجهة للأفراد ، إلى بيئتهم . وأن يكون المقام العظيم للأصحاب والصحبة ، وهى القرابة التى يختارها المرء لنفسه ولا تفرض عليه من أسلافه . والصحبة أداة منجحة للتكافل والتكامل . وبها تجتمع « الخلية الأولى » للجماعة الهادفة .

ولعلّ فى اهتمام الإمام بالصحبة والأخوة دليلا على اتجاهه نحو إيجاد مجتمع أو جماعات تتآخى فى التشيّع . وبمثل هذه الجماعات قامت الدولة الشيعية على نظم مشهورة فى الدعوة لها ، خافية أو معلنة ، وبخاصة نظم الدعوة الإسماعيلية .

وكما حفلت مجالس الإمام ومقولاته بوصف « الجعفرى » وبعبارة « شيعتنا » . حفلت بتوكيد أسباب التعاون بين الإخوان .

هو أولاً يجعل المودّة بينهم من الدين فيقول : « من حب الرجل دينه حبّه إخوانه » ثم ينتقل من الوضع الدينى إلى الاجتماعي فيقول : « وطِّن نفسك على حسن الصحبة لمن صحبت . وحسِّن خلقك وكفّ لسانك واكظم غيظك . أما يستحى الرجل منكم أن يعرف جاره حقّه ولا يعرف حق جاره . ليس منّا من لم يحسن مجاورة جاره » .

وقديمًا قيل لأبى الأسود الدؤلى تلميذ « علىّ » : « بعت دارك » ؟ قال : « بعت جارى » وقيل : الرفيق قبل الطريق » .

والإمام الصادق يقول : « أيسر حق من حقوق الإخوان أن تحبّ لأخيك ما تحب لنفسك وأن تكره لأخيك ما تكره لنفسك وأن تتجنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره وتعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك . وأن تكون

عينه ودليله ومرآته . ولا تشبع ويجوع . ولا تروى ويظمأ . ولا تلبس ويعرى . وأن تبرّ قسمه . وتجيب دعوته . وتعود مريضه وتشهد جنازته . فإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسألكها » .

فكلّ وجه من الوجوه المشار إليها أداة تراحم . تمكن للأخوة الإسلامية . وكلّ تفريط ، مهما قلّ أمره ، أو ضاق زمنه ، تنقص من الأخوة الإسلامية . فإذا أطال المسلم قطيعة أخيه . فهى إحدى الكبر . فالمجتمع المتقاطع ، هو كالمجتمع بين أعداء .... أو كالجزر المتنازحة فى اليم ، حدود كل منها مصالحها .

يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « هجرة الرجل أخاه سنة كسفك دمه » .

وما أدق نصح الإمام فى معاشرة الناس « لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق . المؤمن يدارى ولا يمارى . مجاملة الناس ثلث العقل » .

وهو ينهى عن الظنة . فالظنين متهم يقول : « ضع أمر أخيك على أحسنه . ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها فى الخير محملا » .

أما من فرط حيث تجب اليقظة فلا يلومنّ إلّا نفسه – يقول الإمام : « من كتم سرّه كانت الخيرة بيده » ويقول : « لا تثقنّ بأخيك كل الثقة فإن سرعة الاسترسال لاتقال » ويقول : « صدرك أوسع لسرّك » و « سرك من دمك فلا تجره فى غير أوداجك » .

ويقول : « من خان لك خانك . ومن ظلم لك سيظلمك . ومن نمّ إليك سينمّ عليك » .

ولما سئل عن الرجل العدل قال : « من غضّ طرفه عن المحارم ولسانه عن المآثم وكفّه عن المظالم » .

والإخوان – عند الإمام – هم المواسون ، فهم بين ثلاثة « مواسٍ بنفسه وآخر مواس بماله وهما الصادقان فى الإخاء ، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة فلا تعده من أهل الثقة » .

* * *

والإمام يأمر بالرفق بالناس . فينبّه الذين يتطاولون ليتطامنوا . فيقول : « من الجور قول الراكب للراجل : « الطريق » » فهو الراكب ، وبيده الزمام ، والطريق للناس كافة ، وكفى الراجلين أنهم يمشون وكفاه أنه فوق ظهر .

يقول الإمام : « لا تسمِّ الرجل صديقًا ، سمِّه معرفة ، حتى تختبره بثلاثة : تغضبه فتنظر غضبه أيخرجه عن الحق إلى الباطل . وعند الدينار والدرهم . وحتى تسافر معه » .

ويقول : « ثلاثة لا تعرف إلاّ فى مواطن : لا يعرف الحليم إلاّ عند الغضب ، ولا الشجاع إلاّ عند الحرب . ولا الأخ إلاّ عند الحاجة » ومن التبذل تنقص الكرامة . يقول : « لا تمار فيذهب بهاؤك . ولا تمزح فيجترأ عليك . ولا جهل أضرّ من العجب » .

والغضب عند الإمام « مفتاح كل شرّ ، بما فيه من ذبذبة للذات وزعزعة للتوازن ، فعنده أن « من ظهر غضبه ظهر كيده » ، بل إن « من لم يملك غضبه لم يملك عقله » فى حين أن « المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل » .

ويهتف الإمام بالشيعة : « ياشيعة محمد . ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب ، ويحسن صحبة من صاحبه ، ومرافقة من رافقه ، ومخالفة من خالفه » .

وأىّ أدب للنفس والعقل كمثل ذلك الذى يعبر عنه الإمام بإحسان المخالفة ؟ وماهو إلاّ الحلم والأناة ، قرّظهما رسول الله للمنذر إذ أتاه ، فى وفد عبد القيس ، فقال له : « فيك خلّتان يحبهما الله عزّ وجل : الحلم والأناة » .

وفى عبارات تأخذ شكل ثلاثيات ، قليلة العدد جليلة الفحوى ، يجمع الإمام آلاف الرذائل المدمرة فى ستة أصحاب خرق . هم كالجيوب المخرورقة للمجتمع لا تبقى ولا تذر : وهم المرائى والكسلان والمسرف والمنافق والحاسد والظالم ، تشتعل بنقائصهم نيران الرذالات جمعاء ، وإذ يتكاثرون فى كل مكان ، بالعدوى

والتناتج ، ويستهين الناس بخطرهم على أنفس الأفراد ومقوّمات الجماعة وقوّة الدولة . مع أن أخطارهم السلبية تتوازن فى ضررها مع أعظم الإيجابيات فتفقد الأمم تماسكها .

وجمعها فى صعيد واحد ، وإجمالها فى كلمات ، آية على نفاذ البصيرة وإحسان البيان : يقول الإمام :

للمرائى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده . وينشط إذا كان الناس عنده . ويحب أن يُحمد بما لم يفعل .

وللكسلان ثلاث علامات . يتوانى حتى يفرط .. ويفرط حتى يضيع . ويضيع حتى يأثم .

وللمسرف ثلاث علامات . يشترى ما ليس له . ويأكل ما ليس له . ويلبس ما ليس له .

وللمنافق ثلاث علامات . إذا حدث كذب . وإذا وعد أخلف . وإذا اؤتمن خان .

وللحاسد ثلاث علامات . يغتاب إذا غاب . ويتملق إذا شهد . ويشمت بالمصيبة .

وللظالم ثلاث علامات . يعصى من فوقه . ويعتدى على من دونه . ويظاهر الظالمين .

ولكل واحدة من هذه العلامات شعب يبلغ العلم بها أكثر من ألف باب .

المرأة

فى فقه الإمام عناية بالغة بالنساء فى الزواج والطلاق والميراث .. وهى دعائم الأسرة وقوائم المجتمع . وقد عرضنا لبعضه ، قبل . لكن اهتمامه الاجتماعى بالأسرة أو بالمرأة لا يقف عند الحكم الفقهى وإنما يتعدّاه إلى الترغيب والتهذيب بالنصح الدءوب . فمرآة المجتمع العظيم الأسرة السعيدة ، وزينتها

وحليتها المرأة الصالحة . وهى نصف الناس ، وأم الجميع .

يقول الإمام : « اتقوا الله فى الضعيفين : اليتيم والنساء » .

ويقول : « البنات حسنات والبنون نعم . الحسنات يثاب عليها . والنعم مسئول عنها » .

وإذا كان البنات حسنات يلقى بهن المرء بارئه ، فيزدنه درجات ، فالإمام يجعل للأمهات درجة فى طاعة أوامرهن ، فيأمر بالمبادرة بطاعة الأم ، إذا دعا الأبوان .

ويلقى على الأم فى دارها واجب استثمار الزمن فى خدمة الأسرة والأمة . ويفرض على المجتمع واجب إحصان أفراده بالتيسير فى المهور . وعلى المرأة واجب التعاون فى إنجاح الزوجية بالوفاء بحق الزوج . ويجمع بين حسن التبعل وبين حسن الجوار . فيقول : « الشؤم فى المرأة كثرة صداقها وعقوق زوجها – وفى الدار ضيق ساحتها وشر جيرانها » .

يقول عليه الصلاة والسلام : « علموا أبناءكم السباحة والرماية ونعم لهو المرأة فى بيتها المغزل » فهن مطالبات ألا يفتحن الأبواب للشيطان بالفراغ . مطالبات بأن يعملن ما يجمل بهن . والمرأة التى تمسك المغزل بيد ، وتهز مهد الطفل بيد ، تضم بين ذراعيها أسرة سعيدة . ولقد كان النساء آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم .

يقول الإمام : « صلاح حال التعايش على مكيال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل » .

وهذه الأثلاث تتردد فى مضامين ثلاثيات شتى ، تجتمع وتفترق ، لكنها كلها أركان لسعادة المجتمع الكبير الذى هو الأمة ، والصغير الذى هو الأسرة . وقد سلف علينا فى ثلاثية سابقة كيف قرن نكد الزوجية ، بالنكد فى الجيرة والسلطان الجائر . وهنا يستلفت الأنظار إلى ما يجب من إحسان العشرة ، بالسلوك الرفيع والإنفاق اللازم . واحترام الذات حيث يقول : « إن المرء يحتاج فى منزله وعياله إلى ثلاث خلال يتكلفها ، وإن لم يكن فى طبعه ذلك : معاشرة جميلة . وسعة بتقدير ، وغيرة بتحصن » .

ثم يقول ليبين أثر المرأة فى سلام الأسرة : « ثلاث من ابتلى بهن كان طائح العقل : نعمة مولية ، وزوجة فاسدة ، وفجيعة نجيب » فهو يضع فسادها فى منزلة بين المنزلتين . النعمة الضائعة ، والفجيعة الحالة . فى حين يقدمها عند صلاح حالها على فلذة الكبد والصديق الصافى إذ يقول : « الأنس فى ثلاثة : الزوجة الموافقة والولد البار والصديق الصافى » .

والرجل رأس الأسرة ، لا يلقى مقاده أو مقادها إلى الزوجة . وإلاّ غرقت السفينة . يقول الإمام : « ثلاثة من استعملها فسد دينه ودنياه . من ساء ظنه ، وأمكن من سمعه ، وأعطى قياده حليلته » .

وفى هذه الثلاثية تجتمع سلبيات خلقية ثلاثة فى دنيا الرجل . فتحلّ الأشباح محل الأشياء ، والأصداء محل الأصوات ، والنساء محل الرجال . وليس هذا عالم المسلمين .

وفى ثلاثية أخرى نرى تصنيفًا من نوع خاص « النساء ثلاثة : واحدة لك وواحدة عليك ولك . وواحدة عليك . أما التى لك فهى العذراء . والتى لك وعليك فهى الثيب . أما التى عليك فهى المتبع التى لها ولد من غيرك » وإنما ينبّه الإمام الرجال ليزداد برّهم بمن يمكن أن تكون لهم أو عليهم ، كى يتكلفوا لها خصالاً نصّ عليها : معاشرة جميلة وسعة بتقدير وغيرة بتحصن .

العلم

أينما ذهبت فى سيرة الإمام فثمّ وجه العلم ، والتعويل على العلماء ، والتمسك بالخلق العلمى وأساليبه :

يقول لعنوان البصرى : « اسأل العلماء ما جهلت وإياك أن تسألهم تعنتًا وتجربة . وإياك أن تعمل برأيك شيئًا . وخذ بالاحتياط فى جميع ما تجد إليه سبيلاً . واهرب من الدنيا هربك من الأسد .. » .

ويقول لحمران بن أعين : « العمل الدائم القليل ، على اليقين ، أفضل عند الله من العمل الكثير ، على غير يقين » .

وهذان القولان لعنوان وحمران نصيحتان نابعتان من منهج الإمام فى الفقه وأصوله . فهو يلتزم الأشياء الثابتة والنصوص الواضحة ، لأنها نقطة الارتكاز . وينصح بعدم المجازفة فى طريق غير مؤكدة ، يقول : « العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيده سرعة السير إلّا بعدًا » .

ومن المنهج حسن التلقى وحسن الأداء فهو لا يحب المحال والعنت كما قال لعنوان : « الجهل نقص فى الدين والخلق ومعاملة الناس » ، أو كما قال : « الجهل فى ثلاث : الكيد ، وشدّة المراء ، والجهل بالله » .

ويقول : « ثلاث يستدلّ بهن على إصابة الرأى : حسن اللقاء ، وحسن الاستماع ، وحسن الجواب » – أما البلاغة فهى « ليست بحدّة اللسان ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة » .

وقديمًا قيل : البلاغة الإيجاز . وقيل : من البلاغة حسن الاستماع .

والصادق ينبّه العلماء والأدباء وكل صاحب موهبة ، على أن « من أدب الأديب دفن أدبه » .

إنما الطريق القاصدة طريق التقوى والاجتهاد والتأمل . يقول : « كثرة النظر فى العلم تفتح العقل وكثرة النظر بالحكمة تلقح العقل » و « من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع ، والمعارضة قبل أن يفهم ، والحكم بما لا يعلم » و « الرجال ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر . العاقل إن كلم أجاب . وإن نطق أصاب ، إن سمع وعى . والأحمق إن تكلم عجل . وإن حدث ذهل ، وإن حمل على القبيح فعل . والفاجر إن ائتمنته خانك وإن حدثته شانك » .

ومن إجلاله وظيفة المعلم يقول : « أربعة ينبغى لكل شريف ألّا يأنف منها . أوّلها خدمته لمن تعلم منه ...... » .

و « العلم جنة .. والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس . والله ولىّ من عرفه . العاقل غفور والجاهل ختور ... ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم . ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه » . و « أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقًا » .

و « الخشية طريق العلم . والعلم شعاع المعرفة وقلب الإيمان . ومن حرم الخشية لا يكون عالما » .

الدعاء

منهج أهل البيت فى إصلاح الدنيا هو المعرفة . وأوّلها معرفة الخالق جلّ شأنه بالعقل ، وتثبيت الفهم بالخشوع والتقوى . فليس فى غيرهما قناعة أو جدوى . يقول عليه الصلاة والسلام وعلى آله : « أعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع » . وفى ذات يوم ذهب قوم يقولون للإمام الصادق : ندعو . فلا يستجاب لنا ! فأجاب : « لأنكم تدعون من لا تعرفونه » فمعرفة الله مطهرة للحياة . وصلة وثقى بين الرجاء والرضى وبين الدعاء والاستجابة .

والدعاء تزكية للنفس وسبيل لها إلى خالقها – بإخلاص تام – فهو ترياق من نفس الإنسان ومعراج إلى رضا السماء بالالتجاء الكامل إلى الله ، والانفصال فى وقت الدعاء وحواليه عن الرذيلة . فإذا تعدّدت أوقاته ، تكرر الانفصال مما يشين . وازداد العبد قربًا ، وأوقات قرب ، من خالقه سبحانه . بالتكرار ، وإخلاص النيّة – ومن أجل ذلك يبرز الدعاء فى مناهج الشيعة . ومؤلفاتهم كالصحيفة السجادية – نسبة إلى زين العابدين وفيها عشرات الأدعية .

والبعض يسميها مزامير أهل البيت – ومصباح التهجد ومختصر المصباح وهما من مؤلفات الطوسى .

ومن ضروب التربية العصرية الإيحاء إلى الذات .. وفى الدعاء إيحاء ورجاء ، وتوجه إلى الله ، وسعى لمرضاته .

وللأئمة دعوات مأثورة ، تحويها صحف مشهورة ، ولها مناسبات معلومة ، وأوقات تمارس فيها . فى الأصباح والأمسية والأيام والليالى والشهور . كأدعية ليلة الجمعة ، أو رجب أو شعبان أو رمضان . وللصادق أدعية تتردد فى كتب

الصوفية . فيها الإيحاء العميق بالفضائل إلى نفس من يدعو . فى موقف يعلم أن الله حاضره . وأنه المرجو سبحانه . فهو أداة إصلاح نفسانى مقطوع النظير ، فوق أنه نداء ، يتعالى نحو السماء ، فى التماس المغفرة .

يقول « الشعبى » شيخ المحدثين من أهل السنّة : « عجبت ممن يقنط ومعه الممحاة » . قيل وما الممحاة ؟ « قال : الاستغفار » .

ولقد كان الصادق يدعو الله فى كل أوقاته . ومنها لقاءاته مع أبى جعفر حيث كان يدعو الله قبل أن يدخل عليه . فيثبت الله جنانه . ويحيل بطش الجبابرة إلى ما يشبه طنين الذباب . ومن المأثور عنه قوله : « إن الدعاء يردّ القضاء . وإن المؤمن ليذنب فيذهب بذنبه الرزق » .

الفصل الثالث

المنهج الاقتصادى

**« ليس خيركم من ترك آخرته
لدنياه ولا دنياه لآخرته . خيركم من
أخذ من هذه لهذه » .**

« حديث شريف »

ليس المنهج السياسى أو الاجتماعى – ومنها الاقتصادى – إلّا متابعة للمنهج العلمى من الواقعية وإعمال العقل والعمل للتقدم ، وفق حاجات الزمن واختلاف الأقاليم ،على أساس المساواة بين الناس وعمارة الدنيا بالعدل وإحسان القيام على مرافقها .

والمنهجان – سواء العلمى أو السياسى الاجتماعى – ينبعان من القرآن وتطبيقات السنّة . وهما وجهان لعملة واحدة هى القيم الإسلامية . فكل ما أبعد من هذه القيم لا يكون إسلاميًّا وإن انتظم مسلمين . فالمسلمون لا يصلحون إلّا أن يلتزموا قيم دينهم . وقد أصّلها الإمام على ، وتابعه فيها الأئمة من بنيه .

ومن القيم الاجتماعية السليمة تنشأ القيم الاقتصادية المنجحة ، ولذلك تتجلى الوحدة الموضوعية بين الدين والسياسة والاقتصاد ، والوحدة الفنية بين علمى المالية والاقتصاد وبينها وبين فنّ الإدارة ، فى عهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب للأشتر النخعى .

وسنرى بعض المقولات فيه تكاد تكتب فى النصف الثانى من القرن العشرين للميلاد بأيدى المصلحين الاقتصاديين العالميين . فهى عصرية أبدًا لأنها إسلامية خالصة .

يقول : « وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم . ولا صلاح لمن سواهم إلّا بهم ، لأن الناس عيال على الخراج وأهله .. وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى جباية الخراج . لأن ذلك لا يدرك إلّا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد . ولم يستقم أمره إلّا قليلًا .. ولا يثقلنّ عليك شىء خففت به المؤنة عليهم فإنهم ذخر يعود عليك فى عمارة بلدك وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك[1] باستفاضة العدل فيهم .. فربما يحدث من الأمور ما إذا عوّل فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم » .

أما عن « نشاط الأفراد » فى التجارة والصناعة والزراعة والخدمات ، والبيع والشراء ، وعن حرية الاتجار والانتقال والعمل كأداة للإنتاج ، ففيها التعبير العلمى الرفيع عن التاجر والعامل ، إذ يسمّيهما « المضطرب بماله » و« المترفق ببدنه » . وفيها التأييد والتيسير والإشراف والمتابعة من السلطة والتعاون بين الراعى والرعية حيث يقول :

« ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيرًا ، المقيم منهم ، والمضطرب بماله ، والمترفق ببدنه . فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلّابها من المباعد والمطارح .. فإنهم سلم لا تخاف بائقته . وتفقد أمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك . واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقًا فاحشًا .. وشحًّا قبيحًا واحتكارًا للمنافع . فامنع من الاحتكار .. » .

أما الطبقة الأخرى . وهى التى تمثل اليد السفلى ، لعجزها ، ولأنها تأخذ من اليد العليا لاقتدارها . فأوامره فى صددها قاطعة . يقول :

« ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى . فإن فى هذه الطبقة قانعًا ومعترًّا .. واجعل لهم قسمًا من بيت مالك .. » .

ولقد سلف القول عن المنهج السياسى لدى أمير المؤمنين . وهو المساواة

---

(١) فرحك .

التامة بين المسلمين فى العطاء وحقوق بيت المال وترك الأرضين فى أيدى أصحابها بعد الفتح ، وغير ذلك مما يكشف لنا منهاجه الاقتصادى بتمامه . وفيما أوضحناه إشارة إلى ما لم نعرض له بتوضيح .

والنظريات تكشفها كليات . والكليات والجزئيات والتطبيقات ينتظمها جميعًا أصل ثابت من قول الرسول : « ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه . ولكن خيركم من أخذ من هذه لهذه » .

العمل

العمل عند الشيعة قوّة الإنتاج الكبرى . ومن أجل ذلك كان العمل للمعاش فرضًا على المؤمن ليحيا فى هذه الدنيا ، ولا يجوع فيها ولا يعرى ، أو تجرفه القوى ، أو يحرفه الفراغ واللهو . أو تفسده طراوة الدعة – وأوّل ما ينبغى له البدء بتقوية النفس ، وتبرئتها من الشحّ والطمع ، وحثّها على طلب الحلال . يقول الإمام : « مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب العطشان منه ازداد عطشًا « و » أربعة تذهب ضياعًا . الأكل بعد الشبع والسراج فى القمر ، والزرع فى السبخة ، والصنيعة عند غير أهلها » – أما المؤمن فهو « من طاب مكسبه وحسنت خليقته ووضحت سريرته وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من كلامه وكفى الناس شرّه وأنصف الناس من نفسه ، وهو حسن المعونة خفيف المئونة جيد التدبير لمعاشه ولا يلسع من جحر مرتين » .

ثم يضع الإمام الضوابط للسعى فى الحياة وتحصيل المعايش فيقول : « ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع . ودون طلب الحريص الراضى بدنياه ، المطمئن إليها . أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف . وترفّع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف . وتكسب ما لابدّ منه للمؤمنين » .

وهو إذ يوصى بالإجمال فى الطلب ، ينادى بالحكمة فى الإنفاق ، فيقول :

« إن السرف يورث الفقر وإن القصد يورث الغنى » .

وتدبير المعاش أساسى ليجتمع للمرء مال يكفى نفسه ، ويفضل منه على غيره ، ويؤدى به واجبه فى الدين والدنيا . ومن أجل ذلك كان الصادق يعمل بيده ، ويتجر ، وينفق أمواله على الناس ، وهو الإمام القدوة ، ليوجّه أنظار شيعته للعمل فى الحياة الدنيا ، كى يقدروا على أعباء الحياة وأداء الزكاة وصلة الرحم والإنفاق فى المحتاجين . ولا يمكن المرء من كل ذلك إلاّ رزق يحصله من دأبه . يقول الإمام : « من لم يكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلاً . من لم يكن له عقل يزينه أو جدة تعينه أو عشيرة تقصده » .

والصحابة العظماء كانوا يعملون ليعيشوا . وما أكثر ما عمل « علىّ » ليعيش – وهو تراث أهل البيت الذين لا يضيعون الزمان سدى . يقول الإمام : « الأيام ثلاثة : يوم مضى لا يدرك . ويوم الناس فيه ينبغى أن يغتنموه . وغد فى أيديهم أمله » وما الاغتنام إلاّ بالعمل الصالح للنفس وللناس . أما من قعد يلتمس عطاء الآخرين فيده هى السفلى . ومثله مثل القاعد عن العبادة . أو كالذى ينتظر الذهب والفضة تساقطان من السماء .

يقول عن القاعدين : « الداعى بلا عمل كالرامى بلا وتر » .

والشيعة فى كل مجتمعاتهم يدأبون كدأب آبائهم أو أشدّ . ويتقلبون فى البلاد بتجاراتهم ، كهيئة ما كانوا يتقلبون فى الأيام الأولى . مع إلزام صاحب المال المسئولية عن طريقة كسبه وأبواب إنفاقه .. يقول يحيى بن معاذ : « مصيبتان لم يسمع بمثلهما فى الأوّلين والآخرين للعبد فى ماله عند موته : يؤخذ منه كله . ويسأل عنه كله » .

وهم إلى جوار إيجابهم العمل يوجبون الاستقلال فيه . وعدالة توزيع الرزق منه . فلا يجوزون الشركة المطلقة بين اثنين فى كل نشاطهما ... وشرط الشركة وجود رأس المال . وهم يسمون الشركة بدونه « شركة أبدان » ولا يصححونها ؛ لأن كل إنسان مستقل بجهده . ومنافع جهده له – فإذا أخذ من الآخر أخذ مالا يستحق – وفى هذا حض على الاستقلال الشخصى ،

والسعى الخاص ، حتى لا يكون أحد كلًّا على غيره . وكمثلهم الشافعى لايجوز هذه الشركة فلكلٍّ ما سعى .

وهم أعداء للتواكل – جاء أمير المؤمنين عليًّا العلاء الحارثى فقال : يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخى عاصمًا . لبس العباءة وتخلص من الدنيا . قال : علىَّ به . فلما جاء قال : « يا عدوَّ نفسه . لقد استهام بك الخبيث . « الشيطان » أما رحمت أهلك وولدك . أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها : أنت أهون على الله من ذلك « قال : يا أمير المؤمنين هذا أنت فى خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك ! قال : « ويحك إنى لست كأنت . إن الله قد فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس » .

ولكم كان رقيقًا صاحب هذا الملبس الخشن إذا عامل الضعفاء .. ولو كانوا غير ناس ، أو كانوا من الأعداء: كان يوصى من فى يده إبل الصدقة ألّا يحول بين ناقة وفصيلها ، وأن لا يبالغ فى حلبها خشية أن يضرّ ذلك بوليدها . وأن لا يركب ناقة ويدع غيرها . بل يسوى فى الركوب بينها وبين صاحباتها .

ولما حال بينه وبين الماء جند معاوية حاربهم عليه فأجلاهم عنه . ثم سقاهم منه ! ليسوّيهم فى الماء بجنده !

المضطرب بماله والمترفق بيده . أو : التجارة والصناعة

إذا كانت الحضارة الغربية لم تفطن إلى أن العمل أداة الإنتاج الأولى إلّا فى العصور الأخيرة فلقد طالما أعلنت ذلك السماء . والعمل التجارى أو اليدوى ميراث الأنبياء . ومن عمل الصحابة تعلّم الناس جلال قدر المضطرب بماله أو المترفق بيده ، أو ببدنه ، كما يعبر أمير المؤمنين .

والصادق يمسك المسحاة ويعمل فى بستان له ، وحبّات العرق تنساب كالبلور المذاب ، على الجبين المزهر ! فيهيب به تابع له : جعلت فداك . أعطنى المسحاة أكفك . فيجيبه : « إنى أحب أن يتأذى الرجل بحرّ الشمس فى طلب المعيشة » ، وكان عندئذ يلبس قميصًا ويفتح الماء بالمسحاة ويقول : « إنى

لأعمل فى بعض ضياعى ولى ما يكفينى ليعلم الله عزّ وجل أنى أطلب الرزق الحلال » .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يتناوب ركوب راحلته ويقول لزميليه فى السفر « على وأبى لبابة » حينما أرادا أن يستمر راكبًا فى نوبتهما : « ما أنتما بأقوى على المشى منى . وما أنا بأغنى عن الأجر منكما » وكان ينزل عن بغلته ليركب من يأخذ بزمامها معه . ويقول لمن يريد حمل شىء بدلاً منه : « صاحب الشىء أوْلى بحمله » .

أما أمير المؤمنين علىّ فيحمل لأهله التمر والبلح فى ثوبه ويقول :

لا ينقص الكامل من كماله ما جرّ من نفع إلى عياله

ويروى « علىّ » أن الزهراء أبرت الرحى حتى أثرت الرحى بيدها . وقمت البيت حتى اغبرت ثيابها . وأوقدت القدر حتى اسودت ثيابها وأصابها من ذلك ضرّ. ويقول عطاء :

إن كانت فاطمة لتعجن حتى أن قصتها لتصيب الجفنة .

وأىّ عظمة فى الدنيا كعظمة اليد العليا ، وهى تعمل لبناية الدنيا فتعطى .

لقد قبل رسول الله اليد التى تحمل المسحاة يوم أقبل من تبوك ، فلقيه سعد الأنصارى فنظر إلى يد سعد وقال : « ما هذا الذى أكتب يديك » ؟ فقال : يا رسول الله أضرب بالمر والمسحاة فأنفقه على عيالى . فقبل رسول الله يده وقال : « هذه يد لا تمسها النار » .

ولما أعطى الرسول اليد العاملة أمانًا من النار ، جعل العمل عبادة . وإن ورد النص على العمل البدنى . فما هى إلاّ إشارة لكل عمل . وهو عليه الصلاة والسلام القائل:«لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى الجبل فيجىء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ، ويستغنى ، خير له من أن يسأل الناس . أعطوه أو منعوه » .

وهو عليه الصلاة والسلام – وعلى آله – ينبه على قيمة الوقت والالتزام بالواجب ، والبدء بالعمل النافع فيقول : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم

فسيلة فليغرسها . وإن استطاع ألّا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها » .

وأى جلال كجلال رسول الله وهو يعمل بيده . من أجل تحرير شيخ من أشياخ الشيعة العظماء ، ليحفظ الشيعة لأنفسهم وللدنيا معهم ، ذلك الدرس العظيم : أن العمل والحرية صنوان وأن كلا منهما وسيلة للآخر .

أرسل النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب إلى خليسة مولاة سلمان الفارسى ، وكانت قد اشترته بثلاثمائة درهم من أعراب حملوه إلى يثرب . ومكث معها ستة عشر شهرًا حتى قدم النبى يثرب . فسميت المدينة . فأتاه سلمان فأرسل النبى عليًّا إلى خليسة ، بعد أن أسلمت ، لتعتق سلمان . قالت : قل للنبى : إن شئت أعتقته ، وإن شئت أعتقته ، وإن شئت فهو لك . قال ﷺ : « أعتقيه أنت » فأعتقته . فغرس لها رسول الله ثلاثمائة فسيلة .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « سلمان منا أهل البيت »[1]

* * *

(١) اضافه النبى إلى أهل البيت فصلا من النبى فى تنازع المهاجرين والأنصار عليه إذ كان كل من الفريقين يريده واحدًا منهم .

وكان سلمان فى انتسابه لأهل البيت حيث أراد صاحبه ﷺ فهو صاحب الرأى بحفر الخندق فى يوم غزوه الخندق « الأحزاب » وعلىّ هو الذى قتل عمرو بن عبدود فارس العرب يوم ذاك – فلأهل البيت فى هذه المعركة القدح المعلى .

وكان حكيما . إذا خلا به رسول الله لم يبغ أحدًا غيره . عينه عمر أميرًا على المدائن عاصمة فارس فكان يوزع عطاءه على الناس « خمسة آلاف درهم » ويعمل الخوص بيده ويبيعه بثلاثة دراهم ينفق واحدًا ويتصدق بواحد ويشترى خوصًا جديدًا بواحد . وذات يوم دخلوا عليه دار الإمارة فوجدوه يعجن بيده قال : بعثنا الخادم فى عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين .

رآه رجل قادمًا من الشام فحسبه من ضخامة جسمه حمّالاً . فأعطاه حملًا وقال : اتبعنى . فحمله وتبعه . ورآه الناس فتسارعوا يحملون حمل الأمير قال : لا .. فرجاه الرجل ، إذ أدرك مقامه ، فأبى وقال : لا حتى أبلغ منزلك . وثمة وضع الحمل فى مكانه وقال : « إنى احتسبت بما صنعت خصالاً ثلاثة : إنى نفيت عنى الكبر . وأعنت رجلًا من المسلمين على حاجته . وإن لم تسخرنى سخرت من هو أضعف منى فوقيته بنفسى » .

فهو يحمل الحمل عن رجل ضعيف . ولا يخزى صاحب الحمل بتعريف نفسه . وينفى عنها الكبر وهو أمير فارس ! لكنه يحفظ وصية صاحبه ﷺ فيقول : « أوصانى خليلى ألّا يكون متاعى من الدنيا إلّا كزاد الركب » .

وحسبه قول أمير المؤمنين علىّ عنه : « من لكم بمثل لقمان الحكيم » .

ومع أن الإمام الصادق يرى إنفاق المال فى البرّ تجارة مربحة فيقول : « إنى لأملق أحيانًا فأتاجر مع الله بالصدقة فيربحنى وأتسع » أى أنه يوجب الإنفاق ، فى حالى اليسر والإملاق ، ويرى علاجًا للفقر أن يتعامل مع الله بعطائه للفقراء ، فهو فى الوقت ذاته يشجّع الناس عل العمل .

فالمجتمع الشيعى مجتمع العاملين لا يتسع للمتسولين والإمام الصادق – من جراء ذلك – يؤثر عطاء الذين لا يسألون الناس على الذين يسألون .

ولو قام أهل الإسلام بواجب الإنفاق لما افتقر مسلم واحد . فالعمل بكل أموال الأمة يجعل الحبّة الواحدة مائة حبة ذلك تقدير العزيز الحكيم فى تشريعه . والصدقة تربى أو على الأقل لا تنقص . يقول عليه الصلاة والسلام : « ما نقصت صدقة من مال » بل يقول : « إنما ترزقون بضعفائكم » .

والعمل فى الصناعة والتجارة مدرسة الدنيا . ووسيلة لعمارتها بالكسب الحلال . وأداء حق المال . وهو محل إكبار المسلمين أجمعين . يتراءى فى كثير من أسماء جلة الفقهاء[1] .

والصادق هو القائل : « الشاخص فى طلب الحلال كالمجاهد فى سبيل الله » والقائل : « إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول : أله حرفة ؟ فإن قالوا « لا » سقط من عينى » .

ويقول الإمام الباقر : « الصدقة لا تحلّ لمحترف ولا لذى مرة سوى » . فالمحترف غنى بحرفته . وذو القوّة غنىّ باقتداره على العمل .

---

(١) أطلقت الأوصاف من كثير من الحرف على عظماء الفقهاء الذين يحترفونها « الخصاف – القدورى – الكرابيسى – القفال – الصابونى – الحلوانى – النعالى – البقالى – الصفار – الجصاص التبان .. إلخ » – وقد عمل أئمة أهل السنّة الأربعة . وعمل الصحابة والتابعون .

ومن علماء الشيعة نصر بن مزاحم « مؤلف كتاب صفين » وداود بن أبى يزيد . وداود بن سرحان : كانوا عطارين . وميثم التمار ببيع التمر . ومؤمن الطاق . وخالد بن سعيد ومحمد بن خالد وصبيح بن أبى الصباح كانوا صيارفة . والشيخ آدم . كان يبيع اللؤلؤ . ورفاعة بن موسى كان نحاسًا . وابن حدير كان طحانا . وعبد الله بن ميمون كان قداحا « يبرى القداح » .

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « ملعون من ألقى كله على الناس » .

سأل إبراهيم بن أدهم (١٦٢) تلميذه شقيق البلخى (١٩٥) وهما الزاهدان الشهيران : ما بدء أمرك الذى أبلغك هذا ؟ قال شقيق : مررت ببعض الفلوات فرأيت طائرًا مكسور الجناحين فى فلاة من الأرض . فقلت انظر من أين يرزق هذا . فقعدت بحذائه : فإذا بطير أقبل وفى منقاره جرادة فوضعها فى منقار الطير مكسور الجناحين . فقلت فى نفسى : إن الذى قيض هذا لهذا قادر أن يرزقنى حيث كنت . فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة .

قال إبراهيم : ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه ؟ أما سمعت عن النبى ﷺ أن « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

وخرج الإمام الصادق يسعى للرزق فى يوم صائف شديد الحر . فقالوا : يا ابن رسول الله هذه حالك عند الله عزّ وجل ، وقرابتك من رسول الله ، وأنت تجهد نفسك فى هذا اليوم ! فقال لمن حدّثه : « خرجت فى طلب الرزق لأستغنى عن مثلك » .

ولما أخبروه يومًا عن رجل يقول : لأقعدن ولأصلينّ ولأعبدنّ الله قال « هذا أحد الذين لا يستجاب لهم » .

* * *

ولا بأس أن يجد العامل فى عمله بعض مشقة . فما هى إلّا زيادة فى الفضيلة فيه أو الهناءة به .

جاءه من يرجوه ليدعو الله ألا يجعل رزقه على أيدى العباد ، فأجابه : « أبى الله عليك ذلك . آلى الله إلّا أن يجعل رزق العباد بعضهم من بعض ، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على أيدى خيار خلقه . فإنه من السعادة . ولا يجعله على أيدى شرار خلقه . فإنه من الشقاوة » .

والصادق بهذا التنبيه يلفت النظر إلى أن التعامل يقتضى وجود طرفين ،

والسعيد من صلح طرفه الآخر . وهو فوق ذلك يكمل نقصًا لدى كثير من الصالحين الذين يفوتهم أن خوض الغمرات للرزق ، مع النجاة من ارتكاب الإثم فى تحصيله ، درجة أعلى من الفضل - بل هو يبصّرهم بالمكروه الذى يلقاه الناس إذ يبتغون غضارة العيش أو نضارة الحياة . يقول : « ليس من أحد وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلّا من خلال مكروه » .

والغضارة نضارة ووضاءة وصلاح بال ، لا يمكن أن تكون بمعدى عن المكاره ، ومنها الإيجابى الذى يستوجب النضال ، ومنها سلبى ، يتراءى فيما يفقده المرء من ذات نفسه بإضعاف قدرته على التحمل ، أو منعها من العمل ، أو مصير ذاته إلى الترهل . ومنها ما يتقاضاه الناس من أعراض الناضرين إذ يمسون أغراضًا لسهام الكلام .

وإنما ينضّر الله عبدًا سمع مقال الرسول ووعاه أسلوبًا فى الحياة ، وما هو إلّا الجدّ وأداء الواجب ، والاقتصاد فى مظاهر الرفاه . وهو أقوم وأسلم .

وينضر الإمام وجه العمل ذاته ليزيد العامل قوّة ، ويزيد الأداء أناقة ، وصلات المتعاملين وثاقة ، حيث يقول : « كل ذى صناعة مضطر إلى ثلاث خصال يجتلب بها الكسب : أن يكون حاذقًا بعمله . مؤديًا للأمانة . مستميلًا لمن استعمله » .

ولما ختم الخصال الثلاثة بالاستمالة كان يوجه من استعمل غيره أو استعمله غيره : ليدخل قلب عميله فى حسابه . فهذا درس إسلامى اجتماعى فى المحبة ، مثلما أنه درس اقتصادى فى إحسان الصناعة ووثاقة العلاقة ، ولباقة الأخذ ، ولياقة العطاء . والحياة كلها أخذ وعطاء .

التجارة :

روى المعلى بن خنيس تابع الإمام[1] : رآنى أبو عبد الله وقد تأخرت عن السوق فقال : اغد إلى عزّك .

---

(١) قتله داود بن على - أمير المدينة لأبى جعفر المنصور - وصادر ما تحت يديه ، من أموال كانت أموال الإمام الصادق ، فى نوبة من نوبات البطش التى اجتاحت المدينة وأهل البيت ، بتهمة أنه لم =

قال معاذ : قلت لأبي عبد الله : هممت أن أدع السوق . قال : « إذن يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء » .

وقال لمن ترك التجارة : « لا تتركها فإن تركها مذهبة للعقل . اسع على عيالك . وإياك أن يكونوا هم السعاة عليكم » .

وسأل عن تلميذ له : ما حبسه عن الحج ؟ فقيل : قلّ شيئُه . فاستوى جالسا – وكان متكئًا – وقال : لا تدعوا التجارة فتهونوا .

وكسب المال من حلّه وإنفاقه فى محلّه واجبان على المسلم . والتجارة ممارسة وتعامل ، أى مران على الشئون العامة والخاصة . والتاجر أعلى عينًا بالأمور . وأقدر على مدّ يد العون للآخرين – وفى الاضطراب فى الأسواق إثراء للجماعة ، وتخطيط مشترك للمعايش ، وهو قبل ذلك امتحان مستمر للنزاهة والبعد عن المحرمات .

وعناية الشيعة بتوضيح الحلال والحرام فى التجارة ظاهرة فى نصوص الفقه . فالمحرم مما يكتسب به . أنواع :

١ – الأعيان النجسة كالخمر .

٢ – الآلات المحرمة .. كآلات القمار .

٣ – ما يقصد به المساعدة على المحرم كبيع السلاح لأعداء الدين .

٤ – ما لا ينتفع به كالمسوخ .

٥ – الأعمال المحرمة كالغناء عدا المغنية لزف العرايس ، إذا لم تغنّ بالباطل ويدخل عليها الرجال ، والنوح بالباطل : أما بالحق فجائز ، وهجاء المؤمنين . وتعليم السحر والكهانة .

٦ – الأجرة على القدر الواجب من تغسيل الأموات .

ولا بأس بالرزق من بيت المال . وكذا على الأذان . أما جوائز الظالم

= يدل داود على اثنين من العلويين كان يبحث عنهما – وقصد الإمام إلى دار الإمارة يصيح فى وجه داود بل يتهدده «قتلت مولاى وأخذت مالى .. أما علمت أن الرجل لا ينام على الحرب » ؟ فتنصل داود من المسئولية وأمر بقتل القاتل فصاح هذا الأخير : « يأمرونى بقتل الناس فإذا أمرت بقتلهم قتلونى !» .

فمحرمة إن علمت بعينها ، والولاية من العادل جائزة ، وربما وجبت . والولاية من الجائر محرمة ، إلا مع الخوف ، - فلو تيقن التخلص من المأثم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر استحبت .

* * *

وكما يعمل الإمام بيده ليتعلّم الناس ، يتجر بماله ليعلمهم دروسًا فى التجارة - بالتطبيق العملى الذى تشهده الملايين فتتعلم . وهو أجدى عليها من أن تعطى ملايين تنفقها ولا تتعلم .

دعا يومًا مولاه مصادف فأعطاه ألف دينار وقال له : تجهز حتى تخرج إلى مصر فإن عيالى قد كثروا . فتجهز بمتاع وخرج مع التجار حتى إذا دنوا من مصر ، استقبلتهم عير خارجة منها ، فسألوهم عن المتاع الذى يحملونه ما حاله فى مصر ، وما متاع العامة ؟ فعلموا منهم أن ليس بمصر منه شيء فتحالفوا على ألّا ينقصوا من ربح دينار دينارا .. ووسع عليهم فى الربح . ثم فصلت العير عن مصر إلى المدينة بالكسب العميم . ودخل مصادف على مولاه ومعه كيسان فى كل منهما ألف دينار . وقال : جعلت فداك . هذا رأس المال وهذا الربح .

قال الصادق : إن هذا الربح كثير . ماذا صنعتم ؟ فحدثه كيف سألوا وكيف توافقوا . وكيف باعوا .

قال الصادق : سبحان الله تحلفون بالله على قوم ألّا تبيعوا أو يربح الدينار دينارًا !

ثم أخذ واحدًا من الكيسين فقال : هذا رأس مالى ولا حاجة لنا فى الربح . ثم قال : « يا مصادف . مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال » .

هكذا بورك لمصر فى متاع الإمام . لكن الإمام لم يقبض درهمًا من أموال مصر . أن قد أساء البيع الوكلاء . مذ كانوا محتكرين . ولا « يحتكر إلّا خاطئ » . وهذا أوّل الدروس . وهى كثيرة . منها أن زيادة الجهد واجبة عند كثرة العيال . وأن ترك ما فيه شبهة هو الحق ، وأن النظر إلى الأمة كلها واجب . وهو أوجب على العلماء والرعاة .

كان إذا جاع الناس صنع صنيع آبائه فأخذ جرابًا فيه الخبز واللحم والدراهم على عاتقه ، فذهب إلى ذوى الحاجات من أهل المدينة فقسمها فيهم وهم لا يعرفونه ، حتى إذا مات افتقدوه فعلموا أنه « الإمام الصادق » .

وماجاع قادر إلّا ذكر البطون الخاوية .

وفى سعة أرزاق الحمقى عبرة للعقلاء . يقول الإمام : « إن الله تعالى وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا أن الدنيا لا ينال ما فيها بعمل ولا حيلة » .

و« كم من طالب للدنيا لم يدركها . ومدرك لها قد فارقها . فلا يشغلنك طلبها عن عملك . والتمسها من معطيها . ومالكها . فكم من حريص على الدنيا قد صرعت .. ما الدنيا ؟ هل الدنيا إلّا أكل أكلته أو ثوب لبسته . أو مركب ركبته ؟ » .

ولا تعاب القلة وإنما تعاب الرذيلة . ومنها التظاهر والإعلان الكاذب . والصدق صفة المتعاملين مع الله ، والقليل مع الصدق كثير. ومن ثمة بركات الله ، فى النفس والعقل والمال ، للصادقين .

والصادق يعد بهذا كله فى كلمته الجامعة : « من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله منه أكثر مما أراد » .

يقول لمن ساعد – بغير أجر – فى عمل لم يجد صاحبه مالاً ليكرى من يساعده فيه : « أما أنك إن تساعد أخاك أحبّ إلىّ من طواف أسبوع فى البيت » .

وترى من ذلك بروز « العمل الصالح » فى أبواب العبادة وتقديمه بين النوافل .

والصادق يخصّص بعض ما له للإصلاح أيًّا كان وجهه .

تشاجر رجلان على ميراث فمرّ بهما المفضل بن عمر – صاحب الإمام – فدعاهما إلى منزله فأصلح بينهما بأربعمائة دينار من جيبه ، حتى إذا استوثق كل

منهم من صاحبه ، قال المفضل : إنها ليست من مالى إن الإمام أمرنى إذا رأيت اثنين من أصحابنا يتنازعان أن أصلح بينهما من ماله .

المال

هذه القوّة الكبرى للإنتاج وهى العمل ، تعاونها قوّة أخرى هى المال شريطة أن يستعمل . فإذا لم يستعمل تنقصته الزكاة عامًا بعد عام حتى تقضى عليه . ومن أجل ذلك صار مباحًا الاتجار فى مال اليتيم لحسابه حتى لا يأكله الزمن – وإنما يستعمل المال فى التجارة وفى الصناعة والزراعة وسائر الوجوه . فلا يكنز ولا يؤخذ عليه ربا ، بل بتواصل المسلمون فيه بالمعروف .

سئل الصادق : لم حرم الله الربا ؟ وأجاب : « لئلا يتمانع الناس المعروف». والمعروف مطلوب فى العلاقات العادية والمالية وبين جميع المتعاملين، فى القروض ونظرة الميسرة أو المشاركة فى مخاطر الاتجار أو الاستصناع والمزارعة والخدمات ، وسواها ، لتجرى الأرزاق لهم ، من الله ، على أيديهم .

وأوّل الواجبات فى المال أن يكون أداة تعمير للدنيا باستثماره ، وللأنفس بمشاركة المحتاجين إليه ، سواء للعمل به أو للعيش منه . وألّا يكون وسيلة للاستعلاء وإنما وسيلة للتواصل . يتأدى بها المسلم إلى العمل الصالح . ومن الأوليات فى هذه الواجبات الاقتصاد والترفق :

يقول الإمام : « أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم فى الرزق . والرفق فى تقدير المعيشة خير من السعة فى المال » . والرفق لا يعجز عن شىء والتبذير لا يبقى معه شىء .

وفى القليل كفاية مع القناعة . والكثير لا يغنى مع السرف .

وفى المعنى ذاته يقول الصادق : « ضمنت لمن اقتصد ألا يفتقر » وإنما يفتقر من يتجاوز الحدود ، ويبعثر قواه ، ويخسر أشياءه .

وبالرفق فى الأمور تجرى الحياة بين الناس على نسق مقبول . يقول الإمام :

« من كان رفيقًا فى أمره نال ما يريده من الناس » .
والله تعالى يحب الرفق فى الأمر كله .

العبادة وإنفاق المال :

يكاد أكثر ما جمع من تعاليم الإمام فى الأبواب الاجتماعية والاقتصادية ، يتجه بفحواه شطر هذا الوجه من وجوه العبادة .

والله تعالى يصف المتقين فى محكم كتابه ، فى أوّل صفحاته ، بأنهم (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) .

وكل نعمة رزق . يقول عليه الصلاة والسلام : « نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس . الصحة والفراغ » فهاتان نعمتان يسأل عنهما الإنسان والإمام يقول : « المعروف زكاة النعم » . فالمعروف زكاة واجبة لمجرد الفراغ من التبعات والسلامة من المرض .

* * *

ومن التطبيق الإسلامى للإنفاق ووجوهه المادية والمعنوية يظهر أنه العبادة الإسلامية الشاملة لكل الناس ، ولكل شيء ولكل ساعة فى الحياة يتاح فيها مدّ يد بالمودّة للغير ، بالعطاء أو قبول العطاء ، والإقراض أو الاقتراض ، ودفع الأذى ، أو مجرد المعونة ، بالفعل أو القول ، أو بالعمل المادى ، أو بمجرد الكفّ عن الأذى ، وما إلى ذلك من أبواب التعاون بين أفراد المجتمع . سواء بالمال أوبالسعى أو بالجاه أو بمجرد الاهتمام .

واهتمام المسلم بما أهم المسلم هو الذى يهب المقرور دفئًا ، والمكروب برءًا ، والمنكوب طمأنينة .

يقول صاحب الشريعة : « من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » .

ولما حصرت الشريعة الفرائض رحمة من الله بعباده المكلفين ، أطلقت المندوبات ، لتتيح لهم أن يتطوعوا بالعمل الصالح كيفما قدروا وحيثما وفقوا – وبخاصة فى إنفاق المال – ثم أكثرت الحضّ عليه ، ثم جعلته ممكنًا للجميع ،

وفى وجوه النشاط الإنسانى جميعها .

يقول الإمام : « ليعن بعضكم بعضًا فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول : « إن معونة المسلم خير وأعظم أجرًا من صيام شهر واعتكافه شهرًا فى المسجد الحرام » وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول الله ﷺ كان يقول : « ليس لمسلم أن يعسر مسلمًا . ومن أنظر مسلمًا أظلّه الله يوم القيامة بظلّه حيث لا ظلّ إلاّ ظله .. » .

وذات يوم قال رجل : إن بينى وبين رجل منازعة فى أمر وإنى أريد أن أتركه فيقال لى إن تركك ذلّة . فقال الإمام : « إن الذليل هو الظالم » . فهو لا يرى الترك عيبًا إنما العيب بالظلم ، أيا كان مصدره ، التارك أو المتروك له .

ودخل عليه عمار الساباطى فقال له : « يا عمار إنك ربّ مال كثير فتؤدى ما افترض عليك الله من الزكاة ؟ قال : نعم . قال : فتخرج الحق المعلوم من مالك ؟ قال : نعم . قال : فتصل قرابتك ؟ قال : نعم . قال : فتصل إخوانك ؟ قال : نعم . قال : يا عمار إن المال يفنى . والبدن يبلى . والعمل يبقى . والديّان حىّ لا يموت . يا عمار . ما قدمت فلم يسبقك . وما أخرت فلن يلحقك » .

والأيادى قروض ، والإمام يعد بالردّ المضاعف ، ويعلن فضل من أعطى ، ويؤثر عليه فضل الآخذ . والعرف لا يذهب بين الله والناس .

قال له تلميذ : إنى لا أتغذى أو أتعشى إلاّ ومعى اثنان أو ثلاثة . أو أكثر . فأرضاه الإمام بالجزاء الموعود ، وأعلن له أن فضلهم يفوق فضله . قال : « فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم . إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير »[1] .

* * *

---

(١) قارن هذا المجتمع الإسلامى الذى يقول فقهاؤه « ما المعطى عن سعة بأفضل من الآخذ لو كان محتاجًا » بالمجتمع الإنجليزى الذى جاء بعد ذلك بقرون سبعة فى عصر الملكة اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) وفيه صدرت قوانين بإعدام المتسولين وأعدم بها المئات .

والإمام يحضّ على دوام التواصل ، إذ يجعل النعمة التى يخولها المعطى للآخذ نعمة تتكرر إذ تشكر ، لتتكرر . يقول : « اشكر من أنعم عليك . وأنعم على من شكرك . فإنه لا إزالة لها إذا شكرت ولا إقالة لها إذا كفرت » .

والبخل قبض القادر يده عن العطاء ونفسه عن الأمل . فذلك داء البخلاء . والإمام الذى يوجب السخاء عند إقبال الدنيا وحين يفيض الخير ، يوجب الرجاء والصبر عند إدبارها . فالدنيا تدور . يقول : « عجبت لمن يبخل بالدنيا وهى مقبلة عليه أو يبخل بها وهى مدبرة عنه . فلا الإنفاق مع الإقبال يضرّه . ولا الإمساك مع الإدبار ينفعه » .

ففيم يقف البخلاء دورة المال أو نعمة الرجاء !

والصادق يروى عن جدّه « قيل : يا نبى الله . أفى المال حق سوى الزكاة ! قال : نعم . برّ الرحم إذا أدبرت . وصلة الجار المسلم . فما أقرّ بى شبعان وجاره المسلم جائع . ثم قال : مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

وفى كل مشاركة فضل ، يقول صفوان بن يحيى - من أصحاب الإمام الكاظم -: جاءنى عبد الله بن سنان قال : هل عندك شىء ؟ قلت : نعم فبعثت ابنى يشترى لحمًا بدرهم فقال : أين أرسلت ابنك ؟ فأخبرته . فقال : ردّه . عندك زيت ؟ قلت : نعم . قال : هات فإنى سمعت أبا عبد الله « الصادق » يقول : « هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره . وهلك امرؤ احتقر لأخيه ما قدّمه إليه » .

والجود بالموجود جود . وفى التكليف رهق . وفى كلّ إرهاقٍ أذى . والسمح لا يؤذى ، ولا يحسّ الأذى فيما هو طبيعى . ومن السماحة فى الأخذ والعطاء ينتشر التواصل ، بأى شىء وفى كل شىء .

فالإمام لا يتكلف لأحد . ويعلن فضل الطاعم على صاحب الطعام . قال هشام بن سالم : دخلنا على أبى عبدالله ونحن جماعة . فتغدينا وتغدى معنا . وكنت أحدث القوم سنًا . فكنت أقصر وأنا آكل فقال لى : « كل أما علمت أنه تعرف مودّة الرجل لأخيه بأكله طعامه » .

يقول الإمام لأضيافه : « أشدّهم حبًّا أكثرهم أكلًا عندنا ».

وكانت « عين زياد » ضيعة له فجعلها له وللناس . يأمر وكيله بأن يثلم فى كل حيطان الضيعة ثلما ليدخل الناس فيأكلوا . ويأمر كل يوم بعشر ثبنات يقعد على كل واحدة منها عشرة يطعمون . كلما قام عشرة جاء عشرة . يلقى لكل منهم بعض الرطب . أما الذين لا يجيئون من جيران الضيعة فلكل منهم مدّ يرسل إليه ، حتى إذا جاء أوان قطع الثمار أعطى الوكلاء العمال أجورهم وأمر الإمام بالباقى فحمل إلى المدينة ففرق فى أهلها ، كلٍ حسب استحقاقه .

يقول ابن أبى طيفور : رأيت عند أبى عبد الله ضيفًا فقام يومًا فى بعض حوائجه فنهاه وقام بنفسه إلى هذه الحاجة وقال : « نهى رسول الله عن استخدام الضيف » .

أداء حقوق الآخرين فى المال :

وإذا واسى الصادق أعطى فأغنى : سأله فقير فأعطاه ألف درهم فلما مضى الرجل أمر خادمه ليرجعه . قال الخادم : يا سيدى سئلت فأعطيت . فماذا بعد العطاء ؟ قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الصدقة ما أبقت غنى » وقال للرجل : « إنا لم نغنك . فخذ هذا الخاتم فقد أُعطيت فيه عشرة آلاف درهم » .

ولا مرية فى أنه لم يغن الرجل ليأكل ، وإنما أغناه بالمال ليعمل به . فالعطاء ليس طعامًا يعطى وإنما هو فرصة عمل بالتعبير الاقتصادى المعاصر . أى تمكين من أداة إنتاج تحفظ إنسانية الإنسان وتزيد ثراء الجماعة .

والعطاء وفاء بحقوق . وليس مجرد أريحية . فأمير المؤمنين علىّ هو القائل : « إن الله فرض على الأغنياء فى أموالهم ما يكفى الفقراء فإن جاعوا أو عروا فبظلم الأغنياء » والقائل : « الفقر هو الموت الأكبر » .

وسئل الباقر عن الزكاة تجب فى مواضع لا يتمكن السائل من أدائها فيها فأجاب : « اعزلها فإن اتجرت بها فأنت لها ضامن . ولها الربح » .

ويقول الصادق : « إن الله عزّ وجل فرض للفقراء فى مال الأغنياء ما يسعهم – ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم . إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزّ وجل .. ولكن أتوا من منعهم حقهم . ولو أن الناس أدّوا حقوقهم كانوا عايشين بخير » .

وبنصّ عنه : « إن الله تبارك وتعالى شرك بين الفقراء والأغنياء فى الأموال . فليس لهم أن يصرفوا إلى غير شركائهم » .

وعلى أساس هذه النصوص يتساءل الفقهاء : هل الفقير « شريك » فى ملك العين « فى خصوص الزكاة » ، أو أن له « مجرد حق » فيها . فالبعض على أنه شريك بمقدار حصته ، والبعض على أنه صاحب حق فيها وهو مقدار نصيبه . وصاحب النصيب من لا يملك مئونة سنة له ولعياله . والأغنياء من يملكون ذلك المقدار .

يقول الإمام الصادق : « تحرم الزكاة على من لا يملك قوت سنة » .

ولا يدع الإمام الناس ، فقراء أو أغنياء ، دون تنبيههم على أصل الداء ، وهو الطمع . فيعالنهم بمقولة من مقولاته . التى تتناقلها الأجيال : « إن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك » .

* * *

وللحقوق الفقراء على الأغنياء عند الشيعة مصدر آخر زاخر ، فوق مصدر الزكاة، وهو خمس المكاسب . والله تعالى يقول: (واعلموا أن ماغنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) .

والشيعة تفسر الآية تفسيرًا يسع أكثر مال يكتسب . إذ يدخل فيه خمس أرباح التجارات والصناعات والإجارات والعمل والوظائف والهدية والوصية وأرباح مالك المنجم والمدخرات من الكسب الحرام إذا اختلط بالحلال ولم يتميز . فإن تميز أخرج كله . واللؤلؤ المستخرج والمواريث التى لم يؤد عنها الخمس . وذلك بعد أن يستنزل المكلف مئونة الحفظ ومئونة الذين يعولهم ومركبه ومسكنه ونفقات أضيافه لمدة سنة كاملة ، وما زاد عن ذلك ففيه الخمس .

كتب رجل إلى الإمام الباقر : أخبرنى عن الخمس أهو على جميع ما يستفيده الرجل من قليل أو كثير .. وكيف ذلك ؟ فكتب الإمام بخطه : « الخمس بعد المئونة » .

ولا يحمل الخمس إلى غير بلده إلّا مع عدم وجوذ المستحق فيه . ويجوز أن تخصّ به طائفة واحدة . والأحوط قسمته .

والفقهاء يقررون أن للإمام نصف الخمس وأن نصفه الباقى ليتامى آل النبى ومساكينهم وفقرائهم وأبناء السبيل منهم .

والآن – حيث الإمام غائب – فالأقوال كثيرة فى توزيع حق الإمام . وربما جاز من تعددها اختيار الإنفاق على المصالح التى تحفظ للأمة دينها وشريعتها .

والرسول عليه الصلاة والسلام يكلف المسلمين أن يقصدوا بالبرّ الفقراء ، وأن يتطهروا بين الفقراء ، ويتقوا الله تقوى الفقراء ، يقول ﷺ : « من أراد الله فليطلبه عند الفقراء » .

كنز المال

أمير المؤمنين علىّ هو الذى ذكر عمر بخثور نفس رسول الله حتى وزع مالاً كان عنده . وأعلن ساعة استخلافه أن الدولة ليس لها فى المال إلّا أن تقسمه فى المسلمين متساويين – فرقى المنبر يقول للمسلمين عن نفسه : « .. ألّا وإنه ليس لى دونكم إلّا مفاتيح أموالكم معى . وليس لى أن آخذ درهمًا دونكم » .

جئ ذات مساء بمال أفاءه الله على المسلمين ، فأشار إليه وقال : اقسموه . قالوا : أمسينا فأخّره إلى غد . قال : تضمنون لى أن أعيش إلى غد ؟ قالوا : ما بأيدينا ذلك . قال : فلا تؤخّروه . فقسّموه من فورهم .

ولما بعث أبو موسى إلى عمر من العراق ألف ألف درهم فرقها ففضلت فضلة فاختلفوا أين يضعها خطب عمر الناس قائلاً : أيها الناس قد فضلت لكم فضلة بعد حقوق الناس . فقام صعصعة – وهو بعد غلام شاب أسلم فى

حياة النبىّ ولم يره – وقال : « يا أمير المؤمنين إنما يتشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن . وأما ما نزل به قرآن فضعه مواضعه التى وضعه الله عزّ وجل فيها » . فقال عمر : « صدقت . أنت منى وأنا منك » . فقسمه بين المسلمين .

وصعصعة – كما أسلفنا – بطل « يوم الجمل » إلى جوار أمير المؤمنين علىّ . استشهد أخواه وهما يحملان الراية . ثم حملها صعصعة وانتصر .

وأبو ذرّ أب من آباء الشيعة العظماء ، وسيرته درس تحتفى به مجالسهم وأمالى كبرائهم . ينبّه الناس من قديم على خطر الفقر واقترانه بالكفر . وتعريضهما العقيدة والوطنية ووحدة الجماعة للدمار ، فيقول : « إذا ذهب الفقر إلى بلد . قال الكفر خذنى معك » .

ولقد حرم كنز المال بحبسه عن المسلمين فى بيوت الأموال ، أو حرمانهم منه وتعريضهم للافتقار ، فأوجب على الدولة توزيع المال فى أصحاب الحق فيه من الرعية ، وحرم النعيم على من يعيش بين الجياع . فإذا كان إخوة المسلم فى عيشة راضية فالنعيم يباح .

ولما أرسل إليه عثمان مائتى دينار مع رسول يقول : هذه من مال عثمان . وهو يقول لك إنها من صلب ماله ما خالطها حرام . قال أبو ذر : هل أعطى أحدًا من المسلمين مثلما أعطانى ؟ قال : كلّا . قال : اذهب أنت والدراهم . إنما أنا رجل من المسلمين يسعنى ما يسعهم . ولست فى حاجة إلى المال . قال الرسول : أصلحك الله إنى لا أرى فى بيتك قليلًا ولا كثيرًا . فرفع أبو ذرّ الوسادة وأراه قرصين من خبز الشعير وقال : بل عندى هذان وإنى لغنى بهما وثقتى بالله .

ومرّ أبو ذرّ بمعاوية وهو يبنى داره الخضراء فصاح به : « من أين لك هذا ؟ إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهى الخيانة . وإن كنت بنيتها من مالك فهى الإسراف » . فشكاه معاوية إلى عثمان .

وظاهر من هذا النهج ، النحو الاقتصادى الذى ينحوه الشيعة من تداول المال، وعدم كنزه عن الأمة ولو كان فى يد الدولة ، ووجوب تقسيمه فى المسلمين

أو العمل به لهم . والاستكثار من طرحه فى التداول[1]، وإنفاق الخمس الذى يجبى للإمام .

وإذا أضفنا إلى ضخامة نسبة الخمس ، تحصيله عن أكثر الكسب ، وتيسير حسابه على العاملين على الصدقات ، والدافعين للزكوات ، والإنفاق الواجب والمندوب ، وإلزام القادر العمل بنفسه وبماله ، ومعونة المستحقين للعون بالمال دون ربا ، مع نظرة الميسرة ، ومع التواصل حيثما قدر القادرون ، واحتاج غير القادرين ، يتجلّى مبلغ ما تتفتح الميادين الواسعة أمام الجهد الإنسانى فى المجتمع الإسلامى لتثمير ثرائه وإغناء فقرائه ، وإيلاف أنفس المسلمين فيه .

ذلك قول الإمام جعفر : « لو أدّى الناس زكاة أموالهم ما بات مسلم فقيرًا » .

التعاون

العنصر الثالث فى الاقتصاد - كما هو ظاهر من تعاليم الإمام فى فصول هذا الباب - هو التعاون . وليس كمثله « منظم داخلى » أو « محرك ذاتى » للنشاط الفردى أو القومى

. ولقد مرّ بنا أنه واجب « قانونى » يخرج من الإيمان من بات شبعان وجاره جائع .

كما أسلفنا القواعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى شرعها الإسلام وشرحها الإمام ، ليخلف للأمة منهاجه الذى اعتزت به الأمة فبلغت شأوها

---

(١) روى المسعودى فى مروج الذهب حادث أبى ذرّ وكعب الأحبار فى مجلس أمير المؤمنين عثمان بن عفان . قال : إن أبا ذر كان فى مجلس الخليفة حين « أتى بتركة عبد الرحمن بن عوف فنضت البدر حتى حالت بين عثمان والرجل القائم . فقال عثمان : إنى لأرجو لعبد الرحمن خيرًا لأنه كان يتصدق ويقرى الضيف وترك ما ترون وقال كعب الأحبار : صدقت يا أمير المؤمنين . فشال أبو ذر العصا وضرب بها رأس كعب . وقال : يا ابن اليهودى تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة وتقطع على الله عهدًا بذلك ! وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما يسرنى أن أموت وأدع ما يزن قيراطا » .. وقال عثمان لأبى ذر : وار عنى وجهك » .

العالى بالمنهج العلمى ، العصرى أبدًا ، والمنهج الاجتماعى الذى جعلها كالبنيان المرصوص ، والمنهج الاقتصادى الذى يستعمل العلم والعمل والمال فى تعاون مأمور به ، أى فى تكافل كامل .

ولئن مرت بها فترات مظلمة ، إن مردّها إلى الخروج على قواعد المنهج . وإنما عصمتها فى الرجوع إلى الأمر الأوّل .

الباب السادس

إلى الرفيق الأعلى

« الحمد لله الذى لم يخرجنى من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه » .

« الإمام جعفر الصادق »

إلى الرفيق الأعلى

« إن شفاعتنا لاتنال مستخفا بالصلاة »

« جعفر الصادق »

كان الإمام فى لقاءاته الأخيرة مع الخليفة « أبى جعفر المنصور » يقول له : « لا تعجل ، لقد بلغت الرابعة والستين وفيها مات أبى وجدى » . فلقد كان يحسّ باقتراب يومه . ويلتمس من ذلك قوّة عند اللقاء . تؤيده فى الصدام معه والثبات فى وجهه ، والدفاع عن حقوق الله والناس عنده ، وتذكيره بالآخرة .

وهو إلى ذلك يهيئ الدولة ، والناس ، لما بعد موته .

والناس الذين يتساءلون متى نصر الله ، يولون وجوههم شطر الإمام . مذ قطع أبو جعفر أسباب الأمل فى الأمان والاطمئنان بالنكال يصبّه على من عارضه ، وخصّ أهل البيت بكفل زاخر من عذابه فمال الكثيرون عنه إليهم . ولم يكن باقيًا من مشيختهم إلاّ الإمام الصادق . تهوى إليه الأفئدة من بعيد وقريب . ويتكاب عليه التلامذة من أشياخ العلماء .

ومضت الأيام ، والناس بين البأساء والنعماء ، والفزع والرجاء . والإمام فى دروسه ومجالسه يرسى مبادئه . للأجيال القادمة . ويهدى بالقول والعمل ، وبمجرد أن به حياة .

وجاء ذلك اليوم الذى قال فيه ، وهو رخى البال : « الحمد لله الذى لم يخرجنى من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه » .

وهو إفصاح عن اكتمال المذهب الشيعى فى تعاليمه ، ونظام الدولة الشيعية ، إن أمكن أن تظهر ، والمجتمع الشيعى فى كل حال . وإن شئت قلت مقاله — المجتمع الجعفرى ، أو مقال الفقهاء : مجتمع « الشيعة الإمامية » .

وجاءت ساعة الموت .. وهو فى تمام صحوه ، وأهل البيت حافون حوله :

قالت زوجه « حميدة » أم الإمام موسى الكاظم ، وكانت من البربر ، لرجل من أصحابه : لو رأيت أبا عبد الله عند الموت لرأيت عجبًا : فتح عينيه ثم

قال : « إن شفاعتنا لا تنال مستخفًا بالصلاة » . أما رواية الإمام موسى الكاظم فنصّها : لما حضرت أبى الوفاة قال لى : « يا بنى لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة » .

فهذا إمام تنتهى إمامته يعهد لإمام تبدأ أيامه . فينبهه ، والناس ، على حقهم فى شفاعة أهل البيت ، وواجبهم لينالوها ، بإقامة عمود الدين .

وتضيف مولاته « سالمة » ساعة الموت حسنات فتقول : « غمى عليه . فلما أفاق قال : أعطوا الحسن بن على « بن على بن الحسين » سبعين دينارًا ، وأعطوا فلانًا كذا ، وفلانًا كذا . قلت : أتعطى رجلًا حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك ؟ قال : أتريدون ألّا أكون من الذين قال عنهم الله عزّ وجلّ : (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) ؟ نعم ياسالمة . إن الله خلق الجنة وطيب ريحها . ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم » .

أجل : كان الإمام قطعة من صميم الإسلام . جدّه عليه الصلاة والسلام « خلقه القرآن » أما هو فخلقه « سنّة جدّه » ، وجدّه يعلن سنته حيث يقول : « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح » .

ويقول : إن أوّل الواجبات فى المال بعد الزكاة « برّ الرحم إذا أدبرت » .

فالإمام فى ساعة الموت يوصى لمن يليه ، ويذكر الشفاعة ، والصلاة ، وصلة الرحم ، وهو يريح رائحة الجنة .

* * *

صعدت روح الإمام إلى الرفيق الأعلى فى شوال ١٤٨ ، لتترك أبا جعفر فى الفزع الأكبر . فلقد غابت عن الدنيا أسباب سلام يثق بها ، ولاح فى السماء نجم جديد ، بإمام جديد ، ليس له به عهد .

وأبو جعفر ليس الرجل الذى ينتظر حتى ينكشف له أمر فيه غرر . بل هو يبتدر الخطر .

قال أبو أيوب الجوزى : بعث إلىّ أبو جعفر المنصور فى جوف الليل فدخلت

عليه وهو جالس على الكرسى وبين يديه شمعة . وفى يده كتاب . فلما سلمت عليه رمى الكتاب إلىّ ، وهو يبكى ، وقال : هذا ابن سليمان « والى المدينة » يخبرنا أن جعفر بن محمد قد مات . فإنا لله وإنا إليه راجعون . قالها ثلاثًا . ثم قال : وأين مثل جعفر ؟ ثم قال : اكتب فكتبت صدر الكتاب ، ثم قال : « اكتب إن كان قد أوصى إلى رجل بعينه فقدمه واضرب عنقه » .

هكذا يأمر بقتل من يجهله . ويحرمه حق المحاكمة لمجرد أن من فحوى الوصية لرجل بعينه أنها رسالة للأمة تعلن الإمام الجديد !

لكن الله كفّ بطش أبى جعفر . فرجع الجواب إليه أن الإمام أوصى إلى خمسة هم : أبو جعفر المنصور وابن سليمان ، وعبد الله وموسى وحميدة . والأخيرون ولدا الإمام وزوجه . فليس هنا وصىّ بعينه . والأولان أبو جعفر ذاته وواليه . وليس إلى قتل هؤلاء من سبيل !

وما كانت وصية « الصادق » لأبى جعفر وواليه إلّا توصية لهما بالأمة . وتذكيرًا لهما بأنهما ملاقيان الله مثله . وأبو جعفر أجدر خلق الله بأن يذكره الناس بالموت . وأن يذكروه عند الموت . إن محبين له وإن مبغضين .

ولما قرن الإمام أبا جعفر بابنيه وزوجه ، كان يذكره أن يخاف الله فيهم وفى ذوى رحمه .

* * *

كان أبو جعفر يسابق الموت إلى من تتم الوصية إليه وحده . ففوتت عليه وصية الإمام بغيًا ، لم يمنعه من مقارفته تساقط دمعه ، أو أن يسترجع الله مرات ثلاثة ، وكأنه يجعل الدمع مدادًا لأمر يهتبل الفرصة لإصداره ، ليقطع رأس إمام جديد من أهل البيت يطاف بها فى المدائن .

وأنسته شياطين الفزع والطمع ، أن يذكر ما علمه الصادق من صلة الرحم . وازداد نسيانًا يوم لا أحد ينسى !

وجرى المهدى والرشيد فى أثر أبى جعفر يهتدون به ، ويدسون الجواسيس ليعرفوا من يجتمع إليه الناس بعد موت الإمام – سأل سائل موسى الكاظم

فقال الكاظم : « إذا هدأت الرجل وانقطعت الطريق فأقبل » وسأله آخر فقال له : « سل تخبر . ولا تذع . فإن أذعت فإنه الذبح » .

بل كان هشام بن سالم ينبه زملاءه الشيعة حتى لا يقعوا فى حبائل أبى جعفر .

وظاهر من ذلك أن المجالس العظيمة ، التى كانت تنعقد فى حياة الإمام الصادق ، قد ولّى زمانها .

* * *

ولى الإمامة موسى الكاظم بعد أبيه فتتابع فى حياته عهد الهادى ثم عهد الرشيد . واقتصر كما سيقتصر الأئمة من بعده ، على العلم وإمامة الدين ، دون أن يمدّوا عينًا أو فكرًا إلى الخلافة الدنيوية . ومع هذا حبس الرشيد الإمام الكاظم حتى سنة ١٨٣ ، ثم أمر فأدخل الناس السجن ليروه ميتًا ، ليس به آثار قتل ، والشيعة يقولون : مات مسمومًا .

وخلف الكاظم فى الإمامة ابنه على الرضا ، حتى إذا صار المأمون خليفة ولّاه عهده ، على رغمه ، سنة ٢٠١ ، وأمر ابنه وبنى العباس بمبايعته . فصنعوا . وزوّجه من بنته « أم حبيب » فى سنة ٢٠٢ . كما زوج ابنه محمدًا الجواد بنته « أم الفضل » . إلّا أن عليًّا الرضا مات سنة ٢٠٣ فجأة ! مسمومًا ، فى أكلة عنب ، كما يقولون ، فى أثناء عودته فى ركب المأمون من مرو إلى بغداد !

وفى رحلة العودة هذه ، وفى ركب المأمون ذاته ، قتل وزيره الذى دبّر له كل أمره – الفضل بن سهل – وكان شديد التشيع .

وتوجه محمد الجواد بزوجته إلى المدينة – بعيدًا من بغداد . فلما ولى المعتصم أشخصه إليها . فقدمها لليلتين بقيتا من المحرم سنة ٢٢٠ . وفى نهاية السنة مات . والناس تقول فى موته ما قالوه عن موت أبيه وجده وما سيقولونه فى موت ابنه على الهادى بعد أن صار إمامًا استقدمه الخليفة إلى العسكر فى سُرَّ مَنْ رأى حيث قصر الخلافة . فلما مات الهادى سنة ٢٥٤ – قام بالإمامة ابنه الحسن الخالص حتى سنة ٢٦٠ عام وفاته ، ليخلفه ابنه محمد آخر الأئمة الاثنى عشر ..

قالوا : دخل سردابًا فلم يرجع . والناس ينتظرون رجوعه ... وهو عند الشيعة الإمامية « المهدى المنتظر »[1] .

بهذا التاريخ يختم الأئمة الاثنا عشر حقبة من الزمن علّموا فيهاالمسلمين العلم الذى آل إليهم عن آبائهم – عن طريق الإمام الصادق – بعيدين عن السلطة ، مدركين جلال ما يقدمون للأمة ، من تراث جدهم صلى الله عليه وسلم . يعضون عليه بالنواجذ ، ويبرئونه من الزيوف . ويتبرءون ممن غلوا فيهم[2] .

* * *

(١) الأئمة الاثنا عشر

		على (١)		
محمد بن الحنفية	(٢) الحسن (٥٠)	(٣) الحسين	٦١	
أبو هاشم (٩٨)	عبد الله	(٤) على زين العابدين	٩٤	
		(٥) محمد الباقر	١١٤	
	محمد. ابراهيم. يحيى. ادريس	(٦) جعفر الصادق	١٤٨	
		(٧) موسى الكاظم	١٨٣	إسماعيل
		(٨) على الرضا	٢٠٣	
		(٩) محمد الجواد	٢٢٠	محمد
		(١٠) على الهادى	٢٥٤	
		(١١) الحسن العسكرى	٢٦٠	سعيد (عبيد الله المهدى)
		(١٢) محمد المنتظر. ولد بسامرا سنة ٢٥٦ واختفى بعد سنة ٢٦٠		

(٢) من الفرق الغالية – العميرية « أصحاب عمير بن بيان العجلى » عبدوا جعفر الصادق فتبرأ منهم . وصلبه يزيد بن هبيرة والى بنى أمية سنة ١٢٨ . ومنها اتباع أبى الخطاب الأسدى « محمد بن أبى زينب » – زعيم الخطابية – زعم أن جعفرًا إله فتبرأ منه الإمام فادعى الألوهية لنفسه . وحاربه المنصور وأسره وصلبه فى الكوفة – ومنها البزيغية « أصحاب بزيع بن موسى » عبدوا جعفر الصادق « والمعمرية : أصحاب « معمر بن الخيثم » – الخياط بالكوفة . وهم فرقة من الخطابية يقولون إن النور خرج من جعفر ودخل فى أبى الخطاب فصار جعفر ملاكًا وأبو الخطاب إلاها .

و « المفضلية » أصحاب المفضل بن عمر الصيرفى (١٧٠) يقولون بإمامة محمد وألوهية جعفر . « والسرية » أصحاب السرى بن منصور (٢٠٠) يقولون إن السرى رسول جعفر . وجعفر هو الله والسلام والإسلام . وكانوا فى الحج يقولون : لبيك يا جعفر لبيك .

ويقول ابن النديم فى الفهرست إن اتباع أبى الخطاب أظهرتهم الفرقة الميمونية – أى الإسماعيلية – ويقول النوبختى (٣١٠) عن اتباع أبى الخطاب . خرج من قال بمقالته من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر فدخلوا فى فرقته وسمى أتباع محمد بن إسماعيل « الإسماعيلية » .

أقامت الأمم الإسلامية الدول تترى ، فى القارات الثلاثة فى العالم المعروف ، منتسبة إلى أهل البيت من أبناء الحسين أو أبناء عمومتهم ، ومجتمعات مزدهرة ، وحضارات يضرب بها الأمثال ، فى العراق واليمن وخراسان وإيران وأفغانستان وباكستان والهند ولبنان وسورية والكويت والبحرين وشرق أفريقية وكثير سواها .

وفى المغرب أقام الدولة الإدريسية إدريس بن إدريس بن عبد الله « أخى الشهداء الثلاثة محمد وإبراهيم ويحيى أبناء عبد الله بن الحسن » وكان قد فرّ إلى المغرب الأقصى عن طريق مصر سنة ١٧٢ هاربًا من بطش الرشيد .

ثم قيل : بعث إليه الرشيد من سمّه .

وفى المشرق قامت دولة أخرى على يد الحسن بن زيد بن .. الحسن (٢٥٠ - ٢٧٠) وأعقبه فيها أخوه . وهما فقيهان زيديان .

وقامت الدولة الساسانية بخراسان . عاصمتها بخارى فى روسيا السوفيتية الآن .

وأقام أئمة الشيعة الإسماعيلية دولة كبرى فى أفريقية وآسيا « الدولة الفاطمية » . ثم قامت الدولة الإمامية الكبرى فى إيران حيث بقيت العقيدة الإمامية والفقه الإمامى عقيدة وشريعة حتى اليوم . وسيطرت الدولة البويهية (٣٢٤ - ٤٤٧) على الخلافة العباسية بتمامها . ووضعت مراسم التشيع وأعياده . فجعلت يوم كربلاء مأتمًا قوميًا ، ويوم الغدير عيدًا إسلاميًا .

وأمر معز الدولة بن بويه فكتب على المساجد فى بغداد « لعن الله معاوية ابن أبى سفيان . ولعن من غصب فدكا . ومن منع أن يدفن الحسن فى قبر جدّه عليه السلام . ومن نفى أبا ذرّ الغفارى . ومن أخرج العباس من الشورى » فحكه الناس . فاكتفى بأن أمر أن يكتب على المساجد « لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم » وأمر ألّا يذكر فى اللعن إلا معاوية .

وتحوّل بنو بويه عن زيديتهم ، وسلكوا مسلكًا إماميًا . وولّوا الشريف أبا أحمد نقابة الطالبيين وإمارة الحج . بل ولّوا ابنه الشريف الرضى النيابة عن

الخلافة العباسية . ومع ذلك كان بين حين وآخر يشعر بالسخط فيجرى على لسانه الشعر الذى يمجد الخلافة الإسماعيلية .

أى عذر إلى المجد إن ذل ل غلام فى غمده المشرفى
ألبس الذل فى ديار الأعادى وبمصر الخليفة العلوى !

فهذا زعيم إمامى : يفاخر بخليفة اسماعيلى . وهو فى الوقت ذاته قد ولى نيابة الخليفة السنّى .

عدالة السماء

والدول - كالكائنات الحية وكالأفراد والمجتمعات - تشتق قانونها من أسباب وجودها . وتلتزمه فتبقى وتسلم . أو تخرج عليه فتفقد سببًا أو أكثر من أسباب تقدمها ونمائها . وربما فقدت سبب بقائها . وكلما أصابها السقم رجعت إلى سبب وجودها تلتمس السلامة .

لقد نشأت الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى على قواعد الإسلام فى السنة الأولى للهجرة . فأخضعت دول العالم المعروف فى بضعة عشر عامًا ، من حياة النبى وأصحابه . وأقامت المجتمع الأفضل الذى صنع على يد الرسول وعلى عينه .

وكلما أبعد المسلمون من هذا الفضل ، قلّ الشبه فى الصورة عنه فى الأصل . وكلما فكروا فى العودة إلى الأمر الأوّل ولّوا وجوههم شطره . وما هو إلاّ عمل النبى وآله وصحبه .

فكل عمل أو بحث لإقامة الدول المثلى لمجتمع مسلم ، يتجه بالطبيعة إلى أيام النبوة ، والعمل بالقرآن والسنّة .

وآل النبى هم أقرب الرجال إلى الصميم من ذلك وإلى قلوب الأمة . وهم أرفع شعار يمكن تحريك الجموع به .. فهم أهل النبى والقرآن والسنة جميعًا ، لا بالعرق وحده ، وإنما بسيرتهم التى ليس لها فى التاريخ نظير .

والإمام الصادق يتوهج كالنجم الثاقب فى هذه السماء . فهو مدرسة العلم مع الزهادة فى السلطة . وهو إمام فقه فى الدين والعلم . وصاحب مناهج للدنيا . ومعلم للإصلاح والتشريع والسياسة والاقتصاد . وهى الوسائل المحركة للتقدم فى جميع الأمم .

فلا عجب أن كانت دعوات الإصلاح ، ودعاءات الرجاء ، فى كل العصور ، تلتمس فى علمه المدون ، وسيرته التى يمجدها المسلمون ، ذكريات فضائل تمشى على الأرض ، وتطبيقات مفلحة ، لتعاليم كفيلة بإقامة حكم صالح يرد الحكام إلى الدين . ويعيد الدين غضًا فى أنفس الناس كما كان فى أفئدة السلف الصالح .

ويتراءى مصداق هذه الحقيقة « للقانون الطبيعى » للإسلام ، أو للطبيعة الدينية للمجتمع المسلم ، فى قيام الدولة العباسية بدعوى « تصحيح التاريخ » وبشعار « الدعوة إلى الرضا من آل محمد » . فلما أجهضت هذه الدولة مبادئها بخعت نفسها . فصارت ملكًا عضودًا خيراته للملوك .

فلم يك معدى من إعادة التصحيح بالعودة إلى رسالة النبى وتعاليمه وآله .

وإنما انحرفت الدولة الإسلامية فى تجاربها التى أقامتها الدول الأموية والمروانية والعباسية لغصبها حقوق أهل البيت ، ونصبها العداء لهم ، فى موجة انصراف الحكام ، عن مصالح الأمة وشريعتها ، إلى شهواتهم . فتصحيح التاريخ يبدأ بإقرار حق علىّ وأبناء النبى والعمل بالشريعة .

والتاريخ خاضع لقانون الطبيعة أو قانون الحركة « لكل فعل ردّ فعل . مساوٍ له فى المقدار . ومضادّ له فى الاتجاه » .

والحقائق الكبرى فى التاريخ ، كالظواهر العظمى فى الطبيعة ، لا تخفى . والذى يخفى الحرارة أو البرودة لا يبغته الغليان أو التجمد ، أو رعدة الحمى أو رعشة البرد . والذى يخفى الضغط الجوى لا يأخذه الانفجار أخذ الفجاءة .

« وعمر بن عبد العزيز » « والمأمون » هما الانفجاران المحتومان فى دولتى بنى مروان وبنى العباس . لأنهما الممثلان الصادقان للضمير الإسلامى ، فى الدولة

أو الجماعة أو الأفراد ، أو فى العلم أو الحكم أو العدل أو الجهاد . على رأس المائة الأولى ورأس المائة الثانية .

* * *

أما عمر فنما فى أكناف بيت طالما حاول طمس فضائل علىّ . فلما شبّ عن الطوق أصبح يعلن للناس إسرار أبيه له أن الناس لو عرفوا فضائل علىّ لانصرفوا إليه عن دولتهم ، حتى إذا ولى إمرة المدينة أبطل سبّ علىّ على المنابر . وكان عمر يرزح تحت الرقابة الشديدة من الخليفة الوليد ، والسباق المجنون من الحجاج لظلم بنى على ، مع استرضاء بنى مروان للحجاج ، حتى ليعزل الوليد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، لإرضاء الحجاج بن يوسف الثقفى !!

فلما ولى عمر الخلافة أقسم أن يتخذها طريقًا إلى الجنة . فرّد لأهل البيت مظالمهم وأعاد لهم « فدكا » .. وبعث إليهم عشرة آلاف دينار ليعوضهم عما سلبهم سابقوه . وكانت الشهور الثلاثون – مدّة خلافته – تلقى على كاهل رجل هزل الورع جسده ، أعباء الدين والدنيا ، يدرك أن أيامه معدودات ، ويتهمه أهله بأنه يوشك أن يخرج الخلافة منهم إلى بنى على .

بل أعلن عمر أنه لو استطاع لعهد بالخلافة لمن كان مثله ، قال : « لو كان لى من الأمر شىء لاستخلفت أعيمش بنى تيم القاسم بن محمد ابن أبى بكر » . وهو العليم أن محمدًا ترعرع فى حجر « علىّ » قبل أن يستخلف . وأنه حارب معه معاوية . فلما ولّاه مصر ، باء بدمه قواد معاوية . فهو عدّو بنى أمية من كل وجه . وأن « القاسم » همزة الوصل بين الصديق وبين « أهل البيت » . بنته أم فروة تحت جناح الباقر ، وابنها « جعفر الصادق » فى عنفوان صباه ، أمل تتجه الأبصار تلقاءه[1] .

---

(١) أتى « العمرى » مالكا فقال له : يا أبا عبد الله . بايعنى أهل الحرمين . وأنت ترى سيرة أبى جعفر فما ترى ؟ فقال له مالك : أتدرى ما الذى منع عمر بن عبد العزيز أن يولى رجلًا صالحا ؟ قال : لا أدرى . قال مالك : لكنى أنا أدرى ، إنما كانت البيعة ليزيد « بن عبد الملك » بعده ، فخاف عمر إن ولى رجلًا صالحا أن لا يكون ليزيد بدّ من القيام ، فتقوم هجمة ويفسد مالا يصلح ..

وأما « المأمون » فعبقرى العلم ، سواء العلم الدينى من أصول وفقه ودين وحديث ، أو العلم العام ، وفيه التاريخ والفلسفة والعلوم التطبيقية والرياضية والفلكية حيث له فى جوار قصره مرصد يرصد فيه النجوم . وهو بطل حروب « ورجل دولة » عالمى . لا يعرف التاريخ ، من عهد اليونان والرومان حتى الآن ، ملكًا بلغ مبالغة فى كل أولئك مجتمعًا . وهو يقف فى القمة من الدولة العباسية . فمن بعده بدأ الانحدار . وكانت الأعوام السبعون التى انصرفت من عمرها وانحرفت فى إبانها تشير إلى الحاجة إلى عقل عبقرى فيه إنصاف ، ليحدث عودًا على بدء . فأعلن تشيّعه . بل عهد من بعده لإمام الشيعة فى عصره . بل زوجه وابنه من بنتين له[1] .

ولقد كان حقيقًا أن يبلغ غرضه لولا أن الإمام « عليًّا الرضا » مات فجأة ، كمثل ما كان السياسيون فى العهد العباسى يموتون فجأة ! ولولا أن المأمون رأى أن يأمن فى سربه انتقاضات أهله ، بعد إذ حاربوه بجيوشهم لمدة عامين ، من جراء تشيعه ، لكان قد ولى عهده ، بعد على الرضا زوج بنته الأخرى ، الإمام التاسع محمدًا الجواد .

وكانت خلافة المأمون تمثل حكمًا يحاول أن يستقر على « أساس دينى » . وهذا ظاهر فى عهده لعلىّ الرضا . وعلى « أساس علمى » وهذا ظاهر فى عمله لإلزام الناس برأى المعتزلة . وعلى « سند سياسى » ، ليقدر على مقاومة تيارات تتناوشه من شتى الجهات ، سياسية كالوافدة من الفرس والروم ، أو عائلية كنزاعات أهله ، أو فكرية كالقضايا التى آلت إلى المسلمين من مواريث اليهودية والمسيحية . يحمل ألوية الجدال فيها المعتزلة .. والمأمون من كبرائهم .

---

(١) وفى سنة ٢١١ أمر المأمون فنودى « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير وفضله على أحد من الصحابة » كما أمر بتفضيل الإمام علىّ . وأنه أفضل الناس بعد رسول الله . وأوصى أخاه المعتصم بقوله : « وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علىّ . فأحسن صحبتهم . وتجاوز عن مسيئهم . واقبل من محسنهم . وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عند محلها . فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى » .

ولما فقد الذين جاءوا بعده قدرتهم على التوازن بين الزوابع ، كهيئة توازنه ، آلت الدولة إلى الترك ، وتتابع تقسيمها أقاليم ودولاً . ولم يعد للدين فى الدول الجديدة الكلمة العليا . بل أصبحت للمعايش والأرزاق ومداراة الحكام . وبهذا دبّ التدهور فى الأفراد، والمجتمعات والدولة . وأفسدت الدولة الفرد وأفسد الفرد ، بدوره ، الدولة .

* * *

ومن تصحيح التاريخ للأشياء كانت أوّل دولة استقلت عن بنى العباس فى القرن الثانى دولة إدريس بن إدريس بن عبد الله فى المغرب فدولة الحسن ابن زيد فى المشرق .

وتتابعت الدول فى القرن الثالث بخراسان ومصر وأفريقية وفى اليمن حيث ملك القاسم بن إبراهيم (٢٤٦ - ٢٨٦) وإليه تنسب الزيدية القاسمية . ثم الهادى بن القاسم وإليه ينسب الهادوية . وبقيت دولة الشيعة باليمن حتى إعلان الجمهورية سنة ١٩٦٢ للميلاد .

وفى القرن الرابع قامت دولة بنى بويه (٣٢٤ - ٤٤٧ - ٩٤٥ - ١٠٥٥) وهى شيعة زيدية فى العراق وفارس حيث عاصمتهم شيراز . وقام الحمدانيون فى العراق والشام (٣١٧ - ٣٥٨) . وهم شيعة إمامية يذكر الإسلام لهم الدفاع عنه ضدّ غزوات الإمبراطورية الرومانية من بيزنطة . وتدين لهم الأمة العربية بأحسن أشعار أبى الطيب المتنبى ، وبشعر أبى فراس الحمدانى ، وفلسفة الفارابى فيلسوف المسلمين - المعلم الأوّل عند العرب - أو المعلم الثانى فى العالم حيث أرسطو هو المعلم الأوّل .

وفى القرن الخامس كان بنو حمود بالأندلس (٤٠٧ - ٤٤٧) وهم من أبناء الأدارسة - وفى القرن السادس كان ابن تومرت « ... بن عبد الرحمن .. بن محمد بن الحسن بن على » مؤسس دولة الموحدين ، وكانت خطبة الجمعة عندهم تشتمل على الصلاة عليه باعتباره الإمام المرحوم المهدى « المعلوم » وإن كانت دولته ودولة الأدارسة أو بنى حمود ، أو الدولة الفاطمية ، تحكم شعوبًا سنية .

ولا شك أن كبرى الدول التى أقامها الشيعة كانت الدولة الفاطمية « الإسماعيلية » .

الإسماعيلية[1] :

قامت الدولة الفاطمية « نسبة إلى فاطمة الزهراء » فى المغرب ثم مصر منتسبة إلى « إسماعيل » بن الإمام جعفر الصادق ، وكان قد مات فى حياة الصادق .

والإسماعيلية ينفون ذلك . ومنهم من يقول إن أباه ادعى موته اتقاء لأذى أبى جعفر المنصور له .

وفى أواخر القرن كان عبد الله بن ميمون القداح (١٩٨) من أتباع الخطابية ، ينشر دعوة لنفسه بالبلاد . فأجابه حمدان بن الأشعث – قرمط – ثم مات القداح ، فخلفه أبناؤه ودعوا لأنفسهم باعتبار أنهم من ولد عقيل . ثم هرب أحفاده إلى المغرب فى أفريقية . وبجهدهم أو جهد « منصور اليمن – ابن حوشب – ٢٦٦ » فى بلاد المغرب ظهر عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية سنة ٢٩٨ لتبقى دولة عظمى حتى سنة ٥٦٧ . فتحت جيوشها فسطاط مصر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ (٧ – ٧ – ٩٦٩) . وفى ليلة الفتح وضع جوهر الصقلى قائد الجيش حجارة الأساس لمدينة القاهرة . وتم بناؤها فى رمضان سنة ٣٧١ .

وفتح الأزهر للصلاة فى الشهر ذاته وهو يوافق يونيو – يوليو سنة ٩٧٢ وفى صفر سنة ٣٦٥ عقد القاضى أبو على الحسن بن النعمان أوّل حلقاته فى الجامع الأزهر ، فكان أوّل مدرّس فيه – فدرّس للناس مختصر أبيه فى فقه آل البيت .

وفى سنة ٣٦٦ عيّن أبو على بن النعمان قاضيًا للقضاة . فعرفت مصر هذه الوظيفة لأوّل مرة .

هكذا نشأ الأزهر معهدًا شيعيًّا . ثم صار جامعة لكل علوم الإسلام .

---

(١) ويلقبون – فى مراجع أهل السنّة – ألقابًا أخرى . أهمها « الباطنية » .

وهكذا نشرت الدولة الفاطمية ألوية الإسلام وعلوم الشيعة فى مصر والشام والحجاز ووسط آسيا ، وأقامت مدينة القاهرة ، وأنشأت الجامع الأزهر ، وخطب لها فى مكة والمدينة على المنابر .

وفى سنة ٤٥٠ خطب لها الخطباء على منابر بغداد لمدة نحو عام[١] .

وعليها خرجت طائفة الدروز التى ألهت « الحاكم بأمر الله » فقاتلهم المصريون فهربوا إلى الشام سة ٤٠٨ . أما « الحاكم بأمر الله » فقد شاركت فى قتله أخته « ست الملك » لاضطهاده رعيته وفساد آرائه كما قيل . وكانت أمها جارية رومية قبطية من سرارى الخليفة العزيز بالله .

وكان التسامح الدينى من تقاليد هذه الدولة حتى صار حديث التاريخ . ولقد عين العزيز بالله أرسانيوس ، وأريسطيس ، « خالى ست الملك » بطريقين للإسكندرية ولبيت المقدس . فقوى نفوذ النصارى فى الدولة . وكان وزيره يعقوب بن كلس يهوديًّا أسلم . وهو الذى نظم التدريس فى الأزهر[٢] .

---

(١) خلفاء الدولة الفاطمية : عبيد الله المهدى – مؤسس الدولة – ٣٢٢ – المنصور ٣٤١ – المعز لدين الله ٣٦٥ – العزيز بالله ٣٨٦ – الحاكم بأمر الله ٤١٢ – الظاهر المستنصر (من ٤٢٧ حتى ٤٨٧) ثم تعاقب الآمر والحافظ فالظاهر والفائز والعاضد . وهو الذى أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية بخلعه سنة ٥٦٧ .

وبسط الفاطميون سلطانهم على أفريقية من المحيط الأطلسى حتى برزخ السويس والشام وكانت لهم السلطة فى اليمن . ولولا هزيمة جيوشهم أمام الأتراك بقيادة طغرل بك سنة ٤٥١ لبلغوا جبال الهملايا . وإنما أبقى الأتراك الخلفاء العباسيين لمقاومة الفاطميين .

ففى ذى القعدة سنة ٤٥٠ دخل البساسيرى على رأس إمدادات عسكرية من مصر وخطب فى جامع المنصور للخليفة الفاطمى المستنصر أربعين جمعة – وأرسلت عمامة الخليفة العباسى « القائم » إلى القاهرة فبقيت بها أكثر من قرن . وكسر الفاتحون منبر المسجد الجامع وهم يقولون : « هذا منبر نحس أعلن عليه بغض آل محمد » ولما وردت إلى مصر الأخبار بذلك غنى المغنون أمام المستنصر غناء هو فى صميمه إعلان « بعدالة التاريخ » .

يابنى العباس ردوا ملك الأمر مَعدّ (اسم المستنصر)
ملككم ملك معار والعوارى تسترد

وبالنفوذ الفاطمى تقوى الشيعة الإمامية فى العراق وفارس . وتقوى الإسماعيلية فى فارس .

(٢) وكان الخليفتان المعز والعزيز يعقدان مجالس للمناظرة بين المسيحيين والمسلمين ومن التسامح أذنت الدولة بأعياد الغطاس ورأس السنة والنيروز وسائر أعياد النصارى .

أما الإسماعيلية فى المشرق فعلا نجمهم على يد الحسن بن الصباح . وقد أمضى سنوات بمصر اتصل فى إبانها بالخليفة المستنصر ، فدعا له بعد أن عاد إلى إقليم فارس . ثم دعا من بعده لابنه نزار . وفى سنة ٤٨٣ استولى على قلعة أَلَموت . ثم اشتدّ ساعده بأصفهان . وسيطر الحسن بن الصباح بأساليب السياسة العادية وغير العادية على أقاليم كبيرة فى فارس . فقتل أتباعه الوزير نظام الملك (٤٠٨ - ٤٨٥) - منشئ المدرسة النظامية فى بغداد [1] وفى سنة ٥٠٠ قتلوا الوزير فخر الدين كما قتلوا من فقهائها الشافعية المشهورين : أبا المظفر الخجندى سنة ٤٩٦ ، وتلميذه أبا جعفر المشاط سنة ٤٩٨ وأبا المحاسن بن إسماعيل الرويانى سنة ٥٠٢ . وكان يقول : « لو احترقت كتب الشافعى لأمليتها » .

ولا مراء فى أن الخلاف بين الإسماعيلية وبين المدرسة النظامية راجع إلى الخصومة الشديدة التى تتبدّى فى الصحيفة ٦٧ من كتاب « سياسة نامة » الذى يدين بوجوده « لنظام الملك » وفيها وجوب الطعن فى « الروافض » ووصفهم بأنهم مارقون عن الدين .

ولما صار الحسن بن الصباح داعى الدعاة للنزارية الفاطمية ، أبى أن يدعى الإمامة ، حتى توفى سنة ٥١٨ . فخلفه آخرون . انتسب واحد منهم إلى نسل « نزار » الفاطمى [2] .. وفى سنة ٦٥٤ استولى هولاكو على معاقلهم فتقصدوا إلى الشام والهند .

---

(١) من تلاميذ المدرسة النظامية السعدى شاعر الفرس الكبير . وعماد الدين الأصفهانى . وبهاء الدين بن شداد - عاملا صلاح الدين - وابن تومرت مؤسس دولة الموحدين فى أفريقية . وأبو إسحق الشيرازى أوّل أشياخها . ومن أشياخ المدرسة وتلاميذها الغزالى صاحب الكتاب المشهور فى فضائح « الباطنية » .

(٢) أصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) إلى قائده الأرمنى الأصل بدر الجمالى ولما مات المستنصر كان ولى عهده ابنه « نزار » فولى بدر مكانه ابن أخته« المستعلى » وحبس نزارا حتى قتله فأصبحت الشيعة فى مصر مستعلية . ومنها إسماعيلية اليمن وبعض بلاد الشام . ومن إسماعيلية اليمن ذهب الدعاة إلى الهند فقامت الإسماعيلية البهرة . « والبهرة معناها تاجر » - وأصبح الإسماعيلية فى =

الهند وإيران والشام نزارية .

وفى الشام حالفوا الرهبان الصليبيين فترة ، وخالفوا صلاح الدين فترة ، ودخل أتباعهم خيمته فى عسكره وطعنوه بخناجرهم . ومنهم الفدائيون الذين قتلوا أمير طرابلس الصليبى « الكونت ريمون » .

ويمتاز الإسماعيلية بالتنظيم والدعاية السريين . وأنهم يطورون أمورهم . ومن التطور ، ومراعاة مقتضى الحال ، وجد التباين فى تعاليمهم من وقت لآخر ، لكن الأصل الأصيل عندهم هو أن الإمام المعصوم من نسل محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

وعندهم أن من قام بالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية ، لكنه عصى الإمام ، فطاعته غير مقبولة .

وهم يذهبون إلى أن لكل ظاهر « باطنا » وأن تأويل الباطن من عند الله ، اختصّ به علىّ بن أبى طالب . ومن ذلك يقولون بمشاركة علىّ للنبى . ويستدلون بقصة موسى مع الرجل الصالح فى « سورة الكهف » . ويفسرون القرآن تفسيراتهم . ويقولون إن نور الله حلّ بالإمام .

ومن تعاليمهم ما تأثر بفلسفات الأقدمين .

= وللإسماعيلية مركز عظيم فى بومباى - وهم يدافعون عن الإسلام حينما يكونون : يرون الإمامة سبعية تتم بالإمام السابع . وهو إسماعيل ثم تبدأ دورة جديدة أئمتها مستورون . ومن الاستتار لم يعرف بالضبط كثير من أمورهم . واتسمت دعايتهم بالسرية مع دقة تنظيمها .

وهم يجعلون للأئمة صفات « باطنية » غير بشرية لا يعرفها الآخرون ، وتؤخذ عليهم أشعار الشعراء المشهورين منهم مثل ابن هانئ الأندلسى الذى يقول للخليفة الفاطمى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم أنت الواحد القهار !

والأخفش يقول للخليفة الآمر :

بشر فى العين إلّا أنه ... عن طريق العقل نور وهدى
جلّ أن تدركه أعيننا ... وتعالى أن تراه جسدا

وقول شاعر آخر :

هذا أمير المؤمنين بمجلس ... أبصرت فيه العقل والتنزيلا
وإذا تمثل راكبا فى مجلس ... عاينت تحت ركابه جبريلا !

والأمير تميم بن معد يمدح أخاه الخليفة العزيز بالله فيقول :

مضى من العلة الأولى التى سبقت ... خلق الهيولى وبسط الأرض والمطر

وللشيعة الإسماعيلية فى العصور الحديثة مواقف مشهورة فى الدفاع عن الإسلام ونشره .

* * *

كانت الدولة الفاطمية أكبر دول العالم ، قوّة عسكرية وفكرية ، فى العصور الوسطى . تتمثل فيها وحدة المسلمين وسماحة الدين[1] .

وفيها أثبتت وحدة القاعدة القانونية فى الأمة ، بل وحدة الدين فى المذاهب ، اقتدارها على أن تجمع المسلمين فى دولة واحدة ، هى أعظم الدول حضارة فى القارات المعروفة فى ذلك الزمان ، عاصمتها مصر - القاهرة ، وجامعتها الأزهر . سعد فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والذميون ، حتى غزاها من الداخل انقسام شعوبها ، وقيام إمارات شتى ، وسفه الوزراء ، وضعف الخلفاء ..

وأغرى غزو شعوبها أنفسهم فى داخلها ، بانقسامهم وتفككهم ، الصليبيين ، ليقوموا بالغزو الخارجي . وصدّهم المسلمون مرات ، حتى إذا ادلهم الخطب ، استعانت الدولة الشيعية فى مصر بالدولة السنية فى دمشق وعلى رأسها السلطان نور الدين محمود (٥٦٩) . أستاذ صلاح الدين (٥٨٩) ليثبت أهل مصر والشام أن الإسلام واحد وأن اختلفت المذاهب .

---

(١) سبق الفاطميين بمصر (٣٥٨ - ٥٦٧): الإخشيديون . وكانوا ينشرون التسامح الدينى فيها . وقد خصصّ المقريزى فصلين للكنائس والأديرة وحسن التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ، وبخاصة فى الدولة الفاطمية .

ولم يعكر صفو هذا التفاهم إلّا أيام الحاكم بأمر الله . نم جاء الظاهر (٤١١ - ٤٢٧) فالمستنصر (٤٢٧ - ٤٦٧) يعاقب قائده بالقتل لقيامه باضطهاد المسيحيين . وكان أسقف الأشمونين ساويرس يجادل الفقهاء ، المسلمين ، فى أمور الدين . وتولى الخليفة الآمر (من سنة ٤٨٥ حتى سنة ٥٢٥) وكان يزور الأديرة ويصادق الرهبان ومن خواص كتابه « أبو نجاح » وهو مسيحى .

وفى هذا الجو ظهر نوابغ المسيحيين ابتداء من ساويرس بن المقفع (٣٢٨) وهو مؤلف كتاب الردّ على اليهود والمعتزلة . ورسالة عن التثليث . وأخرى فى الرد على النساطرة . وشرح الإنجيل وتاريخ المجامع الكنسية . وفى القرن السادس ظهر أولاد العسال الثلاثة : أبو الفرج والصفى وأبو إسحق . وظهر المكين جرجس المتوفى سنة ٦٧٢ .

وقديمًا اصطنع عمر بن الخطاب الكتّاب من سبى قيسارية . واستعمل أبو موسى الأشعرى كاتبًا نصرانيا . وكان بنو أمية يستعملون ابن أثال الطبيب النصرانى ويضعون عنه الجزية .

ولما وحّد صلاح الدين إمارات المسلمين فى بضع سنين من الموصل إلى حلب ودمشق والقاهرة ، استقام له المحور القوىّ ، فنهد للقاء الصليبيين ونصره الله فى حطين . وهذا درس فى الوحدة مطلوب إلى المسلمين أن يتدارسوه .

* * *

والمجتمع الإسلامى ينماز من المجتمعات المعاصرة بأنه مجتمع دينى الأساس بأطوار تاريخه وطبيعته ، وبأن تعاليم القرآن والسنّة هى غذاؤه اليومى ، وهواؤه النقى ، الذى يتنفسه المسلمون .

العائلة فيه محكومة بقوانين دينية وتقاليد إسلامية ، فى الزواج والطلاق والأبوّة والبنوّة والنفقة والحضانة وسائر علاقات الأسرة .

والفرد فيه واقف بين يدى الله على مدار ساعات النهار وزلفًا من الليل .

والمجتمع كله مفروض عليه ، فرض وجوب ، والفرد مفروض عليه ، فرض كفاية ، أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . أى يتكافل فى دفع كل خروج على الدين .

بهذا صار الحفاظ على الإسلام وقيمه مسئولية قانونية وعامة . وأصبح التمييز بين الحلال والحرام حجر الأساس فى المجتمع ، وفى علاقات الأفراد والأسرة . وأمسى لزامًا على كل دولة إسلامية أن تتأخى أواخى الدين ، وهى تنظر إلى المصالح المادية والسياسية ، لها ، والناس .

ولقد بقى الأمر كذلك طوال القرون العشرة التى كانت فيها الدول الإسلامية مستقلة ، تتعلم علومها الحضارة الغربية ، حتى إذا اضمحلت ، ران الظلام السياسى والركود الاقتصادى على القلوب . فانتقلت شمس الحضارة من الشرق إلى الغرب فى اوربة ، وبدأت العصور الحديثة وحضارتها الأوربية فى الظهور ، منذ ختام القرن الخامس عشر للميلاد .

ولم يكن مصادفة وإنما كان لزامًا للتحلل والتقاطع والتخاذل ، أن يبدأ طرد العرب – فى ذلك القرن – من أسبانيا . وأن تكون محاولات طردهم معاصرة للثورات الدينية فى المسيحية ، وللإرهاب الدينى فى دولها ، وأن يكون نصيب

المسلمين من هذا الإرهاب فوق ما يتصوّر البشر ، من العذاب والتقتيل والتحريق والتنصير ، بل قتل من يتنصر بدعوى عدم الإخلاص فى التنصر !!

وفى ظلمات الجهالة والتخلف بهرت المقهورين حضارة أوربة فلم تبق لهم ذاتهم ، ولم يصيروا أوربيين . وعجزوا عن أن يطردوا الغزو الأوربى ، فى حين قدر آباؤهم على دفع الغزو الصليبى لأنهم كانوا أقرب إلى القيم الإسلامية .

وتلاحق التدهور إلى بداية النهضة الحديثة للمسلمين . حتى إذا أخذت الشعوب الإسلامية بأسباب العلم ، نظرت إلى داخلها تلتمس القوّة من ذاتها ، فاستشعرت حقائق القوّة فى طاقاتها . وعادت تلتمس الأسباب فى صميم حضارتها ، وفى تمسكها بعقيدتها ، التى اشتقت منها منهجها العلمى . وهو الذى صار « المنهج العلمى العالمى » الذى نقلته عنها أوربة منذ القرون الوسطى[1] .

* * *

والتاريخ معلم كبير .

وأوّل علومه : أن كثيرًا من صفحاته تتكرر . وأنه خطاب مستمر ، مفتوح السجل لكل ذى بصر .

ويعلمنا التاريخ أن الوحدة هى التى تصنع النصر . سواء أكانت وحدة شاملة ، كمثل ما كان الأمر فى الصدر الأوّل ، أم كانت وحدة للحرب ، كما صنع الخليفة الفاطمى « الشيعى » وسلطان دمشق «السنّى » ، لردّ غائلة الصليبيين . أم وحدة القوى كما صنع صلاح الدين ليعيد بيت المقدس للمسلمين ..

كل أولئك صيحات عالية بأن الإسلام واحد ، كلما جدّ خطر . وأن الاعتصام به مصدر الظفر .

ولما اتحد العرب ، وتجمع المسلمون ، بعد العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ حنى العالم هاماته لهم .

---

(١) يراجع كتاب « القرآن والمنهج العلمى المعاصر » للمؤلف - طبعة دار المعارف ص ١٦٩ إلى ١٩٢ .

ويعلمنا التاريخ أن أمتنا بلغت شأوها كلما استمسكت بعقيدتها والتزمت تعاليمها. وأن التقصير فى جانب الدين كالخرق الواسع ، لا يبقى على شىء مهما يجمع الناس .

والمصلحون الاجتماعيون والسياسيون ، الذين تعمى أبصارهم عن هذه الحقيقة ، يضربون فى حديد بارد .

إنه تعالى يقول : (ويريكم آياته . فأى آيات الله تنكرون . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) .

* * *

والعمل بالقيم الإسلامية داع إلى سنّ القانون الإسلامى الموحّد لتجرى أمور المسلمين ، ومعاملاتهم كافة ، وعقوباتهم إذا انحرفوا عن الجادة ، على نسق واحد . يسمو بهم فى معاملاتهم كل يوم . ويمنع الجريمة ، وينتشل الهلكى من أعماق السجون . ويصون المعنى التعبدى فى كل حكم فقهى ، والجانب الإنسانى فى كل حكم جنائى .

ولا جرم أن تقنين الفقه الإسلامى والعمل به هو الإسهام الأعظم منّا فى الحضارة المعاصرة ، وبأعظم ما نملك من القيم . ونحن قادرون على ذلك باستعمال مصادرنا العلمية .

وأين من شرع الله قوانين البشر !

والخطر اليوم يملأ الأفق : لقد تطرقت إلى الأرض العربية والإسلامية الدعوات الإلحادية والمادية المدمرة للقوى الذاتية للأمة ، يؤيدها امتياز القوّة ، والمال المبذول بسخاء ، والتكنولوجيا التى تخطف البصر . ورفع الاستعمار الفكرى والسياسى والاقتصادى أعلامه عالية !

وما التبشير الدينى الأوربى والأمريكى فى بلدان المسلمين إلّا وجه واحد من وجوهه .

أما الغزو الداخلى للإسلام - من داخل مجتمعات المسلمين - فشرٌّ مكانًا وأنفذ أثرًا . والأوربيون - من كل معسكر - يسلّطون علينا أسبابه .

* * *

إن التاريخ يعلّمنا أن وجود إسرائيل فى الأرض التى كان الصليبيون يحتلونها - بالذات - ليس مصادفة . بل هو فكر غربى قديم . أقام بالفعل ، وبالقوّة ، دولة صليبية - هنا - فى هذا المكان .

وإنما يكرر الفكر الأوربى نفسه ، بعد سبعة قرون ، بغرس دولة « يهودية » ، بدلاً من دولة « صليبية » ، فى القلب ، من جسم العرب .

وإسرائيل دولة « دينية » مدّ الغرب إلينا بها مخالبه . والدفاع ضدّ دولة دينية يهودية يقتضى الالتجاء إلى القيم الدينية ، وإن لم يستلزم إقامة دولة دينية .

ولقد طالما استعملت أوربة الأسلحة الدينية ضدّ المسلمين[1] .

* * *

إن الحضارة الأوربية - من شرق وغرب - تحسب حساب « قوّة عربية إسلامية » فى مفترق الطرق إلى العالم ، وفى ملتقى المصالح للدول العظمى ، وأنها قوّة يبلغ عددها الآن مائة مليون . قد تكون مائتين فى نهاية القرن الميلادى يزخر إقليمها بأسباب القوّة ، وتنصع صحراواتها بالمعادن ، فتضئ فى صور الأقمار الصناعية الدائرة حول الأرض ليل نهار .

والحضارة الأوربية تحسب حسابًا آخر لاجتماع المسلمين على « المبادئ » التى سادوا بها كلما اجتمعوا .

والحضارة الأوربية ، أو الأمريكية ، وإن كانت ذات منهاج وثنى ، راسخة الجذور فى الفكر الدينى[2] . لقد كانت « الحرب الصليبية » صيحة التجمع

---

(١) كان فرسان المعبد Templars Knights of the Temple جنودًا محاربين على ميمنة الجيوش الصليبية فى كل الحروب . وكان على ميسرتها الفرسان الاسبتالية Hospitalars وكلا التنظيمين تنظيم رهبان متقشفين لا يتزوجون . والأوّلون عملهم حربى محض ضدّ المسلمين . وما تزال كنيسة المعبد فى لندن Temple Church شاهدة بعمل فرسان المعبد . وفيالق التبشير منذئذ ، تفد علينا من دول أوربة وأمريكا ، مستعملة كل الأسلحة ، مالية أوعلمية أو طبية أو اجتماعية أو سياسية . وكثيرًا ما عملت فى خدمة الجيوش المحاربة أو عملت الجيوش فى خدمتها . أما العالم الشيوعى فيصدر إلى الشرق والغرب أفكار الملحدين .

(٢) للبحث عن الحرية الدينية وصلت السفينة زهرة الربيع Mayflower براكبيها فى ٢١ ديسمبر سنة ١٦٢٠ إلى شواطئ أمريكا لينشئوا مستعمرة « انجلترا الجديدة » ويطلق عليهم « الآباء الحجاج » =

لشعوب أوربة المشتتة فى العصور الوسطى ، وكانت معاهدة « وستفاليا » راسمة حدود دولها الحاليةمن (١٦٤٨) . وهى نصفان : نصف « دينى » لإرضاء البر وتستنت ونصف سياسى « لمنع الحروب الدينية » - بعد منح حرية العقيدة .

وهذه المجتمعات والدول فى أوربة وأمريكا ، آخذة الآن فى العودة إلى الدين ، وإلى التكتل تحت أسماء أو صور مختلفة ، كالحلف أو المعاهدة أو المنظمة أو المؤتمر . ومنها السياسى والاقتصادى والعلمى والاجتماعى .

فما أحرانا أن نتحد على تسامح الإسلام وقيمه العالية . لنبقى ونقوى . ألا و « إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوّله » .

= وأعقبهم طلاب « حرية دينية » آخرون بلغوا فى السنوات العشرة من سنة ١٦٣٠ إلى ١٦٤٠ عشرين ألفا .

وهؤلاء نواة الولايات المتحدة الأمريكية أما دول أمريكا الجنوبية فنواتها الأسبان وأهل البرتغال الذين صنعوا بالمسلمين ماصنعوا فى القرنين الخامس وعشر والسادس عشر للميلاد .

الفهارس

فهرس الأحاديث النبوية

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس المواضيع

فهرس الأعلام

فهرس المراجع

١ - **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة** : أسد حيدر .
٢ - **الإمام الصادق** : محمد أبو زهرة .
٣ - **الشيعة وأصولها** : الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء .
٤ - **المختصر النافع فى فقه الإمامية** : أبو القاسم نجم الدين جعفر الحلى (٦٧٦) .
٥ - **الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية** : الشهيد زين الدين الجبعى العاملى .
٦ - **النص والاجتهاد** : الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوى .
٧ - **المراجعات** : الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوى .
٨ - **فقه الإمام جعفر الصادق** : محمد جواد مغنية .
٩ - **الشيعة فى الميزان** : محمد جواد مغنية .
١٠- **مع الشيعة الإمامية** : محمد جواد مغنية .
١١- **تسهيل الأحكام** : السيد محمد الحسينى الشيرازى .
١٢- **تاريخ الفقه الجعفرى** : هاشم معروف الحسينى .
١٣- **المسئولية الجزائية فى الفقه الجعفرى** : هاشم معروف الحسينى .
١٤- **عقيدة الشيعة فى الإمام الصادق** : حسين يوسف مكى العاملى .
١٥- **قواعد استنباط الأحكام** : حسين يوسف مكى العاملى .
١٦- **أصول الفقه** : محمد رضا المظفر المطبعة العلمية ١٩٥٩ .
١٧- **فقه الصادق** : محمد الحسينى الروحانى .
١٨- **فلسفة الإمام الصادق** : محمد الجواد الجزائرى .
١٩- **أمالى الطوسى** : جزءان الأول والثانى .

٢٠- عقيدة الشيعة : رونلدسن تعريب ع . م . م مكتبة الخانجى مصر .
٢١- لماذا اخترت مذهب الشيعة : محمد مرعى الأمين الأنطاكى - مطبعة الآداب .
٢٢- فضل آل البيت : المقريزى .
٢٣- جعفر بن محمد : عبد العزيز سيد الأهل .
٢٤- الإمام جعفر الصادق : أحمد مغنية .
٢٥- الإمام الصادق - ملهم الكيمياء : د . محمد يحيى الهاشمى .
٢٦- الإمام الصادق علم وعقيدة : رمضان لاوند .
٢٧- الإمام الصادق - معلم الإنسان : عبد الرسول الدرينى .
٢٨- مقاتل الطالبيين : أبو الفرج الأصفهانى .
٢٩- نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثنا عشرية : د . أحمد محمود صبحى .
٣٠- الشيعة والرجعة : محمد رضا الطبسى النجفى .
٣١- تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة : د . عبد الله فياض .
٣٢- تاريخ التربية عند الإمامية : د . عبد الله فياض .
٣٣- الاجتهاد ومدى حاجة الأمة إليه فى هذا العصر : د . سيد موسى توانا .
٣٤- مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى الإسلام : د . على سامى النشار .
٣٥- طائفة الإسماعيلية : د . محمد كامل حسين .
٣٦- تاريخ العلويين : محمد غالب الطويل .
٣٧- اتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا : المقريزى - طبعة المجلس الأهلى للشئون الإسلامية .
٣٨- الرد الجميل : الغزالى - طبع مجمع البحوث بالأزهر .
٣٩-تاريخ التشريع الإسلامى : محمد الخضرى .
٤٠-يسر الإسلام وسماحته : محمد رشيد رضا .

٤١- الاعتصام : أبى إسحق الشاطبى .
٤٢- السنّة ومكانتها فى التشريع : مصطفى السباعى .
٤٣- الفقه الإسلامى أساس التشريع : طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٤٤- دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام : طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٤٥- عثمان : طه حسين .
٤٦- على وبنوه : طه حسين .
٤٧- حياة أمير المؤمنين : السيد محمد صادق الصدر .
٤٨- أبو الشهداء الحسين بن علىّ : عباس محمود العقاد .
٤٩- أبناء الرسول فى كربلاء : خالد محمد خالد .
٥٠- زين العابدين : د . عبد الحليم محمود .
٥١- زينب رضى الله عنها : على أحمد شلبى .
٥٢- نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى .
عبد الحليم الجندى طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٥٣- الشافعى :محمد أبو زهرة .
٥٤- جابر بن حيان : د . زكى نجيب محمود .
٥٥- الفهرست : ابن النديم .
٥٦- الدرر فى اختصار المغازى والسير : ابن عبد البر .
٥٧- المعجب فى تلخيص أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٤٧ .
٥٨- النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى .
٥٩ - حضارة الإسلام فى عز العرب : محمد كرد على .
٦٠ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنّة : عبد الحليم الجندى .
٦١ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى : د . حسن ابراهيم حسن

٦٢ - الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها :
د . عبد الحميد العبادى .
د . مصطفى زيادة .
د . ابراهيم العدوى .
٦٣ - دراسات فى التاريخ الإسلامي : د . محمد محمود زيادة .
٦٤ - أدبيات اللغة العربية :محمد عاطف بركات بك وآخرين طبع وزارة المعارف بمصر .
٦٥ - تراجم إسلامية - شرقية وأندلسية : محمد عبد الله عنان .
٦٦ - تراث الإسلام الجزءان الأول والثانى لجنة النشر للجامعين .
٦٧ - الإمامة والسياسة : ابن قتيبة .
٦٨ - منهج ابن عطية فى تفسير القرآن الكريم : د . عبد الوهاب فايد .
٦٩ - ثورة زيد بن علىّ : ناجى حسن .
٧٠ - التشيّع وأثره فى شعر العصر العباسى الأول : د . محسن فياض .
٧١ - الحماسة فى شعر الشريف الرضى : محمد جميل شلش .
٧٢ - قاموس الأعلام : خير الدين الزركلى .

فهرس الموضوعات

القسم الثانى
الباب الرابع : المدرسة الكبرى

الباب الخامس : المنهج العلمى

الباب السادس : إلى الرفيق الأعلى

صفحة

للمؤلف

الكتاب	الناشر
١ – القرآن والمنهج العلمى المعاصر	طبعة دار المعارف بالقاهرة
٢ – أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح	« « « «
٣ – الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول	« « « «
٤ – مالك بن أنس إمام دار الهجرة	« « « «
٥ – أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	« « « «
٦ – الإمام محمد بن عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفى	« « « «
٧ – الامام محمد عبده	« « « «
٨ – الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعـارف
٩ – نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١٠ – أئمة الفقه الإسلامى	« « « « «
١١ – المحامون وسيادة القانون.	طبعة دار الاتحاد العربى
١٢ – مجموعة مذكرات قضائية جزء أول	طبعة إدارة قضايا الحكومة بمصر
١٣ – جزء ثان	« « « « «
١٤ – توحيد الأمة العربية	طبعة وزارة الثقافة بمصر
١٥ – تطوير التشريعات	« « « «
١٦ – من أجل مصر (البطل أحمد عصمت) أبحاث منشورة	المطبعة التجارية – مصر
١٧ – الشريعة الإسلامية مصدر رئيس للتشريع (أبحاث منشورة)	بحث مقدم لمجلس الأمة المصرى عند إعداد الدستور سنة ١٩٧١
١٨ – الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة فى العصر الجديد – بحث مقدم للمؤتمر الإسلامى بالرياض سنة ٧٦	مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧٨

١٩ - نحو تقنين جديد للعقوبات من الفقه الإسلامى	بحث مقدم للمؤتمر الثامن لمجمع البحوث بالأزهر
٢٠ - نحو قانون للمعاملات من الفقه الإسلامى	بحث بالإنجليزية ألقى فى احتفالات مهرجان العالم الإسلامى لندن سنة ١٩٧٦
٢١ - نحو مشروع الدستور الإسلامى	بحث ألقى فى المؤتمر العالمى للعيد الألفى للأزهر (مارس ١٩٨٣) مطبوعات المؤتمر
٢٢ - أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الدعوات الأخرى	بحث مقدم لمؤتمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب جامعة محمد بن سعود (الرياض (١٩٧٩) ملحق اقتراح بإنشاء مجمع الفقة الاسلامى
٢٣ - بطلان التفتيش بغير إذن	مجلة المحاماه ١٩٣٣
٢٤ - تصرفات السفهاء قبل الحجر	« « ١٩٣٧
٢٥ - التشريع العربى	كتاب الوطن العربى دار المعارف

رقم الإيداع		١٩٨٦ / ٣١٧٢
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٦٥٦-٩	ISBN

١ / ٨٥ / ٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يقف الإمام جعفر الصادق شامخًا فى قمة فقه أهل بيت النبى عليه الصلاة والسلام .. فهو فى الفقه إمام .. وفى حياته إمام ..

وهو فاتح العلم الفكرى الجديد بالمنهج العقلانى والتجريبى مثله مثل أصحاب الكشوف الخالدة ..

وهو الإمام الذى علّم بالمواقف التى وقفها .. وبالمبادئ التى أرساها ذلك أنه بمكانه من أهل البيت وحقه فى الخلافة .. كان له أعداؤه الذين تربصوا به .. لكنه دائما كان يسيطر على الميزان ..

وهذا الكتاب قسمان : قسم يدور حول ظهور الإسلام وتألق (على) وأولاده فى الصدارة .. والبيئة التى تربى فيها الإمام الصادق .

وقسم يتناول مدرسة الإمام وفكره وزعامته الفقهية والعلمية .. بما يصحح كثيرًا من المفاهيم الخاطئة حول شخصية هذا الإمام .

ص
٨٠٠

٧٦٧٨ / ٠١